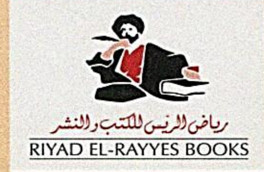
غالية ف.ت. آل سعيد

سنين مبعثرة

رواية



غالية ف.ت. آل سعيد

سنين مبعثرة

رواية


رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

Scattered Years
Novel
Ghalya F.T. Al Said

First Published in March 2008

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 369 - 0

الطبعة الأولى: آذار (مارس) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: دينا خليفة
لوحة الغلاف للمؤلفة
(محترف بيروت غرافيكس)

إهداء

إلى المبتلين بداء الإدمان، أياً كانوا وأياً كان نوع إدمانهم، ليلهم ونهارهم طويل.

شكر

إلى الأخ الشاعر عدنان الصائغ لتفضله بمنحي مجموعة من قصائده لتظهر في هذا العمل على لسان العازف سيوم علوان أحمدو. إن أشعار عدنان لصرخة من الأعماق ومرآة تعكس بوضوح صوراً متعددة، يدمى لها القلب ويتحرك لها الوجدان، عن القمع والاستبداد والجوع والتشرد والتلاعب والاستهتار بكرامة الفرد، من أجل غاية واحدة فقط هي بقاء «السلطة الأبدية» في يد المتسلط. أشعار عدنان من **نشيد أوروك** أو **هذيانات داخل جمجمة زرقاء** لا علاقة لعدنان الصائغ بها.



امتنعت الشمس عن الهروب من المكان الذي يرقد فيه ورفضت أن تتوارى خلف السحب التي تتجمع وتتكاثف كقطع من القطن وتسبح في السماء الرمادي الداكن. تظهر الشمس من خلف سريره الملتصق بحافة النافذة المطلة على حديقة واسعة، فيها أشجار كثيفة تتلاعب أغصانها فيما بينها في عناق أبدي وغبطة متناهية؛ المكان يبدو كضاحية في باريس القديمة أكثر منه حارة من حارات لندن الممطرة التي تضن على ساكنيها بالهواء والضوء. تسربت أشعة الشمس، على غير عادتها، من فتحة صغيرة أعلى النافذة فشعر بها وكأنها تمد له ذراعين دافئتين لتعانقه وتلمس وجهه المتعب وعينيه المرهقتين من الأرق الذي سيطر عليه طوال الليل. ظل يتمتع بهذه المداعبة اللذيذة بينما الشمس ترسل أشعتها لترقص وتتمطى عليه مثل بطلة من الأفلام الكرتونية، هبطت لتوها وهي تحمل شعلة صفراء لتركز الضوء تارة على وجهه وتارة على عينيه ثم تنتشر لتداعب باقي جسده الملقى على السرير.

كان يرقد مسترخياً يلف جسده بأغطية زرقاء يأخذ أولها بتلابيب آخرها؛ هو على وعي تام بالثمن الذي كان عليه أن يدفعه في مسيرة حياته المضنية، ليبحث عن الحب والحقيقة وليعرف طبائع الأشياء.

والشمس لا تعرف ما يعاني صاحبها من توتر وعزلة وأرق، ما تكترث له هو الدور المسرحي الذي تقوم به، الرقص أمام مشاهد محبوس وسط حجرته الضيقة. المكان مناسب لتجعل منه الشمس مسرحاً تمثل على خشبته دورها الأبدي في نهاية كل ليل دامس؛ الشمس هي السيف البتار الذي يقطع أوصال الليل البهيم.

أما هو فيدرك أن هذه المداعبة اللذيذة لن تدوم طويلاً مثلها مثل كل لذيذ في الحياة، ستذوب تدريجياً لتنصهر في العدم وتدعه حيث هو يتمرغ في وحدة موحشة وحالة ضبابية لا هي بالصحو ولا هي بالنوم. أين الحقيقة؛ هل تكمن في النور أم في الظلام، في الضجيج أم في الهدوء؟ انقلب إلى الجهة الأخرى من السرير وأغمض عينيه ليتجنب المزيد من الضوء الباهر، لا يريد الضوء أن يمسح الأثر القليل من النوم المتبقي في عيونه. كم هو في شوق عظيم للنوم، لذلك شد الغطاء على وجهه وظل داخل الظلمة والصمت، لا يسمع غير صدى أنفاسه يتردد في هدوء ورتابة.

الصمت بدده هدير طائرة عبرت السماء من فوقه؛ الهدير المروع طحن السكون الذي خيم على الأرض وشتت السحب التي سيطرت على السماء. حلّق فكره خلف الطائرة وحمل همومه وقلقه وظنونه صوب الأفق البعيد؛ تمنى لوهلة أن يقدر على مد ذراعيه ليتعلق بأجنحة الطائرة ويسافر في رحلة طويلة. هل من الممكن له أن يعيد عجلات التاريخ للوراء ويقطع المسافات الطويلة

التي قطعها في مسيرة حياته الماضية؟ ظن أن الطائرة ستنتشله مما هو فيه من تعاسة وصراع داخلي طعمه مر كالعلقم؛ لسوء حظه بدأ هدير الطائرة يخفت تدريجياً ويتراجع كجيش منهزم حتى اختفى نهائياً. شعر كأنه قد وقع من جناح الطائرة وارتطم بجسمه المتعب على السرير وسط الحجرة؛ ظن أنه سمع الارتطام بأذنيه وأحسه بجسده لذلك سارع برفع يديه وسد أذنيه بإحكام ليتجنب أثر السقوط الموهوم.

وعاد به فكره إلى مصيره الذي بين يديه وإلى السرير والحجرة وواقعه العصيب المفعم بالكآبة. بقى لفترة وجيزة تحت الغطاء مغلقاً عينيه؛ عندما أزاح الغطاء عن وجهه لم تعد الشمس ترقص على جسده بأشعتها الرقيقة، لقد توارت في عالمها البعيد الخفي وتركته حيث هو ليواجه واقعه بمفرده. جاء نهار وذهب نهار وهو لا يعرف إلى متى يظل حاله كما هو دون تبديل ولا تغيير.

الأشياء تملأ الحجرة وتحاصره من كل حدب وصوب. الكتب المبعثرة ترقد في زوايا الحجرة والأوراق المكدسة تنتشر على الأرض والملابس المتسخة تتداخل في بعضها وكؤوس وزجاجات النبيذ الفارغة تتربع على الطاولات وطفايات السجائر المليئة بالرماد تندس تحت الأسرة، وأعقاب السجائر تنتشر على الأرض مثل الجراد الصحراوي الميت. رفع يده إلى أعلى ليزيح خصلة شعر نزلت على جبينه، فأدرك أن شعره لم يعد كثيفاً كما كان في سابق العهد؛ أنزل يده تدريجياً إلى وسطه فشعر بتكور بطنه وزيادة الشحم واللحم على صدره. عرف أن التغيير الذي طرأ على شعره وبطنه لم يتوقف عند هذين العضوين بل زحف لأعضاء أخرى من جسده؛ بدأ الزمن يلعب لعبته القديمة التي لا رحمة فيها ولا شفقة.

ركز نظره على السقف وهو يحاول الهروب من الكوابيس التي تفترسه والمتاهات العصيبة التي تحاصره، كأنها صحراء لا بداية ولا نهاية لها. سأل نفسه: كيف وصلت إلى حفرة عميقة تشبه قاع الجحيم ونهاية العدم؟ يواجه وحدة مريرة، تلفه من شعره حتى أخمص قدمه، فأين الخلاص؟ لا يستطيع صد الانقلاب الذي زلزل كيانه النفسي وهجم على جسده ليصيبه بالوهن والضعف؛ هل هذا جسده؟ وظف ما بقي له من حكمة للوصول إلى لب الأمور ومعرفة الأسباب التي وضعته في منعطف طريق، لا يعرف في أي اتجاه يسير، الشمال أم الجنوب، الشرق أم الغرب؟ هذه حال يكتنفها التوتر والغموض؛ لم ينجح في الوصول لنتيجة حول سبب العدم الذي أكله فرثى لحاله وانهمرت دمعة ساخنة على خده؛ هو في مأساة حقيقية لأنه لا يستطيع الرجوع للوراء ولا التقدم للأمام.

صارت حياته تختلف عما كانت عليه في سابق الأيام. يومه يبدأ بالقراءة وينتهي بها، وسط هدوء ثقيل ووحدة مملة تحيط به من كل الجهات؛ الصمت الذي يلفه ليل نهار لا تبدده سوى القراءة والموسيقى وكؤوس النبيذ التي يشربها الواحدة تلو الأخرى. اختلاف كبير عن نمط الحياة التي عاشها عندما كان صحافياً مرموقاً، حين كانت مقالاته وكل ما يكتب محط ترقب الأوساط الصحافية والسياسية والأكاديمية وانتظارها. المجد تركه عندما تدهورت الحال ودخل في حقبة الجسد الخاوي والأفكار الفاترة، أفكاره لم تمت كلياً بل كانت تغلي على نار هادئة في عقله. في الماضي حمل عقله ملايين الصور والمواضيع وكان يجتهد اجتهاداً عظيماً في جمعها واستيعابها؛ هذا هو الذي يدفعه للاستمرار في الكتابة على الرغم من إدمانه تعاطي الكحول وواقعه التعيس الخرب.

قصته مع الكحول لها جذور قديمة؛ بدأ يشرب الخمر وهو في سن مبكرة للغاية. كان الابن الوحيد لأبوين مسنين، رأى النور وهما في العقد الرابع من العمر. ولد بعد انتظار طويل وتلهف شديد، كان والده يحدثه دائماً عن ذلك الانتظار والتلهف. قال له: لقد أقسمت ألا أتزوج من امرأة إذا لم أتأكد من قدرتها على الإنجاب؛ لم أكن أود أن يخيب أملي في تحقيق أعز أمنية عندي، طفل يدخل السرور والبهجة على حياتي.

هذا ما أقسم عليه أبوه، لكن للأقدار تصريفاً مختلفاً. تزوج والده من أمه قبل التأكد من مقدرتها على الإنجاب، وعلى كل حال بلغت أمه في ذلك الوقت الأربعينيات من عمرها. وبعد سنة من زواجهما دخل هو حياتهما، احتفيا بوصوله عليهما ببهجة لا توصف. نشأ ناجي نشأة الابن الوحيد المدلل، لم يكترث والداه بما يقوله الناس عن ضعف شخصية الابن المدلل والخطر الذي يمكن أن يهدد مستقبله بسبب تساهل أهله في تربيته وعدم ضبطهم له حتى يترعرع وهو قوي في عقله وجسده.

ولحسن حظه وحظ والديه بدأت علامات الذكاء تظهر عليه منذ سنين طفولته المبكرة. زال الخوف من عقدة الابن الوحيد المدلل؛ صار همّ أبيه وأمه، بعد ملاحظة ذكائه الشديد، يتمثل في شراء الكتب له وصرفه عن الإكثار من لعب الأطفال التي لا تناسب قدرته الذهنية والعقلية. المزيد من كتب ومجلات الأطفال الهادفة تصل تباعاً حتى تحول البيت إلى مكان يشبه المكتبة؛ الكتب في كل زاوية من زوايا البيت وعلى كل رف من الرفوف، حتى دورة المياه لم تسلم من وجود الكتب المتراصة بعضها فوق بعض. كانت ثقافة والديه محدودة ولم يتلقيا تعليماً ذا شأن؛ الهمّ

الأكبر لهما تمثل في تزويد عقل ابنهما بما يسد جوعه للعلم والمعرفة.

ناجي لم يخيب أملهما إطلاقاً، فقد نبغ في الدراسة وتفوق على أقرانه. وعلى الرغم من صغر سنه، نجح في الحصول على بعثات كثيرة مكنته من السفر للعديد من البلاد الأجنبية؛ مثلت البعثات أول فرصة له لرؤية العالم الخارجي ومقارنته ببيئته والمحيط الصغير الذي يعيش فيه. لقد أحب الكتب ولم يكن يلتفت للُّعب التي يراها عند أقرانه وأطفال الجيران؛ اللعبة الوحيدة التي لازمته أيام طفولته كانت فرساً خشبياً اشتراه له أبوه هدية في عيد ميلاده السادس. الفرس ملون بألوان زاهية وتتدلى من على رأسه خصلة شعر شقراء طويلة وواحدة مماثلة تتدلى من مؤخرة الذيل. قضى الساعات الطويلة وهو يلعب بالفرس الخشبي الجميل؛ وهو يفعل ذلك كلما تعب من القراءة والمذاكرة. كان يعطف على حصانه ويقدم له الماء من الثلاجة والعشب من حديقة المنزل. وعندما يركب على الحصان يتخيل نفسه فارساً من فرسان المعارك الهامة كمعركة ووترلو أو الحروب التاريخية الشهيرة التي تدرس له في المدرسة وتلك التي يقرأ عنها في كتب التاريخ الموجودة في بيتهم. ولحبه لهذا الفرس، اشترى له والده زياً عسكرياً أحمر له أزرار نحاسية لامعة ومعه سيف خشبي وخوذة لها طرف عالٍ. تميزت تخيلات الطفولة عنده بالواقعية والصدقية.

كان أبواه يقضيان الساعات الطويلة في العمل الشاق المضني. الاثنان يعملان في المستشفى نفسه، أمه ممرضة وأبوه سائق لسيارة الإسعاف. رغم ظروف العمل، يتناوبان على رعايته ويتفانيان في تقديم كل ما يحتاج إليه، خصوصاً الأشياء التي تساعده على

الدراسة وتحصيل المعرفة. وعندهما إدراك قوي أن ابنهما سيحقق، من خلال تعليمه ونجاحه الدراسي، مكانة مرموقة في المجتمع ويحصل على وظيفة أفضل من ممرضة وسائق؛ نجاحه يحقق لهما ما لم يستطيعا تحقيقه بسبب قلة التعليم والمهارات. كان الأمل كبيراً والتفاؤل لا حدود له.

في أيام طفولته، كان أبوه يصطحبه معه إلى المستشفى ويتركه يلعب لساعات طويلة مع أطفال المرضى والزوار. يقفزون على سور المستشفى العالي بأجسامهم النحيلة ليصلوا إلى محطة القطار المجاورة، ينتظرون وصول القطارات ليستمتعوا بصوتها الهادر، ويتابعون الركاب ويحصون عددهم عندما يدخلون ويخرجون من القطارات. الهرولة الدائبة بين المستشفى ومحطة القطار كانت أمراً هاماً وممتعاً عنده وعند الأطفال الذين يلعب معهم.

لم تكن فترة الطفولة كلها ذكريات حلوة وجميلة؛ هناك صورة مريعة تلاحقه وتقض مضجعه، مثل صقر جارح يتربص بعصفور صغير. أبشع الصور التي ما زال يتذكرها من تلك الحقبة من عمره تتمثل في جثة مسجاة داخل سيارة الإسعاف التي كان أبوه يقودها. من مهام أبيه في العمل هو أن يحمل في سيارته المرضى والكثير من الجثث، ينقلها من مكان لآخر. يتذكر كم كان خوفه على أبيه شديداً من أن تدب الحياة في إحدى الجثث فتنهض وتعتدي عليه؛ كلما أخرجت جثة في طريقها إلى سيارة الإسعاف، يقف وينظر برهبة ورعب ويغطي عينيه بيديه الصغيرتين ويحول وجهه كي لا يرى المنظر. الخوف يعتريه على نفسه وعلى أبيه الذي يقود الجثث كما يتصور إلى مغارات عميقة تقفز من داخلها طيور مفترسة لها مخالب كبيرة وأسنان حادة.

نشأته كانت في بيت صغير له مدخل ضيق وبوابة خشبية وحديقة صغيرة ذات أشجار قصيرة وورود مختلفة الأنواع والألوان. لبيتهم نوافذ صغيرة تطل على الشارع؛ تغطي زجاج النوافذ ستائر بيضاء مطرزة تحجب ما في الداخل عن الخارج وتحجب ما في الخارج عن الداخل. مكتوب على الباب (80) عبارة عن رقم بيتهم؛ ما زال يتذكره بعد السنين الطويلة التي مرت منذ مغادرته البيت إلى غير رجعة.

كانت حارتهم حارة صغيرة وهادئة، بيوتها متشابهة، ونادراً ما تقع فيها أحداث تعكر الصفو وتثير اهتمام السكان. كانت تحدث بعض الأمور غير العادية بين الحين والآخر، أهم تلك الأمور عندما تدخل الحي الجماعة التي يطلق عليها (مودس وروكرس)؛ مجموعة من الشباب تحب موسيقى الروك آند رول وأغاني ألفيس بريسلي. عُرف أعضاء المجموعة بارتداء الملابس الغريبة؛ كانوا يتهجمون على المنازل ويزحمون الطرقات الهادئة بأعدادهم الغفيرة. لم يكونوا يهتمون بأي قانون أو تقليد غير هوسهم بالموسيقى وصراعهم حولها؛ يواصلون مضايقة الناس ويتشاجرون فيما بينهم حتى تأتي الشرطة وتفرقهم بعد أن يخلقوا الذعر في قلوب سكان الحارة.

كان الناس في الحي يقضون الأيام والشهور في رتابة وهدوء. يستيقظون كل صباح على صوت سيارة بائع الحليب، لها صوت مزعج لكنه مألوف لدى جميع السكان. في ذلك الوقت من الصباح الباكر، يصل ساعي البريد الحارة ويحدث صوتاً عندما يرمي الرسائل على أرض المنازل. الحارة لا تعرف السهر والحفلات الليلية؛ الناس ينامون بعد سماع أخبار الساعة العاشرة من المحطة الأولى في قناة تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية.

بيتهم يتكون من طابقين، كما هي العادة في منازل الحي الذي

يسكنون فيه. في الجانب الأيمن من المدخل، ثمة حجرة جلوس صغيرة مزينة بورود بلاستيكية فيها تلفزيون صغير وطاولة خشبية وضعت أمام الكنبات الغامقة اللون؛ على الكنبات وعاء كبير فيه أصداف وأحجار بحرية جلبت من شاطئ البحر أثناء الرحلات الصيفية التي تقضيها الأسرة في منطقه بلاك بول. في الجانب الأيسر من المدخل حجرة طعام صغيرة فيها طاولة خشبية عليها غطاء من الكتان الأبيض المطرز ووعاء مملوء بالفواكه المشكلة. حجرة نوم والديه وحجرة نومه تطلان على حديقة صغيرة فيها شجرة تفاح كبيرة تلعب عليها السناجب سمراء اللون دون كلل ولا ملل. وهناك بركة صغيرة وضحلة تعيش فيها أسماك متنوعة وضفادع تنط على العشب المبلل وترقص على خرير ماء البركة الشجي الخافت. كانت العادة المحببة لأبيه هي تنظيف البركة والحديقة من الأعشاب والأوراق الساقطة وتجهيز الأرض وحرثها؛ ويحمل هو سلة صغيرة ويساعد أباه في نظافة الحديقة. الساعات التي يقضيها بجانب والده في الحديقة من أجمل ذكريات الطفولة التي ما زالت عالقة في ذهنه. بينما يكون مع والده في الحديقة، تكون والدته في المطبخ تعد لهما الطعام مثل اللحم المشوي والبطاطس والفاصوليا مع معجون النعناع. ما زال يتذكر ذلك الطعم اللذيذ والرائحة اللطيفة لأكلات أمه، لم يقابله طعام مثل الذي كانت تعده أمه.

كان والداه هما من يلعب معه داخل البيت، لعدم وجود إخوة له وأخوات، هناك مجموعة صغيرة من أطفال الجيران تأتي للعب معه. انسجامه مع الأطفال ضعيف وهو يختلف عنهم في أسلوب اللعب وفي الألعاب التي يفضلها، والسبب هو تفوقه الدراسي ومقدراته الذهنية مقارنة بهم. ما يختاره من لعب يدور حول ما

يقرأه في القصص البوليسية والوقائع التاريخية والجغرافية التي يدرسها في المدرسة، أما هم فيفضلون اللعب بالسيارات ويهوون ألعاب الركض والتخفي المحبّذة عند أغلب الأطفال.

وكان هناك شيء له أهمية خاصة في طفولته هو عبارة عن خزانة خشبية مصنوعة من خشب الجوز الخالص، أحضرها أبوه من ألمانيا بعد انتهاء خدمته العسكرية محارباً في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية. الخزانة أثمن قطعة أثاث في بيتهم وأغلى شيء تملكه الأسرة، يليها في المكانة خاتم أهداه أبوه لأمه عندما تقدم لخطوبتها. باقي أثاث البيت منخفض الجودة والقيمة؛ الأسرة تنفق مالها على شراء الكتب وكلفة العطلة الصيفية في مصيف بلاك بول. الأسرة تقيم لمدة أسبوع في أحد الفنادق الرخيصة، كان هو يتوق للمناسبة السنوية لأنها تتيح له الاختلاط بأطفال المصطافين؛ في الواقع تعرف إلى عدد كبير منهم واستمرت صداقته مع بعضهم حتى بعد دخوله الجامعة.

كان للخزانة المصنوعة من خشب الجوز الخالص دور هام في تطوره وتشكيل عقليته. يتذكر موقعها المتميز في صالة الجلوس أمام النافذة المطلة على الحديقة؛ وضعت على الخزانة زجاجات الخمر المتنوعة. الزجاجات مرصوصة على هيئة صفوف؛ خمرها من الصنف الرخيص الذي في مقدور والديه الحصول عليه. كانت أمه عند قيامها بأعمال المنزل تضع سريره الصغير في حجرة الجلوس قبالة الخزانة. وكما روت له بعدما كبر، كان يصوب نظراته تجاه الخزانة ويطيل التأمل في زجاجاتها المختلفة الأشكال والألوان والأحجام. وعندما مشى وخطا الخطوة الأولى في حياته كانت في اتجاه الخزانة؛ زجاجاتها أغرته فمد يده

ليلمسها ويتحسس شكلها. وظل تعلقه بالخزانة يزداد يوماً بعد يوم على الرغم من محاولات أمه المستميتة لصده عنها خوفاً من الضرر الذي قد يحصل له لو وقعت زجاجة على قدميه الصغيرتين. درجت الأسرة على مناقشة العلاقة المتينة بينه وبين الخزانة وكان الجميع يتندرون عليه.

ذات مرة وقف عند الخزانة وسحب زجاجة (الجن) بيديه فوقعت وانكسرت ناشرة الزجاج المهشم على الأرضية، ولو لا ستر الله لهشمت قدميه أو سببت له جرحاً غائراً. وسال المشروب في الحجرة وصار المنزل بسبب الرائحة القوية التي استمرت لأسابيع كأنه مصنع لمشروب (الجن).

إغراء الخزانة لم يفارقه حتى كبر وصار بمقدوره الوقوف أمامها وتفتيش محتوياتها دون أن يمنعه أحد أو يراقبه. بدأ يحمل الزجاجات الواحدة تلو الأخرى ويقلبها ويفتح أغطيتها ويشم محتوياتها؛ بسبب صغر سنه لا يستطيع تذوق الخمر الذي فيها. وبدأت تثير اهتمامه الكتابة التي على الزجاجات، يقرأ المكتوب كلمة بعد كلمة وحرفاً بعد حرفاً حتى حفظ ما عليها من حروف وأرقام عن ظهر قلب. وبدأ يطلق لخياله الغض العنان للتفكير في الزجاجات ويصل لأعماق سحيقة، حفظ محتوياتها وما كتب عليها من معلومات عن مضمونها والشركات التي صنعتها. وأخذ خطوة جديدة بإعطاء الزجاجات أسماء للمشاهير من علماء وأدباء ومفكرين وفلاسفة وموسيقيين، شخصيات درس عنها في حصص الأدب والتاريخ والعلوم والموسيقى والأديان. تخيل الزجاجات مثل الإخوة والأخوات والزملاء والزميلات والأصدقاء والصديقات، يصطحبها معه في رحلات وهمية حول العالم.

بعد عودته من المدرسة، يسلم على أمه ثم يتجه ليقف أمام خزانته المحببة ويحصي الزجاجات التي عليها. يحمل الزجاجة ويرفعها إلى أعلى ليرى من خلال الضوء الجزء الباقي فيها من كحول، يمسح الغبار من عليها ويتحسس بأصابعه أجسادها الملونة الملساء. يتفقدها بدقة ليرى محتوياتها ويعرف إن كان أحد قد شرب منها من دون موافقته المسبقة. وحين يجدها ناقصة، يسرع لأمه ويستفسر عن الشخص الذي تجرأ وشرب من الزجاجة. يطلب من أمه عدم التفريط في المشروب أثناء غيابه في المدرسة، فالزجاجات ملكه الخاص وهن صديقاته وأخواته. عندما تستمع أمه لما يقول، تضحك وتؤكد له أنها لن تسمح لأي شخص بتذوق المشروب؛ أشارت له بأن كل الزجاجات ستعطى له في المستقبل ولا شخص يمكن أن ينافسه في ملكيتها. أما الخزانة فستباع وتوضع قيمتها في البنك وديعة مالية ليعيش منها في المستقبل، ثمنها غال كما قيل لهم عندما ثمنت في الماضي.

في يوم من الأيام، عاد من المدرسة وهو يشعر بسخونة في جسده وصداع شديد. ذهب قبل أن يأخذ قسطاً من الراحة ووقف أمام الخزانة ليتأمل ممتلكاته العزيزة. ومن دون أن يشعر، رفع زجاجة (الجن) وفتح غطاءها المعدني وأخذ منها بضع رشفات فشعر بحرارة السائل تجري من فمه لتصل جوفه. وسارع بطرح جسده الصغير على الكنبة أمام التلفزيون كي يستعيد قوته، لكنه سرعان ما شعر بالغثيان ودوار الرأس. نهض وأخذ يضرب التلفزيون بيديه ويركله بقدميه واتجه حيث خزانة البيت الكبيرة التي تتصدر حجرة الجلوس وتناول الأكواب وحطمها الواحد بعد الآخر. طفق يغني بصوت عال ثم وقع على الأرض وفقد وعيه وتقيأ على ملابسه المدرسية. لم تعلم أمه عن وجوده في البيت وعن المعركة الضارية

التي تجري في حجرة الجلوس، كانت في الحديقة تنشر الغسيل. وعندما سمعت الأصوات المزعجة، هرعت لتعرف الذي حدث في الداخل. رأته على الأرض فارتجفت خوفاً من الأذى الذي أصابه، واتصلت بأبيه لنقله للمستشفى. كانوا يظنون أنه تسمم إثر تناوله بعض الطعام في المدرسة، لكن الفحص الطبي أثبت أن الأمر يتعلق بتسمم من الكحول الذي تعاطاه.

أحدثت الواقعة تغييراً مهماً في نظام البيت وفي أسلوب حياته. قبل الحادث لم ينتب والديه أي خوف من تعلقه بالزجاجات لأنهما كانا يتصوران أن الأمر يتعلق بطفل يتسلى بما هو متوفر أمامه من أدوات. بعد الحادث تم نقل الزجاجات لداخل خزانة وقفلت بالمفتاح؛ تركت الخطوة أثراً سيئاً في نفسيته ومشاعره. كتم المعاناة التي تعرض لها من اختفاء الزجاجات واتجه كلياً لعالم قراءة الكتب ثم بدأ مرحلة جديدة هامة تتمثل في تدوين الأحداث التي تقع في بيتهم والمدرسة في مذكرات يحفظها في محفظة المدرسة. شجعه والده على كتابة المذكرات وأشركه في مسابقات تنظمها مكتبة المدرسة، فكان يفوز بالمرتبة الأولى بسبب ترتيبه المنطقي للأحداث وسرده الممتع للوقائع التي يكتب عنها. إحدى القصص التي رواها في المذكرات تناولت شغفه بالخزانة وزجاجات الكحول وتسممه بالكحول الذي تعاطاه دون موافقة والديه.

نجح في امتحانات الثانوية بتفوق فأثلج عمله صدر أبيه وأمه؛ أحرز في العلم ما لم يتمكنا من إحرازه وصار أول فرد في الأسرة يتمتع بتعليم ثانوي ويتأهل للجامعة. قبل رحيله للجامعة بيومين، احتفلت الأسرة بعيد ميلاده الثامن عشر، حيث اصطحبه والداه إلى حانة قريبة من البيت تدعى (أفريقيا والملكة فيكتوريا) مع شلة صغيرة من

أصدقائهم وجيرانهم. في تلك المناسبة احتسى أول كأس من الخمر بعد حادث التسمم المعروف.

دخوله الجامعة كان له أثر كبير عليه وعلى حياته الأسرية. شعر والداه بالحزن على فراقه لأن العمر يتقدم، لكنهما كانا في غاية الفرح لما حققه من نجاح وتفوق. بالنسبة له، الخطوة تعني الكثير وقد انتظرها في لهفة وشوق. مثلت الجامعة مقدمة لحياة جديدة تختلف عن الحياة الرتيبة في الشارع الصغير الذي عاش فيه، لا منغصات سوى حركة الدراجات النارية ولا صخب سوى صوت القيثارة الكهربائية. حارتهم ظلت على حالها حتى بعد عودة الجنود من الحرب العالمية الثانية وانخراطهم في الحياة المدنية؛ لم يجلبوا أي تغيير وظل المكان بعيداً عن حركة المدنية الجديدة التي اجتاحت المدن البريطانية الكبرى كلندن ومانشستر. والتطور الإلكتروني والصناعي الحديث والموضة والتداخل مع العالم من خلال السفر لم تجلب تغييراً مهماً إلى المكان. ما يدور خارج حدود الضاحية من غرائب وعجائب وما يقع من أحداث في لندن والعالم الخارجي قرأ عنه في الكتب وشاهده على التلفزيون. صفحات الجرائد والمجلات الصادرة في لندن تجلب له أخباراً سياسية واجتماعية اقتصادية وجغرافية غريبة ومثيرة، عكس الجرائد المحلية التي تهتم بحيز ضيق وتغطي الأخبار التي تحدث محلياً ونادراً ما تتطرق لما يدور في العاصمة لندن. كان على معرفة بالاختلاف بين الضاحية والمدينة من خلال الرحلات المدرسية مع زملائه، كان يغضب لقصر الرحلات لأنه يريد رؤية الجوانب المتعددة من حياة المدينة.

أول يوم ذهب فيه للجامعة كان يوماً مشهوداً له ولوالديه. قاد

والده السيارة وجلست أمه في المقعد الأمامي وجلس هو في المقعد الخلفي؛ كان طوال الرحلة يختلس النظر ليشاهد أثر الحدث عليهما. الأثر الذي رآه عبارة عن غبطة وفخر وحزن؛ ابنهما الوحيد يفارق البيت الذي تربى فيه ليدخل في عالم واسع، هو جدير بذلك بسبب تفوقه وقدرته. قد لا تكون هناك فرصة أخرى لتعيش الأسرة تحت سقف واحد، لكن ابنهم مقدم على نيل الدرجات العلمية الراقية التي تمكّنه من النجاح في حياته العملية والأسرية.

ذهبوا إلى الجامعة يوم الأحد في تمام الساعة الرابعة عصراً حسب ما أشارت دقات الجرس في الساعة المعلقة في برج كبير عند مدخل الجامعة. صوت الساعة مثل طبول النحاس. شعر والداه بالراحة وتنفس كل واحد منهما الصعداء وهما يشاهدان عظمة مباني الجامعة وعراقتها، عبّرا بصوت خافت عن شكرهما لله الذي أعطى ابنهما الحبيب الذكاء وأوصله لقدر عال من التعليم والثقافة.

البوابة الحديدية العتيقة أدهشتهم؛ وقف أمامها حارسان في لباس رسمي أزرق اللون، الحارس الأول طويل وضخم والثاني له شاربان طويلان يكادان يغطيان شفتيه ويتحركان كلما حرك فمه بالكلام. طلب منه الحارس الضخم تسجيل اسمه واسم مرافقيه في دفتر التسجيل، ثم فسح لهم الطريق ليدخلوا عبر البوابة المدهشة. حمل حقيبة فيها ملابسه وكتبه، الحقيبة قديمة تستعملها أمه أيام رحلات الصيف إلى بلاك بول ثم تضعها بعد العودة فوق خزانة الملابس في حجرة النوم؛ اليوم أنزلتها وأعطتها لولدها العزيز.

بعد بحث قصير في دهاليز مساكن الطلاب، عثروا على باب أزرق عليه حرف يشير للغرفة المخصصة لسكنه. الغرفة صغيرة في

مساحتها وبسيطة في أثاثها، توجد فيها أربع قطع عبارة عن سرير وكرسي وطاولة ومصباح كهربائي بذراع طويلة. الحمام والمطبخ يقعان في نهاية الممر وهما للاستعمال الجماعي من كل الطلاب. عند دخولهم، قامت أمه بترتيب السرير وتفقدت المصباح لتتأكد من جودة ضوئه للقراءة حتى لا يتعب نظر ولدها عند المذاكرة. ذلك أمر هام بالنسبة لها، في صغره كانت تغير المصابيح باستمرار حتى لا يُتعب الضوء الضعيف نظر ولدها الحبيب. مكث معه والداه بضع ساعات تأكدا فيها من وضعه في مقره الجديد ثم تركاه ورجعا، سيبدأ ولدهما مرحلته الجامعية معتمداً على مقدراته الذاتية وعلى الأشياء التي جاءته منهما في الفترات السابقة من حياته. شعور جميل يشبه فرح المزارع يوم الحصاد الوفير لزرعه.

حاول في يومه الأول في الجامعة أن يستكشف المكان ويرى ويستوعب ما يدور حوله. كل شيء مختلف عن المعتاد، حجم المكان الكبير وأقسامه المتعددة وفروعه المتشعبة. شعر بأمر أكثر أهمية يتمثل في هامش الحرية والانطلاق الذي يميّز الجامعة، قارن ذلك بالحيز الصغير الذي نزح منه. في بيتهم وحارتهم لازمه شعور قوي بضيق المكان والنطاق المحدود الذي لا مجال فيه للانطلاق والإبداع. الحرية في الجامعة أمر ظاهر للعيان ولا شيء يحد من أفقه؛ يمكنه عمل ما يشاء في الزمان والمكان اللذين يختارهما، يمكنه الانضمام إلى مختلف الجمعيات الثقافية والمشاركة في فعالياتها والسهر حتى ساعة متأخرة من الليل. شوقه لا حدود له ليتمتع بما سيأتي في المحاضرات من علم في المجالات المختلفة خاصة الاقتصاد، مادته المفضلة منذ أيام المدرسة الثانوية. لم يصدق أن الفرصة ستتوفر له لصداقة من يحب من الفتيات الجميلات؛ كان ذلك أمراً صعب المنال أثناء سكنه مع أمه وأبيه.

ولمكتبة الجامعة أهمية كبيرة في حياته الجامعية، لقد أرادها أن تكون أهم مقر له خلال الأعوام التي سيقضيها في التعليم العالي. حجم المكتبة وما فيها من كتب أدهشه، تنظيم الكتب وضبطها وتسجيلها وجدارة العاملين وقيامهم بالتنظيم الجيد للكتب والسرعة في تقديم ما يطلبه القارئ من كتب ومعلومات. الموظفون يتعاملون مع الطلبات بدقة وعناية فائقة، والمكان كخلية النحل من حيث الحركة، وفي الوقت نفسه على درجة عالية من الهدوء والتنظيم.

خصص لنفسه في المكتبة مكاناً بجانب نافذة كبيرة تطل على حديقة الجامعة والدروب الصغيرة التي تؤدي إلى مختلف قاعات المحاضرات. وطلب من مكتبة الجامعة تزويده بقائمة طويلة من الكتب بعضها ليست في المقررات الدراسية، سبق أن قرأ عنها في قوائم كتب ترسل له من دور نشر مختلفة؛ الآن أتت الفرصة ليقرأ المزيد من الكتب ويروي عطشه للاطلاع على مواضيع متجددة ومتعددة.

كان وجوده في المكتبة أمراً مألوفاً، يفتقده العاملون إذا تغيب يوماً لسبب من الأسباب. الموظفون يعدون له قائمة من الكتب كلما اقتنت المكتبة مجموعة من الإصدارات الجديدة، يقضي الساعات التي تفصل بين المحاضرات في المكتبة ويخصص ساعات المساء للترفيه. في المكتبة تنظر عيناه من النافذة للحديقة تمتد أمامه وتتصدرها منحوتة من منحوتات النحات البريطاني الشهير هانري مور، وهي عبارة عن امرأة ضخمة مستديرة الأطراف. أعجبته المنحوتة وطفق ينظر لها بانبهار وتمعن ويقدر دقة صنعها. وقف على براعة ومهارة الفنان الذي صممها بحيث جعل أجزاءها تنساب بتلقائية وسلاسة، كنت تتخيلها تحلق في السماء رغم ضخامة جسمها وثقل وزنها.

تمنى لو استطاع تصميم منحوتة مثل منحوتة هانري مور، في الحقيقة إن الفن من الأشياء التي يحبها لكنه لا يجيدها. قرر أن يقرأ ما كتب عن براعة هانري مور في فن النحت، كما قرر الاطلاع على الفن ليوسع مداركه خارج إطار التخصص الذي اختاره. ألزم نفسه بزيارة المتاحف لرؤية الأعمال الفنية وتذوقها حتى تكون ثقافته واسعة وليست محصورة في النطاق الأكاديمي.

استطاع تحقيق النجاح في الدراسة لأنه أحب المواد التي اختار دراستها، وذلك منحه فرصة كبيرة للتعمق في مختلف المواد والتقدم على زملائه. أصبح واحداً من الطلاب القلائل الذين يطلب منهم الأساتذة حل المعضلات التي يعجز بقية الطلاب عن الإجابة عليها، بعض الطلبة يغارون منه وبعضهم يحسدونه. أما الطالبات فقد أثر عليهن بفهمه الواسع وتمنت كل واحدة لو استطاعت الفوز بقلبه، لم يكن يهتم بالعلاقات العاطفية الملتزمة، فعلاقاته عابرة لا تتعدى حدود الحفلات الليلية وسهر الطلبة. لم يلتفت للمعجبين والحاسدين بل انطلق مثل السهم في التحصيل العلمي وفي الوقت نفسه حافظ على الرابطة الأسرية التي تربطه بأمه وأبيه.

درج على كتابة الرسائل لوالديه بصفة مستمرة، يحدثهما عن الحياة الجامعية وأساتذته وزملائه من الطلاب وعن القصص التي يسمعها من زملائه وزميلاته. أبوه وأمه يكتبان له الردود يحدثانه فيها عن أخبارهما وأخبار الحارة والجيران، ويرفقان مع رسائلهما آخر صور أخذت لهما في الحديقة والكنيسة والسوق والبيت. يقرأ الرسائل ويلاحظ من الصور التي تصله أن والديه يتقدمان في العمر، انحناءة ظهر والده والتجاعيد على وجه أمه. إنه على يقين من أنه لن يعود للعيش معهما، فحياته بعد الجامعة ستأخذ مجرى

آخر لا محالة، سيقوم بزيارتهما بين الحين والآخر في عطلة نهاية الأسبوع.

كانت حياته مع أبويه مثل حلم جميل، حقبة من عمره لن ينساها لأنها مفعمة بالمحبة والرعاية. لن ينسى أيام طفولته والشغب الذي مارسه والحماقات الأخرى التي شكلت مصدر تعب وقلق لوالديه، تسلقه للأشجار الطويلة والسباحة مع أصدقائه في المرفأ القريب من بيتهم وعبثه بزجاجات الكحول، تمنى لو يستطيع العودة لتلك الحقبة من العمر. الحنين للحظة جميلة أمر طبيعي ومرغوب.

عندما تهاجمه نوبات الحنين للطفولة، يسترجع الذكريات الجميلة التي مرت عليه؛ من أهم الذكريات قصته مع جارتهم الفرنسية الأصل كوليت. وصلت كوليت إلى حارتهم من دون مقدمات كزوجة لجارهم العم ألفونس كما كان يناديه. العم ألفونس يعمل في مختبرات الأدوية والعقاقير الكيماوية الواقعة قبالة بيتهم، للمختبرات مداخن عالية تنفث البخار والدخان بالليل والنهار. كان يتعجب من الدخان المتصاعد ويقضي ساعات طويلة ينظر إليه يصعد بكثافة لعنان السماء، ثم يختفي تدريجياً في الفضاء الواسع. وكثيراً ما تساءل وعن الذي يدور خلف أسوار المعامل العالية وعن سبب البخار الكثيف الذي يجري من أفواهها من دون انقطاع.

وقد درج على الربط بين المعامل والجثث التي ينقلها أبوه في سيارة الإسعاف التي يقودها في المستشفى. في البيت وأثناء فترة الراحة من المذاكرة اعتاد أن يجلس أمام النافذة وينظر بالمنظار المكبر في محاولة جادة لمعرفة طبيعة المعامل والبخار الذي يصدر منها؛ المنظار القوي الذي جلبه أبوه بعد الحرب لم يساعده في

معرفة سر المعامل. ولطالما تمنى زيارة المكان الغريب، ذات يوم طلب من أبيه اصطحابه إلى المعمل. أبوه طلب من العم ألفونس أخذه معه ليرى ما يدور في مصنع الأدوية العلمي؛ استجاب العم ألفونس للطلب وفي يوم ما اصطحبه معه للمعمل. في الطريق، شعر برهبة شديدة؛ تخيل بداخل المعمل عمليات تحنيط لأجساد ميتة، مثل الذي فعله الفراعنة كما قرأ في حصة التاريخ. رسخت صورة التحنيط وبدأ جسمه الصغير يرتعش من الخوف لكنه أخفى خوفه واضطراباته.

في المصنع أخذه العم ألفونس في جولة حول المعامل وعرفه إلى زملائه من رجال ونساء. كانوا يرتدون سترات بيضاء ويضعون نظارات شفافة على أعينهم، بعضهم يرتدي ملابس كملابس رواد الفضاء. المنظر زاد من رهبته حتى أنه تجنب لمسهم عندما مدوا أيديهم لمصافحته، أشكالهم أثبتت له أن المكان ما هو إلا مركز لتحنيط الأجساد وتحليلها. عاد في ذلك اليوم للبيت مرتعداً من الخوف وأصابته حمى هدت بدنه الصغير. منذ ذلك اليوم، لم يعد يتلصص من النافذة على المصنع كما كان يفعل في السابق. بالنسبة له، لقد أغلق ملف المعامل؛ لكن هل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟

في مرات عديدة، تصيبه كوابيس تتعلق بالمصنع والأجساد المحللة والمحنطة. ينهض من سريره ويصرخ متجهاً لأسفل البيت مستغيثاً بأبويه، كانا يخففان عنه ويعيدانه إلى سريره. تأتيه صور الجثث مثل السمك الميت تحمله الأمواج في عرض البحر ويتخيل أن أباه يحضرها ليسلمها للعم ألفونس ذاته ليقوم بتحليلها وتحنيطها؛ أبوه والعم ألفونس يخفيان الحقيقة المرعبة عنه وعن جميع سكان الحارة.

لم يفصح عن مخاوفه وتخيلاته لأبويه وزملائه في المدرسة خوفاً من أن يضحكوا منه.

بيت العم ألفونس يلاصق بيتهم، لا يفصل بينهما سوى حاجز خشبي هزيل يمثل الحد الفاصل بين حديقتي البيتين. العم ألفونس كان متزوجاً لفترة طويلة من الخالة نانسي إلا أنهما لم ينجبا الأطفال. الخالة نانسي كثيرة الشكوى من عدم الإنجاب كما كانت تتشكى من غياب العم ألفونس من البيت ومكوثه الطويل في العمل. ولقتل الفراغ الذي تعاني منه، تعلمت الرقص المسمى «بول روم»، أجادت الرقص حتى ذاعت شهرتها وسط سكان الحارة. العم ألفونس لم يكن يحب الرقص لكنه شجعها وداوم على أن يأخذها بنفسه للصالات، القريب منها والبعيد، لممارسة الرقص والتدرب عليه.

الشيء الآخر الذي أظهرته الخالة نانسي في وسطهم هو والقذارة والوساخة. كانت امرأة تكره القيام بالواجبات المنزلية ولا تود التعامل مع نظافة البيت ورمي فضلات الطعام وغسل أواني الأكل. القذارة الشديدة سببت روائح كريهة في البيت وفاضت حتى غطت المنازل المجاورة. اعتادت أن تجلب للبيت نباتات وشجيرات من مختلف الأصناف والأحجام وتضعها في أماكن مختلفة في البيت؛ النباتات والأشجار زحفت على أرضية المنزل وسيطرت على الأثاث وتسلقت الحيطان مثل الأفاعي الصحراوية. للخالة نانسي ظن لا يشاطرها فيه أي من الجيران يقول إن وجود النباتات في المكان يقلل من أضرار القذارة ويزيل روائحها الكريهة؛ قالت للناس إن النباتات تفوق وسائل النظافة الأخرى الطبيعي منها والصناعي. أصبح بيتها مثل الحدائق الاستوائية لا

مكان فيه للجلوس من دون التعرض لغصون الأشجار وفروعها.

الناس في الحارة تتحدث عن نانسي وتود معرفة الكيفية التي تحمّل فيها العم ألفونس القدر الهائل من القذارة التي سببتها زوجته؛ الرجل يعمل في مكان يتميز بدرجة عالية من نظافة البيئة وصحتها. الغريب في الأمر أن الخالة نانسي تهتم بجمالها غاية الاهتمام، تتابع آخر صيحات الموضة والأناقة من على صفحات المجلات النسائية اللندنية الأسبوعية منها والشهرية، وتهتم بتصفيف شعرها الأملس الطويل وصبغه. كانت تذهب لصالون التجميل ثلاث مرات في الأسبوع؛ نساء الحارة من أمثال أمه يذهبن مرة واحدة في الأسبوع.

اشتكى العم ألفونس من إسراف الخالة نانسي في الصرف على زينتها؛ العم ألفونس كما يقول ليس في مقدوره تغطية تكاليف رقص الخالة نانسي وتصفيف شعرها. حينما ينفد ما لديها من دخل زوجها، تطلب نانسي من أمه أن تذهب لبيتها لمساعدتها في صبغ شعرها وتصفيفه. عند عودة أمه لبيتهم، تصف له ولأبيه ما رأته من قذارة في بيت نانسي وحمامها وحوض الغسيل وتراكم الشعر والصبغة على جدران الحوض والزجاجات القديمة في زوايا الحمام وقابضات الشعر الحديدية. الأوساخ والفوضى تسيطر على المكان جملة وتفصيلاً، هكذا قالت له أمه.

وللخالة نانسي مشكلة أخرى لا تقل خطورة عن القذارة والشغف بالموضة وتصفيف الشعر. كانت المرأة تداوم على الحميات الغذائية لإنقاص الوزن، كلما انتهت من حمية تدخل في الأخرى. إدمانها على إنقاص الوزن لم يكن له ما يبرره على وجه الإطلاق، الرقص المستمر أعطاها جسماً رائعاً ومتناسقاً يتميز بالخصر النحيف

والساقين الرشيقتين. زارتهم الخالة نانسي يوم عيد ميلاد أمه وأحضرت معها كعكة شوكلاتة من صنع يديها، وعندما قطعت الكعكة وجدوا بداخلها شظايا من أظفارها الصناعية الطويلة. كانت أمه في كل مره تأتي فيها الخالة نانسي لزيارتهم تداعبها بقولها: نانسي هل أنت على حمية من تناول الماء؟

تخرج الخالة نانسي من البيت برفقة العم ألفونس في طريقها لقاعات الرقص للمشاركة في المسابقات الدورية، فينسى سكان الحارة موضوع القذارة ويركزون على فساتين الرقص التي تلبسها. النساء ينظرن لطريقة لبس نانسي ويعجبن بذوقها في اختيار الفساتين ذات الألوان الزاهية والخطوط الراقية، تمشي وسط ناس الحارة في فستانها الجميل وبوجهها المليح مثل الطاووس يتبختر بين طيور الحديقة.

ذات يوم عاد العم ألفونس للبيت منتصف النهار على غير عادته. بعد زمن قصير من دخوله، سمعه الجيران يدق على جدران البيت بعنف ويصرخ ويلوح بيديه من خلف أسوار حديقة البيت. هرع الجيران لبيت العم ألفونس لرؤية ما حدث له، وجدوه في حالة تشبه الجنون. لم تكن نانسي موجودة في المكان، سألوه فأشار بيديه تجاه باب البيت. اتضح أن صراخ الرجل المسكين يتعلق باختفاء زوجته، بعد سنين من الزواج الخالة نانسي هجرت العم ألفونس في وضح النهار وسافرت لأستراليا على إحدى البواخر التي تعبر المرفأ القريب. لقد وقعت في غرام ربان الباخرة عند ذهابها ذات يوم كراقصة محترفة للترفيه عن المسافرين، قررت التخلي عن العم ألفونس وتركت له رسالة قصيرة تقول فيها:

ألفونس، كل شيء بيننا انتهى. شعوري تجاهك تغير، ما

ربط بيننا في الماضي لم يعد له وجود، لقد مات للأبد.
أتمنى لك حياة سعيدة لكن شريطة أن تبقى بعيداً عني
لتسعد في مختبراتك الطبية. نانسي.

عندما قرأ الرسالة كاد يفقد صوابه، قال إنه سمع من مختبره صوت الباخرة وهي تبحر وعلى متنها الخالة نانسي. انتهت حقبة في حياة العم ألفونس.

لازم العم ألفونس البيت لشهور وهو طريح الفراش وسط الظلمة والرائحة النتنة. أسدل جميع الستائر لعدم استطاعته تحمل رؤية الضوء وسماع الضوضاء، قام الجيران من أمثال والديه بمساعدته في شؤون البيت كالطبخ والتنظيف. ثم جاء يوم نهض فيه العم ألفونس من سباته الطويل وباشر عمله كما كان يفعل في السابق.

وبعد يوم واحد من مزاولته للعمل استيقظ الجيران ليروا بصحبة العم ألفونس امرأة لا يعرفون من أين وكيف أحضرها إلى بيته وبهذه السرعة؟ كانت المرأة هي زوجته الجديدة، شابة فرنسية الأصل تدعى كولييت وتصغره بأكثر من ٣٠ عاماً. تتحدث الإنكليزية بصعوبة لكن بأسلوب مغر وجذاب. كانت رشيقة القوام ولها عينان زرقاوان واسعتان وشفتان ناضجتان وشعر أشقر جميل ينزل ليصل تحت كتفيها. تكسو وجهها علامات الغربة عن كل ما حولها من الجيران والبيت والطقس والطعام وعن العم ألفونس ذاته. وقد تضاعفت غربة كولييت بسبب عدم إجادتها للغة الإنكليزية، العم ألفونس لم يكن يجيد اللغة الفرنسية، بدأ في تعلم بعض الكلمات ليتسنى له فهم زوجته الجديدة ويحل عقدة اللغة التي تفصل بينهما.

لم يصل الجيران إلى لب قصة العم ألفونس وزوجته الجديدة، كيف تعرف إلى الفاتنة الفرنسية الصغيرة؟ بدأ العم ألفونس يولع بشدة بكولييت ويسبغ عليها قدراً كبيراً من العناية والرعاية، لم يدعها تعمل في البيت، هو الذي يطبخ ويغسل ويعتني بالحديقة ويجلب متطلبات البيت من السوق. عاشت في عزلة قاسية وكأنها هبطت من قارة بعيدة معلقة في الفضاء لا من فرنسا المجاورة لبريطانيا. كل ما كانت تفعله كولييت في البيت هو الاعتناء بجمالها، تفضل استخدام مستحضرات التجميل الطبيعية الخالية من المواد الكيماوية المستخدمة في مستحضرات التجميل الحديثة. المستحضرات الطبيعية تصلها من فرنسا بعد طلبها خصيصاً ودفعها مبالغ مالية تزيد على معدل أسعار السوق المحلي.

وعرف عنها أنها لا تتناول العقاقير والأدوية الطبية حتى لو أصابها صداع حاد أو لفحة برد. يرى الناس العم ألفونس في البيت يمسح بحنان على شعرها الذهبي المنساب وكأنه يخاف عليه من أن يتلفه الضوء والهواء، كانت مثل عروس البحر الرشيقة الجميلة. كلما خرج العم ألفونس من البيت، يقفل الباب الخارجي ويترك كولييت بالداخل من غير مفتاح، فاتحه الجيران بخطورة عمله على زوجته في حالة نشوب نار في البيت، لكنه لم يستمع للنصح. قال لا خطر سيصيبها فهو يعود إلى البيت أثناء النهار مرات عديدة وتهمه سلامة زوجته من أذى المتطفلين.

وللعم الفونس أعمال طريفة في تعامله مع زوجته الصغيرة المدللة؛ يغسل ملابس كولييت وعند نشرها يخصص لها مكاناً بعيداً عن ملابسه، لا أحد يعرف السبب.

أصبحت ملابس كولييت مصدر إغراء لناجي. الملابس عبارة عن

قطع حريرية صغيرة بسبب الرشاقة التي عند كولييت؛ قطع مزينة بتطريز يدوي وخرز زاهي الألوان، ملابس تختلف تماماً عن ملابس النساء الإنكليزيات الداخلية التي تشبه ملابس الرجال، فهي قطنية سميكة بيضاء لا نقوش ولا زخارف عليها. في اليوم الذي ينشر فيه العم ألفونس ملابس كولييت، يقضي ناجي وقت المدرسة في رغبة ملحة للعودة للبيت بسرعة لرؤية القطع قبل أخذها من على حبل التجفيف. وعند عودته للبيت، يهرع للحديقة تحت ستار لعب الكرة إلا أن هدفه هو رؤية قطع الملابس الجميلة المغرية وهي ترفرف طائرة على حبل الغسيل من جهة إلى جهة. كانت مغرية وكأنها تنادي عليه الاقتراب منها، لا يستطيع فعل ذلك.

ويظل في شوق وشغف متمنياً أن يلمس طرفاً من ملابس كولييت الداخلية. حاول مرات ومرات العثور على طريقة للاقتراب من الملابس لكنه فشل. ذات يوم، عثر بمحض الصدفة على عصا للعبة البليارد مركونة في زاوية من زوايا المطبخ. أخذ العصا بحذر، بينما كانت أمه مشغولة في أمر من أمور البيت، إلى حديقتهم المطلة على منزل العم ألفونس. ووقف لبرهة أمام السور الفاصل بين الحديقتين ينظر ويتأمل الملابس المغرية، لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك. رفع العصا بحذر ووقف على أطراف قدميه ودفعها تجاه إحدى القطع محاولا جذبها لكن العصا قصيرة ولم تصل القطعة؛ شعر بالإحباط وخيبة الأمل وظل في مكانه ينظر إلى القطع بتلهف وحسرة، لا سبيل للوصول إليها.

قرر اقتحام الحاجز الفاصل بين الحديقتين رغم صعوبة الخطوة وخطورتها. قفز من على الحاجز ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام مصدر الإغراء يتمايل بهدوء. وبسرعة خاطفة تناول قطعة وطواها

ثم وضعها في جيبه، تسلق الحاجز وعاد للبيت. أخيراً حقق الحلم الذي انتظره طويلاً ودخل إلى حجرته وأغلق الباب خلفه بإحكام ثم تحسس أطراف القطعة الناعمة وهو يتخيل كولييت الهيفاء ترتدي القطعة أمامه. القطعة تلامس جسدها الطري الذي يفوح منه عطر فرنسي مغر، يختلف عطرها عن العطر الذي تستعمله أمه، عطر بنكهة الليمون هدية من والده.

وأخيراً استطاع أن يحوز على قطعة من ملابس كولييت وهو حلم راوده لزمن طويل. احتفظ بالقطعة لمدة طويلة، يحملها في جيبه إلى المدرسة. ذات يوم بينما هو في درس الرياضيات انتابته نوبة سعال، أدخل يده في جيبه ليخرج منديل ورق فأخرج القطعة واستعملها لمسح أنفه. فضح أمام المدرس والتلاميذ الذين ضحكوا عليه، المدرس كتم الضحك وتقمص دور المربي الجاد ونهره وطرده من الحصة. بعد ذلك اليوم توقف عن أخذ القطعة معه، كل ليلة يضعها تحت وسادته وفي الصباح يدسها في جيوب سترته. في يوم من الأيام غفل عن دسها فعثرت عليها أمه تحت وسادته فتخلصت منها برميها في المزبلة.

امتلاكه لقطعة ملابس كولييت ولّد في داخله شغفاً شديداً تجاه صاحبتها، شغف لم يحسه تجاه أي امرأة أخرى من قبل. المرأة الوحيدة التي مالت عواطفه نحوها كانت الممثلة الفرنسية بريدجت باردو، ألهبت خياله الغض وأيقظت شبقه تجاه الأنثى وجسدها كما فعلت بشباب كثر. ولم يستطع التخلص من شغفه تجاه الممثلة الفرنسية بريدجت باردو حتى اليوم الذي رأى فيه كولييت، بدأ تلهفه على الممثلة الفرنسية يفتر وتلهفه على كولييت يزداد.

ولم ينطفئ شغفه تجاه كولييت حتى أتت أيام الصيف لتساعده في

الاقتراب منها، حلم بالقرب منها ليلاً ونهاراً حلماً هزّ روحه وجسده. في أيام الصيف تنزل كوليبت إلى حديقة البيت الصغيرة لتعرض جسدها الأبيض لأشعة الشمس، ترتدي طقم سباحة صغيراً برتقالي اللون على أطرافه حلقات مذهبة تلمع كلما وقعت عليه أشعة الشمس. تفترش كوليبت منشفة زاهية الألوان، تختلف عن المناشف الخشنة التي تفرشها أمه على شاطئ البحر في العطلات الصيفية. عشب الحديقة أخضر ندي، يقوم العم ألفونس بتنظيفه بعناية فائقة كي لا يخدش جلدها الطري، تستلقي عليه بأسلوب مغر ومثير. وفي كل مرة يقوم العم ألفونس بتدليك جسدها بسائل التشمس الزيتي الأصفر ثم يودعها بلثم شفتيها الطرية بقبلة عميقة. بعد الانتهاء من قبلة العم ألفونس، تخلع حمالة صدرها الضيقة ليطل صدرها الغض ويواجه الشمس والسماء.

الشمس والسماء والهواء جميعهم في تسابق للثم نهدها الجميل، بينما ناجي يراقب الجمال من خلف سور الحديقة. تبقى مستلقية وهي لا تدرك أن ناجي في الجوار. الشمس تداعب جفونها والهواء الخفيف يتحرش ببشرتها، تضع نظارتها الشمسية الصغيرة على عينيها وتضغط على آلة التسجيل التي بجانبها وتستمع لأغان فرنسية. في أحد الأيام الصيفية، وهو يتلصص عليها كالعادة في خفية، فاض الكيل ولم يستطع مقاومة إغرائها فجمع شجاعته وتسلق بحذر سور الحديقة وحط بجسده على الحديقة التي ترقد فيها. لم تسمع الصوت ولم تنتبه لوجوده لأنها منهمكة في تشميس جسدها. تسلل حتى وصل عندها ووقف أعلى رأسها، لا يعرف ما يقول لها حينما تنتبه لوجوده.

فجأة ومن دون ترتيب مسبق في ذهنه مد أصبعه ولمس أرنبة أنفها،

ارتجفت من الخوف ورفعت يديها لتغطي صدرها العاري ولترى الشخص الذي أعتدى على حريتها وهي داخل حرم بيتها. ورأته واقفاً منتصباً كالسهم، فاجأها وجوده، لكن سرعان ما تمالكت على نفسها وقالت له بغبطة وانشراح: هذا جاري ناجي، كيف وصلت إلى هنا ولم أشعر بك؟ تعال اجلس وتحدث معي لأنني أشعر بالوحدة، ألفونس ذهب للعمل وتركني كالعادة بمفردي. انفرجت أساريره وفارقه التوتر، ضحكت كوليبيت بعذوبة قطعت نياط قلبه. لم تعد أشعة الشمس تهبط على رأسه مثل السياط، الآن هي ناعمة مثل خيوط الحرير.

قال: كنت ألعب الكرة في حديقتنا وشعرت بالوحدة والملل فقلت أقفز على حاجز الحديقة وأصل إليك، أتمنى ألا يزعجك وجودي بجانبك. قالت: كيف أنزعج من أحد يود تسليتي والتخفيف من وحشتي؟

جلس بالقرب منها وبين الحين والآخر يسألها إن كانت ترغب في أن يضع على جسدها المزيد من زيت التشمس. تشير عليه بالموافقة فيسكب بعضاً من القطرات الزيتية في كف يده ويلمس بشرتها الناعمة بأطراف أصابعه ويدلك جسدها برقة. ذهل لأنه تمكن من الاقتراب من الأنثى التي أغرته وهيجته. اليوم تحققت أمنيته وهو غير مكترث من إمكانية أن يدهمهما العم ألفونس وهما في هذا الوضع المريب. الشمس ابتعدت فشعرت كوليبيت بالبرد على جسدها فنهضت ونهض، ساعدها على لف جسدها بمنشفتها الملونة الجميلة. اتجها إلى داخل البيت، هي في المقدمة وهو يمشي خلفها بتأنٍّ حاملاً معدات التشمس وآلة التسجيل لداخل المطبخ، وتناولا قليلاً من الطعام الذي أعده العم ألفونس لها قبل خروجه

الصباح كما يفعل كل يوم. الطعام مجموعة من الشطائر الخفيفة ونصف زجاجة نبيذ أحمر. ما زال في ذهول وارتباك وجسده يرتجف، حاول تغطية اضطراباته وتصنّع المرح والسرور.

بعد تناول الطعام، قادته للمكان الذي تضع فيه مجموعتها الموسيقية المفضلة، للدور العلوي من البيت ولحجرة النوم. مجموعتها الموسيقية تتكون من أغان فرنسية وقليل من الأغاني الإنكليزية مثل أغاني الروك. وهو بجانبها داخل بيت العم ألفونس، البيت الذي سكنته الخالة نانسي، تذكر القذارة التي سيطرت على البيت في السابق. أدهشه اختلاف الحال، المكان نظيف نظافة فائقة ومرتب بأسلوب عصري وحديث. في كل زاوية من زواياه وُضعت زهور جميلة تبعث روائح زكية تعطر المكان، والأنثى التي تمثل الإغراء والجمال. قارن المكان بحجرة نوم والديه التي تتكون من سرير واحد من أثاث المستشفى القديم وملايات بيضاء وزرقاء قديمة من فائض المستشفى. سرير كولييت والعم ألفونس فرشه من الحرير الأملس بلون الزهر، لم يشاهد مثله سوى في الأفلام الإيطالية الرائعة مثل أفلام المخرج الإيطالي المشهور فليني. البيت أثاثه جديد وجميل، واقتربت منه كولييت وجلست قربه على السرير.

قالت: يسعدني أن يكون لي صديق مثلك يا ناجي. إنني أقضي أوقاتي بمفردي أثناء وجود ألفونس في العمل وهذا يجعلني أشعر بالغربة والحنين لبلدي فرنسا وخاصة باريس؛ تعال كل يوم لزيارتي بعد عودتك من المدرسة لنقضي معاً أوقاتاً جميلة وممتعة. أتعلّم منك الإنكليزية ونستمع لأغاني البوب والروك الإنجليزية التي أحب الكثير منها دون معرفة معاني كلماتها.

واقتربت منه حتى كادت تلتصق بجسمه وقالت: ألا تريد شرب بعض النبيذ؟ في فرنسا الناس تفضل شرب الجيد من النبيذ، على خلافكم هنا في بريطانيا حيث نوعية الشراب لا تهم، ما يهم هو الشراب أياً كانت نوعيته وهذا أمر تعجبت منه. أرجوك يا ناجي، اقبل كأساً واحداً مني وشاركني في احتساء قليل من النبيذ. تقدمت نحو طاولة صغيرة عليها براد صغير الحجم بداخله زجاجات النبيذ وبعض الشكولاتة البلجيكية والمكسرات. تناولت زجاجتين صغيرتين وسكبت كأسين وجلست على حافة السرير بينما كان مندهشاً مما هو مقدم عليه من تناول للكحول وهو دون السن القانونية، لا يزال في السابعة عشرة والنصف من العمر.

قالت كولييت بدلال: ناجي، اقترب مني. ألفونس لا يحب أن أكون بمفردي فهو يعلم أنني أخاف من الجلوس من دون أنيس.

قال بدهشة يخالطها الخوف: لكن العم ألفونس سيعود للبيت قريباً يا مدام كولييت، ماذا سيقول إن رآني معك على هذا الوضع؟

قالت: أولاً، لا تنادني بمدام كولييت، قل لي كولييت لا غير. ثانياً، اليوم سيعود ألفونس للبيت متأخراً بسبب تلبيته دعوة لمحاضرة ينظمها المجمع الوطني الطبي في منطقه ويلز.

عندما سمع ما قالته شعر برغبة عارمة في أخذ المبادرة ولمس يدها، لم يلمس جسد امرأة ناضجة من قبل. صحيح، سبق له لمس جسد صديقة طفولته الصغيرة تريسي، اصطحبها عدة مرات أيام الأحد للحديقة العامة وعبث بجسدها وكأنها لعبة أطفال. كان

عنده اعتقاد أن لمس جسد المرأة يسبب لها الأذى والتلف، كان خوفه من جسد الأنثى لا يضاهيه خوف آخر.

أما هذه المرأة التي أمامه فأمرها مختلف فهي امرأة ناضجة. تناول يد كولييت ووضعها بين يديه المرتجفة واقترب منها حتى التقت عيناه بعينيها، وبكل قوة أحاطها بذراعيه ودفعها بعنفوان على السرير وكاد يرتمي عليها بجسده الساخن. دفعته عنها برفق وقالت: تمهل ناجي، ليس بهذه الطريقة. المرأة مخلوق رقيق ويجب عليك لمسه برقة كلمس الزهر وإلا تفتت بين أصابعك قبل أن تنعم بشذاه. خذ مني هذه النصيحة، لا تندفع وتتعجل لأن الحب لا يقبل التعجل.

توقف وشعر بالخجل والحرج مما فعله. كان يريد الوصول لرغبته مع كولييت بسرعة بسبب عنفوان الشباب الذي يجري في دمه، لكن لكولييت أسلوباً آخر يتميز بالتمهل؛ كبت غرائزه المتوثبة ووقف أمامها كالتلميذ المبتدئ بعد أن أدرك أنها تعرف قلة خبرته في معاملة النساء من الناحية العاطفية والجسدية. اقتربت منه بهدوء وبدأت تداعب عنقه بسلاسة واحتوت بشفتيها شفتيه بينما كان في غاية التوتر والخوف. يدرك أنه بين يدي امرأة مغرية ومثيرة، وصل معها قرب نهاية الشوط، لكنها تظل غريبة عنه وتكبره في السن.

دخل مع كولييت في اهتزاز سريع وقوي، اقتلعته من سكون صباه المكبوت وفجرت الدم الحار ليتدفق في عروقه وهيجت أنفاسه وهي تصل معه للسرير ليدخلا بين طيات الفرش الحريري، شعر بصداع رهيب والدم يتجلط في وجهه وأطرافه وأحس بالغثيان والدوار. حاول إخفاء الهواجس الرهيبة التي هاجمته كي لا يشعر كولييت

بعدم نضجه؛ السرعة الخاطفة ترجع إلى أن ما فعله مع كولييت لم يكن سوى تجربته الأولى مع الأنثى. وأخيراً نال مراده وأشبع رغبته من كولييت.

استمرت المواعدة بينه وبين كولييت بعد يوم الحديقة وزاد حبه لها. رأى فيها المرأة التي لن يتخلي عنها طول حياته ومهما كلفه الأمر، فكر في التراجع عن دخول الجامعة لكنه خاف من الكلام مع والده في الأمر. كانت خطته تتمثل في الانتهاء من امتحانات الشهادة الثانوية والبحث عن عمل قريب من بيته كي لا يبتعد عن حبه الكبير. الأمور ستجري في تسلسل من دون اضطراب: كولييت تظل زوجة للعم ألفونس، وهو يقابلها كلما سنحت الفرصة، والزوج يظل آخر من يعلم بالعلاقة السرية التي بينهما.

ثم حدث ما حدث. في يوم من الأيام، استيقظت الحارة على وجود جيران جدد يسكنون في بيت العم ألفونس وكولييت. من أين جاء هؤلاء الجيران وكيف حلوا في البيت؟ لم يعرف أحد الإجابة عن السؤال، كما لم يعرف أحد كيف ومن أين أتى العم ألفونس بكولييت زوجة بعد هروب زوجته الأولى نانسي؟ اختفاء العم ألفونس وكولييت أصاب الحارة بحمى الثرثرة والتكهنات حول الذي حصل لهما، لم يصل أحد لمعرفة السر رغم السؤال والتحري. الجميع لا يعرف سبب اختفائهما المفاجئ والوجهة التي اتجها إليها؛ الجيران الذين سكنوا في بيت العم ألفونس لا يعرفون شيئاً فقد اشتروا المنزل من رجل لا صلة له بالعم ألفونس ولا بكولييت. هكذا حلت نهاية أيام جميلة لا تنسى عاشها في فترة صباه.

وظلت الذاكرة تجري خلفه مثل كلب أمين يتبع صاحبه. كلما تذكر كولييت تمنى لو تعود له بلحمها ودمها أو يستطيع بعث

روحها في جسد امرأة أخرى؛ تمنى العثور على علامة مشابهة لها في إحدى زميلاته في الجامعة لكي يعيش ما عاشه من لحظات جميلة وممتعة. فارقه جسد كولييت ثم تبعه طيفها؛ عليه قبول حكم القدر القاسي.

في وسطه الجامعي الجديد وجد فرصة كبيرة لشرب الكحول، وهو أمر مختلف عن الوضع الذي عاشه في حارته. بالغ في الذهاب لحانات الجامعة ومقاصفها لتعاطي شتى أنواع الخمور؛ عنده رغبة دفينة مستقرة في عقله الباطني منذ طفولته وأيام ولعه بزجاجات الخمر المرصوصة على خزانة الجوز في صالة بيتهم. اهتمامه بالكحول لم يتوقف عند حد تعاطيه بل أصبح مصدر اهتمام من نوع آخر لم يكن يخطر على باله. بدأ يدرس الكحول من النواحي الاقتصادية ويحاول معرفة أصنافه وكيفية صناعته والدول المصدرة والمستوردة له والفوائد التجارية والأرباح التي يجنيها في الأسواق المحلية والعالمية. كتب العديد من الدراسات والبحوث عن الكحول وقدمها وناقشها أمام الطلبة والأساتذة ونال تقدير الجميع وإعجابهم.

في المساء بعد الانتهاء من المحاضرات والقراءة في المكتبة يذهب لحانة الجامعة ويلتقي بمجموعة من الطلبة والطالبات الذين يتجمعون لتعاطي الكحول وقضاء أمسيات ممتعة ينسون فيها ضغط الدراسة وقلقها. وعند إغلاق الحانة يذهبون لحجرة أحدهم لمواصلة شرب الخمر، يستمعون لأغاني البوب والروك الشهيرة حتى وقت متأخر من الليل. انغمس في حياة اللهو لكنه لم يدع أي شيء يقف بينه وبين تقدمه في الدراسة والتحصيل العلمي. علاقاته النسائية كانت عابرة وأغلبها تحدث عندما يكون تحت تأثير الكحول، لكنها هي الأخرى لم تقلل من قدراته العلمية والدراسية.

اشتهر بين الطلبة بذكائه الحاد وأفقه الواسع، قليلون من الطلبة استطاعوا منافسته في المجالات العلمية والثقافية. أساتذته يبعثونه إلى الجامعات والمعاهد العلمية في طول البلاد وعرضها ليقدم أوراقاً بحثية ودراسات لأنه يمثل أفضل الطلاب في الجامعة بأسرها. الدراسات الفلسفية والعلوم السياسية والاقتصاد تشحذ فكره ووجدانه؛ في أوقات الفراغ يقرأ ويحلل نظريات هذه العلوم ويحاول ربطها بالواقع السياسي والاقتصادي والعسكري الجاري من حوله. وأهم الأحداث في ذلك الوقت تركزت حول الحرب الباردة بين الغرب والكتلة السوفياتية وصراع المبادئ الأفكار بين هاتين الكتلتين؛ المشاحنات على أوجها وتأثيرها كبير على توازن القوى واستقرار العالم، والمفكرون والمحللون مشغولون بوجود الأسلحة النووية لدى الكتلتين المتصارعتين.

كذلك كان مهموماً بالفروق الموجودة بين أجزاء العالم في المجالات الاقتصادية والعسكرية والصحية والعلمية، وبالأضرار التي تحدثها تلك الفروق على مستقبل شعوب العالم. الفروق سببها الهوة الكبيرة بين أجزاء العالم، الغربي والسوفياتي والعالم الثالث المكون من القارة الآسيوية والشرق الأوسط وأفريقيا وأميركا اللاتينية. آمن بأن التأخر في ردم الهوة الكبيرة بين أجزاء العالم المختلفة سيدفع بسكان الكرة الأرضية للسير في مسارات متباعدة، بعضها متقدم ومتخم والآخر متخلف ويعاني من العوز ونقص المصادر؛ في أول الصف المتقدم أميركا وأوروبا تليهما الكتلة السوفياتية ثم تأتي الدول الفقيرة في العالم الثالث. والتخلف خلقه الاستعمار الذي سيطر سنين طويلة على دول العالم الثالث وأنهك مواردها الطبيعية لصالح الدول المسيطرة، ثم جاءت التقلبات السياسية والعسكرية وزادت الأمر سوءاً عندما أثرت على البنية التحتية لدول العالم

الثالث وأدخلتها في عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي.

ودفعته تلك الأفكار إلى طرح أسئلة عديدة على أساتذته حول الهوة التي تهدد مستقبل العالم، كما شملت الأسئلة أحداثاً تتعلق بتظاهرات الطلاب في فرنسا والحرب في فييتنام.

الباحثون شغلتهم الحرب الغاشمة التي شنتها أميركا على الشعب الفييتنامي وحاولوا ربطها بالهوة بين دول العالم وتدخل الدول القوية في الشؤون الداخلية للدول الضعيفة، تفعل ذلك دون أدنى احترام للسيادة المنصوص عليها في مواثيق الأمم المتحدة. فييتنام عانت من حرب طاحنة دمرت بُناها الأساسية وعصفت باستقرارها، بسبب محاولة أميركا فرض النظام الرأسمالي على الدول التي ترفض القبول بذلك النظام.

من خلال اطلاعه المكثف على قضايا العالم، برز في ذهنه سؤال محوري وهام: كيف للدول الغربية أن تنادي بالحرية والعدالة بينما تدفع بدولة كفييتنام لحرب ضروس دون سبب مقنع سوى رغبة أميركا في فرض عقيدتها على دول العالم وشعوبه؟ كيف للغرب المطالبة بالحرية وهناك جزء كبير من العالم يقع في حفرة من الفقر وعدم الاستقرار؟ السؤال سبّب له ارتباكاً، خاصة عندما قرأ مبادئ الفلسفة السياسية والاقتصادية الغربية كما عبر عنها مفكرون من عباقرة الفكر الغربي مثل لوك وهوبز والاقتصادي آدم سميث وروسو. هناك تناقض واضح بين الفلسفة الغربية والواقع الفعلي للعالم، ورغم ذلك هناك حماسة كبيرة من جانب الغرب لفرض السياسات الغربية على برامج ومناهج اقتصاد وسياسات دول العالم الأخرى.

واصل البحث والقراءة في هذه المجالات والتأمل في دلالاتها في

محاولة للوصول إلى إيجاد تجانس بين المبادئ الفلسفية والواقع المعاش في العالم، عليه فهم التناقضات الظاهرة والوصول لإجابة تريح فكره وتبرر ما يفعله الغرب تحت ستار الإنسانية والحرية والعدالة.

أما تظاهرات الطلاب الشهيرة في فرنسا فقد واجهت المحللين بأسئلة عديدة عن طبيعة النظام السياسي المتبع في دول العالم الغربي. مثلت التظاهرات صرخة عميقة أطلقها ملايين البشر من الذين لا يملكون زمام الأمور، في محاولة لتغيير وضعهم والتخلص من الأحكام المفروضة عليهم من الحكام. والجديد على المسرح العالمي أن الصيحة صدرت عن شعوب الغرب المعروفة بتقدمها السياسي والديموقراطي، كأنما التصويت البائس زمن الانتخابات لا يجدي نفعاً في أوقات المحنة والطوارئ. اتخذت شعوب الغرب من التظاهرات الوسيلة الوحيدة لتحدي تسلط حكامها ورفعت صوتها ليصل إلى آذان المسؤولين ومتخذي القرارات. تمنى يومها لو استطاع المشاركة في المسيرات التي شغلت حيزاً هاماً في تاريخ الغرب الحديث. تظاهرات الطلاب في فرنسا دفعته إلى أن يناقش أساتذته ويطالبهم بتفسير عميق للأحداث، يتجاوز التفسيرات السطحية المعتادة التي تقدم للطلاب في الجامعات والمجالس الفكرية والأكاديمية.

أسئلة هامة طرحها على نفسه: كيف للفرد أن يجرد من أبسط حقوقه الإنسانية، مثل حقه في الدواء والطعام والمشاركة السياسية وتخطيط مستقبله، فيما يقف العالم منادياً بالحرية تحت شعار الليبرالية والعدالة؟ تتمتع الشعوب في دول الغرب بالامتيازات الصحية والتعليمية، فلماذا لا تستطيع هذه الشعوب تغيير أحوالها

بأسلوب خارج التصويت الهزيل الذي يجرى بين الحين والآخر؟ وأثبتت التجارب أن التصويت لا يحدث التغيير المطلوب، لماذا؟

هذا التناقض حفزه لينظر للأمور المحلية والعالمية بفكر ناقد ويشعر بالغضب تجاه بعض قضايا العالم الشائكة مثل القضية الفلسطينية. كارثة حلت على الشرق الأوسط تمثلت في الحروب الدامية بسبب نكبة الشعب الفلسطيني الذي طرد من أرضه وسلبت حقوقه من أجل قيام الدولة الصهيونية. أذهله الأمر برمته وخاصة الدور الذي قامت به الدول الأوروبية وفي مقدمها بريطانيا في حصول النكبة، ثم غياب التدخل الصادق لحسم الصراع. ظهر له أن وعد بلفور لقيام دولة يهودية على الأراضي الفلسطينية لم يضع في الحساب النكبات والضرر الذي يلحق بالشعب الفلسطيني.

الأحداث العالمية الشائكة دعته إلى التساؤل عن غياب العدالة الذي يكتنف العالم ودفعته لقراءة الكتب التي تناقش الظلم المسيطر على العالم. قرأ كتباً كثيرة من غياب العدالة الناتج من التفاوت الموجود في تركيبة العالم، قرأ كتاب تي أس إليوت بعنوان **أعمدة الحكمة السبع** وكتاب فانون **المعذبون في الأرض** وكتباً مشابهة لها تأثير قوي على رؤيته للقضايا الإنسانية التي تعاني منها الكثير من شعوب العالم.

وكانت تثير اهتمامه بصفته طالب اقتصاد، قضية الفجوة الاقتصادية والتجارية التي تتحكم في العالم وتؤثر على دوله وشعوبه. الثروات الطبيعية، مثل الصلب والكاكاو والمطاط والماس والبترول والقهوة والسكر، يتم شراؤها بثمن بخس من الدول المنتجة ثم يعاد بيعها لها بقيمة عالية بعد تحويلها لبضائع استهلاكية. وتتحكم في الأسواق العالمية عملات الدول الغنية، ومنها الدولار والجنيه والينّ،

بينما تعاني الدول الفقيرة وشعوبها بسبب ضعف عملاتها الوطنية.

الدول الصناعية تجلب بعض النباتات النادرة من الدول النامية بثمن بخس وتحولها لأدوية ثم تعود لتبيعها لنفس الدول بثمن باهظ قد لا تستطيع تحمّله، الأمر الذي يزيد الأمراض وسط الشعوب الفقيرة. لذلك، الأدوية موجودة في السوق العالمي لعلاج الأغنياء بسبب الأحكام الصارمة التي تسيطر على تجارة الدواء في العالم، والتركيز على الربح المادي وليس على البشرية وتخليصها من شرور المرض. أين العدالة ومن للفقير؟

ركز في عامه الدراسي الأخير على الأنشطة الأكاديمية التي تدور حول معضلات العدالة وطرح الأسئلة المناسبة عسى أن يجد إجابة تقنع عقله المتعب. بدأ الأساتذة يتندرون عليه ويشيرون إليه بالمتطرف السياسي وينصحونه بالنظر إلى الأمور باتزان وعدم متابعة العواطف الفجة حين يتعلق الأمر بدول العالم الثالث وشعوبها. «انظر لأمور العالم من جوانبها المختلفة ولا تتبع أسلوب التعاطف مع فقر الشعوب الفقيرة، هذه تقليعة لا تلبث أن تختفي دون حلول لمشاكل طبيعتها مستعصية ومعقدة». قيل له ولمن هم على شاكلته: يجب عدم النظر للعالم ومشاكله بمعيار «أسود أو أبيض» لأن هناك لوناً رمادياً بين اللونين.

الاعتدال في النظر للأمور، كما ينصحونهم، يساعدهم في الحصول على الوظائف بعد تخرجهم من الجامعة. إلا أن تفسيرات أساتذته لم تغير من أفكاره بل حفزته على الجري للحصول على الإجابات الشافية من مصادر خارج قاعات المحاضرات في الجامعة. أصبح يقرأ الصحف، وكل ما يقع بين يديه من معلومات، لعله يجد إجابة أو من يتكلم بمنطقه ولغته. في ذلك الوقت، كانت حملات عضو

البرلمان الإنكليزي توني بن في عنفوانها، عُرف السياسي اليساري بدفاعه عن حقوق الإنسان ومعارضته المستميتة لسياسة بلده في قضايا عديدة، منها النكبة الفلسطينية والحكم العنصري في جنوب أفريقيا والحرب على فييتنام. صوت توني بن هو الصوت الذي أراد سماعه، السياسي البريطاني تحدث دون مواربة عن محاولة إبادة الشعب الفييتنامي بالقنبلة الذرية، مثل التي وقعت على مدينه هيروشيما.

ما حصل في اليابان أدى لإبادة البشر وتلويث المياه، لكن يبقى نضال الشعوب شعلة لا تنطفئ. صمود الشعب الفييتنامي ألهب نضال الشعوب على نطاق العالم، مثل الشعب الفلسطيني، ضد الاحتلال الصهيوني. من أجل ذلك، سار في العديد من تظاهرات توني بن التي جرت في شوارع العاصمة البريطانية لندن. مشاركته العملية قوّت أفكاره وأثبتت له صحة النظريات التي تبناها في حياته.

لكن أيام الدراسة سرعان ما انقضت، نجح في امتحان التخرج بتفوق. سعد والداه اللذان جاءا للجامعة لحضور حفلة تخرجه. ناجي يقف الآن وجهاً لوجه أمام الحياة الواسعة وواقعها المعقد.

انتقاله لميدان العمل لم يكن صعباً بسبب التفوق الذي أحرزه في الدراسة وأفقه الثقافي الواسع. وقع اختيار إحدى الصحف الإقليمية عليه للعمل فيها. كان على معرفة بنوعية هذه الصحف، فهي ضعيفة المضمون والتحليل السياسي والاقتصادي على المستويين الوطني والعالمي. تمنى لو اختير للانضمام للصحف الوطنية الهامة التي تصدر في لندن، بدلاً من صحيفة محدودة التوزيع ومغمورة الذكر.

في وظيفته الأولى عمل على نفض الغبار عن الصحيفة وتطويرها. ركز على تقديم مادة ذات جودة عالية في الزاوية التي طلب منه كتابتها والإشراف عليها، وظّف قدراته الذاتية واستفاد من زملائه من المحررين والمراسلين. أظهر حماسة منقطعة النظير في تطبيق آراء جديدة في تحليل الأحداث الاقتصادية، فبدأت مقالاته تأخذ اتجاهاً مغايراً عن التوجه الذي كانت تسير عليه الصحيفة في السابق. وجد التغيير الذي أحدثه إقبالاً شديداً، أصبحت مقالاته مصدر ترقب ولمع اسمه بين الكتاب والمحللين الصحافيين ووصلت سمعته حتى لندن. حقق النجاح المتوقع وشعر برضاء عن نفسه وعمله.

حياته الجديدة خلت من الإثارة، فهي عبارة عن عمل متواصل يعود منه في المساء للبيت لتناول العشاء مع مجموعة من رجال الأعمال وزملائه في الصحيفة. بعد شهرين من انضمامه للصحيفة تعرف إلى إحدى زميلاته وتدعى ريتشل، تعمل في قسم الجرائم في الصحيفة. في بداية الأمر كانت معرفتهما ضعيفة لا تتعدى الزمالة. ذات مساء انضم لمجموعة من زملائه للاحتفال بعيد ميلاد المحرر وليام شو وكانت ريتشل من ضمنهم. ذهب الجميع إلى حانة في قلب المدينة ثم إلى مطعم، وفي نهاية الاحتفال تركت المجموعة المطعم والخمر يلعب برؤوسهم. استقل سيارة أجرة مع ريتشل، كان عازماً على مرافقتها لبيتها ثم الذهاب لمنزله.

عند دخولهما السيارة سمعها تعطي السائق عنوان منزلها من دون ذكر لعنوانه هو، لم يقل شيئاً وقرر أن يعطي العنوان للسائق فيما بعد. ووصلت بهم السيارة لمنزل ريتشل، وبسرعة أعطت السائق

أجره، نزلا من السيارة ووقف خلفها ينظر إليها بتعجب ولم يحاول مقاطعتها.

نظرت ريتشل إليه وقالت له: تعال معي لشرب فنجان قهوة والاستماع لبعض الموسيقى، الوقت ما زال مبكراً والساعة الآن الثانية عشرة. لدينا ساعات كثيرة، فلماذا تريد العودة لشقتك المقفرة وترقد في سريرك؟

شكرها على الدعوة وهو مندهش، وواصلا السير حتى وصلا لداخل عمارة حديثة الهندسة وجميلة المنظر. ضغطت على زر المصعد ودخلا فيه، ألقت نظرة سريعة على هندامها ورتبت شعرها ومسحت بعض الكحل الفائض من طرف عينيها. وقف بجانبها ينتظر وصول المصعد للطابق الخامس، وصلا أمام شقة بباب أبيض اللون. وبدأت تبحث عن مفاتيح الشقة في حقيبتها إلا أنها لم تجدها فصرخت بصوت عال أين مفاتيحي؟ أظن أنني ضيعتها، سنقضي الليل أمام الباب! تناول الحقيبة منها وأخذ يبحث عن المفاتيح بتأنّ حتى جذب قطعة حديدية مربعة تدلت منها مجموعة من المفاتيح. قدمها لها، تناولتها بيدها المرتجفة ودخلا الشقة. خلف الباب، تنتظر قطة سيامية بيضاء عيناها خضراوان تلمعان في الظلام، وكلب صغير من فصيلة البودل بشعر أبيض نظيف. نظرت القطة ونظر الكلب إليها بألفة وتمسحا على رجليها، انحنت ورفعتهما لأعلى ودست وجهها في وجهيهما وأنزلتهما برفق على الأرض.

شقة ريتشل أرضيتها من خشب وفيها قليل من الأثاث وتحف زجاجية كثيرة متناثرة في المكان. الشقة حديثة التصميم من نوع الشقق التي يكتب عنها في مجلات الهندسة الحديثة التي تصدر في لندن وطوكيو ونيويورك. انتظرها لتشير له إلى صالة الجلوس،

إلا أنها لم تفعل، فقد كانت منهمكة مع القطة والكلب. انتهت من حيواناتها الأليفة وانتبهت لوجوده فأشارت له بالدخول للحجرة، دفع الباب ودخل بينما واصلت هي سيرها في اتجاه آخر.

ريتشل امرأة في العقد الثالث من عمرها وتتمتع بجمالٍ يشبه جمال نساء الستينيات التقليدي المعروف. شعرها أشقر طويل ومصبوغ بلون أسود يظهر جمال عينيها الخضراوين، وبشرتها خالية من مواد التجميل. ريتشل طويلة ونحيفة وكانت تهوى الملابس ذات الألوان الصاخبة. وهي متزوجة من رجل يكبرها بأعوام كثيرة عربي الأصل يدعى حمزة الدرع، يعيش ويعمل في الشرق الأوسط في شركة لصناعة الغاز الطبيعي. زوجها رجل ثري، كثير الغياب عنها بسبب عمله ومقره البعيد عن مكان سكنها.

أما الدعوة هذه الليلة فهي مدهشة بحق. ظن أنها طلبت منه المجيء لشقتها بسبب رغبتها في مواصلة الحديث والمناقشة التي دارت بينهما وبين زملائهم في المطعم. دُهش حين لاحظ أن الحجرة التي دخل فيها ليست صالة الجلوس كما توقع، بل كانت حجرة النوم، فيها سرير من نوع الفوتون الياباني مصنوع من خشب طبيعي وعلى جوانبه منضدتان عليهما لمبات إضاءة زرقاء خافتة. عدا ذلك، المكان خال من الأثاث والمقتنيات الأخرى.

خلع سترته وظل واقفاً ينظر للجدران والسقف ويفكر في الأمر الذي دفع ريتشل لأن تدخله شقتها وحجرة نومها، فهي لا تعرفه معرفة جيدة وما يربط بينهما لا يتجاوز زمالة العمل. وفوق ذلك، كيف تدعوه إلى حجرة نومها وهي امرأة متزوجة؟ تأخرت في العودة إليه، فتمدد على السرير ليريح جسمه المرهق، وقال في داخله: لو يستطيع الفرد أن يخلي ذهنه من الأفكار بمجرد وجوده

في مكان خالٍ كهذا، لسارع الناس لتصميم بيوتهم على هذا النمط. لكن، ربما يسبب خلو المكان وحشة في النفس وقلقاً في الذهن. ظل ينتظر عودتها في وسط هذا الفضاء وهو في حيرة من أمره بسبب تأخرها.

فجأة دفعت الباب ودخلت عليه، ولدهشته الشديدة كانت عارية تماماً وترقص بإغراء وتهز رأسها من جهة إلى أخرى حاملة زجاجة نبيذ في يد وشمعة حمراء في اليد الأخرى. دفعت بزجاجة النبيذ في يده، أخذها ووضعها على الأرض وهو ما زال في دهشة مما تفعله أمامه. توقفت عن الرقص وهرعت لتلقي بنفسها عليه، دفنت وجهها في صدره وبكت بحرقة شديدة ودموع منهمرة. أربكه الأمر فترك رأسها يرتاح في حضنه ومسح على شعرها وحاول رفع وجهها لينظر لعينيها المبللتين بالدموع، لم ترفع رأسها بل واصلت البكاء.

بقيا على هذا الوضع لمدة من الزمن والصمت يلف المكان. سألها بقوله: ريتشل، ما بك، أرجوك أخبريني. رفعت رأسها وتناولت زجاجة النبيذ وبدأت تتناول جرعات كثيرة الواحدة تلو الأخرى. وجلست بجانبه على حافة السرير وهو يلف خصرها بذراعه، نظر لساعة معصمه وكانت تشير للواحدة بعد منتصف الليل. سألها مرة أخرى: ريتشل، أخبريني لماذا تبكين؟ لم تردّ عليه بل نظرت لأرضية الحجرة وألقت برأسها من جديد على كتفه وتنهدت بعمق.

وبعد برهة ليست بالقصيرة قالت: ناجي، أنا ضائعة وأعاني من مشاكل عديدة، إني في حالة عدم استقرار وأريد التخلص من حياتي. أريد الهروب من واقعي وقد أقدم على الانتحار غداً،

سأنتحر لأني أريد الخلاص من الدنيا والخروج من متاهاتها، إني أعيش على فوهة بركان. وانهمرت دموعها بغزارة.

قال لها: كيف تقولين هذا وأنت يا ريتشل تنعمين بكل هذا الرخاء؟ المعيشة على ما يرام وعندك زوج يحبك من دون شك ولو أنه بعيد عنك، وبعدُه عنك ربما عائد لرغبته في إعطائك حياة رغدة. أنظري لما حولك وما لديك، ألا ترين نفسك محظوظة مقارنة بنساء عديدات، مثلاً الفتيات اللواتي يعملن معنا في الصحيفة في قسم السكرتارية جيني وماري وكرول؟ المسكينات يكدحن طول النهار لكسب القليل من المال لدفع أقساط السكن والمعيشة، أنت لست في حاجة للمادة بل تعملين لأن العمل يثبت وجودك ولأنك تهوين الصحافة. أنت لا تعملي لدفع إيجار السكن وضروريات الحياة مثل الفرد العادي، أنت مثقفة وجميلة ومحبوبة من الجميع، فما الذي أدخلك في هذه الحالة من التوتر؟ قال هذا وفي داخله ان تشخيصه لحالتها تشخيص سطحي، هو لا يعرف ما يدور في داخلها من اضطراب وما بحياتها من أمور دفينة.

قالت: هل في رأيك أن ما يغمرني من رخاء وترف يمكن أن يجلب لي السعادة؟ إن كان هذا رأيك، فأنت رجل سطحي، لا أظن أنك كذلك.

قال: ما الذي سيجلب السعادة التي تريدين؟ أخبريني عن سبب توترك، فقد أستطيع مساعدتك في العثور على حل، فنحن أصدقاء وزملاء ومن واجبي مساعدتك.

قالت: أشعر بالضياع ولا أعرف كيف أنقذ نفسي من براثنه، فهو

يمسكني كالمارد اللعين ويحيط بي مثل الأخطبوط. يا ناجي أنا في غاية الضياع والمعاناة. وأخذت تشهق وتبكي. ظل ينظر إليها وهو في حيرة وعدم معرفة بالذي عليه فعله ليخفف عنها الألم والمعاناة.

هدأت بعض الشيء وقالت: لقد تزوجت في سن مبكرة وكنت أظن أنني أحب زوجي الذي يكبرني بسنين عديدة؛ تزوجته على أمل أن أجد نفسي وأنقذ روحي من وسط ضياع كنت غارقة فيه. في بادئ الأمر، انتشلني من ضياعي، لكن سرعان ما عدت وغطست فيه من جديد. لقد أحاطني كما ترى بكل كماليات الدنيا لكن ظلت هناك أشياء أخرى كثيرة تنقصني، كنت أنوي السفر والتسكع في المدن والعيش في مجتمعات تنقصها الحريات التي في مجتمعاتنا الغربية، كنت أود مساعدة الآخرين. غير أن ذلك لم يحدث، بعد ابتعاد زوجي عني وذهابه للشرق الأوسط زادت غربتي وحيرتي.

ومضت تقول: زادت مشاكلي عندما لم أتقدم في العمل الذي ثابرت مثابرة كبيرة على تحسينه وإنتاج الأفضل فيه، إلا أنني ظللت مراسلة لا أكثر ولا أقل. ومن عيّن في المنصب الذي أعلى مني ليس سوى تلميذي، كان عاملاً بسيطاً، وهو دوني خبرة وعلماً ومؤهلات. بقيت أغالب هذا الأمر طويلاً ولم أستطع تغيير شيء فيه، لذلك أشعر بالخذلان والوحدة القاتلة وحياتي خالية من الإثارة ولا من أتحدث معه عن مخاوفي وهمومي سوى زجاجتي التي لا أستطيع العيش من دونها.

استمع لها بهدوء تام ثم قال: أليس عندك صديقات وأصدقاء خارج حيز العمل؟

قالت: قليلون للغاية من أعدّهم أصدقاء وصديقات، فحياتي حلقة من العمل المتواصل ولا وقت للعلاقات الاجتماعية والزيارات الخاصة. زوجي أثناء وجوده معي تكون اهتماماته موجهة لأعماله ولم يستطع الوصول لأغوار نفسي المهزوزة لينفض ما بداخلها من هموم ووحدة وضياع، أستطيع القول إنه أحد أسباب مشاكلي.

هز رأسه تعجباً مما سمع منها، ولم يضف شيئاً فواصلت هي قائلة: دعني أحدثك عن زواجي وأسراره. تزوجت من حمزة بمجرد تخرجي من الجامعة وانخراطي في العمل في محطة إذاعة محلية معلقةً إخبارية. ذات يوم طلب مني الذهاب للندن لإجراء مقابلة مع رجل يدعى حمزة الدرع، خبير في البترول والغاز يترأس مديرية عالية في بلده. في تلك الحقبة، كانت أسعار البترول والغاز الطبيعي مرتفعة، الأمر الذي شكل لدينا مصدر اهتمام في الدول الغربية. اتصلت بسكرتير الأستاذ الدرع ورتبت معه مواعيد المقابلة وذهبت في الوقت المحدد وأنا متحمسة لأظفر بحوار يحظى بتقدير إدارة الإذاعة والمستمعين.

ذهبت لفندق «براونز» بلندن حيث ينزل الأستاذ الدرع وأنا في خوف شديد من صعوبة المقابلة لاعتقادي أن الرجل لا يجيد التحدث باللغة الإنكليزية. عند وصولي الفندق، اتجهت للجناح الخاص بالأستاذ الدرع في الطابق الثاني حيث ستجرى المقابلة. دخلت على رجل مهيب الشكل طويل القامة دمث الخلق وكأنه فارس من فرسان الليل الذين نقرأ عنهم في قصص الشرق الخيالية، يرتدي زيه الوطني التقليدي وتفوح منه رائحة عطر تختلف عن الروائح الرجالية المعروفة. العطر قوي وقد ذكرني بمقطع في مسرحية **مكبث** لشكسبير حيث تقول ليدي مكبث: لا تستطيع

كل العطور العربية غسل الأيادي الملوثة بجريمة القتل، عرفت لاحقاً أن العطر يسمى العود وهو نادر وغالي الثمن.

استقبلني حمزة استقبالاً حاراً، ولدهشتي كان يتحدث الإنكليزية بطلاقه، لقد درس في إحدى الجامعات البريطانية حتى أكمل درجة الماجستير. وأنا أجري معه المقابلة، لاحظت أنه ينظر لي بنظرات تنم عن الإعجاب، شعرت بارتياح معه وانجذاب شديد نحو شخصيته. بدأت أنظر إليه بإعجاب، فالحقيقة الرجل متميز وفوق العادة. كنت صحافية حديثة عهد بالمهنة ومهتمة بإجراء أول مقابلة لي بنجاح، لذلك حاولت التركيز على ما أتيت من أجله وتناسي ما يدور بيننا من انجذاب. وبدأنا في الحوار حتى انتهيت من المقابلة وسجلت الأجوبة على أشرطة ثم استأذنت للمغادرة.

لكن حمزة طلب مني تناول مشروب، قال يجب إكرام الضيف حسب الأعراف والتقاليد العربية. حاولت الاعتذار بسبب ضيق الوقت إلا أنه أصر ولم يدع لي مجالاً للممانعة، فأذعنت وطلبت كوباً من الشاي. وتحدثنا في مجالات شتى على الرغم من التوتر الذي أصابني بسبب تأخري في العودة للإذاعة لتقديم المقابلة لقسم الأخبار لتذاع في نشرة الأخبار. بعد تناول الشاي، أصر على اصطحابي للغداء على الرغم من محاولتي إقناعه أنه يجب علي العودة بالتسجيل إلى الإذاعة. ومن دون تردد، اتصلت بالإذاعة وقلت لهم إن الأستاذ الدرع لم يستطع الحضور للمقابلة في الوقت المحدد بسبب وجوده خارج الفندق وزحمة السير الخانقة في شوارع لندن. في نهاية الأمر، أخذني للغداء في الفندق حيث أكلنا الطعام واحستينا الكثير من النبيذ.

وبعد ذلك، عدت مع حمزة إلى حجرته. حتى هذا الوقت كان حمزة مرتدياً زيه التقليدي، إلا أنه بمجرد دخولنا الحجرة نزع الغطاء والحبل الأسود المسمى العقال من على رأسه وطواهما في يده اليمنى وأخذ يرقص أمامي ويغني مقطوعة من أغنية عرفت فيما بعد أنها لمطرب مشهور يدعى محمد عبده؛ كلمات الأغنية تقول:

آه، آه، آه من قلب نصحته
بس عين ينتصح نبضة يبيها
آه، آه، آه منه ليه عين
ليه عزم يترك الكون ويجيها
ما عرفت ألقى لهذا القلب حل
الجواب اقتفى لظله وارتحل
ما بقى لي غير أنت يا غريبة
يا رحيل العمر فيني يا حبيبة
ويا رضاها وقفوا ناظر شوية
شوف غلاها ايش سوى بشخص حائر.

ويدق حمزة برجليه على الأرض وهو يضحك في غبطة ومرح وأنا أضحك معه. قال: حررني يا ريتشل من قبضة القبلية القوية والقيود الاجتماعية الصارمة والالتزامات التي لا تنتهي، في بلدي أعيش تحت القيود ليل نهار وهي مثل الفروض والواجبات.

ثم مسك يدي وشدني لأقف معه، وقفت وأنا غارقة في الضحك مما فعله وقاله من أمور طريفة وغريبة. وضمني حمزة إلى صدره بحنان وقبّلني. ولا أظن أني في حاجة كي أشرح تفاصيل ما

حدث بيننا بعد ذلك. وظللت أقيم في الفندق مع حمزة لمدة أسبوع كامل، استبدل حمزة ملابسه التقليدية بملابس أوروبية، وكنا نذهب للغداء والعشاء والرقص. حمزة يهوى الرقص ومظاهر الحياة الحديثة، قال لي إنه يريد العودة لأيام شبابه والتحرر الذي عاشه أيام دراسته. أراد التمتع بالحداثة التي يتوق إليها لكنه لا يجدها إلا عندما يخرج من بلده ويأتي لأوروبا، وأضاف أنه بعد تقلده منصبه الرفيع فقد التمتع بالملذات.

ذهبنا نتسوق في المحلات الشهيرة، غمرني حمزة بالهدايا والملابس والمجوهرات الثمينة. وعندما عرف حبي للفروسية، اشترى لي حصاناً وأرسله لبيت أهلي ليعيش في الحقل البري المجاور لبيتنا. ولدهشتي الشديدة وقبل انتهاء الأسبوع المحدد لإقامته في لندن، طلب مني حمزة أن أتزوجه، أرادني زوجته الغربية التي ينعم معها بالحياة المتحررة التي يفتقدها في بيئته بسبب التزاماته المهنية الكثيرة والطقوس الاجتماعية الصارمة. أرادني كما قال أن أساعده في التلذذ بالحرية قبل أفول الشباب، والعودة لحياه التلمذة والتسكع في شوارع لندن من دون مسؤولية أو قيود. في الحقيقة، قضينا أسبوعاً من الحرية والإثارة، كنا نمشي في الشوارع حتى الساعات الأولى من الصباح ونرتاد النوادي الليلية للشرب والرقص، ومارسنا الحب بحريه وهمجية في فضاء الحديقة العامة التي تسمى «حديقة باركلي». كنا نتسلق أسوارها بعد إغلاقها في الليل من قبل الشرطة وعملنا على درجة من الخطورة؛ تصور الفضيحة التي تظهر في الصحف لو ألقت الشرطة القبض على حمزة، بصفته رجلاً مهماً، مع فتاة إنكليزية. لكننا في تلك اللحظات كنا ننسى المخاوف ونظل تحت البرد الشديد والمطر المنهمر؛ كان يعرض جسده للمطر ويقول إنه يريد قطرات المطر أن تطفئ حرارة

الصحراء والجفاف الذي أصابه من جراء طقس بلده القاسي. وكنت أضحك من طرافة ما يقوله ويقوم به لأني لا أتصور ما يعنيه على وجه اليقين. والظاهر أن الخوف الذي يعترينا كان يزيد من تلذذنا بالشقاوة التي تشبه شقاوة الطفولة؛ مستمتعين ونحن في ساعة متأخرة من الليل وحولنا أبواق السيارات وأنوار الحوانيت تظهر من بعيد كالنجوم اللامعة. ونعود للفندق ثملين في نشوة، وكنا نختفي عن أعين مساعدي حمزة الذين يرافقونه في لندن للحراسة والخدمة؛ ننام حتى ساعة متأخرة من اليوم التالي ومن ثم نصحو ونسير في الشوارع نرتاد المطاعم ونتناول المأكولات السريعة.

وقال لي حمزة إنه شعر بالحيوية والشباب بعدما فقدهما منذ سنين عديدة، كنت في بداية العلاقة مرتبكة ومترددة، بسبب فارق السن الذي يفصل بيننا وقصر المدة التي عرفتها فيه. في النهاية، اقتنعت بحب حمزة لي وبحاجته لي ووافقت على الزواج منه. اقترح الذهاب لسفارة بلده لنسجل زواجنا، وقد فعلنا ذلك قبل عودته لبلده بيومين؛ تزوجنا وشعرت كأني أعيش في حلم لا علاقة له بالواقع. وذهبنا لمده يومين للبندقية في إيطاليا لقضاء أيام العسل. رغم قصر المدة تمتعت مع حمزة بجمال المكان وإبداع معماره الأثري. وبدأت تخيلاتي عن حياتي المقبلة تتوسع وشعرت كأني أعيش في حلم يشبه عالم ألف ليلة وليلة بفتنته وغموضه وسحره، ولم أسأل نفسي عن فترة ما بعد الزواج. وبعد تردد سألت حمزة عن المشاكل التي ستقع عليه من زواجه مني، بصفته رجلاً في منصب مرموق في بلاده. قال إن الأمر بالنسبة له طبيعي فهو رجل يرغب في زوجة تستطيع مناقشته في السياسة وأسعار الغاز والبترول وتكون بجانبه في سفراته الكثيرة ويجدها في انتظاره كلما قدم للندن المدينة التي يهوى.

ووعدني حمزة أن يصطحبني لبلده عند انتهاء بناء مسكنه الخاص، وأراني خرائط لبيت كبير يقع على حافة الصحراء وبه كماليات الراحة وحوض سباحة؛ وطلب مني اختيار الديكور المناسب للبيت. نقلني لعالم يقع خارج ما أعرفه وما تعودت عليه، عالم جديد مليء بالأحلام والأساطير. في حينها كنت في الثالثة والعشرين من عمري، خريجة جامعية تخطو الخطوة الأولى في مجال العمل.

بعد أسبوع من الأحداث السريعة والمثيرة، عاد حمزة لبلده بعد أن تزوجني وجعلني أتخيل نفسي أركب على جواد عربي أصيل مع فارسي المغوار. وفقدت وظيفتي في الإذاعة وعدت إلى بيت أسرتي حيث أخبرت أمي وأبي بالذي حدث، أقمت معهما في انتظار عودة حمزة بفارغ الصبر. وعاد حمزة ثم تكررت زياراته للندن إلا أنه لم يأخذني لبلده كما وعد.

ودخلت مع حمزة في نقاش محموم ومفاوضات مضنية كي يسمح لي بمزاولة وظيفتي. اعترض على طلبي بحجة مقدرته على الاعتناء بي من النواحي المادية والمعيشية، قال: لا ضرورة للعمل. لكنني لم أرد أن أكون مجرد ربة بيت وزوجة تابعة لزوجها، أخبرته عن أهمية العمل في حياتي وقلت له تساعدني الوظيفة على قتل الوقت في أثناء غيابه عني. بعد ممانعة ومناقشات طويلة ورفض شديد، سمح لي بمباشرة البحث عن عمل جديد في الصحافة. أريد التعبير عن ذاتي في الحياة وإثبات وجودي من خلال عمل ثابرت كثيراً على نيل العلم من أجله، أرفض الزواج الذي يجردني من ميزات مجتمعي الأوروبي حيث عمل المرأة أمر طبيعي. وأخيراً سمح لي بالبحث عن عمل جديد في مجال الصحافة.

بعد فترة قصيرة، طلبت منه تسجيل زواجنا في السجل المدني

للزيجات في لندن لتأكيد حقوقي الزوجية، حاول إقناعي بعدم ضرورة الخطوة. كنت على قدر كبير من الإصرار على التسجيل ورفضت المماطلة والتسويف. حولت أيامه معي لجحيم، فاعترف لي بحقيقة لم أعلم بها من قبل: حمزة متزوج ولم يكن مطلّقاً كما ادعى عند زواجه مني، ولا يستطيع تسجيل زواجنا في الدوائر البريطانية الرسمية. وقع الخبر على رأسي كالصاعقة وحينها أدركت فداحة الخطأ الذي ارتكبته بزواجي من حمزة.

ودخلت مع حمزة في مشاحنات حامية. هدّأ زوجي من روعي وطلب مني السماح والغفران لأنه لم يصدق معي وفشل في البوح لي بحقيقة زواجه الأول. أغدق علي الكثير من الهدايا والمال وطلب مني الانتظار لمدة قصيرة من الزمن حتى يتمكن من إقناع أولاده بضرورة زواجه مني، بذلك يستطيع العيش معي في العلن ويصطحبني لبلده لننعم بحياة زوجية هادئة ومستقرة. الوعد لم يتحقق حتى اللحظة التي أتحدث فيها معك، أنا امرأة منتظرة للزوج الذي يطلق زوجته الأولى ويعود للعيش مع زوجته الجديدة في هناء وسرور. وبعد كل ما بحت به لك، تقول لي: أنت امرأة سعيدة؟!

وبعد فترة طويلة من التوتر، نجحت في الحصول على عمل صحافي جديد. اشترى لي حمزة هذه الشقة وجلب لها الأثاث. حاولت المسك بزمام الأمور والعيش في نوع من الاستقرار، إلا أنني لم أتخلص من طموحات الماضي التي شغلت ذهني أيام دراستي الجامعية مثل الذهاب خارج حيزنا الأوروبي لمعرفة حقيقة العالم الواسع. ما زلت في شوق لمعرفة حياة الشعوب التي ترزح تحت الهموم الكثيرة ومنها المعيشة اليومية وتقلبات السياسة والعوز والنكبات. كنت أنوي القيام بأعمال تطوعية في دنيا بعيدة لمساعدة

الآخرين والعيش بينهم ومعرفة أوضاعهم. إلا أن هذا الحلم وهذه الطموحات انطفأت في لحظه خاطفة ولم يعد لها وجود سوى في عقلي وتصوراتي. وكلما سمعت في نشرة الأخبار عن حوادث المجاعة وشاهدت فيلماً وثائقياً عن نكبات الشعوب الآسيوية والأفريقية، تجدني أتألم غاية الألم، وعندما أفشل في فعل شيء للمساعدة، أهرب من الواقع المر وألوذ بالمحلول السحري الموجود في هذه الزجاجة.

ابتسم وشدّ على خصرها بيديه وقال: هل تظنين يا ريتشل أن شخصاً غريباً مثلي يستطيع في وقت قصير انتشالك من الحفرة العميقة التي تعيشين فيها؟ هل تعرفين عملاً يمكن تقديمه لك سوى عملك في الصحيفة؟

قالت: بالطبع لن تستطيع انتشالي مما أنا فيه من ارتباك، ما أعرفه عنك قليل إلا أني أشعر معك بالراحة والسرور.

قال: إني غريب ونزحت لهذه الضاحية بعد تخرجي من الجامعة مباشرة للعمل في هذه الصحيفة، حياتي أنا الآخر في موجات من التقلب ولا أعرف أين ومتى ستستقر وأين ستقذف بي الأيام في المستقبل. أعدك أني طوال وجودي في هذا المكان وفي هذه الوظيفة سأعمل جهدي لمساعدتك بطريقة أو بأخرى، لكن كما تعرفين، لا يسمح لنا في العمل البوح بصداقتنا بطريقه مفتوحة. وأخشى إن اكتشفت إدارة الصحيفة سر العلاقة التي تربط بيننا أن نُطرد، ورغم هذه الصعوبة سأحاول مساعدتك ولندع ما بيننا سراً لنتفادى مشاكل نحن الاثنين في غنى عنها.

هزت رأسها بالموافقة وابتسمت، ووقفت أمامه وهي تتمطى بنشاط

وحيوية، مجرد الكلام معه أعطاها دفعة من القوة والفرح. وبدأت ترقص رقصة الفلامنغو الإسبانية وهي ترفع بيدها شعرها الأسود الطويل المنسدل حتى كتفيها، وتناولت قصاصة صحيفة من على الطاولة ووضعتها على شعرها لتعمل شكلاً يشبه الزهور التي تزين به الراقصات الإسبانيات شعورهن. وفتحت حقيبة يدها وتناولت أحمر شفاه، نشف من قلة الاستعمال، ووضعت منه على شفتيها وأخذت تضرب بقدميها على الأرض. نظر إليها مبتسماً وصفق؛ نهض وسحبها من يدها ودس جسدها العاري بين الفرش، وبلهفة ألقى بجسده بجانبها وهما يضحكان في غبطة وكأن دموعها جفت إلى الأبد وهمومها تبخرت من دون عودة.

وتناول منديلاً ومسح أحمر الشفاه من على شفتيها قائلاً: لا أستسيغ تقبيلك وهذا الطلاء يقف حاجزاً بين شفاهنا العطشى. وغابا في قبلة محمومة وهي ترتعش بين ذراعيه القويتين. لكنها لم تنس زجاجة النبيذ القابعة تحت السرير، تناولتها وأخذت منها رشفات قبل أن تسبح معه في بحور عميقة من الحب واللذة.

منذ تلك الليلة استمرت علاقاتهما في مجرى من السرية والتخفي؛ يقضي نهاية الأسبوع في شقتها ويذهبان للتنزه والمعارض الفنية والسينما والعروض الموسيقية.

ما لم يدركه في بادئ الأمر أن ريتشل مدمنة على الكحول والكوكايين؛ ذلك هو سبب التوتر الذي يهيمن على حياتها. وكثيراً ما كان يسهر بجانبها ليقلل من التوتر الذي ينتابها؛ ذات يوم وصل شقتها في اللحظة الأخيرة التي كانت تحاول فيها قطع وريدها والتخلص من حياتها. وظلّت المشاجرات تنشب بينهما وتهدده بالخروج من البيت عارية بحجة التخلص من همومها

ومآسيها وتقول له إنها تود الانتحار لأنها ما عادت تتحمل ضغوط الحياة. وكثيراً ما كان يمسك بيدها ويشدها إلى داخل الشقة قبل أن يراها الجيران وهي عارية. ذات مرة رآهما أحد الجيران فطلب الشرطة ظناً منه أن الرجل يهين المرأة، فحضر رجال الشرطة وعرفوا حقيقة الأمر وتركوهما في سبيلهما.

إدمانها على الكحول كان سبب غيابها المتواصل عن العمل؛ وكان هو يذهب ليطمئن إلى صحتها فيجدها في شبه غيبوبة ترقد على أرضية الحجرة من دون ملابس وشعرها متناثر على وجهها. في يوم من الأيام رفعت زجاجة الفودكا الموجودة بجانبها وقذفته به وكادت أن تصيبه؛ رغم ذلك كان يشعر بالشفقة تجاهها ويتفهم المشاكل التي تعصف بها. كان يخاف من أن تحرق نفسها لأنها تدخن وهي في حالة سكر، مرات كثيرة كان يجد بقع الحروق على الفرش الذي ترقد عليه، وفي مرة حرقت فخذها من دون أن تشعر.

وبسبب المعاناة الجسدية والتوتر النفسي، بدأ جمالها يذبل وأهملت صبغ شعرها الطويل وغسلة وتصفيفه، وانخفض وزنها حتى غدت تشبه الهيكل العظمي وسكان القبور. وعلى الرغم من حالتها المزرية ظلت تربطهما لحظات جميلة تتميز بالأنس والمشاركة؛ يتناقشان في مواضيع الأدب والسياسة، ويعدّان أطباق الطعام ويتمتعان بتذوقها. نجحا في إخفاء العلاقة بينهما عن الآخرين؛ أوقاته مع ريتشل تعيده إلى اللحظات الجميلة التي قضاها مع امرأة متزوجة أخرى تسمى كولييت.

ذات يوم لم تأت ريتشل للعمل ولم تتصل به؛ لم يستنكر غيابها بسبب تعوده عليه، ولأمر غريب لم يتصل بها. ومرت أربعة أيام

ولا خبر منها؛ فهي تعمل في قسم آخر غير القسم الذي يعمل فيه. وبعدما طالت مدة غيابها سأل عنها فقيل له إن زوجها عاد من الشرق الأوسط ولهذا قدمت استقالتها لكي تستعد للعودة معه لبلده. صعق للخبر المفاجئ لكنه احترم رغبتها في عدم إخباره بما يجري في حياتها ولم يحاول الاتصال بها. وهكذا انتهت قصة غرام أخرى.

بعد أسابيع قليلة من استقالة ريتشل، وصلته رسالة مضمونها أن صحيفة وطنية معروفة في لندن تقدم له عرض عمل بصفة محرر لصفحتها الاقتصادية. وظيفة طالما حلم بها لكنه لم يتوقعها لأنه لم يبحث عنها. فكرة البحث عن عمل آخر راودته بين الحين والآخر؛ كانت مفاجأة سارة للغاية. قبل الوظيفة الجديدة ووضع شروط عمل جيدة تشمل المسكن والراتب الشهري وعلاوة تقاعد وامتيازات عديدة، فوافقت عليها الصحيفة دون تردد.

أخبر أباه وأمه بالعمل الجديد وانتقاله للندن وأعطاهم فكرة عن التحولات المحتملة التي ستحدث في حياته نتيجة للانتقال إلى لندن. وذهب لزيارتهما قبل رحيله، فوجد صحتهما أسوأ مما كانت عليه؛ والده مريض في الكلى وأمه مصابة بمرض ترقق العظام.

في يوم السفر، اتجه لمحطة القطار بحقيبة صغيرة بها القليل مما سيحتاج له في أسبوعه الأول في لندن؛ باقي متاعه بعث به ليصل لمقره الجديد في وقت لاحق. كان في نشوة وتفاؤل بالفوز الذي أحرزه، فقد حصل على وظيفة مميزة وهو ما زال صغيراً في العمر وخبرته العملية قصيرة. وعندما صفر القطار معلناً بداية الرحلة، خالجه شعور بأنه يودع المنطقة التي شهدت بداية حياته العملية وفي الوقت نفيسه يودع كل ما عاشه في الماضي؛ رأى أمامه حياة

جديدة تختلف تماما عن حياة الأمس. في القطار، حاول شغل نفسه بالقراءة حتى وصل بعد ساعتين ونصف الساعة من السفر إلى محطة بادنغتون في لندن.

اندفعت الأعداد الكبيرة خارج القطار في هرولة سريعة للوصول لأعمالهم ومهامهم. كانت المحطة تضج بالحركة مثل خلية النحل، ناس يدخلون وآخرون يخرجون وتختلط أصوات القطارات بصوت مكبر الصوت الذي يعلن جدول الرحلات المتوقعة. مثّل ضجيج المحطة الجرعة الأولى لنوع الحياة التي سيعيشها في المدينة الكبيرة. واصل سيره حتى موقف سيارات الأجرة ووقف في طابور طويل في انتظار سيارة أجرة؛ أتى دوره فطلب من السائق أن يوصله للمنزل «رقم خمسين، شارع وليم ولبر فورس» في حارة هولبون القريبة من هولبورن فايداك. أثناء الرحلة، لم يتحدث معه السائق ولم يعطه اهتماماً خاصاً؛ السائق يسرع في محاولة للانتهاء من الراكب الحالي والحصول على الراكب الذي يليه.

تجاهل أمر السائق وبدأ بالتأمل في وضعه الجديد: كيف استطاع الحصول على المنصب الهام على الرغم من وجود نخبة من الصحافيين المرموقين في لندن والمعروفين بخبرتهم الواسعة ولمعان أسمائهم في عالم الصحافة؟ رد على نفسه ببعض الغرور والتباهي: المقالات المتميزة التي كنت أطرح فيها تحليلات مختلفة عن المعتاد هي التي ساعدتني في الحصول على عمل في صحيفة مرموقة وذات سمعة كبيرة. في الحقيقة، طرق أبواباً كانت موصدة حين يتم تناول الشؤون الاقتصادية ولم يطرقها صحافي آخر من قبل، وسلك طرقاً صحافية لم يسلكها الآخرون؛ يخاف أغلب كتاب الأعمدة في الصحافة البريطانية من الخروج عن المألوف والسائد

من آراء وتحليلات. شعر بالراحة والغبطة من التفسير الذي توصل إليه.

وواصل النقاش الداخلي قائلاً لنفسه: سأحرك الركود الذي يخيم على الصفحة التي سأبدأ في تحريرها غداً، وسأفعل كما فعلت في الصحيفة التي كنت أعمل فيها. لكن، قد يكون الأمر الجديد مختلفاً عن القديم؛ هذه لندن وليست مدينة إقليمية، ورئيس التحرير السابق كان يشجع الأفكار الجديدة: ماذا أفعل لو أن رئيس التحرير الجديد يختلف عن سابقه؟ وأخذ عهداً على نفسه أن يدخل فلسفة مختلفة عن الفلسفة الرتيبة التي يعتمد عليها الصحافيون الآخرون في تحليلهم للمواضيع في هذه الجريدة وسينظر للأمور بمنظار جديد. وتمنى أن يحالفه الحظ في أن يحلل الأحداث باتزان وإنسانية لا بمعايير اقتصادية جافة لا تضع اعتباراً جدياً للواقع المعاش.

وصلت به السيارة إلى أمام مكانه الجديد: عمارة ذات طراز معماري قديم ولا تبعد كثيراً عن مقر عمله في الصحيفة. وفوراً شعر باختلاف ملموس في كل شيء حوله، الشوارع والمباني وهيئة الناس وطريقة لبسهم وتعاملهم فيما بينهم. الأشياء الجديدة التي شاهدها دفعة واحدة سببت له شيئاً من الاضطراب والارتباك؛ ربما خاف من المجهول؟

وأخذ يقلّب في ذهنه الأمر الذي أربكه لكنه لم يجد إجابة مقنعة. في داخله ظن أن الاضطراب الذي أصابه يعود لخيبة الأمل من المستوى المتواضع الذي ظهر به مسكنه الجديد؛ تصوره في عمارة ذات هندسة معمارية حديثة، تشبه العمارة التي سكنت فيها زميلته وصديقته ريتشل. كان قد سمع وقرأ الكثير عن حداثة المعمار في

لندن والذي قام على أنقاض القصف الألماني أيام الحرب العالمية الثانية، كما سمع عن الأسماء التي ساهمت في هندسة معمار لندن الحديثة. نمط العمارة الكلاسيكي ذكّره بعراقة لندن وتاريخها القديم.

داخل العمارة، قابله رجل طويل على مشارف الستين من عمره، له شعر كثيف صفف بعناية فائقة ويرتدي بدلة عمل رمادية وربطة عنق سوداء وعلى عينيه نظارة طبية بإطار ذهبي قديم. مشى الرجل نحوه فلاحظ أن به عرجاً خفيفاً؛ قدم الرجل نفسه قائلاً: أنا بروس آدم حارس العمارة، أنت الأستاذ ناجي، أليس كذلك؟ قال: نعم. وعاد الرجل إلى خلف الطاولة حيث كان يجلس وتناول مجموعة مفاتيح وأعطاها له ثم قال: في أي وقت تحتاج إلى مساعدتي اطلبني على الرقم واحد.

حاول بروس مساعدة ناجي في حمل حقيبته الصغيرة إلى داخل المصعد، لكن الأخير شكره واحتفظ بها ثم دخل مصعداً صغيراً جوانبه مغطاة بالخشب القديم وتتصدره مرآه قديمة يكاد الفرد يرى نفسه فيها. ودع بروس وضغط على الزر المؤدي للطابق الرابع ووصل أمام باب الشقة الجديدة. دخل الشقة فلاحظ العتمة تعم المكان لأن الستائر جميعها مسدلة؛ ضغط على زر الإضارة وتبين له أن الأرضية مفروشة بسجاد سميك ذي لون غامق والسقف تتصدره ثريا كبيرة. أثاث الشقة وثير وتفوح منه رائحة زهور ناشفة تناسب هندسة وتصميم المكان الذي يعيش في غمرة الحرب العالمية الثانية؛ لم تمر على المكان الحداثة التي طرأت على الديكور في الستينيات.

اتجه إلى الستائر وفتحها الواحدة تلو الأخرى، ولدهشته ظهرت

أمام عينيه من بعيد كاتدرائية القديس بول ذات التصميم المعماري الفريد والقبة المستديرة، لقد أضفت على المكان نكهة مميزة من العظمة والعراقة. قرر زيارتها في أقرب فرصة ممكنة كما قرر زيارة الأماكن الأثرية في لندن مثل المكتبة البريطانية. المكتبة البريطانية حلم يراوده منذ أن كان أساتذته في الجامعة يتحدثون عنها ويذكرون من كانوا أعضاء فيها من رواد الآداب والعلوم؛ قرر أن يحصل على عضوية هذه المؤسسة العريقة. منظر الكاتدرائية أوحى له كأنه يعيش في عهد دكنز وجون بتشمان وايرس ماردوك وغيرهم من عمالقة الأدب والسياسة والتاريخ الإنكليزي العريق.

شعر بالوحشة والانقباض من الشقة وجوارها ومحيطها الواسع في المدينة. سقف الشقة عال وهي معتمة ولا نوافذ كبيرة بها، وتختلف عن المحيط الذي حولها. ذهب للحمام ليغسل وجهه ولينفض عنه تعب السفر وليشعر بالحيوية والانتعاش. بعد ذلك، اتصل بأبيه وأمه ليخبرهما عن وصوله بالسلامة واستقراره في مسكنه الجديد؛ وصف لهما بعض ما رأى وخاصة الكاتدرائية، وطلب منهما زيارته فور استقراره في العمل. أوصياه بشيء من الجد والمزاح أن يبذل مجهوداً كبيراً لتفادي الجوانب السيئة التي تعج بها لندن وليبتعد عن حياة الإغراء والمجون.

شعر وكأن لندن قد جذبته إليها وجعلته يولد من جديد ووضعت أمامه احتمالات لا حصر لها في مجالات العمل والعلاقات. وأخذ خياله يصور له كيف سيكون طعم الحياة في الزمن الذي يقضيه في تلك المدينة الضخمة. تعهد أن يعيش حياة لندن بالطول والعرض وأن يكون عمله وسيلة للحياة الرغدة؛ قال: لن أعيش للعمل بل سأعمل لأعيش. قرر أن يتصرف، لا كما كان في

الضواحي، مثل كل الصحافيين المثقفين، ويعمل جاهداً للتعرف إلى لندن والاستفادة من الفرص المتعددة التي تمنحها له. سيكون مستقبله أفضل من ماضيه وسينجح نجاحاً منقطع النظير.

استلقى على السرير لمدة قصيرة ثم نهض بينما الساعة تشير إلى السادسة في المساء. أحس ببعض الإرهاق إلا أنه لم يستطع مقاومة إغراء الخروج؛ أراد رؤية لندن والتعرف إليها من ليلته الأولى فيها. قرر الذهاب للشوارع القريبة من بيته لتجربة حركة المرور والناس التي لم يعهد مثل سرعتها في الضاحية التي عاش فيها، الناس في المطاعم والحوانيت والحافلات تدخل وتخرج كما تفعل جحافل النمل. عند خروجه، كان أول ما رأى حانة كأي حانة بريطانية، عريقة الشكل وعلى زجاج نوافذها كتابة كلاسيكية بحروف ذهبية؛ حاول ألا يخضع للإغراء والدخول لتناول كأس قبل أن ينتهي من المشوار القصير الذي قصد منه رؤية المكان. مقارنة بالضواحي التي تتميز فيها حياة الناس وأشكالهم بالبساطة، الشوارع في لندن تنبض بالحياة ولبس الناس متعدد الألوان والتصاميم.

الانطباع الأولي عن لندن أضحكه فقال مخاطباً نفسه: ها قد وصلت لعاصمة الغرباء وأصبحت واحداً من غرباء المدينة الضخمة. دعوني أعيش الغربة وأتمتع بها؛ دعوني أضيع في لندن كما ضاع غرباء كثيرون من قبلي في أتون المدن الضخمة التي تشبه الأخطبوط. دعوني أتمتع بوقتي حتى الثمالة، من عادة الغريب عدم المبالاة بالطقوس والمحظورات الاجتماعية لأنه يدع الحبل على الغارب ليبحر به في بحار لا ساحل لها.

بدأت المعايير التي يقيس بها ما يراه أمامه تتضارب، وبدأ يجد صعوبة في فهم الناس والشوارع والمطاعم والحانات والحافلات

والمساكن وكل مؤسسات المدينة. صار يقيس كل شيء يراه بمعيار اقتصادي، ثم رأى أن يطبق الاقتصاد السياسي معياراً مناسباً للوصول لإجابات مقنعة لما يدور حوله من وقائع وأحداث. واستنتج أن الوقت ما زال مبكراً لإجراء عملية حسابية منظمة كي يصل لإجابات عن الأسئلة التي تتضارب في ذهنه؛ الأمر سيتطلب أسابيع وشهوراً ليربط الجوانب المختلفة للأشياء من خلال أرقام ومعادلات اقتصادية؛ عليه تأجيل طرح الأسئلة لوقت لاحق.

وهو يمشي في الشوارع لاحظ وجود اختلاف ظاهر بين أشكال النساء في لندن وأشكال نساء الضواحي. في لندن لا يكاد الفرد يستطيع الإفلات من النظر للنساء بسبب الإغراء الظاهر عليهن، فهناك المكياج الصارخ واللبس الجذاب وطريقة المشي. هذا لا يحدث عند نساء الضواحي. أمامه لوحات الإعلان الكبيرة التي تعج بصور لنساء مغريات، معلقة في الطرقات وملصقة على الباصات الحمراء العالية التي تُعرف بها لندن. المرأة المغرية تروج للمنتجات والخدمات المختلفة، دلالة على حيوية الحركة الاقتصادية التي تستخدم الإغراء لكسب الزبائن.

نظر إلى لوحة دعاية عليها صورة لعارضة أزياء تنتمي لواحد من بيوت الأزياء العالمية المشهورة. العارضة تمشي على اللوحة وكأنها ستنزل منها وتقف أمامه؛ العارضة ترتدي معطفاً أبيض وتنورة قصيرة من الفرو، وعليها ابتسامة عريضة ومغرية. قال: من دون شك سيكون للنساء دور مهم في حياتي الجديدة وسأحقق نجاحاً كبيراً في هذا المجال لكوني غير متزوج ولا تربطني علاقة متينة مع أي إنسان. هنا تذكر ريتشل السيدة المتزوجة التي انسحبت كالطيف من حلبة الحب التي كانا يدوران داخلها.

وشعر بنشوة طاغية وقادته أرجله إلى الحانة القريبة من البيت والتي رآها عند خروجه من عمارته الجديدة. الحانة تستقبل روادها وأغلب الموجودين رجال في سترات عمل رسمية ومجموعة صغيرة من النساء. اشترى كأساً من النبيذ وجلس على كرسي منعزل وأخذ يراقب الناس ويتمعن في أشكالهم ويسمع ما يقولونه، وركز على مجموعة من رجال الأعمال تقف بالقرب منه. بعد فترة وجيزة من قدومه، بدأت الحانة تعج بالمرتادين فشعر بالألفة نحو المكان والتواصل مع جميع الحضور.

عند عودته للبيت، وجد حارس العمارة واقفاً في المكان الذي تركه فيه وكأنه لم يتحرك قيد أنملة. ألقى البواب عليه التحية وهو يتبسم ابتسامة تنم عن أنه عرف أن الساكن الجديد رجع وهو في حالة سكر. وتقدم البواب وضغط على زر المصعد المؤدي لشقة الساكن الجديد وتمنى له ليلة سعيدة. عند وصوله لشقته، لم يحاول إضاءة النور فتخبط وسط الظلمة حتى وصل حجرة النوم؛ ألقى بجسده المتعب على السرير ولم يخلع حذاءه خوفاً من أن يهرب النوم من عيونه. هو في أمسّ الحاجة للراحة، صباح الغد سيقابل رئيس تحرير الصحيفة التي سيعمل فيها.

استيقظ في ساعات الصباح الأولى من اليوم التالي وفتح المذياع ليستمع للمحطة الرابعة في هيئة الإذاعة البريطانية. ظل راقداً في السرير لبرهة من الزمن وهو يتأمل الحجرة وجدرانها وسقفها والأثاث الموجود فيها. ليلته كانت صعبة فقد رأى مناماً مزعجاً؛ رأى فيما يرى النائم أمه تجري حافية القدمين حاسرة الرأس في شوارع مكتظة بجنود يتقاتلون بالسيوف والحراب والدماء تسيل حتى وصلت ركبتيه. نظر للسرير وشعر برغبة في النوم من جديد

لكنه نهض كي يستعد ليومه الجديد، اليوم الهام الذي سيقابل فيه رئيس تحرير الجريدة وذلك عند العاشرة صباحاً.

وعند التاسعة والنصف وصل مكتب رئيس التحرير فاستقبلوه وقدموا له القهوة ونسخاً من الصحف الصباحية، ثم أدخلوه ليقابل رئيس التحرير، السيد ماثيو هوبكن. قدر أن رئيس التحرير قد تجاوز الستين من عمره، كما لاحظ أن الرجل يتميز بدرجة عالية من الترتيب والنظام والنظافة، وأنه يتكلم بصوت مريح وهادئ. رحب به ماثيو وطلب منه الجلوس لكنه لم يطرح عليه أسئلة المجاملة التي درج الناس على طرحها في مثل تلك المناسبات مثل وسيلة المواصلات التي استقلها في سفره ورأيه في المدينة والمسكن الجديد. تناول سماعة الهاتف وأدار رقمين ليطلب من امرأة تدعى شارلوت الحضور لمكتبه. ثوان ودخلت فتاة طويلة رشيقة القوام شعرها مصفف بعناية فائقة وكأن مصففة الشعر قد قضت وقتاً طويلاً تلصق الشعرة تلو الأخرى دون أن تكل أو تمل. ترتدي شارلوت تنوره زرقاء وقميصاً أبيض، وتضع في إصبعها خاتماً عليه فص من الحجر الأزرق الثمين. لم تنظر إليه بل وجهت نظرها واهتمامها تجاه رئيس التحرير.

أشار رئيس التحرير إلى ناجي وقال: هذا زميلنا الجديد الأستاذ ناجي لورنس؛ سيقوم بإدارة وتحرير الصفحة الاقتصادية في الجريدة. نظرت له نظرة سريعة تنم عن أن أمره لا يعنيها كثيراً، ووقفت أمامهما باحترام تنتظر تعليمات رئيس التحرير. طلب منها ماثيو إحضار الماء والشاي والبسكويت، فغادرت المكتب بخطوات محسوبة وكأنها إنسان آلي ينفذ الأوامر من دون روح أو لمسة إنسانية.

اعتدل ماثيو في جلسته ثم نظر نحو ناجي وقال له: مهمتك الأولى تتمثل في قراءة هذه الورقة وكتابة البيانات المطلوبة فيها، وإن وافقت على مضمونها، فسلمها لي مشكوراً.

ثم استطرد رئيس التحرير قائلاً: كما تعرف، جريدتنا من أشهر الجرائد اليومية في لندن وأهمها، ولها انتشار واسع؛ نحن نفوز على الصحف الأخرى ونحوز على أوسمة التقدير الوطنية في الأداء المتميز عاماً بعد عام. ولكي نحافظ على مركزنا في الصدارة، نحاول دوماً تجديد مواضيعها واهتماماتها السياسية والاقتصادية، ونعمل على مواكبة المستجدات والمتغيرات التي تحدث على المستويين الوطني والعالمي. لكننا لا نتبع الطرق الثورية، ونتمسك بالأصول والأعراف الصحافية المتوارثة جيلاً بعد جيل؛ نحن نمارس الصحافة بطريقة حصيفة تتمثل في نشر المواضيع والأخبار المناسبة في الوقت المناسب. ونهتم في المقام الأول بزيادة معدل المبيعات اليومية من الجريدة ونحصل على أكبر قدر من الإعلانات التجارية المطروحة في السوق. وآمل أن تستطيع مساعدتنا في هدفنا من خلال تجديد الصفحة الاقتصادية التي ستتولى أمرها، فهي من أهم الصفحات بالنسبة لكل الصحف اليومية.

وواصل رئيس التحرير شرح سياسة الجريدة بقوله: محرر الصفحة الاقتصادية السابق، السيد هيربيرت أنتوني ميدليي، قام بعمل جيد في إدارة الصفحة، لكن للأسف فقدناه منذ فترة قريبة بسبب الوفاة، ومن حينها ونحن نبحث عن بديل له حتى نجحنا في العثور عليك؛ مبروك عليك الوظيفة. وفي الحقيقة أملنا كبير في أنك ستواصل تطوير الصفحة وتزويدها بأخبار ومعلومات اقتصادية جيدة، ونحن نتوقع أن يثمر قدومك حصولنا على المزيد من القراء

خاصة وسط الفئات السياسية والاقتصادية والتجارية. وأنا على ثقة في أنك لن تبخل بمجهودك للرفع من شأن الجريدة كلها من الجوانب الفنية والإدارية والإنسانية.

وأضاف السيد ماثيو بلهجة حاسمة وهو ينظر في عيون ناجي بتركيز شديد: هناك أمر أريد تحديده لك أكثر من أي أمر آخر ومن الضروري التقيد به وعدم الخروج عنه. لا تدع مقالاتك تتصف بالتحيز السياسي أو الاقتصادي ولا تناصر نظرية سياسية أو اقتصادية بعينها ضد نظرية أخرى؛ لا يمكنك ممارسة التحيز حتى لو كنت تؤمن بأهمية تأييد موقف محدد أو كانت لك آراء مسبقة تبنيتها منذ كنت تعمل في جريدتك السابقة. نحن في هذه الصحيفة نحمل راية الحياد؛ عندنا الأمر مختلف عن الصحف الإقليمية حيث يسود التحيز لمجموعات وفئات معينة. نحن نعمل في صحيفة قومية، يصح لي وبفخر ومن دون مبالغة وصفها بالصحيفة العالمية، ويتابعنا قراء ومحللون من مختلف بلدان العالم، ولنا متابعون مهمون في أوروبا والولايات المتحدة واليابان، وهناك دول كثيرة تطالبنا بالوصول إليها في أسرع وقت ممكن. علينا عدم الجري وراء التحيز لأنه يفقدنا القراء والمتابعين ورجال المال والأعمال.

قطعت هذا الشرح السكرتيرة شارلوت عندما دخلت المكتب وهي تحمل المشروبات والبسكويت التي طلبها رئيس التحرير. أخذت عيونه تدور في المكتب؛ تتصدر المكتب طاولة مستديرة جلس رئيس التحرير خلفها، وعُلق على الحائط عدد من الصور لرؤساء دول مختلفة وهم يصافحون ماثيو، منهم تيتو وفيدل كاسترو وبرجينيف ونيكسون وجمال عبد الناصر إضافة إلى عدد من

مشاهير السياسة والفن والمجتمع. وعلى طاولات أخرى إطارات مذهبة فيها قصاصات صحافية تبرز أخباراً تتعلق بأحداث هامة سبق للصحيفة القيام بدور كبير في متابعتها ونقلها للقراء والمتابعين، فضلاً عن قصاصات معلقة على جدران الحجرة الأربعة.

هيئة المكتب وكلام رئيس التحرير جعلاه يدرك، بصورة لا تقبل الجدل، أهمية عمله الجديد ويتيقن أنه قد دخل لأول مرة عالم الصحافة العالمية، عالماً يفوق العالم المحدود الذي عاشه في عهد الصحيفة الإقليمية الذي عمل فيها في بداية حياته المهنية.

لذلك لم يكن غريباً أنه رد على كلام ماثيو بقوله: سأبذل ما في استطاعتي من جهد لتطوير الجريدة حتى تحرز أكبر تقدم ممكن خصوصاً في مجال عملي وتخصصي. قال ماثيو: أما عن علاوتك وراتبك الشهري، فقد وافقت إدارة الصحيفة عليه كما وافقت على علاوة التقاعد التي طلبتها؛ سنبحث لك عن مسكن جديد في قلب لندن إن لم يرق لك المسكن الحالي. وقبل أن يسمع رد ناجي، رفع ماثيو سماعة الهاتف وطلب من أحد الموظفين في الجريدة الحضور لمكتبه. قال ناجي في رده على موضوع المسكن إنه مرتاح في الشقة التي سكن فيها ولا ينقصه شيء وهو في غاية السعادة لأن الشقة تطل على كاتدرائية القديس بول الشهيرة. قال ماثيو: إدارة الصحيفة اختارت الشقة بسبب هذا المنظر الكلاسيكي الذي يندر أن تجده في لندن.

دخلت عليهم سيدة متقدمة في العمر. قال ماثيو لناجي: هذه دافني ولنغتون التي تعمل معنا منذ سنين طويلة وقد حاولت التقاعد مرات عديدة إلا أننا رفضنا طلبها لاعتمادنا الكبير عليها، فهي سكرتيرة ذات مستوى رفيع وخبرة طويلة ولا يمكن الاستغناء

عنها بسهولة. دافني هي سكرتيرة لاثنين من محرري الصفحة الاقتصادية السابقين؛ عملت مع هانري وبعده هيربيرت والآن ستكون سكرتيرتك الخاصة. ثم أشار بيده تجاه ناجي وقال لدافني: هذا هو الأستاذ ناجي لورنس المحرر الجديد للصفحة الاقتصادية.

تبادل ناجي النظرات السريعة مع دافني؛ لم يستطع تكوين صورة محددة المعالم لها غير أنها امرأة متقدمة في العمر. دافني ارتدت ملابس محتشمة، عبارة عن فستان من الصوف الخالص المطعم بخطوط ذهبية، وشعرها مرفوع إلى أعلى، شعر أشقر تتخلله شعيرات بيضاء في الأماكن التي انحسرت عنها الصبغة، وعلى جيدها قلادة من اللؤلؤ الثمين.

وقفت دافني أمامهما ثم اتجهت إلى الباب وخرجت بأدب واحترام. أخذ عقله يعقد مقارنة بين دافني وسكرتيرة رئيس التحرير من ناحية وبين سكرتيرات الصحيفة الإقليمية؛ لاحظ فروقاً هامة في الشكل والأسلوب. سكرتيرات الصحيفة الإقليمية لم يتمتعن بدرجة عالية من اللياقة والتهذيب والرزانة التي توجد عند شارلوت ودافني.

مكتب ماثيو ظهر له أشبه بمكتب يعمل في بيت خاص أكثر من كونه مكتباً في صحيفة يومية؛ المكان هادئ حتى كأنه يسخر من السرعة التي تحدث بها الوقائع وتحرر بها الأخبار. علّل الاختلاف بنوعيه المكان الذي تقع فيه الصحيفتان؛ الصحيفة الجديدة تقع في لندن وهي صحيفة ميسورة الحال ومهمة، أما الصحيفة السابقة فتقع في ضاحية صغيره وتهتم بأخبار الجرائم أكثر من اهتمامها بالمواضيع الوطنية والعالمية.

حياته الجديدة في الصحيفة بدأت برتابة وملل، إلا أن متطلبات العمل الكثيرة وساعاته الطويلة قللت آثار الرتابة والملل الذي أصابه. كان يقضي ساعات طويلة مع سكرتيرته الخاصة دافني؛ عند معرفته بها لم يقرأ على وجهها، ولم يجد في تصرفاتها أي شيء غريب أو خارج عن المعتاد والمألوف. تميز أسلوب عملها بمستوى عال من الدقة والجودة؛ اعتمد على خبرتها في إنجاز العمل لأقصى الحدود. دافني تدير العمل وترتبه بصوره دقيقة ومتوازنة؛ اتضحت له أمور كثيرة عن شخصيتها مثل تعلقها الشديد بالنظام وحبها للسيطرة على الأمور من كل نواحيها.

بعد مرور زمن قصير، أصبحت دافني هي التي تدون كل مواعيد عمله وتطبع المقالات وتراجع اللغة وتصححها؛ تعمل ذلك إن طلب منها ذلك أو لم يطلب. في الواقع لم تعطه فرصة ليطلب منها القيام بعملها؛ تنجز المهام وهو ينقاد لخياراتها دون أخذ وردّ، يمشي في درب الواقع الجديد دون ممانعة أو تردد.

في جو الصحيفة الضيق، أصبح هو ودافني مثل كيان مستقل له وجود منفصل عن باقي أجزاء الصحيفة؛ لا يختلطان بأحد سوى في حالات الضرورة القصوى. وساعد الحجم الكبير للصحيفة واتساع مبناها وعدد الصحافيين والعاملين على تمكين ناجي ودافني من العمل بحرية ودون تدخل من الآخرين.

بجانب جدارتها في العمل، لدافني ميزة أخرى تمثلت في أنها أغدقت على ناجي الكثير من العطف والحنان؛ لم تعطه الفرصة لتناول قلمه من على الدرج كلما احتاج لاستعماله، تقدم له المساعدة في كل كبيرة وصغيرة. وجودها هيمن عليه في كل لحظة ودقيقة في العمل، حتى أنه بدأ يتضايق بعض الشيء لأنه شعر

بفقدان الاستقلال الذي تمتع به في السابق، شعر أنها تجعله يعتمد عليها أكثر من الحد المعقول.

اعتقد أن تصرف دافني يعود للأسلوب المتبع من السكرتيرات عموماً وللخلفية التي تنتمي لها من حيث التعليم والتربية الأسرية. فقد عرف أنها خريجة الأكاديمية الملكية للسكرتارية في لندن، وأنها تنحدر من أسرة مكونة من خمس بنات وثلاثة صبيان، وأنها البنت الوحيدة من بين أخواتها التي لم تتزوج بعد. أسرتها بريطانية الأصل وقد سبق لها أن نزحت إلى جنوب أفريقيا واستقرت هناك وانضمت للأسر العريقة التي امتلكت الأراضي الشاسعة وجمعت الثروات الضخمة؛ خصصت الأسرة جزءاً من ثروتها للاستثمار في زراعة العنب والمتاجرة في الذهب والماس. ومع مرور الأعوام، خسرت الأسرة الكثير من المال، وتلقت ضربة قاضية في إحدى الصفقات التي تطلبت قرضاً كبيراً من البنك ولم تستطع تسديده، فما كان من البنك سوى تملك ما لا يقل عن ثمانين في المائة من أملاكها. عندما وجدت الأسرة نفسها في وضع مالي ضعيف، عادت أدراجها لبريطانيا ومعها القليل مما استطاعت الاحتفاظ به من الثروة.

دافني لم تتزوج، لذلك من الطبيعي أنها انخرطت في مجال الوظيفة وهي في سن مبكرة من عمرها، وذلك بعد تخرجها من المعهد الملكي للسكرتارية. لم يكن بمقدور أبويها تقديم العون المادي لها لمواصلة دراستها العليا وذلك بسبب الوضع المادي الذي عانت منه الأسرة. وأول عمل انخرطت فيه، فقدته بسبب حادث غريب.

بعد ذلك، ساعدها الحظ على العثور على العمل في الصحيفة التي انضم إليها ناجي، لتعمل سكرتيرة لمحرري الصفحة الاقتصادية.

ظل عدم زواج دافني مصدر خجل وقلق لأسرتها؛ لم ترد الأسرة أن تكابد ابنتهم مصاعب الحياة بمفردها ومن دون شريك، كما لم ترد أن يظن الناس أن ابنتهم لم توفق في الزواج بسبب عيب في شخصيتها وشكلها. وعلى الرغم من القلق والخجل اللذين أصاباهم، لم يستطع أفراد الأسرة عمل شيء إزاء مشكلة عزوبية دافني. ما كان يهون الأمر على الأسرة، هو أن دافني ليست الفتاة الوحيدة في الوسط الأرستقراطي الذي تنتمي إليه التي لم تنجح في العثور على الاستقرار الشخصي في الزواج؛ فهناك عدد ليس بالقليل من فتيات طبقتها الاجتماعية وجدن أنفسهن في مشكلة العزوبية الطويلة. لم تحظ بنات طبقة الأرستقراطيين بالزواج، على الرغم من ثقافتهن العالية والمهارات التي يتمتعن بها، مثل التدبير المنزلي والعزف على البيانو والخياطة والطبخ والتحدث بلغات عديدة والقراءة والرقص والتطريز والفن. فتيات الطبقة الأرستقراطية من جيل دافني تنقصهن مهارات الأنوثة وإغراء الجنس الآخر للحصول على زوج من بين الفتيان والرجال.

وتعارف الناس في ذلك الوقت على أن الفتيات أمثال دافني لن ينقذهن من هذا المأزق سوى الخروج للعمل. الأسر الأرستقراطية لم تكن تقبل خروج بناتها للعمل إلا على مضض وتحت الظروف الضاغطة؛ أقصى ما يسمح به هو انخراط البنت في العمل الخيري والإنساني مثل الطواف على الكنائس يوم الأحد للعزف على الأرغن وتعليم المعوقين ومساعدة المحتاجين الذين لم ينالوا من نعم الدنيا التي تتمتع بها فتيات الطبقة الأرستقراطية. العمل الخيري مفيد للبنت الأرستقراطية لأنها تجد فيه مهمة تملأ بها وقت الفراغ الكبير الموجودة عندها، وتجد فيه فرصة لترد للمجتمع الواسع شيئاً من النعم التي حصلت عليها طبقتها الاجتماعية.

بجانب العمل الخيري للفتاة الأرستقراطية، هناك الاشتراك في نوادي الرقص للمحترفين والهواة والذهاب للمسارح وزيارة بيوت القطع الأثرية والمزادات المشهورة لاقتناء القطع الثمينة للتخزين في البيوت كممتلكات يتوارثها أفراد الأسر جيلاً بعد جيل. ونهاية الأمر، كتب على البنت الأرستقراطية البقاء في منزل الأسرة لآخر يوم في حياتها لترقص وتغني في حبور وتعيش حياة محدودة الأفق.

لا شك في أن دافني تنحدر من هذه الخلفية المكبلة بالتقاليد الأرستقراطية القديمة، إلا أنها نفرت من الطابع الثقيل الذي تتسم به حياه الناس الذين من خلفيتها الاجتماعية. لم ترد الخضوع للقانون الاجتماعي الصارم وقبول واقع العزوبية القاتم، قررت أن تتغلب على الواقع بأساليب غير تقليدية؛ دافني امرأة ثائرة. بدأت تبحث عن عمل وهي جادة ومتحدية لجميع الحواجز الصعبة التي تضعها خلفيتها الاجتماعية في طريقها؛ أدركت أن العمل سيعطيها شيئاً من الاستقلال ويبعدها عن كنف أبويها وحبهما الزائد.

تم تشاور طويل وسط أسرة دافني، بعد تخرجها من الأكاديمية، تناول الخطوة المناسبة التي عليها القيام بها. استقر الرأي على إرسالها للندن لتقيم بعض الوقت مع إحدى صديقات الأسرة اسمها ميفس، وهي امرأة متقدمة في السن تقوم بتدريس اللغة اللاتينية في مدرسة خاصة للبنات. ووقع الاختيار على ميفس لأن لها خلفيات مشابهه لأسرة دافني من حيث صلتها السابقة بجنوب أفريقيا وعودتها لبريطانيا، كما أن لها صلات اجتماعية قوية بطبقات مختلفة في مجتمع لندن. لعل دافني تجد الفرصة سانحة

لتتعرف أثناء إقامتها في لندن إلى مجموعة أصدقاء جدد من رجال الفكر والسياسة والأدب والفن الذين تعرفهم ميفس، ولعلها تفتن أحدهم ويقرر الزواج منها قبل فوات الأوان.

وهي في لندن، كادت دافني أن تحقق الغاية التي سعت لها أسرتها في أمر الزواج. وكانت العلاقة مع مدرس للموسيقى، يدعى مستر أنغوس مكفارلند، يعمل في المعهد العالي للموسيقى في لندن، رجل يكبرها بما لا يقل عن خمسة وعشرين عاماً. لم يسبق للرجل الزواج وهو يسكن في شقة من شقق المعهد الذي يدرس فيه؛ أسرته تنحدر من أصل اسكتلندي عريق. في إحدى زياراته المتكررة لبيت ميفس، تعرف إلى دافني وأعجب بها وبمهارتها في العزف على البيانو وغناء الأوبرا؛ أجادت دافني في مزاولة فنون يحبها الرجل ويراها من الأشياء التي تدفعه للتعلق بالنساء.

لم يكن غريباً أن بدأ أنغوس يتقرب من دافني ويحاول كسب ودها والدخول في قلبها. وذات أمسية، اصطحبها لدار الأوبرا الملكية التي تقع في كوفنت غاردن لمشاهدة إحدى روائع عروض الأوبرا العالمية. لقد عاملها بغاية اللطف والتهذيب، ومنذ تلك الأمسية تطورت العلاقة الغرامية بينهما، وبدأت دافني تزور أنغوس في الجناح الخاص الذي يعيش فيه في المعهد. زاد معدل الزيارات حتى أصبحت عاده تقوم بها كل يوم، وتطورت العلاقة إلى حد أن دافني بدأت تدير أمور الطبخ والغسيل والمسح في شقة أنغوس. زياراتها اقتصرت على أوقات النهار ولم تصل للمكوث معه في فترة الليل. استمرت ترافقه لقاعات الموسيقى والرقص ودور الأوبرا ومحال القطع الأثرية وتقرأ له من الكتب الكثيرة التي تملأ شقته، قرأت له من روائع الأدب والفلسفة والموسيقى والشعر.

أنغوس لم يحاول الاقتراب من دافني جسدياً، ومع مرور الأيام بدأ ينزوي عنها في صالة الجلوس ليقضي الساعات الطويلة في العزف على البيانو متجاهلاً وجودها معه. تكررت الحالة حتى بدأت دافني تتذمر من إهماله لها.

وفي يوم وهي في أشد الغضب، واجهته بالأمر وكان رده عليها مقتضباً حين قال: ألا ترين أني لم أرتبط حتى هذا العمر بامرأة؛ لماذا لم تسألي عن ذلك، ولم توجهي هذا السؤال لنفسك؟ ألا تتعجبين لماذا أعيش بمفردي وأنا في هذا العمر المتقدم؛ أليست وحدتي دليلاً كافياً على أني لا أنوي الارتباط بامرأة فضلاً عن الزواج منها؛ أنا متزوج من هوايتي وحبي الكبير وهو البيانو.

بعد هذا التفسير المقتضب والصريح، ابتعدت دافني عن أنغوس وقلبها مفعم بالمرارة وخيبة الأمل. وابتعد هو بدوره عن محيط ميفس صديقته المقربة منذ أعوام طويلة. وانتهت قصة دافني مع أنغوس مكفارلند قبل أن تكتمل مقدمتها وفصولها الأولى.

وبدأت دافني فصلاً جديداً من فصول حياتها، تمثل في البحث عن عمل، لتملأ الفراغ الناجم عن الساعات الطويلة التي لا تعرف كيفية استغلالها. حاولت ميفس مساعدة دافني في الحصول على عمل لكنها لم توفق؛ لم تكن هناك وظائف تليق بمؤهلات دافني العالية وخبرتها الطويلة.

وذات يوم راودت دافني فكرة الذهاب للمكاتب المتخصصة في تقديم خدمات التوظيف. جاء اقتراح الفكرة من ميفس، على الرغم من إدراكها أن فتاة لها خلفيات دافني ومن الوسط الذي تنحدر منه ليس من اللائق بها البحث عن وظيفة عن طريق مكاتب

العمل، مثلما تفعل فتيات الطبقة العاملة والأرياف، محدودات العلم والثقافة. دافني تجاهلت القيود والشروط الاجتماعية الصارمة في شأن العمل، بسبب الرغبة الملحّة والدافع القوي، واتجهت إلى مكاتب العمل الوطنية لتتعرف إلى لوائحها والمعروض على واجهات مكاتبها من وظائف.

أول مكتب عمل ذهبت له دافني اسمه كيلي جيرل وهو مشهور خاصة في عرض الوظائف المقدمة للنساء والفتيات. وجدت على واجهات المكتب إعلانات كثيرة لوظائف مختلفة؛ من بينها رأت وظيفة أثارت اهتمامها ولم تستطع تجاهلها. ولم تستطع تحويل نظرها عن الإعلان لأنه مصمم بصورة جعلته يبرز من بين الإعلانات الأخرى المعروضة بجانبه؛ معلوماته طبعت على ورق أبيض مصقول وأطرافه مذّهبة وكلماته مطبوعة على الآلة الكاتبة. الإعلان يشبه الدعوات الخاصة بمراسم الزواج والعشاء الرسمي والمناسبات الهامة.

قرأت الإعلان عدة مرات ثم حاولت تناسيه عن طريق توسيع نطاق بحثها وقراءة إعلانات أخرى؛ لم تستطع مقاومة الإغراء فقد جذبها الإعلان مثلما يفعل المغناطيس لبرّادة الحديد.

كانت كلمات الإعلان تقول: طلب سكرتيرة خاصة لإدارة وتنظيم الأعمال اليومية لرجل في لندن يعيش بمفرده؛ نقدم لمن يتم اختيارها أجراً لا ينافس. وعلى المتقدمات تسليم طلبات الوظيفة لمؤسسة «كلي جيرل» للعمل.

دخلت المكتب تدفعها رغبة شديدة في طلب معلومات إضافية عن الوظيفة. شرحت لها موظفة في المكتب متطلبات شغل الوظيفة من

مؤهلات وخبرة؛ المطلوب مؤهلات عالية تشمل مهارات الطباعة والمقدرات اللغوية. قدمت دافني للموظفة مؤهلات علمية وشهادات تقدير نالتها من هيئات خيرية وإنسانية مختلفة. أعطتها الموظفة بطاقة عليها موعد لمقابلة صاحب العمل المعني؛ عرفت أن المقابلة ستجرى لمجموعة كبيرة من الفتيات رشحتهنّ مؤسسة التوظيف للوظيفة. خرجت من المكتب وهي في شوق شديد لحضور المقابلة، رغم أنها لم تكن تعرف الكيفية التي تجرى بها والشخص الذي يجري لها المقابلة.

في يوم المقابلة بالغت دافني في زينتها، على الطريقة الكلاسيكية التي تتبعها، واتجهت إلى حارة هولند بارك المعروفة بأشجارها الظليلة، هدفها منزل خاص لا يبعد كثيراً عن محطة قطار هولند بارك. المكان عبارة عن بيت كبير مبني على الطراز الكلاسيكي، وهو لا يختلف عن طابع المعمار في هذه الحارة العريقة. وبينما هي تقترب من البيت شعرت بقشعريرة ورهبة تسري في جسدها عندما رأت مجموعة من الشرطة تحيط بالمكان من كل حدب وصوب. تمنت لو توصلت على وجه السرعة لمعرفة طبيعة المكان وسبب وجود الشرطة حوله؛ ظهر لها المكان أشبه بلغز يحتاج لمن يفك طلاسمه. شعرت أن أول مقابلة عمل تجريها في حياتها قد بدأت تكتنفها عناصر من الغموض والإثارة.

وصلت عند عتبة المنزل بعدما مرت بمجموعة الشرطة فاكتشفت وجود حارسين من حراس أمن المباني، أحدهما واقف أمام الباب والآخر جالس خلف طاولة عليها مصباح يبدد عتمة المدخل العريق. وهي داخل هذا الوسط الغريب، تمنت لو كانت لديها حجرة صغيرة في المبنى المهيب؛ دافني من طبقة إنكليزية عريقة

تحب مثل هذه المنازل ومع ذلك لم تكن قد وجدت حلاً لمسألة السكن. عندما أتت لمدينة لندن هدفت لتحقيق أمرين. الأول هو العمل والثاني هو الاستقلالية من خلال العثور على مسكن خاص بها.

تقدم منها أحد الحراس وسألها بأسلوب هادئ ومهذب عن الهدف من حضورها للمنزل فقالت له: أتيت للمقابلة الخاصة بنيل الوظيفة الشاغرة لديكم؛ أنا مبعوثة من مكتب «كلي جيرل» للعمل. قدم لها دفتراً كبيراً لتدون فيه اسمها وعنوانها، ثم أدخلها في مصعد نظيف واصطحبها للدور الثاني من المبنى حيث استقبلهم أمام الباب حارس آخر وشرطي مسلح. فتح الحارس الباب وقادها للداخل ووصل بها أمام باب آخر؛ طرق الحارس الباب طرقاً خفيفاً لا يكاد يسمع. أتاه صوت جهوري من الداخل وطلب منه الدخول. بدأ قلبها يخفق بشدة من الخوف والارتباك؛ سيطر على تفكيرها سؤال هام: ما سبب الحراسة المشددة وهل يحتاج صاحب المنزل للمزيد من الموظفين فوق كل هذا العدد المهول من الحراس والخدم والحشم الذين يعج بهم المكان؟

لكنها دخلت لأنها عرفت أنه قد كتبت عليها خطى ويجب عليها المشي حتى النهاية. وجدت نفسها تقف أمام رجل طويل ضخم وله كرش كبير وشعره مصبوغ بصبغة سوداء شديدة السواد. الرجل يرتدي بدلة من الصوف الاسكتلندي الغالي وفي إصبعه خاتم كبير من العقيق الخالص على قاعدة من الفضة؛ من الوهلة الأولى لاحظت لمعان الفضة والتناقض الذي أحدثه مع السواد الشديد لشعر الرجل.

الرجل الذي لا تعرف اسمه ووظيفته ذو ملامح أجنبية لكنها لم

تستطع أن تعرف البلد الذي ينحدر منه. تيقنت أن منزل الرجل وشكله ينمان عن وضع خاص ومكانة غير عادية وسر دفين. على الحائط خلف الرجل، علقت صورة زيتية ظهر فيها الرجل وهو يرتدي زياً عسكرياً؛ الصورة لا تتناسب مع مستوى المكان الرفيع المهيب، فهي تفتقر للجمال الفني وانسجام الألوان وتناسق الأشكال.

رفعت يدها المرتعشة لتصفف خصلة من شعرها انسلت من بين الخصلات الأخرى؛ كانت قد رتبت شعرها بعناية فائقة وجمعته خلف أذنيها لتظهر قرط الأذن المصنوع من اللؤلؤ الطبيعي. قرط اللؤلؤ يدل على مكانتها الاجتماعية الرفيعة، فهو إرث قد وصل إليها من جدتها التي بدورها ورثته من جدتها. ومنذ اليوم الذي لبست فيه القرط لم تخلعه لأي سبب من الأسباب لأنها تعدّه مصدراً يجلب لها الحظ؛ أكد لها هذا الأمر وسيط الأرواح عند زيارتها له لتحضير روح جدتها. قال لها الوسيط وهو يتحدث بلسان جدتها: إن هذه القرط مصدر للحظ السعيد وخلعه سيجلب لك التعاسة؛ روحي تعيش في هاتين اللؤلؤتين الثمينتين وفي أي وقت تشعرين بقلق أو توتر ليس عليك سوى لمس القرط، عندها تصلك المساعدة.

وهي في هذه اللحظة في أمسّ حاجة لمساعدة من جدتها، لذا حركت يدها بخفة ولمست القرط وظلت تنتظر الفرج. نظرت للرجل الذي انكبّ على مراجعة أوراق موضوعة على الطاولة التي أمامه. رفع نظارته السميكة ذات الإطار الذهبي الثمين وقال: اسمك دافني، أليس كذلك؟ أنت خريجة الكلية الملكية للسكرتارية في لندن.

قالت وهي تبتسم بتوتر وخوف: نعم، اسمي دافني.

قال : أين عملت في السابق؟

خافت أن يجد الرجل ثُغراً في أوراقها حيث إنها لم تعمل من قبل في أي وظيفة؛ لم ترد أن تضيع منها فرصة نادرة تعبّد لها طريق الحياة المستقلة التي تتوق إليها. لذلك قالت وهي تتلعثم: عملت مع والدي كما عملت في مجمعات الأيتام وهيئات خيرية عديدة بمدينة نوتنغهام؛ إن وفقت في هذا العمل فسيكون أول عمل أتقاضى منه أجراً، خبرتي السابقة اكتسبتها من العمل الخيري والإنساني.

هز الرجل رأسه دليلاً على أنه صدق ما قالته ثم استطرد قائلاً: لن أتطرق معك الآن لنوع العمل؛ إن طلبنا منك الحضور لمقابلة أخرى مطولة، فسأوافيك ببعض تفاصيله ومتطلباته ونوعيته. أود شكرك على المجيء للمقابلة؛ إدارة العمل ستكون على اتصال بك بشأن الوظيفة.

تركت المكان وهي في حيرة من التجربة التي مرت بها، فهي لم تتمكن من معرفة نوع الوظيفة الشاغرة، وطبيعة مكان العمل، وهوية الرجل صاحب الدار وصاحب العمل المحتمل. الرجل غامض وقد أحاط الوظيفة بنوع من السرية والغموض، لماذا؟ لم تصل لإجابة مقنعة ولا عرفت مقدار حظها في الحصول على الوظيفة المعروضة. إلا أنها أدركت أنها قد وجدت العمل الذي تبحث عنه؛ ما رأته اليوم في منزل الرجل الغامض زاد من اقتناعها بأنه العمل الذي تبحث عنه. شعرت بتلهف وشوق لمعرفة نوعية الوظيفة والحصول عليها؛ إن أصبحت الوظيفة من نصيبها فستبذل

كل جهودها للقيام بها وتطويرها للحد الذي يجعل مخدومها ممتناً لها مدى حياته.

ظلت في انتظار المقابلة التالية التي وعدها بها الرجل، لكن مر الأسبوع الأول والثاني ولم يصلها خبر من مكتب العمل الذي رشحها للوظيفة. فكرت في البدء من جديد بالبحث عن عمل آخر. وهي تعاني من مرارة الانتظار، وصلتها رسالة من مكتب العمل طلبت منها العودة بعد يومين للمقابلة الثانية في المنزل الذي تمت فيه المقابلة الأولى.

جهزت دافني نفسها بمستوى أكبر من المرة السَابقة وذهبت للمقابلة وهي في ثقة لا حدود لها. دفعها للإقدام والتفاؤل شعور قوي لديها بأن المقابلة الثانية تعني أن فرصتها في نيل الوظيفة أصبحت أكبر وأنها أوشكت على تحقيق هدفها. وصلت المنزل حيث قابلها الرجل وابتسم لها ابتسامته قللت من الخشونة التي ظهر بها في المقابلة الأولى، لذا شعرت ببعض الارتياح. طلب لها كوب شاي وأثنى على مؤهلاتها العالية وذكر لها أن أياً من المرشحات الأخريات لم تستطع تقديم مثل مؤهلاتها في طلبات الوظيفة. أحست أن الرجل يصدقها القول وأنه يقدر مهاراتها ومؤهلاتها. كانت تنتظر منه أن يقدم لها شرحاً مفصلاً عن طبيعة العمل ويطرح عليها أسئلة معقدة تتعلق بجدارتها في الطباعة واللغة؛ لكنه لم يفعل أي شيء من هذا القبيل.

نظر إليها الرجل بثقة وقال: دافني، مبروك، لقد اخترناك للعمل معنا. هناك بعض النقاط التي أحب ذكرها لك؛ أولاها أن هذا العمل يتطلب قبل كل شيء أقصى درجات الكتمان والسرية. إنه ليس عملاً عادياً كما صوره إعلان الوظيفة؛ هو عمل مهم

ويتطلب أناساً لهم قدرات فريدة، سترين وتسمعين الكثير من الأخبار والأمور الأخرى المهمة. إذن، إن كنت على ثقة من مقدرتك في ممارسة أقصى درجات السرية، فهذه أوراقنا ويمكنك التوقيع عليها اللحظة ونيل الوظيفة.

كادت لا تصدق ما سمعت من الرجل وشعرت بفرح غامر لم تشعر به من قبل، وقالت: ما شرحته لي ليس صعباً؛ سألتزم بالشروط، وأنه من واجبي المهني كتمان السر، وأعدك أنك لن تجد من لها المقدرة على حفظ سرك أكثر مني. أرجوك أن تثق بي وأعدك أن أبذل كل طاقتي للقيام بمهام الوظيفة الفنية والإدارية والإنسانية. كست وجهها ابتسامة الفوز والنشوة والارتياح، وشعرت كأنها تطير في أفق واسع لا تحدّه حدود ولا تعترضه مصاعب.

قال وهو ينظر إليها بثقة: يمكنك بدء العمل صباح غد، وإلا ففي بداية الأسبوع القادم.

قالت من دون تردد وبلهفة ظاهرة: سأكون في موقع عملي صباح غد إن كان هذا ما تريده؟

عند وصولها للبيت أخبرت ميفس بالخبر السعيد، وفي المساء أقامت الصديقتان في حديقة المنزل احتفالاً بالفوز الغير المتوقع وتناولتا الشاي والشمبانيا والسمك المدخن والخبز الأسمر والسلطة والفراولة. وعلى أنغام البيانو رقصت دافني ورقصت ميفس؛ إنها بالحق بداية جديدة لحياة دافني في لندن بعد عناء طويل في البحث عن عمل ملائم.

بدأت دافني تستعد نفسياً وذهنياً لحياتها الجديدة التي تتميز

بالاستقلال عن الآخرين والاعتماد على نفسها. حدّثتها نفسها بأن الرجل الأجنبي قد يقع في غرامها ويتزوجها؛ صورة زواجها من مخدمها تسيطر على خيالها وتلاحقها صباح مساء. بعد الزواج سيكون المبنى العريق لها من دون منافس؛ شعرت أنها بحكم طبقتها الاجتماعية ستكون مناسبة للعيش في البيت العريق. باتت ترى نفسها دائماً في فستان الزفاف الأبيض وهي على حصان جميل وبجانبها فارسها المقدام يمسك بها بيديه القويتين.

دافني لا تعرف من أي مناطق العالم ينحدر الرجل الغريب؛ مكتب العمل نجح في إخفاء هويته والدولة التي أتى منها. كانت تعرف أن لندن تعج بهذا الصنف من الرجال، غرباء نزحوا من مختلف أقطار العالم، يأتي معظمهم من أقطار العالم الثالث والمستعمرات التي نالت استقلالها إثر الثورات التي شنها الوطنيون على الحكم البريطاني. هل الرجل من الثوار الوطنيين الذين تركوا السلاح وجاؤوا ليستريحوا في قلب الإمبراطورية الاستعمارية؟ لا تعرف.

قطعت وعداً بينها وبين نفسها أن تجمع المال الكافي وتشتري شقة لتعيش فيها حيث تكون لها الحرية في الحياة التي تختارها لنفسها. وقررت شراء قطعة أرض في منطقه «أيلنغ» بغرض زراعة شيء من الفاكهة والخضر والزهور؛ ستعيش بمفردها وتبتعد عن الجو المتقلب الذي عاشته وتبارح السيدة ميفس.

استولت دافني في عملها الجديد على كل شيء يتعلق بإدارة البيت الكبير، وكأنها مديرة تتولى أمر أهم مدرسة داخلية في البلاد. عيونها تراقب كل حركة ويدها تسيطر على أصغر الأمور وأدقها؛ صالت وجالت في ربوع المكان من دون رادع أو منازع. الرجل الغريب أعطاها كل الصلاحيات في إدارة البيت على الطريقة التي

تراها مناسبة؛ الرجل يعتمد عليها في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بشؤون حياته. كانت معرفته بالبلد والبيئة محدودة للغاية؛ لقد عرفت بعض أسرار الرجل.

الرجل فر من وطنه إثر انقلاب عسكري أطاح حكومته بعد فترة حكم طويلة. من الأعمال التي اعتمد فيها على دافني كانت طباعة رسائله السرية الكثيرة المتبادلة بينه وبين شخصيات في العالم الخارجي تتعلق بالسياسة والأحوال المتقلبة التي تركها في الوطن البعيد. تقوم دافني بترتيب جدول يومه الرسمي وحياته الشخصية، يشمل عملها تحديد مأكله ومشربه وملبسه ومواعيد الأطباء والمقابلات السرية منها والعلنية التي يقوم بها؛ بدأ يصطحبها في بعض مقابلاته مع الدبلوماسيين والسياسيين داخل لندن وخارجها. دافني هي التي تحضر جدول المقابلات وما سيناقش فيها، وامتدت العملية لتشمل مناوبة الحراس والشرطة المسؤولين عن حراسة البيت.

وضع الرجل نفسه تحت تصرف دافني واستسلم للغزو الشامل الذي شنته على حياته المرأة الإنكليزية منذ أول يوم تسلّمت فيه مهام العمل في بيته. ومن شدة اعتماده على خدماتها وعدم مقدرته الاستغناء عنها، جهز لها حجرة خاصة في البيت لتبقى بجانبه على مدار الساعة؛ لكنها واصلت البحث عن شقة. عثرت على شقة في منطقة بملكوا القريبة من نهر التايمز وبدأت تذهب إليها في فترات متباعدة في أوقات نوم مخدومها أو عندما يكون معه طبيبه الخاص. كذلك اشترت قطعة أرض كانت قد قررت الحصول عليها.

بعد وقت قصير من بداية العمل، أدركت دافني هوية وخلفيات مديرها الغريب وحياته السرية وسبب الحراسة المشددة المفروضة

على منزله. الرجل دكتاتور عسكري برتبة مشير هرب بعد الإطاحة بحكمه ليبقى في لندن تحت الحماية البريطانية حتى يستعيد كرسي الحكم بمساعدة الحكومة البريطانية. خلفياته أعجبتها وزادت من تخيلاتها وأحلامها التي تتعلق بشخصيته؛ الأحلام والتخيلات كبرت وواصلت تنميتها من دون انقطاع. تخيلت الدور الكبير والمهم الذي ستقوم في إعادة عرش الدكتاتور المسلوب؛ ستنير حياة رجل نازح من عالم مظلم يعج بالحروب والتقلبات السياسية والعسكرية.

بلدان الدول المستعمَرة، حسب ظنها، كانت في حالة مزرية قبل وصول الدول المستعمرة إليها، وبعد خروجها منها رجعت لحالها القديمة. كان لأجدادها أدوار مهمة في نجدة هذه الشعوب وتحريرها من بؤرة الظلام والتخلف السياسي والاجتماعي والقانوني والديني التي كانوا يعيشون تحتها؛ لقد أنقذوهم من هاوية الجهل واستبداد الطقوس الدينية الوثنية. وها هي الآن تجد نفسها مقدمة على القيام بنفس المهمة التاريخية؛ تنير طريق فرد من أفراد هذه الشعوب. من هذا المنطق، واصلت رسم أدق تفاصيل حياة الرجل وأصبحت هي التي تدلي نيابة عنه بالأوامر السياسية للجهات المعنية وتدير الدولة التي أسسها المشير في المنفي.

تخيلت نفسها إحدى سيدات العصر الفيكتوري المبعوثات للمستعمرات لمناصرة الدولة الأم وخدمتها والقيام بواجب وطني مهم مثل تنوير الشعوب المتخلفة ثقافياً وسياسياً ودينياً. الاختلاف الوحيد هو أنها تقوم بالدور المنوط بها من مبنى في قلب العاصمة لندن، من حارة هولندا بارك الجميلة من خلف ستائر مخملية خضراء ومن حجرة الجلوس في الدور الثاني المطل على شارع

هولندا بارك الظليل. وكلما زادت أساليب تحكم دافني في أمور المشير، شعر الرجل بضعفه أمامها وتحول إلى ما يشبه القط الوديع الذي انتزعت مخالبه؛ المشير فقد سطوته السياسية وهيبته العسكرية. تتعجب عندما تنظر للصورة المعلقة على الحائط، الزي العسكري المزين بميداليات نحاسية والنياشين الملونة والشاربان الطويلان والعيون الصارمة.

أصبحت دافني هي التي تختار للمشير ملابسه؛ تختارها من أشهر محلات التفصيل في لندن مثل الموجودة في شارع «سفل رو» الشهير. أرادت أن تجعل منه رجلاً مثل نبلاء الإنكليز؛ وكثيراً ما كانت تعطي تعليمات للخياط أن يبذل جهداً بحيث تتفوق ملابس المشير على رصفائه من الساسة والطبقات الراقية في المجتمع الإنكليزي. وكانت تقوم بتغيير الصبغة القانية السواد التي يستعملها لصبغ شاربيه وشعره للحصول على لون أسود أقل حدة. أصبحت غاية دافني الكبرى هي أن تدفع بمشيرها إلى داخل الفضاء الإنكليزي وتجعل منه بريطانياً من حيث الشكل والمضمون؛ وجدت أن لغته الإنكليزية الركيكة تقف عائقاً في وجه تحقيق غايتها. لذلك، عملت على التغلب على المشكلة بإعداد برنامج تعليمي وجلبت له مدرّسة مختصة لتلقنه اللهجة الإنكليزية العريقة، سيدة تعمل في المعهد الملكي البريطاني للهجات واللغة في لندن تدعى الكونتيسة سيبيل فنسنت ــ ديكسون. نجحت المدرّسة في مهمتها على أكمل وجه، على الرغم من التذمر الذي أبداه المشير. ولم يعد من السهل معرفة أصل المشير الأجنبي سوى من لون بشرته السمراء التي لا حيلة لها ولا قوة في تغيره.

اشترى المشير لدافني بيانو لمعرفته بشغفها للموسيقى وليبهجها

وليعبر لها عن امتنانه وتقديره لما قامت به نحوه. وضعت البيانو في الصالة وكثيراً ودأب على العزف عليه خاصة في فترات استراحة العصر؛ ثم أخذت تحكي له عن حياة المشاهير من الموسيقيين الكلاسيكيين العالميين وتعزف له مقطوعات متفرقة من تآليفهم، مثل موزارت وبيت هوفن وهندل وباخ. ومرات كانت تغني أغاني الأوبرا المشهورة فيجلس متفرجاً وأحياناً يقف ليصفق لها في نهاية المعزوفة على الرغم من عدم استساغته لهذا النوع من الغناء الكئيب المحمل بالحزن والشجن. وسأل المشير نفسه عدة مرات كيف تحب دافني النعيق بالصوت العالي الذي يكاد يصم الأذن ويقبض النفس؟

بدأ الجو الذي أوجدته دافني للمشير يبعده تدريجياً عن الحياة السياسية ونسي نفسه والدور الذي جاء من بلاده للقيام به والمهمة التي نذر حياته لإنجازها. الرجل يتمتع بالحياة الجديدة ويصر على القول بأنه يعيش في المنفى على أمل العودة لوطنه واستعادة كرسي الرئاسة الذي سلب منه. لهذا بدأت الرسائل والأوامر السياسية التي يوجهها لمساعديه في أرض الوطن تقل شيئاً فشيئاً؛ مساعدوه ومناصروه لم يعرفوا واقع حياته الجديدة والتسلط الذي تمارسه عليه مس دافني ولنغتن كما يحلو له مناداتها.

الشيء الوحيد الذي لم تستطع دافني تجريد المشير منه يتعلق بخطبة عصماء يرددها الرجل على المستوى اليومي. الخطبة كتبها له أعوانه قبل خروجه من أرض الوطن للاحتفاظ بها كي يلقيها على شعبه من خلال المذياع وللجماهير الغفيرة التي حتماً تتجمع للترحيب به يوم عودته رئيساً للبلاد. الخطبة مليئة بالحماسة والوطنية والتنديد بالخونة والأعداء الذين أطاحوا حكمه وسلبوا

منه عرشه بمعونة من مخربين وعملاء بالخارج والداخل. يقرأ الخطبة مرات عديدة في اليوم من دون كلل أو ملل حتى حفظها عن ظهر قلب، وكلما تقطعت أطراف الأوراق التي كتبت عليها، تعد له دافني نسخاً جديدة تطبعها على ورق مصقول ومقوّى. أصبحت لديهم نسخ عديدة موزعة في أرجاء البيت وحجراته بما في ذلك المطبخ الذي لا يدخله المشير إلا في حالات نادرة.

دافني لا تعرف مضمون الخطبة لكنها مدركة لأهميتها في حياة المشير بعد أن سمعته يرددها بحماسة لا نظير لها.أرسلت الخطبة لمكتب ترجمة بهدف الحصول على نسخة إنكليزية تمكنها من معرفة مضمونها ومن أخذ صورة واضحة عن البحر السياسي الذي يسبح فيه المشير. مضمون الخطبة هو كالآتي:

أبناء شعبي الكرام، ها أنا أقف اليوم أمامكم بكل فخر وعزة لأحييكم تحية الانتصار واللقاء بعد فراق طويل في غربة مرة المذاق. منذ اليوم وأنتم بجانبي سنبدأ ببناء الوطن الغالي الذي مزقته الفتنة والاضطرابات وسلاح المرتزقة من عملاء الخراب الذين يتكالبون على ثروة أمتنا الأبية. سنمضي بالوطن إلى الأمام حتى يصل درجات عالية من الرقي والتقدم والاستقرار. وسنبدأ منذ اليوم بل منذ اللحظة بوضع الحجر الأساس لهذه المهمة العظيمة، وسترتفع راية هذا الوطن الغالي في عنان السماء. دعونا نبدأ بخطى ثابتة والله الموفق.

ولجعل خطبة العودة للوطن تبدو أكثر واقعية، حولت دافني إلقاء المشير خطبته إلى عمل يشبه المسرحية الصغيرة التي تؤدى على المسرح. تقوم كل من دافني والمشير بلعب الدور المنوط بكل منهما

في تقديم العرض اليومي؛ تقدم المسرحية في حجرة الجلوس المطلة على شارع هولندا بارك المزدحم بحركة المرور وهرولة المسافرين. تمثل حجرة الجلوس قاعة المطار الذي تهبط فيه طائرة المشير يوم عودته لأرض الوطن؛ ويمثل المسافرون الذين تعج بهم محطة هولندا بارك الجماهير التي تستقبل رئيسها الشرعي الذي طال انتظارها لرؤيته. صوت المسافرين وضجيج حركة القطارات عبارة عن هتافات الجماهير التي ترحب بعودة المشير. ولكي توجد خلفية قوية، حصلت دافني على تسجيل من المكتبة الصوتية للإذاعة البريطانية عبارة عن هتاف للجماهير وهي تحيّي الدكتاتور الإيطالي موسليني لدى إلقائه إحدى خطبه النارية المشهورة. المشير يلقي خطبته والجماهير تصفق له وتهتف باسمه.

نصحت دافني المشير أن يلبس عند إلقاء الخطبة كل زيه العسكري بنجومه ونياشينه وصولجانه. لا مشكلة في الزي العسكري، فقد قام خياط المشير الخاص بعمل ما يقارب العشرين بدلة عسكرية تشبه البدلة التي أحضرها معه المشير عند هروبه خارج الوطن.

ترى المشير يرتدي زيه العسكري ويقف أمام مرآة خصصت لغرض إلقاء الخطبة العصماء. يلقي الخطبة بينما تظل دافني واقفة أمامه لتأدية دور الجمهور الغفير من أبناء الشعب وهم يستمعون للرئيس العائد. تقوم بالدور بجدية تامة، تظهر على وجهها، وتتابع كل كلمة يتفوه بها، تارة تحثه وتشجعه وتارة تصحح له الأخطاء اللغوية والنحوية. ويواصل هو أداء الدور بانفعال، يصرخ ويدق الأرض بقدميه ويمد كرشه للأمام ويفتل شاربه بيديه. ويواصلان تمثيل يوم العودة الظافرة كأن هذه العودة ستتحقق بين عشية وضحاها.

وتقوم دافني بتسجيل الأداء على شريط بغرض التوثيق والمراجعة والتقييم. وبعد الانتهاء من أداء الدور يستمعان للتسجيل ويدققان في أسلوب الإلقاء ونبرة الصوت ودرجة الحماسة؛ إن ظهر خلل ما، عملا على إصلاحه في المرات التالية لتحقيق أقصى درجات الجودة والتأثير.

كانت دافني تدفع المشير في طريق توطين نفسه على أسلوب الحياة البريطانية. فعلى سبيل المثال، استطاعت بعد محاولات مكثفة إقناع الرجل بضرورة اقتناء كلب وقطتين؛ تود أن تجعل البيت ينبض بالمحبة والألفة. في بادئ الأمر، اعترض بشدة لعدم تعوده على الحيوانات في المسكن واعتبر الفكرة مجرد سخافة إنكليزية، لكنه رضخ لطلبها وسمح لها بشراء القطتين والكلب؛ أطلقت دافني على القطتين أسمي هلدا ومتلدا وعلى الكلب برونو. وأصبحت هذه الحيوانات الأليفة ضيوفهم الجدد تتبعهم في تنقلاتهم في أرجاء البيت، وكل صباح عند تمثيل وقراءة خطبة العودة تقف بجانبهم مندهشة مما يدور حولها من دراما حقيقية. يقف الكلب والقطتان تحت أقدام المشير؛ الحيوانات تضايقه عندما تمسح حذاءه وطرف سرواله، لكنه يصبر ويواصل دوره حتى لا تغضب منه دافني. ما إن يسمع الكلب تصفيق الجماهير في خطبة موسليني إلا وينطلق في النباح ويهز ذيله بعصبية فتضطر دافني لإخراجه من الحجرة ليواصل المشير إلقاء الخطبة.

في مرات كثيرة تجلس الحيوانات في حديقة المنزل بينما يتناول المشير ودافني العشاء تحت الأضواء الخافتة، على جنب البركة الصغيرة التي تتلاعب الرياح الخفيفة بصفحة مياهها. أحياناً يذهبان

لفنادق المدينة والنوادي التابعة للجيش والبحرية والضباط المتقاعدين.

نسي المشير أمر أسرته التي تركها خلفه في الوطن ووعدها أن تلتحق به في المنفى عندما يحصل على التأشيرات الضرورية من السلطات المعنية. وانقطع عن مراسلتهم نهائياً فضلاً عن أمر جلبهم للندن كما وعدهم. وأخطر من أمر الأسرة، بدأ ينسى شيئاً فشيئاً القضية التي خرج من أجلها؛ السياسة المعقدة والكرسي المسلوب لم تعد بالأهمية السابقة لطول فترة ابتعاده عن أرض الوطن ورخاء الحياة وعذوبة دافني.

دافني تشاهد كل يوم سبت ومعها المشير سباق الخيول من على شاشة التلفاز ويضعان الرهان على خيولهما المفضلة وإن فازت إحداها فرحا ووزعا جائزة الفوز على الحراس والعاملين. دافني والمشير لا حاجة لهما في مال الجائزة؛ المهم تحقيق فوز يشعرهما بطعم فوز آخر وهو العودة لكرسي الرئاسة المسلوب.

البعد عن الوطن والأسرة والشعور بصعوبة استعادة المجد المفقود ترك أثراً سلبياً على الصحة النفسية والجسدية للمشير. تجده دوماً معكر المزاج، يثور لأتفه الأسباب ويلوّح بيده في الهواء من شدة الغضب والإحباط. دافني، رغم قوتها وسيطرتها عليه أصبحت تخاف وتتوجس عندما تتلبسه نوبات الغضب والهياج المتكررة؛ كلما تعكر مزاجه، تحاول معالجته بالمشروبات الكحولية. في كل مرة تراه تحت قبضة الغضب العارمة، تسارع بجلب المشروبات الكحولية الثقيلة (كالفودكا والجن) لتعيد له توازنه وتخفف عنه الهياج والتوتر.

ويزداد غضبه عندما يملي على دافني رسائله للمرابطين من قواته

وأعوانه الذين تركهم في أرض الوطن ليتتبعوا تحركات الحكومة ويضعوا خطط المقاومة وينفذوها. الرسائل مليئة بالسباب للمسؤولين في الحكومة التي أطاحت به؛ يصفهم بالخونة والمرتزقة، كما يتذمر فيها من أعوانه ويصفهم بالضعفاء والكسالى لأنهم لم يقوموا بما فيه الكفاية لمساعدته على الخلاص من الحكم المغتصب.

حققت دافني العديد من الانتصارات تجاه المشير، لكنها فشلت في هدف هام وهو إقناع الرجل بالزواج منها؛ قامت بمجهود كبير في هذا المجال لكن من دون جدوى. فشل محاولاتها المستمرة يسبب لها توتراً يشبه توتر المشير من فشله السياسي.

تشير دافني للمشير بالزواج منها بأسلوب غير مباشر ومبطن وهي تتمنى أن ينتبه لمغزى ما تقوم به وينفذ رغبتها الملحة. وغالباً ما تلجأ إلى هذا الأسلوب عندما يجلسان جنباً إلى جنب في المساء للأنس وتناول الشاي، تعدّه وتقدمه بنفسها في إبريق صيني عتيق على صينية من الفضة الخالصة عليها غطاء من الكتان الأبيض وملاعق الفضة. كما تعدّ الحلوى بنفسها، على الرغم من وجود طباخين، لتشعر المشير بأنوثتها واهتمامها ومراعاتها. بعد الشاي، تتناول إحدى الروايات لعمالقة الأدب الإنكليزي والعالمي وتقرأ للمشير مقطوعات منها؛ قرأت له لكتاب مثل شارلز دكنز وافلن بوخ ودي اتش لورنس، كما قرأت له من كتاب **الأمير** لمكيافلي باعتباره العمل السياسي المفضل عند المشير. إن أفضل ما لدى دافني رواية **التوقعات العظيمة** لتشارلز دكنز؛ تركز دافني على النص المتعلق بالشخصية الرئيسية في الرواية الآنسة فافرشم على أمل أن يتفهم المشير المعنى المقصود من تركيزها على هذه الشخصية على وجه التحديد. تمثل الشخصية قصة الحزن الأبدي؛

فهي غير مرغوب فيها من حبيبها وتقضي حياتها ترتدي فستان الفرح وتجمّد عقارب الساعة على اللحظة الرهيبة التي تخلى فيها عنها حبيبها.

أثناء القراءة، تقوم دافني بتقمص دور الشخصيات وتمثيل أدوارها بأسلوب فني ومؤثر. وبعد القراءة، تدفع المشير لمناقشتها في ما قرأته؛ الرجل لا يتجاوب مع دافني ويعبر عن سخريته من البريطانيين لأنهم يهتمون بمسائل تافهة كالقراءة الأدبية والفنون. يقول لدافني إنه لن يلتفت للأمور السخيفة ما دامت هناك أمور أكثر أهمية مثل السياسة وكراسي الحكم. السويعات التي توفّرها دافني من أجل راحة المشير الذهنية والتلميحات لم تفلح في دفع المشير للارتباط بها.

ما ظهر هو أن المشير فهم رسائل دافني ورغبتها في الزواج منه ولم يوافق لأن له أسبابه ووجهات نظره الخاصة في المسألة. يقول لدافني: حبيبتي، أنا متزوج من السياسة ومن قضايا أهم بكثير من الزواج الذي تتحدثين عنه. ويضيف: أنا صادق في ما أقول يا حبيبتي؛ عرشي ينتظرني، وأنا على أحر من الجمر للجلوس عليه؛ عودتي هي مهنتي الأولى والأخيرة. بعد عودتي، سنستطيع الزواج؛ من يعلم؟ وأعدك أنها مجرد أشهر قليلة ونعود؛ ستعودين معي وتبقين بجانبي وستكونين شريكتي في كل ما أقوم به لأني لم أعد في غنى عنك. ويردد قائلاً: لم أعد في غنى عنك؛ ترحلين معي لبلدي وسنعود للندن في ظروف أخرى. كلها أسابيع أو أشهر قليلة أعود فيها لكرسي الحكم؛ دولتك بريطانيا العظمى ستكون من الدول التي سترد لي الكرسي كما وعدوني بعمل ذلك في البرلمان. كان يقول هذا ويسارع إلى وضع كوب الشاي من يده

على الطاولة ويأخذ ورقة الخطبة من جديد ويشرع في القراءة من جديد.

وتتخلى دافني للحظات عن ثورتها وغضبها منه لعدم رغبته في الارتباط بها، وتستعد لتمثيل دور الجمهور المأخوذ ببطولة الرئيس العائد وبما في خطبته من وعود لتحسين مستقبل البلد والشعب.

استمرت حياتهما تتأرجح بين لحظات من السعادة ولحظات من التوتر. كان يتوتر كلما شعر بفقدان الأمل في استعادة كرسي الحكم، وكانت تتوتر عندما تشعر أنها ستظل، مثل شخصية بطلة رواية دكنز، تنتظر زواجاً يتأخر أو لن يصل أبداً.

وعلى الرغم من النزاع الخفي الدائر بينهما في صمت، أرادت دافني لعب دور نشط في محنة المشير السياسية وإرجاعه للحكم. بدأت تسافر نيابة عنه لمختلف عواصم البلدان لتشرح قضيته وتطلب مناصرته، كما راحت تتردد بصفة مستمرة على البرلمان البريطاني لشرح قضيته للأعضاء وحثهم على مساندته. تعدهم أنه مقابل مساعدتهم، سيكون المشير عوناً لهم في أمور كثيرة، منها فتح أبواب بلده للتجارة واستيراد السلع البريطانية ومناصرة القضايا التي تهم بريطانيا وشراء الأسلحة والطائرات الحربية. إلا أن أياً من الزيارات والضغوط التي قامت بها لم تأت بنتيجة إيجابية. بدلاً عن ذلك، واصلا الحياة في حالة تأهب دائم للعودة حتى أن بعض حقائبه وحقائبها جهزت استعداداً للسفر الذي لا يعلمان متى سيأتي.

وفي يوم من الأيام، تذكرت دافني وسيلة مهمة لنشر قضية المشير، كانت قد غفلت عنها في حملتها المستمرة لمناصرة الرجل. رُكن المتحدثين في هايد بارك بلندن عبارة عن مكان مفتوح يعطي

الفرصة لكل صاحب قضية أن يطرح قضيته ويروّج لها بالطريقة التي يراها مناسبة. يستمع له الناس من دون معارضة أو قمع من السلطة والجمهور. اقترحت دافني على المشير الذهاب إلى هايد بارك ليرى بنفسه ما يفعله الناشطون المتحمسون للدفاع عن قضاياهم السياسية والإنسانية والبيئية؛ بعض المتحدثين تركوا بلادهم بسبب دفاعهم عن هذه القضايا. الرجل كان على معرفة لا بأس بها بأهمية الركن في حياة الفرد البريطاني وديموقراطيته.

في السابق، لم يفكر المشير في توظيف هايد بارك وركنها للحديث عن قضيته لظنه أنها قضية شائكة ومعقدة تفوق مقدرات الركن. يذكر أنه ذهب للركن مرة واحدة في حياته عندما كان طالباً عسكرياً مبعوثاً للدراسة في الكلية الملكية الحربية البريطانية المعروفة بسنت هيرست؛ هو ورفاقه سخروا من المكان ولم يروا أي أهمية له. اعتقدوا بسخافة المتحدثين وعدّوهم حفنة من اليساريين توظفهم قوى أجنبية لخدمة مصالحها، أناس تنقصهم الكياسة والنضج في معرفة شؤون السياسة الإقليمية والعالمية.

في نهاية الأمر، تمكنت دافني من إقناع المشير بفكرة الذهاب لركن المتحدثين بحديقة هايد بارك المشهورة. وبدأ يستعد للقيام بالدور الجديد الذي أعد له. لدافني مقدرات في الإدارة والتنظيم، لذا خططت أن تكون هايد بارك تجربة ذات وزن وقيمة من الجوانب السياسية والدبلوماسية؛ المشير رجل فوق العادة ورئيس دولة معزول ويجب أن يجد المعاملة التي تليق به. طلبت من الشرطة السماح لهما بنصب خيمة في الهايد بارك يرتاح فيها المشير قبل إلقاء خطبته، ويرحّب فيها بالسياسيين والشخصيات الهامة الذين يأتون للركن؛ وطلبت وضع منصة ليقف عليها المشير أثناء الخطبة.

في يوم ذهابهم لركن المتحدثين، جلبت دافني معها الطعام والشمبانيا وكل وسائل الراحة المطلوبة، وأخذت معها الكلب كأنهم في نزهة ترفيهية. واتجهت دافني والمشير يتبعهما كلبهما لحديقة الهايد بارك، في سيارتهم البنتلي الكبيرة يقودها سائق المشير الخاص واسمه ديريك. عند وصولهم، دُهش المشير من ازدحام المكان والأصوات العالية للمتحدثين وهم يخاطبون الحشود الكبيرة من المستمعين والمشاهدين؛ تختلط الصيحات والكلمات من أفواه الرجال والنساء دون خوف أو وجل. قال في داخله بتهكم: حقاً إنهم أناس لا يريدون أن يفوّتوا على أنفسهم أي فرصه كانت في الترويج لما يؤمنون به ويناضلون من أجله. قالت دافني بعدما لاحظت ارتسام الدهشة على وجهه: كن قوياً وشجاعاً مثل هؤلاء المتحدثين؛ أنت الآخر لديك قضية مهمة تحتاج لنشرها للأفراد والرأي العام. لا تخف؛ دعنا ندخل الخيمة لكي تتدرب على إلقاء خطبتك العظيمة.

في الآونة الأخيرة، كانت دافني قد بدأت تستعين بحراس العمارة والشرطة المناوبة وموظفي البيت في تكوين جمهور حي وواقعي يتدرب عليه المشير. لذا عندما دخلا الخيمة، ظهر المشير في أحسن حالاته للقيام بمهمة مخاطبة جمهور ركن المتحدثين. أخذا استراحة قصيرة وقدراً من التدريب في الخيمة، ثم اتجها للمنصة الصغيرة المنصوبة للمشير في الركن؛ الكلب برونو يجري خلفهما وهو يهز ذيله من شدة الغبطة والفرح. المكان مفتوح والهواء طلق والخضرة جميلة، والنصر قد لاح في الأفق القريب.

في البداية، ظهر على المشير التردد وعدم الحماسة. الرجل يعتقد أن المكان من العيار الصغير ولا يتناسب مع شخصية هامة ومعروفة

مثله، إنه مكان لصغار السياسيين والثوار. ثم بدأ يكتسب الثقة في نفسه عندما تذكر كلمات دافني وهي تقول له: أنت في حاجة لمخاطبة جمهور حي مثل الموجود في ركن المتحدثين. عند وصولهما للمنصة، وجدا المكان يعج بالمتحدثين والمتفرجين ومجموعات لا همّ لها سوى نشر الفوضى والمشاكل. سائق المشير في الخارج ينتظر انتهاء الدور التاريخي في حياة دافني والمشير؛ تمنى السائق أن يعود بهما للبيت سالمين غانمين.

المشير في زيه العسكري الكامل وخاتم العقيق الذي لا يفارق إصبعه تراه يلمع من بعيد. عندما رأى الجمهور المشير، عرفوه من أول وهلة، وتقدموا نحوه وهم في حيرة ودهشة. وقفت أعداد كبيرة أمام المنصة ليستمعوا لما يقول الرجل. حاول المشير صعود المنصة لكنه واجه صعوبة بسبب ثقل وزنه وكبر حجمه؛ خاف من التدهور والوقوع أرضاً أمام الناس. إلا أن دافني مدت له يدها لتعينه على صعود المنصة بسلام. أدرك المشير أن ابتعاده عن الأضواء وعالم الخطب الحية يقف خلف القلق والارتباك الذي انتابه.

وقال المشير بصوت منفعل:

> رفاقي من الرجال والنساء الذين يحبون الحرية والسلام، أقف اليوم أمامكم لأقدم لكم التحية بوصفكم زملاء لي في النضال من أجل الديموقراطية والعدالة. أنتم وأنا نعمل لنيل الحرية، لا في وطني فقط بل في العالم أجمع. خطبتي أمامكم مضمونها لا يخص شعبي وأمتي بل يخص العالم المكبل من قبل القوى العالمية الطاغية. إني أضع اللوم على الدول الغربية بما في ذلك المملكة المتحدة وعلى الخونة من

أبناء وطني. يؤسفني القول إن شعبي يعيش في براثن ثورة هوجاء وتعسف سياسي منذ اليوم الذي خرجت فيه من البلاد؛ شعبي العزيز يحتاج للأمن والاستقرار والسلام.

لم يكمل المشير جملته التالية، حتى تقدم نحوه شاب طويل أسمر، يشبه الثائر المشهور غيفارا، يرتدي زياً مثل زي العساكر وشعره أشعث وعلى أكتافه غترة فلسطينية. وجه نظرات حادة للمشير وهو يقترب من المنصة وصرخ بصوت قوي حاد النبرات: انزل من على المنصة فوراً حتى لا تندم؛ أيها المشير يظهر أنك حضرت لتبيّض صفحتك السوداء أمام أناس لا يعرفونك؛ لكنك أخطأت. بين الجمهور شخص يشم رائحة الدماء على يديك؛ أنا قد رأيت عن كثب الدماء وهي تقطر من أصابع يديك الغليظتين القاسيتين. أفضل لك النزول ومغادرة المكان أيها المستبد السفاح.

لم ينته الشاب الثائر من كلامه، حتى اقترب الحشد من المشير وصرخ فيه بصوت واحد: انزل يا سفاح يا قاتل، يداك ملأت البلاد بالأرامل. اهتز قلب دافني من الهلع، وأخذ المشير يرتعش بقوة والعرق ينزل من جسده بغزارة، وخاف من غضبة الجمهور الزاحف نحوه كالإعصار. لم يتوقع المشير أن يكون هناك شخص بين الجمهور على معرفة بماضيه الموسوم بالقسوة والتعسف السياسي ضد المعارضين من أبناء شعبه في فترة حكمه الرهيبة.

نزل المشير من على المنصة وأسرع يجري نحو سيارته. السائق أمامه والحشد يندفع خلفه، ودافني خلفه، والكلب برونو يركض وينبح ليعبر عن رفضه لموقف الحشد ضد سيده. رأى السائق، في السيارة خلف السياج، اندلاع الغضب فهرع ووصل قبل أن يطبق الحشد على المشير وجذبه من ذراعه وأخرجه من فوق السياج.

العمل صعب لضخامة المشير وبسبب أن الحشد كان يركض خلفهم ويصرخ بغضب: أقبضوا على المجرم السفاح؛ الحشد ينوي القبض عليه وشده من زيه العسكري وطرحه أرضاً.

وتمكن السائق من جر المشير بعيداً عن الحشود الغاضبة، وبسرعة البرق حشره داخل السيارة. دافني تمكنت من الفرار من غضبة الجمهور ودخلت السيارة شعثاء الشعر تلهث في هلع وبقدمين حافيتين. الجميع يلهثون من هول التجربة، بينما السيارة تسرع بهم عائدة لمنزلهم الهادئ في هولندا بارك؛ تركوا خلفهم الخيمة، والطعام، والمنصة، وأورق الخطبة تتناثر في الهواء. الكلب تركوه خلفهم هو الآخر ولم ينتبهوا لغيابه إلا بعد وصولهم البيت؛ اتصلت دافني بالشرطة وأبلغتهم أن لها كلباً ضائعاً.

بعد واقعة حديقة هايد بارك، أصابت بالمشير حمّى ألزمته السرير لعدة أسابيع. في أول يوم شعر فيه بالصحة، أراد العودة للتدرب على الخطبة من جديد؛ فقامت دافني بإعداد الاحتياجات المطلوبة كما تفعل في المرات السابقة. إلا أن المشير ظهر هزيلاً مرتجفاً من المرض والتوتر الذي دهمه إثر الحادث المخزي ولهذا لم تدع دافني الحراس والسائق والشرطة لمناصرته كالعادة؛ اليوم اقتصر المشهد عليهما هما الاثنين. المشير التي الخطبة وهو في غضب شديد، غضب من الحكومة البريطانية لأنها خذلته بوعودها الفارغة لمساعدته ضد أعدائه.

وعلى رغم غضبه وتوتره، وقف المشير أمام المرآة ليصلح هندامه، ويصفف شاربيه اللذين ظهرت على جانبيهما شعيرات بيضاء فشلت الصبغة في حجبها عن أعين الناس. أثناء وجود المشير في حجرة الجلوس، ذهبت دافني للمطبخ وأعدت له كأساً من الفودكا

مع البرتقال والثلج. قبل عودتها من المطبخ، بدأ المشير في الخطبة وهو ينظر لوجهه الشاحب في المرآة؛ أراد التأكد من أن قوته ما زالت تسعفه بعد المرض الذي ألمّ به. أخذ يقرأ بعصبية وصوته يعلو ووجهه يتوتر حتى برزت العروق على جبينه ورقبته. جسده يرتجف بعنف، كما لو أصابته الحمى من جديد، والعرق ينزل من وجهه بغزارة.

حاول السيطرة على جسده ومد يده ليمسك بطرف المرآة لكنه كان أبعد عنها بقليل، فمد ذراعه ولم تسعفه قوته فوقع على الأرض. ارتطم رأسه بالمرآة فدخل رأسه في وسطها وكسر زجاجها وأحدث دوياً شديداً في أرجاء المكان. خرجت دافني من المطبخ مسرعة لتتبين مصدر الارتطام؛ عثرت عليه على الأرض ورأسه مغطى بالزجاج والدماء تنزف بغزارة من الرأس والرقبة.

وجدته جثة هامدة ولاحياه فيها. مات المشير فجأة بسكتة قلبية حادة قبل أن يودع دافني وقبل العودة للجلوس على كرسي الرئاسة. انتهت حياه دافني مع المشير دون أن تستطيع إقناعه بالزواج منها ودون أن تتمكن من العودة معه لوطنه البعيد.

بعد وفاة المشير، عادت دافني فوراً لشقتها في بملكوا وتركت البيت الكبير بخدَمه وحشمه. ظنت دافني أن المشير لم يتمكن من إعطائها البيت، بما فيه من ممتلكات كثيرة وثمينة، تقديراً لخدماتها الجليلة أثناء وجوده في المنفى. ما لا تعرفه دافني هو أن البيت لم يكن ملكاً للمشير بل كان منحة من الحكومة البريطانية ليعيش فيه خلال أيام وجوده على أرض بريطانيا العظمى، امتناناً لما قدمه من خدمات ومساعدات للحكومة البريطانية أيام حكمه.

ودخلت دافني مرحلة من حياتها بعيدة عن الترف؛ رجعت لحياة عرفت بالصعوبة والزحمة والصراع. فارقت حياة الصفوة وأقبلت على الحياة التي يعيشها أغلب الناس.

بعد أيام قليلة من وفاه المشير، اتصل بها محامي المشير وطلب منها الحضور لمقابلته. خافت من طلب المحامي وتمنت ألا يرميها شخص بتهمة مقتل المشير أو سرقة ممتلكاته. هي على يقين من عدم وجود أي أساس لمثل هذه التهم؛ لقد خرجت من بيت المشير فور وفاته بعد أن تولت الشرطة التصرف في جثته وكل ما يتعلق بأمور دفنه؛ تم إبعادها عن الصورة تماماً. فقدت سيطرتها على أي أمر يتعلق بالمشير منذ لحظة وفاته وتركت البيت خالية الوفاض؛ أخذت معها إبريق الشاي الصيني، وبعض فضيات الطاولة من ملاعق وشوك وصوان قديمة، وخاتم العقيق الذي في إصبع المشير ليكون ذكرى للأيام التي قضتها معه. لم تأخذ من الأشياء الثمينة التي يعج بها البيت مثل اللوحات الزيتية والهدايا والتحف والساعات والقطع الأثرية؛ تلك ستكون سرقة وخيانة أمانة لا تليق بشخصية في مقامها ومن طبقتها.

ذكر المحامي لدافني أن المشير أودعه قبل وفاته بأشهر ظرفاً وطلب منه تسليمه لها في حالة إصابته بأذى أو عودته لوطنه من دونها لسبب من الأسباب. المحامي قدم لها ظرفاً أبيض كُتب عليه بخط أحمر عريض اسمها وتعبير حميم كان يقوله لها.

لفتت انتباهها ورقة، من بين الأوراق العديدة داخل الظرف، كتب عليها الرسالة التالية: حبيبتي دافني، شكراً للأوقات الجميلة التي زينت بها أيامي وأنا في المنفى بمدينتك الجميلة، لندن. لو لا مساندتك لي في أيام بعدي عن وطني، لغدت ساعات حياتي قاتمة

لا تطاق. لا شيء أقدمه لك له القدرة على رد بعض من جميلك، أو أستطيع عن طريقه التعبير عن عميق شكري وامتناني لخدماتك الجليلة؛ المال لا يستطيع شراء المودة والرحمة. لن تغيب عن ذاكرتي ساعات الأنس والصفاء التي قضيتها بجانبك، وعزفك البارع على البيانو، وغنائك الجميل، وقراءة روائع الأدب الإنكليزي والعالمي. شكراً حبيبتي ولو أن كلمة شكراً ليست كافية في حق امرأة غالية على نفسي مثلك، استطاعت إزاحة بعض همومي وتوتري وتضميد جرحي النازف إثر فقدي لكرسي الحكم.

وتمضي الرسالة بقولها: دافني، هذا مفتاح لخزنة في البنك الوطني البريطاني الواقع أمام مبنى هيئة الإذاعة البريطانية في بوش هاوس؛ تجدين في الخزنة أوراقاً مالية باسمك، لعلها تقلل من صعوبة الحياة من بعدي. مع هذه الأوراق، رسالة أرسلتْها لي أيام حكمي الحكومة البريطانية تعدني فيها بالوقوف بجانبي ومناصرتي في حال حدوث مقاومة لسلطتي من أي جهة. وكما ترين لم يكن وعد حكومة بلادك سوى حبر على ورق. لذلك، أطلب منك نشر الرسالة في صحيفة بريطانية من اختيارك لتفضحي حكومتك وتحذري الحكام أمثالي من مغبة تصديق الوعود الكاذبة التي تطلقها حكومتك. وأخيراً وداعاً يا دافني واعلمي أني أحببتك بكل قلبي وجوارحي يا جوهرة بين نساء كل الكون. مخلصك المشير.

أذهلت الرسالة دافني، لكنها استعّدت لتنفيذ ما طلبه منها المشير الراحل لنشر الرسالة المعنية في إحدى الصحف اليومية المهمة في لندن، لفضح الدولة البريطانية على وعدها السري له وعدم الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسها. تركته الحكومة البريطانية حائراً في وسط غريب ولم تفعل شيئاً لمساعدته على استرداد عرشه المفقود.

نشرت دافني الرسالة كما طلب منها. وبعد نشرها وصلتها دعوات كثيرة من الإذاعات والصحف يطلبون منها تسليط الضوء على المشير وقضيته، ووعد الحكومة البريطانية وتخلّيها عنه، والعلاقة السرية التي ربطت الحكومة البريطانية بحكومة المشير.

حولت الصحافة الرسالة إلى قضية سياسية هامة وتحدثت معظم الصحف اليومية عما سمته «موت رئيس دكتاتوري مخلوع في لندن». وتحدثت عن رياء الدولة البريطانية التي تتعامل في الخفاء مع الحكام المستبدين في العالم وتقيم معهم علاقات وطيدة ثم تتخلى عنهم عندما يزول ملكهم. نجاح دافني في حملة مناصرة المشير دفعها لإنشاء منظمة ضغط سياسية لمحاربة الفساد السياسي وكشف الأعمال السرية للحكومة البريطانية ومعاهداتها مع دول العالم الثالث مقابل صفقات اقتصادية، دون اعتبار لضحايا الاضطهاد والقمع. المنظمة استمرت لمدة سنة ونجحت نجاحاً كبيراً، لكن بسبب الضغوط المالية اضطرت دافني أن تغلقها وتوقف نشاطها.

وبدأت دافني من جديد البحث عن عمل ووفقت في العثور على وظيفة سكرتيرة في الصحيفة التي قابلت فيها ناجي.

أول محرر للصفحة الاقتصادية عملت معه دافني اسمه هانري ألبرت كوكبيرن. بدأت العمل بحماسة شديدة لأنها كانت في أشد الحاجة لنسيان الماضي حينما عملت مع المشير؛ تتوق لبداية حياة جديدة مهما فيها من مصاعب ومشاكل. وتود أن تطبق المعرفة والمهارات المتعددة التي اكتسبتها في إدارة بيت المشير ومن بعده منظمة الضغط التي أنشأتها وأدارتها. محرر الصفحة هانري يكبر دافني بعدد من السنين. قبل دافني، عملت معه سكرتيرة

حتى تقاعدت بسبب تقدمها في العمر. مهام عمل دافني الجديد تشبه عمل المشير؛ حجم عمل هانري أكبر من حجم عمل المشير.

على دافني إدارة مكتب هانري بصفته رجلاً مهماً في الصحيفة ومسؤولاً عن الشؤون الاقتصادية فيها. يقضي هانري أيام الأسبوع في لندن بعيداً عن أسرته، وهذا دعاه هو الآخر أن يعتمد على دافني في أموره العملية والخاصة. بعد فترة وجيزة من العمل، تحولت دافني من مجرد سكرتيرة عادية لهانري إلى عشيقته، وأخذت دورها الجديد بجدية وبدأت تتفانى في خدمة هانري ورعايته كما فعلت مع المشير. بجانب تنظيم جدول أعماله اليومي، تولت أمور أسرته المكونة من زوجته وأطفاله الثلاثة، يقطنون في منطقه شوربشاير القريبة من مقاطعة ويلز. بقاء هانري في لندن خلال أيام الأسبوع ساعد دافني على التمادي في علاقتها العاطفية معه وأعطاها ما تريد من فرص لتنعم بحياتها الخاصة مع مديرها الجديد.

وأصبحت تراعي أمور حياته الخاصة في شقته القريبة من كاتدرائية القديس بول الشهيرة؛ تشتري له الزهور والطعام والخمور والكتب والملابس. وصار يعتمد عليها لأقصى حد، وأعطاها دوراً في الصحيفة يتميز عن أدوار زميلاتها في العمل. وبدأت لندن من جديد تحلو أمام عينيها وعاودت الذهاب للمسارح والمعارض الفنية والاجتماعات الصحافية المهمة؛ لم يعد هانري يحتاج لدفن نفسه في عمل متواصل حتى الساعات المتأخرة من الليل، كما كانت الحال قبل أن تحل دافني على مسرح حياته. يتلهف الرجل للعودة إلى الشقة لينعم بالنظام والترتيب الذي أجرته دافني؛ كل زاوية في الشقة تنبض بالجمال والحيوية. وبدأت تدعو أصدقاءهم إلى العشاء

والسهر والتمتع بالأكل والمشروبات الروحية والموسيقى والرقص.

وكانا يسافران إلى مختلف عواصم العالم ويتمتعان بما لذ فيها وطاب. في فيينا تأتي المتعة من المباني العريقة والأوبرا والموسيقى الرفيعة، وفي باريس من الطعام والخمور والأزياء الجميلة، وفي خارج أوروبا من جمال الطبيعة كالأنهار والغابات والشواطئ. في كل زيارة من الزيارات الكثيرة يشتري هانري لدافني هدية تقديراً للسعادة التي تمنحها له.

ومع مرور الأيام أصبحت متعة الحياة تغمر هانري ولم تعد حياته الأسرية تهمه كما كانت سابقاً؛ رغم ذلك يقوم بواجباته تجاه الأسرة. في حياة هانري سر لم يخبر به دافني، كما لم يخبر به زوجته ولا أي شخص آخر. اكتشفت دافني السر الذي يتمثل في كابوس يهاجم هانري أثناء نومه. يحدث الكابوس بصورة مستمرة فيضطر هانري للقيام من نومه في منتصف الليل. يقف وهو يرتعش من الخوف ويرفع يديه ويؤدي التحية العسكرية لشخص يتخيله أمامه. بعد أداء التحية العسكرية، يرقد ويزحف على بطنه محاولاً الخروج من الشقة.

وفي كل مرة تنتبه له دافني، تعيده للسرير وتهدئ من روعه وتناوله كوباً من الماء. يتخلص من الكابوس ويعود لمواصلة النوم. في الصباح عندما تقص عليه ما حدث ليلاً يقول لها إنه لا يتذكر ما فعله. الكابوس مصدره ما كان يقوم به أيام الحرب العالمية الثانية، فهانري من الجيل الذي شارك في تلك الحرب ووقع أسيراً في أيدي جيش الألمان، ثم مر بمحنة حتى تمكن هو ورفاقه من الفرار. ومنذ تلك الحقبة من الزمن وهو يعاني من حالة نفسية مضطربة.

في إحدى الليالي بعد عودتهما من العشاء مع زملائهما الصحافيين، جلسا في صالة الجلوس ومن ثم رقدا على السرير كما هي العادة. أيقظ هانري الكابوس منتصف الليل وأخذ يزحف زحفاً بطيئاً إلى خارج حجرة النوم وإلى خارج الشقة. لم تصح دافني لأنها كانت في نوم عميق بسبب الإرهاق. خارج باب الشقة مباشرة ثمة درج يؤدي للدور السفلي للعمارة. واصل زحفه وهو يغط في نوم عميق حتى وصل حافة الدرج فزلت قدمه وهوي جسده وارتطم على الأرض، محدثاً دوياً مرعباً. قام الحارس من نومه على إثر الارتطام، وقام جميع سكان العمارة. عندما سمعت دافني صوت الارتطام، نهضت وتحسست هانري على السرير لتستفسر منه أمر الضجة أسفل العمارة وصوت الارتطام القوي، لكنها لم تجده. ظنت أنه سبقها لمصدر الضجيج أو أنهُ في المطبخ يتناول كأسا من الويسكي إثر كابوس انتابه من دون علمها. سارعت تبحث عنه في أرجاء المكان ولم تعثر عليه، ثم هرعت خارج الشقة وهي في ملابس الليل؛ لم تنتظر لتكمل زينتها وتصفف شعرها.

وبسرعة نزلت دافني إلى تحت لتتبين أمر الحادث. ظنت في بادئ الأمر أن حريقاً شب في العمارة أو في العمارات المجاورة. سمعت صوت سيارة الإسعاف وأصواتاً أخرى تنبعث من الشارع. وجدت هانري على الأرض ورجال الإسعاف يضعونه على حمالة لنقله للمستشفى لتلقي العلاج. كان الدم ينزف من رأسه بغزارة ومن أطراف جسده الأخرى. ارتمت عليه وحاولت حمله على النظر إليها والاستماع لها لكنه كان غائباً عن الوعي تماماً.

أصرت على مرافقته إلى المستشفى إلا أن هاتفاً قوياً أخبرها أن

نهاية الرجل قد أزفت بسبب الحالة الخطرة التي هو فيها. حاولت طرد الأفكار القاتمة من رأسها ورفعت يدها إلى أعلى جبينها وصدرها ورسمت علامة الصليب لتهدئ من روعها وتقلل من خوفها. وبدأت تشعر أن مستقبلها سيتأثر سلباً في حالة وفاة هانري، وأن الاستقرار الذي تمتعت به بعد وفاة المشير في طريقه للزوال.

أبعدت الأفكار القاتمة من رأسها وركزت على جسد هانري المسجى أمامها، من دون حركة، وهو ملفوف بأغطية بيضاء كثيرة. عند وصولهم المستشفى، ظلت تنتظر في توتر لمعرفة تقرير الأطباء عن حالة هانري. أخيراً، أتاها الطبيب المشرف واصطحبها إلى مكتبه، وعقلها لا يزال مشتتاً بسبب الأحداث التي وقعت؛ تمنت أن يقدم الطبيب خبراً ساراً عن حالة هانري. جلس الطبيب بهدوء خلف طاولته ولم يكن في عجلة من أمره. قال: ما أريد قوله الآن هو أن حالته خطرة؛ لقد عملنا جهدنا أنا والفريق الطبي لإخراجه من الغيبوبة إلا أننا فشلنا في ذلك ويجب علينا الانتظار قليلاً قبل أن نقوم بمحاولة أخرى. سننتظر نتيجة التحليلات التي أخذت له.

لم يكد ينتهي من كلامه حتى رن جرس الهاتف. رفع السماعة بهدوء ثم هز رأسه هزة خفيفة وتحاشى النظر في عيون دافني. حاولت معرفة شيء من حركاته لكنها لم تستطع؛ وجهه لم يعبر علن أمر محدد. بعدما وضع السماعة، تناول يدها برفق وشد عليها ونظر إليها بهدوء ثم قال: آسف، لقد توفي؛ كان حقاً في حالة خطرة. لقد سقط من علو شاهق وجروحه بالغة؛ آسف لعدم استطاعتنا إنقاذ حياته.

وعادت دافني للبيت من أجل لململة أفكارها المشتتة والتعايش مع كارثة هانري التي أعقبت كارثة المشير. لم تحسب حساباً لما تقوله لزوجة هانري؛ الرجل متزوج وقد مات وهو بجانبها في السرير. طوال علاقتها بهانري حاولت دافني جاهدة إبعاد حقيقة العلاقة عن زوجته، مارغريت؛ ظنت أنها نجحت في ذلك.

في الحقيقة، تحاشت مارغريت أن تظهر لزوجها معرفتها بما يدور بينه وبين سكرتيرته دافني ولنغتن. تركت مارغريت العلاقة تجري كما خطط لها هانري ودافني، علاقة بين مدير وسكرتيرته. لم تولِ دافني اهتماماً خاصاً؛ كانت تثني عليها كلما قامت بواجب تجاهها وتجاه أولادها، وتقول لها بصفة مستمرة: بدونك لا أعرف ما سيعمل هانري ونعمل نحن كأسرة، لقد نظمت حياة زوجي وساعدته وساعدتنا مساعدة كبيرة.

اعتادت دافني أن ترتب لهانري وأسرته رحلاتهم السنوية، وبرنامج دخول أبنائه في المدارس، وشراء احتياجاتهم لأعياد الميلاد بما في ذلك عيد ميلاد مارغريت، وهي مهام يتوقع من هانري القيام بها. ومارغريت كانت على علم بمشاركه دافني لهانري الشقة ولكنها مرتاحة إلى أن دافني لا تصغرها عمراً أو تفوقها جمالاً. لو إن دافني تتميز عليها، ربما شعرت بالغيرة وواجهت زوجها بخيانته لها. قبلت مارغرت الوضع على صعوبته لأنها لم تر أن دافني تمثل تهديداً خطيراً لكرامتها وأنوثتها.

أما اكتشاف مارغريت لوجود علاقة تربط زوجها بسكرتيرته، فقد حدث عندما عثرت ذات يوم في جيب هانري على صورة تجمعه بدافني؛ كانا يستحمان في حوض السباحة بأحد فنادق باريس. وتذكر مارغريت أن دافني لبست عقداً من اللؤلؤ على جيدها؛

كان عقداً ثميناً لدرجة سألت نفسها كيف لدافني السباحة بالعقد دون الخوف عليه من التفكك والضياع؟ لكنها توصلت إلى أن دافني تلبس العقد لتظهر بمظهر المرأة الأرستقراطية ذات الأنوثة الطاغية، حتى لو ضحت بالعقد الثمين. فكرت في شأن العقد أكثر من التفكير في شأن وجود زوجها وهو يسبح مع امرأة غيرها. لم تناقش زوجها في الصورة حتى لا يتصدع بيتها ونمط حياتها المترف، لمجرد علاقة تافهة تربطه بسكرتيرة في لندن بعيداً عن محيط البيت والأسرة. لو واجهته، ربما طلقها، والطلاق غير مستساغ في الوسط الاجتماعي الذي تنحدر منه. فضلت السكوت حتى تحافظ على تقاليد أسرتها وتثبت عراقة أصلها وفصلها.

ومات هانري وفقدته دافني وفقدته زوجته مارغريت. بعد عودتها للبيت إثر تلقيها خبر وفاة هانري، خلدت دافني إلى نفسها وأخذت تفكر بما تقوم به بعد فقدانه، والكيفية التي تخبر بها أسرته. هل ستخبر مارغريت أن زوجها نهض من جنبها في الفراش وخرج ليلقى حتفه؟ جلست على حافة السرير وهي في حيرة من أمرها والأفكار تعصف برأسها وتهدّ كيانها؛ شعرت بالضيق والقلق ورغبة في البكاء. نهضت ووقفت أمام النافذة ونظرت لكاتدرائية القديس بول وتذكرت اللحظات التي قضتها مع هانري وهما يستمتعان بالمنظر، وشعرت بهدوء يغمر روحها المتعبة وتمنت لو كان اليوم هو الأحد لذهبت لكاتدرائية القديس بول للصلاة.

إلا أن عليها مواجهة ما أمامها من أمور معقدة ومشاكل شائكة. أول شيء عليها التعامل معه يتمثل في مراسم دفن هانري؛ خافت أن تتولى زوجته الأمر ويتم تجاهلها كما حدث عند وفاة المشير. حز في نفسها أن يتم تجاهلها بعد أدائها دوراً هاماً في حياة

الرجل. لن يكترث أحد لطريقة تفكيرها وحزنها؛ أسرة الرجل وزوجته أولى به بعد مفارقته الدنيا الفانية.

لكن دافني قررت أن يكون لها دور هام في مراسم دفن هانري ورفضت تكرار ما حدث عند وفاة المشير. صممت أن تنفذ رغبتها وتتولى مراسم دفن هانري بنفسها وتستبعد زوجته عن الصورة نهائياً، مهما كانت النتيجة ومهما كان رأي زوجته والمجتمع من خلفها. تدرك دافني أن زوجة هانري ستقاوم وستهتم بزوجها رغم العلاقة الفاترة التي كانت بينهما قبل وفاته. وجود دافني في حياه هانري واضح وضوح الشمس وقد اعترف به الجميع وقبلوه فلماذا ينقلب الوضع عند موته، ولماذا يتجاهلها الجميع في ساعة الشدة والحزن؟ من هذا المنطلق بدأت دافني تنسج خطة القيام بمراسم دفن هانري؛ إنها مقبلة على خطوة هي مقتنعة بها رغم إدراكها أن الخطوة غير عادية عند عموم الناس.

أتعبها التفكير في الموضوع، فاتجهت للمطبخ وسكبت لنفسها كأساً كبيرة من النبيذ الأحمر وشربتها بسرعة غير عادية. الوقت يدهمها وعليها الإسراع في تنفيذ خطتها. دخلت الحمام وغطست في حوض الماء وأغمضت عينيها وتمتعت بالماء الدفيء. شعرت بنعاس خفيف يلاعب جفنيها، وغفت لثواني في محاولة للهروب من الأفكار الخطيرة التي تتضارب في رأسها، فخرجت من الحمام وعادت إلى صالة الجلوس. بعد تردد وجيز، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بهاتف مارغريت زوجة هانري وأخبرتها بخبر موته المفاجئ؛ لم تربط نفسها بالوفاة من قريب ولا من بعيد، وأعطت لمارغريت انطباعاً يشير إلى أنها سمعت الخبر عندما حضرت للصحيفة في الصباح.

تلقت مارغريت الخبر بانزعاج وحزن وقررت العمل على إبعاد دافني عن مراسم دفن هانري. زوجها مات وعليها قطع الحبل الهزلي الذي كان يربطها بدافني نهائياً مهما كان الثمن. في الوقت ذاته، ظلت دافني تعمل بدقة في صياغة خطتها وتنفيذها.

وفي جزء هام من خطتها، طلبت مارغريت من دافني إرسال الجثة لمقر الأسرة في منطقة شوربشاير البعيدة عن لندن. وعدتها دافني بتنفيذ طلبها. لكن دافني قررت تشييع الجنازة في لندن ودفنها في قطعة أرض في منطقه إيلنغ اشترتها أيام عملها مع المشير. ما إن رسخت الفكرة في رأسها حتى سارعت في تنفيذها. التشييع يكون في كنيسة صغيرة في شارع أودلي في حارة ماي فير؛ وقع اختيار دافني على هذه الكنيسة بسبب أهمية موقعها ومكانتها لقربها من السفارات وحي ماي فير الشهير. أرادت دافني جنازة متميزة ورفيعة المكانة.

من شارع أودلي تنطلق المسيرة بالجثمان إلى منطقة إيلنغ ليدفن هانري تحت شجرة زهر إنكليزية في أرض دافني الخاصة.

وبدأت دافني في إرسال دعوات الحضور للدفن إلى معارفهما هي وهانري من أصدقاء وصحافيين ودبلوماسيين وأدباء وغيرهم، وأبلغت الحانوتي بما هو مطلوب منه. في الوقت ذاته، قامت مارغريت بالترتيب لمراسم الدفن في المنطقة التي اختارتها، وهي على ثقة أن دافني ستقوم بإرسال الجثمان للمكان الصحيح في الوقت المناسب.

في يوم التشييع، ارتدت دافني حلة سوداء، وغطت رأسها بغطاء من الدانتيل الأسود الغالي الذي جلبته أثناء زيارة لدير في

الفاتيكان. وقادت جمع المعزين وبجانبها القديس ماثيو أوكونور الذي قرأ على روح الفقيد، وذكر حسناته، وتمنى له الرحمة والغفران. وشكر القديس دافني لأنها كانت خير رفيقة للمرحوم في حياته. بعد ذلك، اتجه الجميع في طريقهم إلى إيلنغ، واستمرت المراسم كما رسمتها من دون عرقلة أو مساءلة؛ زملاء هانري لم يتدخلوا رغم معرفتهم الوثيقة بزوجته مارغريت، وربما ظنوا أن مارغريت موافقة على الذي يجري.

وعند وصولهم إلى أرض دافني، هطلت أمطار غزيرة وبدأ الجميع يندسّون تحت مظلاتهم. الحانوتي اسرع ليواري الجثة في الثرى. فجأة سمعوا صراخاً عالياً يأتي من بعيد. صمت الجميع وانقطعت الهمهمة. امرأة متشحة بالسواد تنطلق تجاههم وتقف منتصبة وتطلب منهم التوقف عن الدفن. صعق الحضور عندما رأوها، كأن هانري وقف منتصباً قبل أن تهال عليه التراب. بعضهم عرفها والبعض الآخر لم يعرفها. إنها مارغريت زوجة هانري؛ حضرت لأخذ جثة زوجها من دافني التي سرقتها من دون علم الأسرة.

لم تعرف الأسرة بخطة مراسم الدفن التي حبكتها دافني ونفذتها. عندما تأخر وصول الجثة، بدأ الناس في التساؤل والشك. تأخرت مراسم الدفن التي دبرتها زوجة هانري لعدم وجود الجثمان نفسه. وعندما تحرت مارغريت عن أمر التأخير، عرفت ما قامت به دافني من خلف ظهرها. أخبروها عن مكان الدفن الآخر فهرعت لتنقذ جثه زوجها قبل أن تدفن حيث أرادت دافني.

عندما وصلت مارغريت، كان التابوت في وسط القبر ولم يستطع أحد سحبه ويسلمه لمارغرت. الموقف مشحون. وقفت مارغريت ودافني وجهاً لوجه وتبادلتا أشنع الشتائم أمام المشيعين الذين كانوا

ينظرون في دهشة وذهول. أدركت مارغريت عجزها أمام دافني، لذا حاولت نزع طرحتها السوداء من على رأسها. دافني كانت أسرع فصرفت يدها بعيداً عن الطرحة.

من الجانب الآخر، دافني لم تحسب حساباً للذي سيأتي من مارغريت. حاولت البصق في وجه مارغريت التي كانت في تلك اللحظة تحاول الوصول لحقيبة يدها لانتشال زجاجة الكريستال الكبيرة لعطر «نينا ريشي لاير دو تمبس» التي بداخلها. تناولتها بسرعة خاطفه ورشت العطر على وجه دافني التي فشلت في تفادي العطر. في المعركة، وقعت الزجاجة من يد مارغريت على الأرض وتطاير زجاج الكريستال في كل المكان وتحطمت الحمامتان اللتان تزيّنان رأس الزجاجة المشهورة، إلى قطع صغيرة.

وعادت مارغريت من حيث أتت من دون أن تزيد كلمة أخرى فوق الذي قالته لدافني؛ رجعت خائبة من دون جثة زوجها. دافني فركت عينيها من أثر العطر الحارق. سارع المشيعون بنقلها للمستشفى قبل أن تتضاعف حالتها أو تفقد بصرها. حرقت دافني عينها لكنها نجحت في دفن عشيقها في المكان الذي أرادت.

بعد الأحداث الدرامية التي مرت بها، حاولت دافني انتشال ما تستطيع من المال القليل والممتلكات البسيطة التي تركها هانري. وجدت منحوتات برونزية اشتراها في واحدة من رحلاته لموسكو وأقمشة تراثية من دول أفريقية زارها خلال عمله في الجريدة ومجموعة من السجاجيد العجمية الحريرية من إيران وتركيا والمغرب. كذلك وجدت مجموعة كبيرة من الصور التذكارية لها ولهانري مع سياسيين ودبلوماسيين وصحافيين التقطت أثناء رحلاتهما لدول أجنبية، وصوراً عن أحداث عالمية هامة،

نوى هانري عرضها في معرض يوضح بها أهميته في عالم الصحافة البريطانية ويعرض وقائع عاشها العالم والتقطتها عدسة كاميرته.

أما ما كان لهانري من مال فعاد لأسرته ولم تستطع دافني أن تقبض أي شيء منه. ورغم ذلك، رأت نفسها في نهاية الأمر منتصرة على زوجته لأنها نجحت في دفنه في قطعة أرضها لا في المكان الذي خططت له أسرة هانري وزوجته. وبدأت دافني الذهاب كل يوم أحد لأرضها لجني الفواكه والخضرة والزهور ولزيارة قبر هانري.

وبعد غياب طويل عن العمل، رجعت دافني للجريدة. طلب منها رئيس التحرير ماثيو هوبكن مقابلته في مكتبه. ظنت في بادئ الأمر أن الرجل يريد الاستغناء عن خدماتها بسبب الأحداث التي جرت يوم دفن هانري. دخلت لمكتبه وقلبها يرتجف ووجهها مضطرب. قابلها هوبكن مبتسماً وطلب منها الجلوس، ثم سألها عن حالها. وقدم لها العزاء، بصورة غير مباشرة، في فقدها لرفيقها وصديقها هانري وتمنى لها الخروج من المحنة التي ألـمّت بها.

واصل هوبكن قائلاً: هل تتذكرين عدد السنوات التي عملت فيها في هذه الصحيفة يا دافني؟.

حاولت قراءة تعبير وجهه، وهي تجتهد كي تخفي القلق الذي تعاني منه، وقالت: نعم أذكرها؛ أنا أكره حساب السنوات.

قال: أدرك أنك بفقدان هانري فقدت الكثير؛ الرجل مديرك وزميلك ورفيقك وأكثر من ذلك. إلا أني أعدك بالعمل للعثور

على محرر جديد للصفحة الاقتصادية تستطيعين العمل معه بسهولة ويسر. ولهذا أريدك أن تثقي بأنني سأعمل كل ما في وسعي كي نحصل على الشخص المناسب الذي يحل محل المرحوم هانري. في الحقيقة، نحن نحتاج لمحرر ذي كفاءة عالية وأخلاق حميدة حتى نتمكن من العمل معه وتطوير الصفحة الاقتصادية.

في نهاية الأمر، وقع الاختيار على رجل يدعى هيربيرت أدموند ميدليي، رجل في منتصف الستينيات من عمره، شغل في الماضي مناصب عسكرية هامة حتى تقاعده من الجيش. لدى هيربيرت اهتمامات تجارية بجانب اهتمامه بالصحافة التي دخل مجالها أخيراً.

هيربيرت رجل طويل القامة وقوي البنية وله شاربان طويلان وكرش ضخم ذكّرت دافني بكرش المشير. هيربيرت رجل يحب الضحك ولا يضع اعتباراً للدنيا ومشاكلها؛ الرجل لم يتزوج في حياته وظل أعزب ولا يبدو أن له أسرة ينتمي لها.

يوم وصول هيربيرت دار الجريدة، عرّفه رئيس التحرير بدافني التي ستصبح سكرتيرته الخاصة. دافني وهيربيرت شعرا وكأنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ أمد بعيد ولم يشعرا بوجود تكلف أو حساسية تعترض سبيل التواصل بينهما. هيربيرت جعل دافني من البداية تشعر بالارتياح تجاه شخصيته وتتجنّب عمل أي شيء يخلق التوتر الإداري والإنساني في محيط العمل. دافني بدورها ارتاحت لشكل هيربيرت ولأسلوبه الدمث في المعاملة ونكاته الظريفة؛ يطلق الكثير من النكات ويضحك حتى يهتز كرشه ويرقص شارباه.

الصحيفة أعطت هيربيرت الشقة التي سكن فيها هانري في السابق. سرّت دافني للخطوة من حيث إن الشقة ستكون جزءاً

مهماً من حاضر الصحيفة وماضيها وستذكّرها بالأيام الجميلة التي قضتها فيها مع صديقها الفقيد هانري.

بعد تولّي هيربيرت إدارة الصفحة الاقتصادية بأيام، اتضح لدافني أنه رجل كسول وليس عنده أدنى اهتمام بتطوير العمل المطلوب منه ولا بما يدور في الجريدة بصفة عامة. حول هيربيرت مهام عمل الصفحة لدافني؛ يختلف تصرفه عن تصرف المرحوم هانري الذي كان يكتب المواضيع ويتابع ويحرر الأخبار التي تنشر في الصفحة. يركز هيربيرت جل اهتمامه على نفسه؛ يدخن السيجار الهافاني الغالي، ويتعاطى الكونياك حتى في أوقات الدوام الرسمي، ويمر مع أصدقائه على بيوت القطع الأثرية المتخصصة في بيع الأسلحة القديمة وشرائها.

كان هيربيرت مهووساً بالأسلحة ذات التاريخ العسكري مثل مخلفات الحربين العالميتين والحروب المشهورة والثورات والانقلابات العسكرية التي حدثت في شتى بقاع العالم؛ كل بندقية يقتنيها يجب أن يكون لها تاريخ عسكري يشار إليه بالبنان. في الواقع، تمكن هيربيرت من اقتناء مجموعة كبيرة من الأسلحة التاريخية القديمة والنادرة؛ أودع المجموعة في مخزن خارج لندن، يذهب كل شهر ليتفحصها ويتمتع بمنظرها ويزيل الغبار عن بعضها ويدون تاريخها وتاريخ الحروب والثورات والانقلابات التي استعملت فيها. وهو هناك ينسى نفسه ويجلس حتى ساعات متأخرة من اليوم لأنه يجد صعوبة في أن يترك مقتنياته المهمة والتي تبعث في قلبه البهجة والسرور. وكانت له مجموعة من الأسلحة وضعها في شقته خفيةً بغرض الزينة؛ بعضها موضوع على الطاولة في صالة الجلوس وبعضها معلق على الحيطان.

التعامل مع الأسلحة يُشعر هيربيرت بعظمة الحرب ويجعله يحس بحرارة الحروب التي شارك فيها في ماضي أيامه وحيويتها. الهواية الغريبة المتعلقة بأنتيكا الحروب أثارت إعجاب دافني ودفعتها للتأمل في شخصية هيربيرت وعلاقة العمل التي تربط بينهما.

بدأت دافني، بسبب تغيب هيربيرت الطويل خلال ساعات العمل عن المكتب، في إزاحته من تحرير الصفحة وتولّت ذلك هي بنفسها. في نهاية اليوم يرجع هيربيرت للمكتب، فتقدم له دافني النسخة النهائية من الصفحة فيلقي عليها نظرة سريعة، خالية من الاهتمام، ويوقع حيث يطلب منه التوقيع. يعطيها برأسه علامة الموافقة والارتياح لما تقوم به؛ في حالات نادرة يطلب منها حذف كلمة هنا وهناك أو يسألها عن نقطة كتبتها في الصفحة. يضحك الرجل ويفتل شاربيه ويربت على يدها برفق ويقول: أحسنت يا آنسة دافني؛ أنت أفضل سكرتيرة عرفتها في حياتي. ويضيف وهو يضحك ضحكة عالية: لكن لا تنسي وضع اسمي في المكان المخصص له في الصفحة لأنني ما زلت المحرر الاقتصادي.

واستمرت علاقة العمل بين دافني وهيربيرت على هذا المنوال حتى حدثت واقعة مذهلة وغريبة.

ذات يوم، دخلت دافني على هيربيرت لتعرض عليه الصفحة قبل إرسالها للمطبعة، ولتقدم له شاي العصر. وجدته في حالة نشوة بعد تعاطيه كثيراً من المشروبات الكحولية، من زجاجات يدسها في درج مكتبه. في مثل هذا الوقت من اليوم، يتحدث كثيراً عن ذكريات الحروب التي خاضها في أيام شبابه وعن أيام حياته العسكرية؛ أحياناً يتكلم مع رفقاء العسكرية مثل العميد فكتور هانزفيلد الذي يرأس مجلة فصلية متخصصة في تاريخ الحروب الأوروبية.

تخيل هيربيرت أنه في مكان آخر وأن دافني شخصية أخرى تنتمي لعالم آخر. ما عادت دافني هي المرأة الأوروبية البيضاء التي تعمل في صحيفة محترمة في وسط لندن؛ ظهرت أمامه في صورة فتاة من فتيات المستعمرات التي ذهب إليها قبل عشرات السنين عندما كان في عنفوان شبابه وقمة قوته. بدت أمامه مثل شابة صغيرة تمشي بدلال وخفة ورشاقة، شعرها أسود يصل إلى تحت كتفها، وصدرها بارز يكاد يشق حمالة الصدر الضيقة. الصورة تتراقص أمامه وتدعوه إلى التجاوب.

ولاحظت دافني الطريقة المريبة التي يتصرف بها هيربيرت لكنها تجاهلته وواصلت تقديم الشاي كما جرت العادة. فجأة قال: تعالي واقتربي مني يا آنسة دافني فقد أغراني عطرك المثير؛ هيا اقتربي مني لأشم عطرك الأخاذ فقد نفذ عطرك المغري لإحساسي وسيطر على مشاعري وأعصابي. ثم واصل قائلاً: من الأفضل أن تمري أمامي وتظهري لي محاسنك ومفاتنك؛ دعيني أمتع نظري بجمالك الرزين؛ دعيني أرى عن كثب قلادة اللؤلؤ الثمينة على جيدك الجميل.

ثم نظر لدافني ووجه كلامه لها مباشرة قائلاً: قلادتك تذكرني بالميداليات التي وضعت على صدري أثناء الحروب التي خضتها وأبليت فيها بلاء حسناً. اقتربي ولا تخافي فنحن في مكتبنا الخاص وفي مأمن من تطفل الآخرين؛ دعيني أضمك إلى صدري المتعب من طلقات رصاص الحروب التي خضتها أيام الشباب.

وواصل بقوله: لقد خضت في الماضي حروباً كثيرة وتغلبت على أعداد كبيرة من الأعداء واليوم أنوي التغلب على زهرة إنكليزية

فاتنة المحاسن تسمى دافني. أريد فتح قلبي للحب من جديد لامرأة رشيقة شقراء رقيقه مثلك، بعد أن أغلقته منذ سنين، لتأخذني لعالم أجد فيه ولو القليل من الراحة. أيامي المقبلة يجب أن تكون قطعة من النعيم وأن تختلف عن جحيم الحروب التي خضتها في الماضي. أريني ما تخفينه من أنوثة وفتنة تحت الأغطية الكثيفة التي تدعى ملابس وهي لا داعي لها من الأساس؛ نساء المستعمرات ورجالها في أفريقيا لا يرتدون شيئاً على أجسادهم بل يمشون حفاة وعراة في سعادة لا حدود لها. بعد غزونا لبلادهم، غيّرنا عاداتهم الأصيلة وأجبرناهم على ارتداء الملابس تحت ستار الحضارة والمدنية.

ثم دنا منها وقال: أود أن أحررك من ملابسك حتى تتمتعي بالحرية مثل الأفارقة القدماء؛ دعيني أنزع عنك هذه القطع الثقيلة التي عليك، قطعة تلو الأخرى، لأعيد إليك جمال الطبيعة وطعمها الراقي. أنا رجل عسكري مغرم بجمالك الأخاذ الذي يرقص تحت أطنان من الأقمشة.

ومد هيربيرت يده في محاولة للمس يد دافني، لكنها منعته من تحقيق مأربه. نظرت إليه نظرة دهشة وحيرة؛ لم تعرف هل الرجل يمر بنزوة عابرة أم يريد أن يقيم معها علاقة متينة مثل هانري؟ حاول مرة أخرى لمس يدها لكنها تمنعت بحياء؛ نهض ووقف قربها لكنها حاولت الابتعاد عنه والخروج، فركض خلفها وأغلق باب المكتب بالمفتاح.

دنا نحوها وقال: اليوم لن أدعك تفلتين من يدي يا دافني؛ في الماضي لم تنج من قبضتي جيوش الأعداء في ساحات الحروب. بدأت دافني تجري بعيداً عنه وهو يجري خلفها في المكتب

وتضحك بإغراء وغنج وقلادة اللؤلؤ تتلاعب على جيدها. أخيراً، لحق بها واقترب بوجهه من وجهها وغابا في قبلة عميقة، ثم شدها من يدها تجاه طاولة مكتبه الواسعة وألقى بها عليها. دفع الأوراق وصينية الشاي إلى الأرض فتحطم الإبريق والأكواب وسال الشاي على الأوراق.

ولم يكترث بل قال وهو في قمة النشوة: لقد أصبحت اليوم فريستي يا دافني وقهرتك في مكتبي كما قهرت الجيوش في ساحات الوغى. وأخذ يقهقه بحبور؛ رائحة الغداء الدسم الذي تناوله في نادي الضباط المتقاعدين تفوح من فمه وتختلط برائحة الكحول النفاذة. ألفت دافني الرائحة لأنها الرائحة التي يتميز بها الرجل الإنكليزي من بين سائر رجال العالم.

ودفن هيربيرت شفتيه المرتعشتين في شفتي دافني بينما اهتزّ شارباه الطويلان ليداعبا خدّيها. أنفاسه الملتهبة تعلو وتنخفض من الرغبة المحمومة التي غمرته تجاهها. نزل بفمه إلى فتحة حمالة صدرها ومزقها بأسنانه وقال: دعك من كل الأغطية وعيشي بانطلاقة وحرية كما تعيش نساء المستعمرات الأفريقية؛ أعطني فرصة كي أحررك من التقاليد والقيود التي كبلتك بها طبقتك الاجتماعية المتعالية.

الصراع الخفيف المغري الذي جرى بينهما، انتهى بانقياد دافني لرغبة هيربيرت وإعطائه الفرصة ليأخذ منها ما أراد؛ كانت المدة قصيرة ورجولته فاترة بسبب تقدم العمر.

منذ المغامرة التي جرت في المكتب، دخلت دافني مع هيربيرت في حقبة جديدة من العلاقة الغرامية الدائمة. لم يعودا مجرد مدير

ومساعدته الخاصة، تحوّلا لشخصين لا يفصل شيء بينهما. كون هيربيرت أعزب سهّل أمر العلاقة، عكس الوضع الذي ساد إبان العلاقة مع هانري.

ورحلت دافني لتقيم مع هيربيرت في ذات الشقة التي عاشت فيها مع هانري. ولهذا لم تشعر بالغربة من المكان؛ التغيير يخص الشبه والاختلاف بين شخصية هانري وهيربيرت.

إن الرجلين يختلفان في أمور كثيرة مثل الشكل والاهتمامات. الشيء الوحيد الذي يربط بينهما هو الخلفية العسكرية. هانري كان عسكرياً ومحارباً في الحرب العالمية الثانية وبعد انتهاء الحرب عاد للحياة المدنية، أما هيربيرت فقضى حياته بأكملها في الجيش حتى تقاعده وقدومه للعمل في الصحيفة.

كان هانري متزوجاً ومهتماً لحد كبير بتأمين مستقبل زوَجته وأولاده. لم يود أن تعرف زوجته بالعلاقة التي تربطه بدافني، لذلك كانت علاقتهما تحت ستار من الكتمان والسرية. عدم زواج هيربيرت وقلة علاقاته الأسرية والاجتماعية جعلا منه فرداً حراً لأبعد الحدود، مثل طائر يحلق في الفضاء عندما يريد، ويحط على الشجر عندما يريد. هيربيرت لا يدرك شيئاً عن الأبوة ولا يعرف معنى المسؤولية الملقاة على الأب تجاه أولاده؛ ما يطمع فيه هو التعامل مع الحاضر ولا علاقة له بالمستقبل. خلفياته العسكرية لم تمنعه من حب الحياة ومتعها ومسراتها.

وبدأت دافني كعادتها تولي اهتماماً ورعاية بهيربيرت وتكرس أوقاتها خارج العمل في خلق الجو المريح الذي يستحقه. نظمت الشقة واهتمت بها اهتماماً كبيراً. جعلت هيربيرت يعتمد عليها في

كل صغيرة وكبيرة، كما كانت الحال مع هانري ومن قبله المشير. أصبح هيربيرت لا ينام إن لم تكن دافني بجانبه، تقدم له السيجار الهافاني وكؤوس الكونياك. وهو بدوره لم يبخل عليها بشيء؛ ذهب معها للمسارح ودور الأوبرا؛ تجلس في الصف الأول وهيربيرت بجانبها يغط في نوم عميق من بداية العرض لنهايته. كانا يسافران كثيراً إلى مختلف دول العالم ويلتقيان بأصدقاء هيربيرت من الضباط القدماء الذين ما زالت تربطهم به أوثق الصلات.

أمر واحد في حياة هيربيرت ظل يحير دافني حيرة شديدة ولم تجد له تفسيراً يريح عقلها وأعصابها. لماذا لا توجد روابط أسرية للرجل؛ لا تعرف له علاقة أسرية من أي نوع ولم تسمعه يتحدث عن أخ أو أخت أو عم أو عمة. لم تر أي واحد من أسرته وكأنه قد أتى للدنيا بمفرده وعاش فيها بمفرده؛ هيربيرت شخص مقطوع من شجرة.

كان لهيربيرت تاريخ طويل من الاستغلال الجنسي والعاطفي لنساء المستعمرات التي كانت تحت الحكم البريطاني، وهو أمر لم تكن دافني تعلم عنه شيئاً. ذهب للعديد من المستعمرات إبان خدمته العسكرية في الجيش الاستعماري واستطاع الوصول للمجتمعات المحلية من الرجال والنساء والأطفال. ورغم انتمائه للطبقات الإنكليزية الأصيلة، يقع هيربيرت في غرام نساء المستعمرات لدرجة الهوس؛ يحصل الرجل على العديد من الفتيات بسبب البؤس وشظف العيش والحاجة للمال من الرجل المستعمر. تقع النساء ضحية لهيربيرت وأمثاله الذين يغدقون عليهن المال، فيستغلون البؤس ويحولونه لنوع من اللذة والمتعة. هؤلاء الرجال

يستغلون البؤس أبشع استغلال لإشباع نزواتهم الجنسية التي يجدون صعوبة في إشباعها في بلدانهم بسبب القوانين والمراقبة اللصيقة لأنواع معينة من الجرائم، خاصة الاعتداء الجنسي على الأطفال.

وجد هيربيرت فرص سانحة لتنفيذ خططه مع نساء المستعمرات البائسات. يجلب البنات الصغيرات الجميلات بأسعار زهيدة وينغمس معهن في ملذاته الخاصة ونزواته المتوحشة. يحضر لمنزله بنات قاصرات تحت ستار خدمته ويعتدي عليهن؛ لم يفصح عن الجريمة التي يقوم بها ولم يفكر في نتائج أفعاله البشعة.

وبعد انتهائه من مدته العسكرية في مكان ما، يغادر من دون التفات إلى الخلف ليرى ما ترك من ألم ومعاناة في حياة ضحاياه من النساء والفتيات. يتعمد الرجل عدم ترك أي دليل على فعله أو عنوان يؤدي إليه؛ يذهب وكأن شيئاً لم يحدث. كرر تجاربه مرات عديدة لدرجة لم يعد عنده الرغبة في حصر مسارح الجريمة وأسماء الضحايا؛ حطم الأمكنة وقهر الناس وذهب لا يلوي على شيء.

ففي مقابل الاعتداء والذل، تحصل النساء الضحايا على أجر زهيد تتفضل به السلطات البريطانية على أساس أنهن يعملن في تنظيف ثكن الجنود ومنازل الضباط وترتيبها. وفي مرات كثيرة كان هيربيرت وأمثاله من العسكريين البريطانيين يضنون عليهن بهذا الأجر الضئيل ويمنعونه عنهن؛ ليس في استطاعة النساء الشكوى أو الثورة على الظلم الذي يمارسه الرجال ضدهن. على الفتيات قبول هدر شبابهن من أجل إشباع شهوات الرجال المتوحشة. الأمر

الآخر الذي يصدهن عن الشكوى، هو الخوف من فضح أنفسهن وخدش شرفهن أمام ذويهن في مجتمعات تتبع التقاليد الصارمة في ما يتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة.

من تلك العلاقات مع نساء المستعمرات، أنجب هيربيرت العديد من الأولاد والبنات ولم يعد يعرف أعدادهم وأسماءهم على وجه الدقة ولا أسماء الأمهات اللائي ولدن أولاده وبناته. يؤمن هيربيرت بمبدأ غريب يقول إن على الرجل الفحل إقامة علاقات جنسية متعددة مع النساء وتوزيع جيناته وخصائصه في جميع بقاع الدنيا؛ يقول إن هذا هو المعنى الحقيقي لمفهوم التكاثر.. تعمير الأرض وبناء الحضارة البشرية. من هذا المبدأ والمنطق، عاش الرجل حياته من دون إحساس بالمسؤولية تجاه الأسرة أو تأنيب ضمير تجاه ضحاياه من النساء القصّر.

نساء هيربيرت كن شابات بارعات الجمال وكن في أمسّ الحاجة للمال لإعالة الأسر والأطفال. نساء المستعمرات على يقين من أن الضباط الإنكليز لن يتخلوا عنهن في حالة قمن بتلبية رغباتهم؛ لديهن اعتقاد أن الضابط الإنكليزي لن يتخلّى عنها أبداً إذا أنجبن منه البنين والبنات. معروف عن الرجل الأوروبي وخاصة البريطاني احترام حقوق الإنسان عامة والمرأة على وجه الخصوص، حسب نص القانون وتعاليم الدستور. الظن عند فتيات المستعمرات أن هيربيرت وأمثاله، مهما عربدوا، يرجعو لرشدهم ويتحملون مسؤوليتهم الأسرية انطلاقاً من القيم التي تربوا عليها منذ نعومة أظفارهم. يذهبون لبلادهم لكنهم سيعودون في يوم ما لمساعدتهن ومساعدة فلذات أكبادهم من الأولاد والبنات.

لكن هيربيرت لم يكن ليهتمّ بقيم العدالة والمسؤولية، فقد آمن

بفلسفة شريرة لا تعطي اعتباراً لنساء ضعيفات مثل نساء المستعمرات. واصل العربدة والاعتداء على القاصرات حتى انتهت مدة عمله في المستعمرات ورجع لبلاده، وهو يحمل أرفع أوسمة الجيش البريطاني ورتبه. لكن هل عاد هيربيرت منتصراً من غزواته أم رجع مهزوماً من الداخل وكان عليه أن يدفع ثمن أفعاله؟

ما فعله هيربيرت مع نساء المستعمرات ترك أثراً سلبياً في حياته الاجتماعية والنفسية. الرجل عاش بعيداً عن معرفة الناس العاديين في المجتمع؛ تنحصر معارفه في مجموعة صغيرة من الضباط المتقاعدين الذين عمل معهم في بلدان مختلفة في أفريقيا وآسيا. من يعرفهم مارسوا أفعاله ذاتها وآمنوا بفلسفته الفوضوية العبثية وقيمه الضالة. يعلل هيربيرت سبب أفعاله بصعوبة الحياة العسكرية والوضع الذي يجد فيه الضباط أنفسهم وهم في عنفوان الشباب ورعونته.

وقائع المستعمرات انسلخت من مخيلته عند عودته إلى لندن ولم تعد سوى ذكرى طفيفة تطوف على سطح خياله بين الحين والآخر. عندما يكون بمفرده متمدداً على السرير أو الأريكة ودافني في المطبخ تحضر له العشاء، تعود له صور ما حدث في المستعمرات، نساء صغيرات السن ورجال عراة وحيوانات مفترسة. تهاجمه الصور إلا أنه سرعان ما يزيحها بتناول جرعة كبيرة وقوية من الخمر. المعركة ضارية بين الخير والشر والماضي والحاضر.

لا تبارح الصور ذهنه ولا يرتاح. لكن هناك صورة واضحة المعالم كانت عصية على أقوى كؤوس الخمر التي يتعاطاها بشراهة. إنها صورة لفتاة أفريقية من الحبشة؛ لا يستطيع هيربيرت إبعادها عن خياله رغم توظيفه لكل أساليب النسيان والسلوان.

أتت الفتاة، واسمها أسمرينا، للعمل مع هيربيرت بعد أن عثر عليها أحد زملائه الضباط عندما كان في دورية مراقبة على الحدود السودانية ـ الإثيوبية. الفتاه إثيوبية تمشي بين الأحراش من دون هدف وهي حافية القدمين وزائغة العينين، ترتدي على جسدها قطعة صغيرة من القماش لا تكاد تستر جسدها النحيل. أسمرينا متعبة وجائعة، لا رحمة تأتيها من الأحراش الموحشة ولهيب الشمس المحرقة. هربت من قريتها الصغيرة إثر معركة دارت ضمن الحروب التي تندلع من وقت لآخر بين المجموعات المتناحرة في الهضبة الإثيوبية المتاخمة للسودان.

التقطوها وهي في بؤس شديد وأتوا بها للعمل مع هيربيرت، ولم يتذكروا حتى أن يدونوا اسمها ضمن قائمة الضائعين، حسب ما تقتضي التعليمات العسكرية. قالوا إن هيربيرت مولع بنوعية نساء المستعمرات مثل أسمرينا وهو المؤهل كي ينفض عنها الذعر وينقذها من التشرد.

أسمرينا دمها خليط من الدم العربي والأفريقي، لذا كانت في غاية الجمال والفتنة. كانت أشبه بالغزال البري، فارعة الطول، ممشوقة القوام، ناعمة البشرة، جميلة الوجه؛ عيونها جذابة رغم المصائب التي ألمت بها. وهيربيرت أعجب بأسمرينا من الوهلة الأولى، إلا أنه لم يفصح عن مكنون قلبه وبدأ يعاملها مثل الخادمات الأخريات. يطلب منها عمل الخادمة في البيت ولم يقم معها أي علاقة خاصة. أخفى إعجابه بها عن طريق التشدد معها؛ كان يعطيها الأوامر بأسلوب عسكري صارم ويعاملها بقسوة تفوق قسوته البنات الأخريات؛ عليها أن تنظف البيت وتطبخ وتحضر له الشراب.

وتحولت العلاقة للوجهة التي يريدها هيربيرت، علاقة بين القوي

والضعيف والظالم والمظلوم والمعتدي والضحية.

ذات أمسية طلب منها إعداد العشاء وبعض المشروب وإحضاره له إلى مجلسه الخاص فوق سطح البيت؛ هيربيرت يسكن على تلة عالية منزوية عن الحارة وبيوتها. من عادة الضباط الإنكليز السكن في بيوت بعيدة عن المدينة ليبتعدوا عن تطفل السكان والمارة. والسبب الآخر أنهم كانوا يستغلون بيوتهم في أغراض التجسس وجمع المعلومات. تجد المعدات العسكرية تخزن في البيوت؛ هيربيرت وضع معدات التصنت وجمع وإرسال المعلومات في القسم العلوي من البيت. ويجلس في الظلام ويلعب بأجهزة التجسس لساعات طويلة مثل الطفل الذي يتمتع بلعبه ذات الألوان والأشكال المختلفة؛ يستخدم معدات وبرامج ويتعامل مع تعليمات عسكرية في غاية الدقة والحساسية.

في تلك الأمسية، نظر حوله فرأى الفضاء الواسع والظلام الدامس وشعر بوحدة قاتلة وعزلة مميتة. اهتز جسده، وخفق قلبه، وتذكر أسمرينا وفتنتها الطاغية ومحاسنها البديعة، كما تذكر وجودها معه في البيت نفسه وقد انصرف الجميع كل لحال سبيله.

من العادة أن يكون هيربيرت في حجرة السطح بينما تقف أسمرينا أسفل الدرج تنتظر أوامره في أدب واحترام. العلاقة تحكمها قوانين السيد والخادمة، يتعالى عليها وهي تخضع وتستكين. وصلت شهوته تجاه أسمرينا ورغبته فيها حداً فوق التصور والاحتمال. استدعاها للصعود لغرفة السطح حيث يلعب بأسلحته الفتاكة ورغباته المحمومة. وعند حضورها، طلب منها الجلوس بجانبه. كانت في حيرة لكنها امتثلت خوفاً من أن يطردها من العمل. نظر إليها نظرة ثاقبة ولم يقل شيئاً. انحبس الكلام في فمه. ربت على

يدها وطلب منها تحضير بعض العشاء الخفيف. أحضرت له ما طلب ووقفت أمامه منتظرة أوامره الأخرى، لكنه لم يقل شيئاً ولم يطلب شيئاً. عادت إلى تحت مسرعة. لقد قرأ على وجهها تأففها منه وعدم رغبتها في الانصياع لمطالبه الجسدية.

لم يستسلم هيربيرت بل أجّل مطاردة أسمرينا ليوم آخر. أسمرينا تتراقص أمامه ليل نهار، جسم ممشوق وبشرة ناعمة ووجه مليح وعينان سوداوان؛ لا بد من الوصول وإطفاء الرغبة المحمومة. ذات ليلة، غادر هيربيرت إحدى الثكنات العسكرية عائداً إلى البيت في ساعة متأخرة بعد أن قضى أمسية شرب مع زملائه الضباط. كان ثملاً. ظهرت أمامه أسمرينا وهي ترقص عارية كما ولدتها أمها، طولها فارع وقدها ممشوق وبشرتها ناعمة.

وصل إلى البيت وهو يتخبط ذات اليمين واليسار. حاول التوجه للسطح، كما هي عادته، لكن قوته لم تسعفه فوقف على الدرج وهو لا يدري ما عليه فعله. أسمرينا نائمة في غرفتها. اتجه نحو غرفة نومه ثم عدل عن رأيه ومشى في الممر الذي يؤدي لغرفة أسمرينا. الحرارة شديدة وهو في غاية التعب والإرهاق؛ وقف أمام بابها ليعرف هل هي نائمة أم صاحية؟ عرف أنها نائمة فدفع باب الغرفة ودخل. لفحت وجهه حرارة قوية لعدم وجود مبرد في الحجرة؛ فقط هناك مروحة هزيلة تبدد القليل من السخونة التي غلفت المكان. وقابلته رائحة عطور محلية قوية وشم أنفاس أسمرينا فتراجع للخلف وخرج من الغرفة.

تقدم من جديد ودفع بجسده إلى الداخل. وقف لمده ثوان ينظر إلى جسد أسمرينا الأسمر الفاتن؛ كانت شبه عارية وصدرها بارز. السرير منخفض والأغطية منحسرة عنها ومتدلية من هنا وهناك.

وضعت على جسدها قطعة قماش لغطاء الرأس أحضرتها معها يوم وجدوها تائهة في الأدغال؛ تحتفظ بها لأنها تذكرها بأهلها وعشيرتها.

في تلك اللحظة، لاحظ هيربيرت بعوضة تحوم حول سرير أسمرينا وهي تطن بصوت مزعج. حسب حساباً للبعوض. خاف خوفاً شديداً من أن تعضه وتسبب له حمى الملاريا القاتلة. فكر في التراجع والخروج إلا أن فتنه أسمرينا وهي نائمة تغلبت على ذلك الخوف فتقدم تجاهها وألقى بجسده عليها. صرخت ونهضت من سريرها ثم حاولت الهروب منه. لم تتوقع الأمر وشعرت بالقرف من رائحته، عبارة عن خليط من الكحول والسجاير، إلا أنها وجدت صعوبة في الهروب من قبضته وواصلت صراخها العالي على أمل أن يهبّ أحدهم لخلاصها. الناس كانوا بعيدين فضاع صوتها دون صدى.

ووقعت على الأرض خائرة القوى لا تقوى على الوقوف. تناول من جيب سرواله مسدساً صغيراً محشواً بالرصاص؛ يأخذ المسدس معه كلما خرج من البيت. وفي هذه الليلة بالذات كان يتدرب عليه في الثكنة العسكرية. وضعه من دون أن يتفوه بكلمة بين فتحة نهدها البارز. أدركت على وجه اليقين أن الفرار من براثن هيربيرت صار أمراً مستحيلاً فأذعنت لإرادته اللئيمة. نزع بهمجية ووحشية ما بقي من ملابس على جسدها وانغمس في ملذاته الجسدية.

فنال من جسدها البكر الذي أشعل في كيانه الشهوة والشبق. وفي نهاية الشوط، رقد بجانبها على السرير ودخل في نوم عميق يشبه الغيبوبة.

هيربيرت كان يعاني من شهوة متقدة كالجمر تجاه أسمرينا، ومن ميل شديد لها، وفي الوقت ذاته به رغبة شديدة في إخفاء شعوره تجاهها والهروب من التعبير عن مشاعره. أحاسيس هيربيرت تعمقت مع مرور الأيام ولم يستطع التخلص منها، رغم محاولاته المتكررة في ذلك الصدد. يكاد ينفجر من اللذة، عندما تلتقي عيناه بعيني أسمرينا. لقد خفق لها قلبه بصدق؛ المشكلة أن هيربيرت يعاني عقدة نفسية تتمثل في فشله في التعبير عن أحاسيسه وعواطفه تجاه الأنثى.

فهيربيرت رجل عسكري ولذلك فهو يعتقد أن عليه عدم إظهار العواطف الرقيقة وعليه عمل المستحيل لكبتها وإخمادها. وفوق ذلك، لم يرد أن يعبر عن عواطفه لأسمرينا بصفتها امرأة من وطن مستعمر ومقهور؛ كيف لرجل مستعمِر أن يعشق امرأة مستعمَرة بجسده وقلبه ووجدانه؟ لا يمكن أن يلتقي رجل في مرتبة عالية بامرأة من مرتبة متدنية، الاثنان في مرتبتين غير متساويتين وينتميان لبلاد غير متساوية. معضلة عويصة فكر في إيجاد حل لها لكنه لم يوفق.

واستحوذ على أسمرينا من الناحية العاطفية والجسدية. واصلت أسمرينا خدمته كما تتطلب شروط العمل، وواصلت تلبية غرائزه وشهواته التي لم تنقطع.

تقوم أسمرينا بكل ما يجلب له الراحة والمتعة مقابل الأجر الزهيد؛ أحياناً تمر الشهور ولا يعطيها هيربيرت أجرها ويقول لها إنه لم يتسلّمه من قسم الأجور في الجيش البريطاني. يفعل ذلك وهو يعرف أنها تعتمد على أجرها في معيشتها ومعيشة أسرتها الفقيرة. يهدف هيربيرت للسيطرة على أسمرينا من الناحية المادية ليتمكن

من السيطرة عليها من الناحية الروحية والعاطفية. خليط من المشاعر والعقد يقف بينه وبين أسمرينا.

أيام هيربيرت مع أسمرينا كانت فريدة ومليئة بالذكريات والمفارقات. ظهرت شهوة رجولته الملتهبة ورغبات شبابه المحمومة. بعد سنه من وصول أسمرينا لبيت هيربيرت، وصلت الأوامر العسكرية بنقله إلى بورما. عمل المستحيل لتغيير قرار نقله من السودان إلى بورما واستخدم نفوذ بعض أصدقائه من القادة العسكريين لكنه فشل. الأوامر العسكرية إن صدرت يجب الانصياع لها وإلا فهي ليست عسكرية؛ العسكري، كهيربيرت، رجل منقاد للأوامر شاء أو أبى.

ورحل هيربيرت وترك خلفه أسمرينا وهي حامل. عرف بالحمل الذي كان في الشهر السابع. وعدها بمواصلة الاتصال بها وجلبها إلى مكان عمله الجديد في بورما في أقرب فرصة ممكنة لتبقى بجانبه هي وطفلها الجديد. قال لها إنه فرح لأنه سيكون أباً لأول مرة في حياته، لكنه كان يكذب عليها. وعدها أن يعتني بها وبولدها عناية فائقة. قال لها إنه لن يستطيع الاستغناء عنها.

بعد رحيله من السودان، لم يظهر هيربيرت في عالم أسمرينا على وجه الإطلاق؛ وعوده الكثيرة لها تبخرت مثلما تتبخر المياه في الصحارى الشاسعة. أسمرينا تتحرى أخباره من أي فرد له علاقة بالعسكري البريطاني الموجودين في السودان علهم يعرفون شيئاً عنه أو لعله ترك مالاً يعينها وهي على وشك ولادة ابنه. لعل المؤسسة العسكرية البريطانية تتدخل وتعينها مادياً لكن ذلك لم يحدث. وتحريها عنه انتهى بالفشل؛ برحيل هيربيرت فقدت عملها لأن الضابط الذي حل محلّه أتى بخادمة كانت تعمل معه في السابق.

ومرت السنين وها هو هيربيرت يعيش مع دافني في شقة تطل على كاتدرائية القديس بول وسط لندن. ذات مساء جلس ليجتر الذكريات عن أسمرينا وأمثالها من نساء المستعمرات أيام الجندية والاستعمار والشباب. أخذ نفساً عميقاً وهو يشعر بالحسرة من ضياع تلك الأيام الجميلة. وما إن سمعته دافني، حتى سارعت وخرجت من المطبخ لترى ما أصاب الرجل. وظلت بجانبه تربت على كتفه بحنان لتخفف عنه ما يشعر به من كدر وهمّ. ظنت أنه مريض؛ لم تعلم مدى الفساد الذي فعله هيربيرت في المستعمرات البريطانية.

هيربيرت رجل مريض بضغط الدم ووزنه زاد زيادة مرضية. يمشي بمساعدة عصا من خشب الخيزران، مقبضها عبارة عن رأس فيل من العاج، اشتراها من أحد المزادات الهامة. يحب لمس العصا ووضع عطر زيتي عليها. تراه يمشي وبطنه أمامه فتتحسر على ضياع قوة الشباب وهيبة العسكر.

صحته دخلت في طور التدهور المريع، ففكر في تقديم استقالته من الصحيفة والركون للراحة والخمول. دافني أقنعته بالعدول عن الاستقالة لأنها ملتزمة بالقيام بعمله على الوجه الأكمل؛ قالت لا داعي للتقاعد الاسمي. أخذ بنصيحتها وقد أصبح بين يديها كالطفل، ضعيف البنية والإرادة ولا يخالف لها أمراً.

ونوى هيربيرت كتابة وصيته ليحول فيها كل ما يملك لدافني ولتكون الشخص الوحيد الذي يرث أملاكه الثابتة والمنقولة. قال: حبيبتي دافني، صباح غد سأذهب للبنك لأستفسر عن حساباتي وما لدي من أموال مودعة، بعد سنين من الإهمال وعدم الاهتمام. وبعد البنك، سأذهب لكتابة وصية لتكوني أنت الوريثة الوحيدة لي

بعد وفاتي، بهذا نصحني صديقي المحامي كريستوفر نلسون جونز. الكسل منعني من عمل الوصية طوال هذه الأعوام؛ أريدك أن تعرفي أني حتى لو أعطيتك ما لدي في الدنيا من مال، لن أجازيك في خدمتك ومحبتك من أول يوم عرفتك فيه.

قالت له دافني: لماذا العجلة يا حبيبي هيربيرت؛ أمامنا نحن الاثنين سنين طويلة لنعيش ونتمتع بالدنيا كما نشاء؛ أرجوك لا تتكلم في أمور قاتمة مثل كتابة الوصية.

قال: سأقوم بكتابة الوصية حتى لا أندم.

في اليوم المحدد لكتابة الوصية، ذهب وتناول الإفطار مع مجموعة أصدقاء ثم ذهب إلى البنك لمعرفة رصيده. قضى في البنك وقتاً طويلاً تمكن فيه من تحويل كل أمواله لحساب دافني. خرج من البنك وهو مرهق من كثرة الأوراق التي كان عليه أن يوقع عليها. وقف أمام المبنى العريق في شارع ستنهوب غيت في حي ماي فير ينتظر سيارة أجرة تعود به للصحيفة. كان في شوق ليخبر دافني بما عمل ويسلمها الأوراق والتصديقات اللازمة لتتسلّم أمواله بعد وفاته.

وبينما هيربيرت يقف أمام البنك ولدهشة المارة، أُطلقت النار عليه من جهة غير معلومة. أصابه الرصاص في رأسه وأرداه قتيلاً على الفور. وقع على الأرض في بركة من الدماء، وأوراق البنك تتناثر في المكان. عصاه طارت بعيداً، مرت عليها السيارات المسرعة وحطمت رأس الفيل العاجي.

وعند الوصول به إلى المستشفى، أعلن الطبيب وفاته رسمياً. خبر

اغتياله وصل لدافني وأصدقائه وبدأ الناس في تخمين سبب الاغتيال. وأخذت الشرطة تبحث عن القاتل في كل مكان ولم تستطع الوصول له ولا لدوافع الجريمة؛ ظل مقتل هيربيرت لغزاً حير الجميع لمدة من الزمن. دافني فسرت الأمر على أنه لم يكن الشخص المقصود وأن القاتل قد أخطأ الهدف. هيربيرت، كما ظنت، رجل طيب وليس في الدنيا من يود موته.

وبدأت دافني تتأهب لمراسم الدفن. أرادت أن تكون المراسم على ذوق رفيع ومستوى عال. هذه المرة تختلف عن دفن هانري الذي كانت له زوجة عقّدت الأمور وأفسدت الخطط. هيربيرت رجل أعزب ولا أسرة له. قررت دفنه هو الآخر في حديقتها الخاصة في قبر بجانب قبر هانري. حضر الجنازة حشد لا بأس به من المشيعين من الطبقة الرفيعة التي تليق بمقام هيربيرت بصفته صحافياً مرموقاً، وبها هي كعشيقة لها مكانة في الأوساط الصحافية والسياسية. ارتدت في يوم التشييع الطقم الأسود الذي سبق أن ارتدته يوم دفن هانري وقادت جمع المشيعين بكل جلال واحترام.

وبعد أيام من التحري، سلم شاب نفسه إلى الشرطة واعترف بقتل هيربيرت. الشاب يدعى المنتظر المأسور، أتى من السودان خصيصاً لقتل هيربيرت. السبب أن هيربيرت هو والد المنتظر الذي تركه في بطن أمه أسمرينا ولم يسأل عنه. أراد المنتظر أخذ الثأر من أبيه لأمه أسمرينا؛ والده عبث بأمه أيام مجونه وتركها من دون معين وهي حامل في شهرها السابع. كان والده على علم بالحمل لكنه تركها للعار والبؤس؛ والده تركه في بطن أمه ولم يسأل عنه ولم يساعده رغم المقدرة المالية التي تمتع بها.

ووقف منتظر المأسور أمام الشرطة وقال: إنني أحتقر الحرية التي

سمحت لهيربيرت أن يتطاول على حرمات الناس كما فعل بي وبأمي المسكينة. أنا في غاية الحزن لما حصل، لكنني على استعداد لمواجهة سنوات السجن بضمير مرتاح ورأس مرفوع.

وحينها عرفت دافني بماضي هيربيرت الملوث بالجريمة والخيانة. شعرت بغصّة في حلقها لأنه أخفى عنها حقيقته رغم السنوات الطويلة التي عاشها معها. ماضي هيربيرت أفزع دافني لكن بعد فوات الأوان. تبرعت دافني ببعض أمواله، التي أصبحت من نصيبها بعد وفاته، للمنتظر وأمه؛ المنتظر رفض المال وقال لها: أشكرك، أنا لا آكل المال الحرام وأمي لا تأكل المال الحرام.

وبعد الأحداث السريعة التي مرت على دافني إثر وفاة هيربيرت وقبله هانري، بدأت تلملم ما تبقى من حاضرها وتفكر بخوف تجاه مستقبلها. وصلت إلى مشارف الستين من عمرها وبدأت نضارتها تذبل ونشاطها يقل وقدراتها تتناقص. وخافت أن تستغني الصحيفة عن خدماتها وهي في أمسّ الحاجة للعمل، يعينها على كلفة المعيشة ويزيل عنها الملل والوحدة.

ولم تتخلّ الصحيفة عن دافني؛ ما زال رئيس التحرير ماثيو يكنّ لها تقديراً كبيراً واحتراماً زائداً. بعد عودتها للعمل طلب منها المحرر السيد ماثيو مقابلته في مكتبه.

قال: كما ترين، تجمعنا الظروف مرة أخرى في المكتب نفسه وذلك بعد وفاة محرر الصفحة الاقتصادية، لكن هذه المرة أريد أن أضع على عاتقك مسؤولية كبيرة لأني على ثقة أنك أهلاً لها. هل أنت في وضع نفسي يجعلك تتعاملين مع تكليفي لك بروح متفائلة ونظرة إيجابية؟

نظرت دافني لرئيس التحرير وفي عقلها تساؤل كبير حول طبيعة التكليف الذي يود أن يطلب منها القيام به. وجال في خاطرها أنه قد يطلب منها تحرير الصفحة، ففرحت لأنها ستترقى لتحتل منصب محررة وبذلك تودع السنين الطويلة التي عملت فيها سكرتيرة لمحرري الصفحة الاقتصادية.

لم يطل تفكيرها عندما نظر إليها رئيس التحرير بفرح وقال لها: هذه المرة أريدك أنت أن تقومي باختيار محرر جديد للصفحة الاقتصادية؛ لن أتدخل في الأمر وسأترك لك حرية تعيين الشخص المناسب الذي يملأ الوظيفة الشاغرة. عندما سمعت كلامه خاب ظنها وشعرت بشيء من الإحباط لكن سرعان ما تمالكت نفسها وبدأت تفكر في الطريقة المناسبة التي تلبي بها طلبه. في الحال أعطت دافني موافقتها لرئيس التحرير في ما يتعلق بالتكليف الذي كلفها به.

قالت دافني: إن كانت هذه رغبتك، فسأنفّذها على الوجه الذي يرضيك؛ أعدك أن أبدأ فورا في الخطوات التي نحصل عن طريقها على المحرر الجديد للصفحة الاقتصادية.

تقدم لشغل الوظيفة عدد كبير من المحررين والصحافيين، وكان الأستاذ ناجي من ضمن من تقدموا. وقد سبق لدافني أن سمعت بناجي بصفته محرر الصفحة الاقتصادية في جريدة إقليمية، وقرأت بعض كتاباته وتحليلاته الاقتصادية التي تتناول المواضيع الوطنية والعالمية. لم يفت على دافني أن تلاحظ جودة أعمال الأستاذ ناجي وتميزها مقارنة ببقية المحررين العاملين في الصحف البريطانية، لذلك لم يكن من المستغرب أن يقع اختيارها عليه من بين المتقدمين للوظيفة. رأت دافني أنه من الصواب أن تضخ دماء

جديدة وأسلوب تحرير يختلف عن الأساليب التي اتبعها هانري وهيربيرت، كذلك أرادت أن تختار شخصاً له خلفية تختلف عن خلفيات المحررين السابقين. عمل هانري وهيربيرت كلاهما في المؤسسة العسكرية البريطانية والاثنان جاءا للصحيفة وهما في مرحلة متقدمة من العمر؛ فيما ناجي يصغرهما بسنوات عديدة وهو يتمتع بدرجة عالية من الشباب والحيوية.

وقد مرت مقابلة ناجي لشغل الوظيفة بسهولة ويسر ونال الوظيفة. لم ترسم دافني صورة تجمعها بناجي كما كان الأمر مع هانري وهيربيرت؛ في الحقيقة، لم تترك لها الأحزان فرصة للتفكير في وضع يشبه الأوضاع السابقة. وفي المقابل، لم يظهر ناجي أي اهتمام بدافني من ناحية الجوانب العاطفية؛ كل همه هو أن تؤدي العمل الإداري والفني المطلوب من السكرتيرة في الظروف العادية.

وبدأ ناجي العمل محرراً للصفحة الاقتصادية فيما واصلت دافني وظيفتها سكرتيرةً ومديرة لمكتبه. وفي الوقت نفسه، وضع ناجي في حسابه أن دافني هي التي اختارته من بين عدد كبير من المرشحين لنيل الوظيفة الهامة التي حصل عليها. في البداية، لاحظ اللطف الذي تميزت به دافني وأسلوب التعامل الراقي الذي تتبعه، إلا أنه مع مرور الزمن توصل إلى أنها تتبع تقاليد قديمة لم يتعود قبولها وهضمها بسهولة ويسر. في بعض الأحيان، وجد أسلوبها ثقيلاً ومتكلفاً لكنه تأقلم معه وتفهمه لأن دافني تنحدر من خلفية تختلف عن خلفية السكرتيرات اللواتي عملن معه في الصحيفة الإقليمية التي عمل بها في السابق. بالنسبة له، تمثل دافني الرقي والعراقة التي تميز الصحيفة اللندنية، وهي صفات لم تكن متوفرة في الصحيفة الإقليمية المتواضعة والمحدودة الانتشار.

كان أول ما قام به ناجي حال تسلّمه منصبه الجديد هو إلغاء الملحق الصغير الذي كانت تحرره دافني تحت إشراف المحرر السابق هيربيرت. يصدر الملحق بصفة دورية مساء الجمعة وهو يهتم بحياة الطبقة العليا للمجتمع البريطاني وحياة المترفين في العاصمة البريطانية. عمله هذا أغضبها وأحزنها لأنها شعرت أن أصدقاءها من الأرستقراطيين سيفقدون المتعة التي يجدونها عندما ترد أسماؤهم في صفحات الملحق بجانب ممتلكاتهم، ومقتنياتهم، ومقدراتهم المالية والتجارية. إلا أنها كظمت غضبها وحاولت أن تنسى أهمية الملحق بالنسبة لها ولأصدقائها من صفوة المجتمع اللندني.

وبات على دافني التأقلم مع طريقة عمل ناجي التي تختلف كثيراً عن طريقة المديرين الذين عملت معهم في السابق. لقد حال ناجي بينها وبين التدخل في طبيعة ما ينشر في الصفحة وتولى بنفسه كل ما يتعلق بالعمل من ناحية اختيار المواضيع وكتابتها وتحريرها والإشراف عليها، عكس الوضع الذي ساد زمن هانري وهيربيرت. كذلك أجرى العديد من التجديدات في الصفحة من حيث المضمون والشكل والأسلوب، إضافة إلى تعديلات إدارية وفنية وتقنية لا يستهان بها.

ولقد أدت التعديلات التي أجراها ناجي في طريقة إدارة الصفحة إلى تغيير في طبيعة الدور الذي كانت تقوم به دافني في الصحيفة. لم تعد هي النجمة التي تلمع في سماء المكان ولم تعد الشخصية التي تحرك الأحداث وتسيطر على العمل برمته؛ محرر الصفحة الجديد استولى على العمل الفني والإداري بنفسه ولم تجد هي الفرصة للسيطرة على حياته الشخصية كما في العهود السابقة.

وقد ركز ناجي على تحليل الاقتصاد المحلي من منظور عالمي حيث آمن أن اقتصاد بريطانيا لا يعمل في حيز مغلق كما ظن بعض المحللين والمراقبين بل يعمل ضمن منظومة الاقتصاد العالمي العريض. بالنسبة له، مثّل المنظور العالمي أمراً حيوياً وله القدرة على توضيح التطورات والمستجدات في اقتصاد البلاد في ظل ظروف لم يعد لبريطانيا النفوذ السياسي والاقتصادي الذي تمتعت به لقرون سابقة من الزمان. وقد أراد أن يكون مدخله الجديد هو المنطلق الذي عن طريقه يعرض جدارته في التحليل الاقتصادي ويثبّت أقدامه في الصحيفة ولدى القراء والمراقبين.

ولم يكن أمام دافني سوى التأقلم مع الوضع الجديد الذي أتى به ناجي. لكن ما أربكها هو عدم مقدرتها على التأثير في ناجي من أي ناحية من النواحي؛ تاريخ دافني يشهد لها بأنها امرأة لا يمكن تجاهلها فهي ظاهرة مثل الشمس في منتصف النهار. لم تكن تريد القبول بوظيفة سكرتيرة بل أرادت أن تتمتع بالنفوذ الذي يليق بشخصيتها وقدراتها الإدارية والفنية، فكيف للمحرر الشاب أن يتجاهلها؟

فكرت دافني ثم وجدت وسيلة تعيد لها سطوتها السابقة وتحقق لها زيادة في النفوذ والقوة. قررت ألا تقبل بدور امرأة تجاوزها الزمن وأصرت على أن تكون امرأة اليوم والغد وأن تتجدد مع التغيرات وتواكب المتغيرات. المحرر الجديد أدخل أشياء جديدة وعليها التفاعل معها كما عليها شد انتباه الشاب لمقدراتها ومكمن قوتها.

أول خطوة فكرت فيها دافني تمثلت في جذب انتباه المحرر الجديد إلى مقدرتها على قبول أسلوبه في العمل والتأقلم مع طريقته

الإدارية والفنية. على المحرر أن يعرف أنها توافق على الثورة التي أحدثها في تحرير الصفحة، وأن يثني على شخصيتها وقدراتها الفنية والإدارية. ومن الضروري له أن يعرف الدور المؤثر الذي قامت به سابقاً في تحرير الصفحة ولا سيما في الفترة التي تولى فيها هيربيرت أمر التحرير.

وفي خضم ذلك، أدركت دافني منذ الوهلة الأولى أن ناجي أعزب ولا امرأة في حياته، وأنه رجل غريب يعيش في مدينة لا يعرف عنها الكثير. «هذه ثغرة في حياة ناجي ويمكن أن ألعب دوراً حاسماً في سدها»، هكذا بدأت دافني تفكر تجاه رئيسها الجديد، رغم محاولاتها المتكررة لطرد الفكرة من رأسها. هل يمكن أن تقوم بينها وبين ناجي علاقة خاصة؟ حاولت الإجابة عن هذا السؤال ولم تستطع.

بعد وفاة هيربيرت، انتقلت دافني من الشقة المطلة على كاتدرائية القديس بول، حيث سكنت فيها مع هيربيرت، إلى شقتها في حي بملكوا. في هذا الأثناء، أعطت الصحيفة لناجي الشقة الشهيرة المطلة على كاتدرائية القديس بول وسط لندن. ومنذ عودتها إلى شقتها في بلمكوا، لم تقم دافني بأي نشاط خاص ولم تُعن بنظافتها وترتيبها؛ أصابها شعور شديد من الغربة والوحشة.

ترى على الشقة طبقة سميكة من الغبار، تغطي الأرض والطاولات والتحف واللوحات الزيتية والنوافذ. وتجد على نافذة حجرة الجلوس عشاً صغيراً بناه طائر الزقزاق وسكن فيه مع صغاره دون خوف أو وجل. ولم تفعل دافني شيئاً حيال وضع الشقة وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد. كل شيء ما زال حيث وضعته ولم تمتد يد للعبث بممتلكاتها رغم طول المدة التي هجرت فيها الشقة؛

المزهرية على الطاولة الصغيرة لا تزال تحمل زهوراً اشتراها هيربيرت من بائع الورد أمام دار الأوبرا في كوفنت غاردن. الزهور نشفت وفارقت الحياة وغدت أشبه بالخشب الميت وفقدت رائحتها ونضارتها اللتين عبقت بهما في آخر يوم رأتها فيه.

وعاشت دافني أياماً طويلة على المتاع الذي جلبته من شقه هيربيرت ورفضت استخدام الأشياء الموجودة في شقتها. المكان يرزح بالحقائب ودافني ترقد قربها أو تتجول حولها كأنها تنتظر قطاراً يصل المحطة ويحملها لمكان آخر بعيد.

في الحقيقة، كانت تنتظر وصول خادمتها الجديدة سلفانا البولندية الأصل لتساعدها في ترتيب ما أتت به من متاع. لم تكن بها رغبة في لمس أي شيء في الشقة بسبب ما سيطر عليها من ملل وضياع؛ تذهب إلى العمل وتعود بشكل آلي خال من الحيوية والنشاط. تستخدم ما تستطيع سحبه من الحقائب المقفلة، من الملابس والأحذية والكتب. لقد عزفت عن فتح أي من خزاناتها في الشقة أو توزيع ما أتت به من متاع لمدة طويلة بعد رجوعها لشقتها.

لكن، اليوم هزها الشوق إلى خزانة ملابسها التي طالما كانت على درجة عالية من الأناقة والترتيب والجمال. عُرفت دافني بين صديقاتها بقدرتها على اختيار الملابس الجميلة والنادرة، جمعتها بعناية ودقة على مدى سنين طويلة امتدت من فترة المراهقة حتى قدومها إلى لندن. بعض ملابسها لبسته في مناسبات مهمة وبعضها لم يلمس جسدها منذ الزمن الذي اشترته فيه، لكنها الآن اتجهت بلهفة إلى حجرة النوم ووقفت أمام الخزانة الخشبية ذات التصميم الفرنسي وفتحتها برفق وعناية كأنها قطعة من القطع الأثرية

النادرة. بمجرد أن فتحت الخزانة، شمت فيها رائحتها الخاصة، عبارة عن مزيج من العطور وأدوات التجميل ورائحة الملابس.

ووقفت أمام الخزانة ونظرت فيها بتأمل وهي تتفقد الأعداد الكثيرة من الملابس التي تصطف في رفوف فوق رفوف. وتخيلت الملابس كأنها جنود وقفوا لتأدية التحية العسكرية أمام قائدهم؛ الملابس في انتظار طويل للّحظة التي تقف فيها دافني أمامها تتفقد مقاساتها وألوانها بعد فراق طويل. والآن هي في أمس الحاجة للمسة حنان من دافني وبعضها يمنّي نفسه أن دافني ستختاره وتلبسه. وأخذ قلب دافني يخفق وهي تشاهد الألوان الجميلة من الأحمر والأسود والبنفسجي، ومختلف التصاميم من القصير والطويل والضيق والفضفاض. وفجأة هاجمها الخوف من أن يكون وزنها قد زاد وأنها لن تستطيع لبس أي من ملابسها التي قد تكون ضاقت على مقاسها الجديد. هي في شوق عظيم للحيوية والرشاقة والموضة والبهجة.

وهي في وقفتها أمام ملابسها القديمة، فكرت في الحياة التي ستعيشها امرأةً وحيدة دون رفيق ينير لها الدروب الشاقة والمسارات المظلمة. إنها تريد نفض الماضي وبصماته من عليها وبداية حياة جديدة مفعمة بالحب والأمل. قالت في داخلها وكأنها خائفة من أن يسمعها أحدهم: إن موت هيربيرت لا ينبغي أن يعني موت الحياة بالنسبة لامرأة تهوى الحياة وملذاتها؛ هناك المحرر الجديد الشاب ناجي وهو خير خلف لخير سلف. ثم ما لبثت أن سحبت فكرة الحياة الجديدة من ذهنها وظهرت أمامها صورة ناجي مبعثرة الأجزاء، مثل حبات المطر الصغيرة تبتعد عنها في هوة سحيقة لا قرار لها. ناجي مجرد حلم ولا علاقة له بالواقع المعاش.

وكعادتها في مثل هذه التأملات، صدحت تغني بصوت خفيض أغنية تصف الحزن والمعاناة وغدر الزمان. ولكي لا تتمادى أكثر في الأحزان والذكريات، توقفت عن الغناء وسحبت من الخزانة فستاناً بنفسجياً عليه شال رمادي مشغول بزهور من الفضة، أخذت تقلّبه بين يديها لفترة وجيزة ثم قرأت علامته التجارية وعرفت أنه فستان فصّلته لها صاحبة المحل المعروف باسم تافيتا، الواقع أعلى دكان لبيع الساعات القديمة في شارع تشرش في حارة كينسنغتون. تذكرت أن الدخول إليه يتم عبر ممر ضيق ذي إضاءة خافتة وتذكرت وجود درج حديدي طويل؛ قالت لها الخياطة إن الظلام هدفه حرمان المتطفلين من رؤية زبائنها الكرام. وتتذكر أنها عندما انفتح بابه أمامها لأول مرة، شعرت كأنها قد دخلت إلى حديقة مليئة بالزهوَر ذات الألوان البديعة والروائح الشجية، الوردية تشم منها عطر الورد والبنفسجية عطر اللافندر والخضراء عطر النعناع المغربي. رأت في المحل أصنافاً متعددة من الحرير الأصلي والتافتا والشيفون وغيره من الأقمشة الغالية النادرة، وُضعت بعناية لتعكس آخر ما توصلت إليه بيوت الأزياء العالمية من ابتكارات في فن القماش وصناعته.

ودافني تذكر صاحبة المحل، فهي امرأة أرمينية من لبنان تدعى مارغو كليان. وصلت مارغو من المشرق إلى لندن حيث احتفت بها نساء لندن من عارضات الأزياء وراقصات الباليه والممثلات وسيدات المجتمع، لما عرف عنها من مهارات راقية في التصميم والخياطة. وفرحت النساء لأن مارغو ستضيف لمسة شرقية إلى عالم الموضة في لندن، الذي يقع تحت احتكار بيوت الأزياء الفرنسية والإيطالية. ومارغو من أرفع الخياطات مقاماً في لبنان وأصبحت ذات شهرة عالية في لندن في خلال فترة قصيرة لدرجة ضمت قائمة زبائنها أسماء من صفوة المجتمع في لندن.

وسعدت دافني بالانضمام إلى قائمة زبائن مارغو، مثلما سعدت بنمو علاقة شخصية قوية بينها وبين مارغو. وبدأت دافني تتردد على بيت مارغو للزيارات الشخصية وتناول العشاء معها، المائدة مكونة من المأكولات الشرقية الشهية مثل الملفوف وورق العنب والكبة والمهلبية والبقلاوة. مأكولات لم تتذوقها دافني من قبل لكنها تتذكر كيف كان طعم هذه المأكولات يلسع لسانها لأيام عديدة، خصوصاً طعم الثوم والبصل والشطة (الحر).

وبعد مرور السنوات، تقف دافني أمام خزانة ملابسها القديمة وهي تتساءل عما جرى لمارغو. وتذكرت أنها قد عادت، بعد عقود من الزمن، لتتقاعد في أجواء لبنان الدافئة وتعيش في حضن الوطن الجميل. تركت مارغو خلفها عدداً كبيراً من المعجبات بعد أن وضعت بصماتها التي لا تنسى على عالم الموضة والخياطة اللندني برمته.

وأخرجت دافني مجموعة كبيرة من الملابس وطرحتها أمامها وبدأت تأخذ الواحدة تلو الأخرى وتقيسها على قوامها وهي تتبختر أمام المرآة كما يحلو لذكر الطاووس أن يفعل. ولما تعبت اتجهت إلى السرير ورمت جسدها عليه. وبعد برهة، تذكرت وجود قبعات عديدة في جزء آخر من الخزانة فنهضت وبدأت في سحب علب كبيرة توضع فيها القبعات؛ في الماضي كانت القبعات في قمة الأناقة لكن أهميتها في هذه الأيام ضمرت ولم تعد تُلبس سوى في مناسبات قليلة مثل سباق الخيول ومراسم الأعراس.

وبينما هي غارقة في شريط الذكريات، رن جرس الهاتف. انتبهت لوجود الهاتف ورفعت السماعة وهي تتساءل عمن يكون المتصل

ولم يمض على وجودها في الشقة وقت طويل. ولدهشتها، كان المتصل هو ناجي. طلب منها العودة إلى المكتب لطباعة بعض التحليلات الاقتصادية التي كتبها عن تجارة السكر وأهميتها بين بريطانيا والمناطق المصدرة لها. غادرت المنزل مسرعة وهي تطارد صورة لها مع ناجي في أمسية، من أمسيات لندن، يمشيان يداً بيد في منطقة الستراند المشهورة لمشاهدة إحدى مسرحيات شكسبير في دار الأوبرا الملكية. ناجي يغطي رأسه بقبعة جلدية لتحميه من المطر المنهمر، وترتدي هي فستاناً أسود جميلاً من تصميم المصمم الأسباني أوسكار دي لا رينتا، الفستان أسود بتطريز مذهب يشبه تطريز المصممة مارغو. لم تبارح الصورة خيالها إلاّ بعدما فتحت باب مكتب ناجي ودخلت.

وجدت ناجي وقد خلع سترته وربطة عنقه ووضعهما على الطاولة. لاحظت شعر صدره يبرز من فتحة القميص بوضوح ولم يفت عليها منظر كثافة الشعر ولونه الأسود الجذاب. حاولت أن تتحاشى النظر إلى عيون ناجي كي لا يشعر بما كان يدور في خيالها تجاهه وهي في طريقها للمكتب. وبسرعة تناولت الأوراق وهمّت بالجلوس قرب الآلة الكاتبة للبدء بالطباعة.

فجأة هاجمها شعور قوي مفاده أن زينتها قد خربها الهواء وهي في الطريق، لذلك دخلت الحمام وزادت من الصبغة لتعطي وجهها المزيد من النضارة والحيوية. في الآونة الأخيرة، بدأت دافني حملة مكثفة للعناية بأناقتها وشعرها وبشرتها، على الرغم من أن ناجي لم يُظهر لها اهتماماً أكثر من اهتمام الزمالة التي تربط بينهما. كانت قد استبدلت ملابسها التقليدية بملابس ملونة من محلات لورا أشيلي التي اشتهرت بتصميم الملابس للمرأة البريطانية؛ حصلت

على فساتين للمساء أغلبها أسود لأن اللون الأسود هو لون الموضة الجديدة. كذلك حصلت على ملابس مزينة بالدانتيل الخالص، مستوردة من إيطاليا، لها فتحات صدر واسعة لإضفاء المزيد من الإثارة والإغراء. وكل يوم تعود للبيت وهي محملة بالملابس الجديدة، تطرحها على الطاولة وتبدأ في لبسها والاستعراض بها أمام المرآة وهي في زهو وخيلاء.

ولم يفت على زملاء دافني ملاحظة التغير الذي طرأ عليها. فقد غيرت إطار نظارتها العاجي بإطار أحمر، وبدأت تسدل شعرها وتواظب على تصفيفه والعناية به، وتخلّت عن تصفيف شعرها إلى أعلى كما تفعل النساء في سنها. وبدأت تهتم أكثر براحة مديرها الجديد وتقدم له القهوة والشاي بنفسها وهو أمر غير مطلوب منها بصفتها سكرتيرة ذات خبرة طويلة في مجال الإدارة. وكلما قدمت له شيئاً، تتعمد الاقتراب منه وتترك الجزء الأعلى من فستانها مفتوحاً ليظهر الخط الفاصل بين ثدييها، لكن ذلك لم يؤثر في ناجي ولم يرفع حاجز الكلفة الذي ضربه بينهما.

ولدهشة دافني واستغرابها، لم يدعها ناجي إلى الغداء أو العشاء أو المسرح حتى من باب المجاملة، ولم يدعُها تعرف ما يقوم به خارج المكتب. انزوى ناجي بحياته الخاصة في شقته بعيداً عن دافني.

وفي يوم من الأيام، ذهب ناجي خارج لندن وترك لدافني مفتاح الشقة وطلب منها أخذ بعض الأوراق المتعلقة بالعمل من المكتب للشقة ليتمكن من تصحيحها بعد عودته في المساء. لم تكن متحمسة لطلبه، على الرغم من فضولها الزائد لمعرفة كيف يعيش حياته في المكان الذي كان لها فيه ذكريات جميلة؛ عدم حماسة

دافني يرجع لخوفها من مقابلة بروس حارس العمارة لأنه يكرهها كرهاً شديداً ولا يطيق رؤيتها تحوم حول العمارة. ولقد أظهر لها بروس المرة تلو الأخرى عدم قبوله للعلاقات التي أقامتها مع رؤسائها في السابق. ورغم علمها بموقف بروس، ذهبت بالأوراق ودخلت العمارة غير مكترثة بوجود الحارس الذي صوب إليها نظرة ازدراء مثل الحربة السامة.

وأثناء وجودها في الشقة، وضعت الأوراق في المكان الذي حدده لها ناجي، لكنها لم تستطع كبح الفضول الذي اكتنفها، بل بدأت رحلة بحث مضنية.

أول شيء بدأت به هو كاتدرائية القديس بول لما لها من مكانة خاصة في العلاقة التي ربطتها بهيربيرت ومن قبله هانري. نظرت من النافذة للكاتدرائية وتذكرت شريط أحداث الأمس حين كانت تقف وهي في خضم الحب الجارف وعنفوان الشباب، وتمنت لو يعود الزمن للوراء لتجد نفسها منغمسة في لذة الحب لآخر يوم من أيام حياتها. مما لا شك فيه أن دافني إنسانة تحب الماضي والأمور الثابتة وتخاف المستقبل والأمور المتغيرة، لذلك بدأت تبحث في أرجاء الشقة عن أشياء تذكرها بالماضي العريق والأيام الغابرة.

وفي الوقت نفسه، بدأت تبحث عن شيء ينير لها طريق المستقبل الغامض. ما هي الأشياء الموجودة في الشقة التي تساعدها على فهم شخصية ناجي وأصله وفصله؟

بدأت بحثها بالطاولة الصغيرة الموجودة في صالة الجلوس. نبشت الأوراق الكثيرة، فوقها وتحتها وداخل أدراجها، علها تجد فيها شيئاً يدل على وجود علاقة بين ناجي وأي أنثى، لكنها لم تجد شيئاً، ما

وجدته لم يتعد الرسائل القديمة والفواتير ومسودات لمقالات كتبها وقصاصات من الصحف والمجلات.

بعد ذلك، اتجهت إلى حجرة النوم حيث وجدت الإضاءة بجانب السرير مفتوحة ووجدت كأس نبيذ على المنضدة قرب السرير. فتحت درج المنضدة ونبشت محتوياتها فعثرت على أدوية تهدئ الأعصاب وأخرى تساعد على النوم وتعالج الأرق والصداع. وعندما دفعت يدها إلى داخل الدرج وتحسست الأشياء، لمست أطراف أصابعها ظرفاً أملس؛ أخرجت الظرف وفتحته لتجد فيه مجموعة من الصور المختلفة. بدأ قلبها يخفق بشدة. الصورة الأولى لعجوزين جالسين على مقعد في حديقة عامة، والصورة الثانية للعجوزين وهما واقفان في وسط حجرة خلف خزانة كبيرة في بيت متواضع، والصورة الثالثة لناجي بين العجوزين وهما يقطعان كعكة عيد الميلاد. من الوهلة الأولى، استنتجت أن الصور الثلاثة لوالدي ناجي.

فجأة رأت خلف الصور الكثيرة صورة لامرأة عارية تماماً وهي ترقص بطريقة مثيرة في وسط حجرة نوم وتحمل شمعة حمراء في يد وفي اليد الأخرى زجاجة مليئة بالنبيذ الأحمر. ورأت صوراً عارية كثيرة للمرأة ذاتها، وهي غاطسة في حوض حمام، وفي المطبخ، وفي حجرة النوم. الصور حيرت دافني، وأشعلت فيها نار الغيرة لأن المرأة صاحبة الصور تتمتع بقدر عال من الجمال وهي في عمر ناجي. لم تكن المرأة سوى ريتشل زميلة ناجي وعشيقته أيام عمله في الصحيفة الإقليمية.

وعلى الفور، أدركت دافني أن للمرأة العارية علاقة خاصة بناجي وذلك زاد من الغيرة التي تأكل قلبها كالنار في الهشيم. وواصلت

النظر في الصور حتى أصابها التعب والجوع فرقدت على السرير وهي في غاية الغضب والإحباط. وتذكرت أن موعد رجوع ناجي قد أوشك، فنهضت وذهبت للحمام ثم خرجت منه ورجعت لغرفة النوم، وتناولت من جديد ملف الصور وأخذت تقلبها الواحدة تلو الأخرى كأنها تراها لأول مرة. وسألت نفسها عن الذي تريده من الصور، وقبل أن تردّ على السؤال، عادت إلى صالة الجلوس ومعها المظروف الذي به الصور. وأمسكت بقلم أسود غليظ ورسمت به على وجه المرأة نظارات ذات إطار سميك، وشاربين طويلين، ودوائر على الصدر وعلى أماكن حساسة من الجسد. ووضعت الصور في المظروف وأرجعته مكانه ثم خرجت من الشقة دون أن تلتفت للوراء أو تنظر لوجه الحارس الذي رمقها بنظرة احتقار وازدراء.

وعند عودتها إلى البيت، أول ما قامت به كان التعري أمام المرآة والنظر إلى جسدها ومقارنته بجسد المرأة العارية التي شاهدتها في الصور. وفجأة وقعت عيناها على حرف مرسوم في مكانين على صدرها بلون غامق كلون الحبر؛ منذ زمن طويل لم تنتبه لوجود الحرفين على جسدها. الحرفان يشيران لبداية الحرف الأول لكل من هانري وهيربيرت، رسمتهما كنوع من الذكرى لرجلين ذاقت معهما طعم السعادة والحب.

ذلك كان أيام زمان، أما الآن فهي تتساءل عن الذي يغري الشاب ناجي، وهي في هذا العمر المتقدم، ليقترن بها في علاقة عاطفية وجسدية؟ وجاءها الرد سريعاً: «ليس جميع الرجال يهوون النساء الشابات أو يهوون المرأة لجمال جسدها، هناك من الرجال من يهوى عقل المرأة وحكمتها. الرجال يفضلون الرزانة على الرشاقة،

وأنت يا دافني على درجة عالية من الرزانة، وهذا هو الخيط الذي يربطك مع ناجي».

وبعد ذلك، فتحت خزانة ملابسها وبدأت ترتدي الفستان تلو الآخر لاختيار ما يناسب اليوم الذي يوجه لها فيه ناجي الدعوة إلى الخروج معه للعشاء والمسرح. وشعرت بالتعب وذهبت لصالة الجلوس وأدارت آلة الموسيقى ثم استلقت على الكنبة لتستمع لموسيقى بتهوفن وتسبح معها في آفاق بعيدة. ونامت ولم تستيقظ حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، حين قامت ونظرت من النافذة للشارع فوجدته خالياً من الناس إلا حفنة من السكارى والمتسكعين تتجه للرقاد على أبواب المحال والحوانيت. واتجهت إلى حجرة النوم وأغلقت الستائر ودفعت بجسدها العاري داخل الفراش ونامت حتى الصباح؛ عسى أن يخلصها النوم من الغيرة التي صاحبتها إثر رؤيتها لصور المرأة الراقصة.

لم يتغير شيء في العلاقة التي تربط دافني بناجي واستمر الوضع على درجة عالية من النمطية والرتابة. يأتي ناجي إلى المكتب في ساعة مبكرة من اليوم فيجد دافني قد سبقته للمكتب وجهزت له كل معينات عمل اليوم، وسجلت المكالمات والمقابلات، وأعدّت المواد اللازمة لكتابة المقال اليومي. ويواصلان العمل إلى ساعات طويلة من اليوم.

وأخيراً، لاحظت دافني أن ناجي يحب تعاطي المشروبات الكحولية ولا يتخلى عنها مهما كانت الظروف والأحوال؛ في مساء كل يوم، يذهب إلى مكانه المفضل في حانة مقابلة للعمارة التي يسكن فيها.

وذات مساء، قضى ناجي وقتاً طويلاً في المكتب لكي يجهز عموده اليومي؛ أراد مناقشة تصريحات وزير المال عن سياسة الحكومة للعام القادم. تكلم مع دافني عن توقعاته لما سيقوله وزير المال في خطبته السنوية عن الاقتصاد عامة والضرائب خاصة. قال لدافني: إنني أشعر بصداع شديد وسأترك المكتب لنصف ساعة للمشي في الشارع واستنشاق الهواء ثم أعود لنتابع خطبة الوزير. وخرج ناجي وبقيت هي في المكتب تتصفح الأوراق في انتظار خطبة الوزير التي تترقبها كل الصحف في طول البلاد وعرضها؛ يريد الجميع معرفة التعديلات في أسعار البنزين والدخان والضرائب والمواد الأخرى المتعلقة بمعيشة المجتمع والأفراد. ورجل كناجي يهتم بالموضوع أكثر من غيره، يستمع للخطاب ويقوم بتحليله والكتابة عنه وعمل مقارنة بين أسعار العام الحالي والعام القادم، من حيث دخل الدولة ومقدرتها على الإنفاق على مشاريع الخدمات مثل المدارس والمستشفيات والطرق.

إلا أن ناجي قد تأخر في العودة للمكتب بينما دافني تنتظر رجوعه على أحر من الجمر. كانت في حيرة شديدة: أين ذهب، ما سبب تأخره، هل حدث له مكروه، وما مصير التحليل الذي عليه إعداده؟ وعندما أدركت قصر الوقت المتبقي للنشر، قامت بكتابة التحليل بنفسها وطبعته وقدمته للنشر في الوقت المناسب.

وبعد انتظار طويل، قررت مغادرة المكتب والعودة إلى البيت. أغلقت المكتب وخرجت إلى الشارع. وهي في طريقها للبيت، فكرت أن تذهب للبحث عنه في الحانة التي تعوّد أن يرتادها بصورة دورية. هي تتذكرها جيداً وكثيراً ما تساءلت عن سر إعجابه بهذه الحانة على الرغم من وجود حانات أفضل منها؛ أجرت مقارنة بينها

وبين الحانات التي ارتادتها مع هيربيرت. ربما يفضل ناجي الحانة المذكورة لأنها قريبة من مكان سكنه، هكذا قالت.

ووصلت الحانة دخلت وسط دخان كثيف يغطي المكان من تدخين زبائن الحانة. ووقعت عينها على التلفزيون المعلق في ركن من أركان المكان، ورأت وزير المال وهو يلقي خطابه السنوي من المحطة الأولى في التلفزيون البريطاني. ظلت واقفة وسط الضجيج والأصوات والضحكات العالية والمناقشات الحادة، لكنها لم تجد ناجي وسط الجمع.

واتجهت إلى الحمام، وعند طلوعها وقفت من جديد تدور بعينيها على طول المكان وعرضه علها تراه. ولدهشتها رأته جالساً في زاوية بمفرده. اقتربت منه ووجدته في حالة سكر شديد، شبه عاجز عن الكلام. ومدت له يدها لتساعده على النهوض ولكنه رفض قائلاً بلسان ثقيل: دافني، لماذا العجلة ولدينا وقت طويل؛ أنا لدي وقت طويل فلماذا لا تمدين وقتك وتجعلينه يصل لطول وقتي؟ قالت له بصوت مليء بالحنان: ناجي، هيا تعال معي؛ انهض ودعنا نغادر المكان.

حاول الممانعة لكنها استطاعت سحبه من يديه ليقف على رجليه. ونهض بجسده المتمايل إلى اليمين وإلى الشمال والناس من حولهما يشاهدون مشهد سيدة تقود رجلاً سكران إلى خارج الحانة.

قال مدير الحانة لدافني على سبيل المداعبة: هذا الأستاذ لا يفعل هكذا كل يوم، أعرفه جيداً فهو أحد زبائننا الدائمين. اليوم يحتفل صديقك بخفض الضرائب على الكحول، حسب خطبة وزير

المال. وضحك الرجل، لكن دافني لم تردّ عليه أو تبادله ضحكه. وواصلت سيرها وهي تجر ناجي من يده وهو يصرخ بكلام غير مفهوم ويقتبس جملاً من مقالات كتبها في الماضي عن الشؤون الاقتصادية والمالية.

حاولت أن تسرع لتوصله إلى البيت. وقادته وهو لا يزال يهذي في الكلام ويترنح في الحركات. وألقى برأسه على كتفها لبضع دقائق وقال: دافني، أنا خائر القوى؛ إلى أين تأخذيني؟ أرجوك أخبريني بالمكان الذي سنذهب له، وإلا فلن أتبعك.

قالت له: إلى بيتك لترتاح في سريرك.

قال: وهل صحيح سترافقينني إلى البيت؟ أرجوك، إبقي معي لأني أخاف من الوحدة والعزلة. أنا أهواك يا دافني، أهواك لأنك تهتمين بي. لكن السؤال هو: هل تتجاوبين معي في ذلك الهوى؟ أرجوك قولي بأنك تهوينني كما أهواك. أنا في حاجة إلى امرأة تحبني؛ أنا غريب في لندن؛ الغربة والوحدة يدفعاني للإكثار من شرب الكحول. وصاح بصوت عال: أنا تعبان يا دافني؛ أمعائي تتقطع والنار تنهش في جسمي.

وفي الطريق تقيأ بكثرة على ملابسه وملابس دافني. كانت دافني محرجة ومندهشة. ووصلا إلى البيت، واتجهت به إلى داخل المصعد أمام أعين الحارس بروس. وقال بروس بتهكم وسخرية: هل هوت مكانتك العالية إلى الحضيض يا آنسة دافني؟ وضحك ضحكة قصيرة ونظر إليها وهي تمسك بيد ناجي وتدخله في المصعد.

وبعد وصولهما للشقة، أرادت دافني أن تغير لناجي ملابسه

المتسخة وتلبسه ملابس نظيفة، لكنه دفعها بيده قائلاً: أنا رجل ولن أسمح أن تغتصبني امرأة، ماذا تفعلين يا دافني؟ أنا الذي يجب أن آخذ المبادرة معك لا العكس. أنت سيدة ولهذا يجب عليك الانتظار مهما طال أمده؛ أعدك بأن أجد لك فرصة في جدولي المزدحم. أما الآن فدعيني وشأني وعودي إلى الصحيفة أو إلى بيتك؛ أرجوك اتركيني؛ لا شيء بي وأنا في كامل صحتي وقوتي. كل ما هنالك أني أفرطت في الشرب، احتفالاً بخبر خفض الضرائب على الكحول.

تغاضت دافني عما قاله وواصلت خلع ملابسه المتسخة، وهمّت أن تأخذه إلى حجرة النوم لكنه رفض رفضاً باتاً. ولم تستطع التغلب عليه أو إقناعه فتركته ينام حيث هو في الصالة وغطت جسده المنهك، ثم بدأت في تنظيف جسدها وملابسها التي لوثها القيء. واتجهت إلى الحمام وخلعت ما عليها من ملابس وغسلت جسدها.

ولفترة وجيزة من الزمن، نسيت ما دار في خيالها تجاه ناجي، وبدأت تفكر في ما عساها أن تفعل حيال ملابسها، إذا غُسلت فستتطلب وقتاً طويلاً حتى تجفّ، فما عساها تفعل في الصباح؟ انتهت من الاستحمام واتجهت لتنام بعد أن ألقت نظرة سريعة على جسده بجانب الكنبة؛ قالت في داخلها سأقضي الليلة في حجرة نومه وعلى سريره وغداً أدبر أمر الملابس المبتلّة.

حينها انتبهت إلى أنها ستنام وهي عارية، وخافت أن تفشل في النوم من دون ملابس لأنها لم تتعود على ذلك، فماذا عساها أن تفعل؟ لم تتعبها التساؤلات كثيراً بسبب الإرهاق والتعب، فدفعت بجسدها المنهك إلى السرير ودخلت في نوم عميق.

ولم تشعر بشيء حتى صحت ووجدت ناجي واقفاً بجانب السرير وهو يصفق تصفيقاً عالياً. نهضت وهي تتخيل اللحظة التي سقط فيها هانري من علو شاهق في الحادث الذي أودى بحياته. رغم النعاس الشديد، جرّت الغطاء على جسدها بإحكام حتى لا يراها وهي عارية، وقالت بتوسل: ناجي حبيبي، الرجاء مواصلة نومك فما زال وقت الاستيقاظ بعيداً؛ اذهب لترتاح ودعني أرتاح. هيا عد لمكانك، لن أستطيع اصطحابك إلى مكانك قبل أن أرتدي شيئاً على جسدي.

نظر لدافني وقد تخيل أنها كولييت جارتهم الفرنسية التي رحل بها زوجها عندما علم أن هناك علاقة بينه وبينها. ظهرت له كما تخيل كولييت في الزمان الغابر بشعرها الأشقر وقوامها الرشيق وعينيها الجميلتين. قال وهو يضحك ضحكات ثملة: كولييت تعالي وضميني إلى حضنك الدفيء، لقد ظللت في انتظارك كل تلك السنين يا حبيبتي.

جاءت الفرصة ليشبع غريزته من حبيبته القديمة الفرنسية الشقراء كولييت، فخاطبها قائلاً: كولييت، لماذا تحاولين إخفاء جسدك عني وأنا في اشتياق إليه، كيف تفعلين ذلك؟ لا أصدق أنك تفعلين ذلك بي بعد الغياب الطويل؟ أنت الآن في سريري فأفسحي لي مكاناً بجانبك، لا أريد أن نضيع الوقت في الممانعة والدلال. هيا يا كولييت، دعيني أرقد بجانبك؛ لقد اشتقت لك كثيراً، أين كنت طوال هذه الأعوام وكيف عرفت مكاني وكيف عرفت بالوحدة التي تقتلني؟

أدركت دافني أنه ما زال سكران. لكن من عساها تكون كولييت هذه التي يذكرها ويتصور أنها هي؟ قالت بغضب وبصوت حازم

كأنها مديرة مدرسة: هيا، عد يا ناجي إلى مكانك، ودعنا نرتاح قليلاً قبل أن يطلع الصباح.

واستطاعت إقناعه بالعودة إلى الصالة مرة أخرى حيث كان نائماً وأغلقت الباب خلفه بإحكام وعادت إلى السرير حيث نامت نوماً يتخلله التوتر والأرق. وصحت بعد أقل من نصف ساعة وسمعته يطرق الباب ويطلب منها السماح له بالدخول. نهضت ووقفت خلف الباب لتحاول إقناعه بالعودة إلى مكانه وقالت: أرجوك، عد الآن وسأكون معك بعد قليل، هيا عد يا ناجي.

قال لها بكل عناد وإصرار: لن أعود إلا بعد أن تفتحي لي الباب وتخبريني عن الذي تفعلينه في سريري. وأريد يا كولييت معرفة سر غيابك عن حارتنا؛ لقد هجرت الحارة لسنوات عديدة ولم تكتبي لي ولم تتصلي بي فما هو السبب؟ وكيف حال العم ألفونس؟

أدركت دافني أن الأمر لن يحسم بسهولة، لذا نهضت وفتحت الباب وسمحت له بالدخول. رقد معها على السرير قبل أن يعطيها فرصة لتقنعه بالعودة إلى مكانه من جديد. كانت أنفاسه محملة برائحة الكحول فأدارت وجهها في الاتجاه الآخر لتتفادى الرائحة النفاذة. وما لبثت أن سمعته وهو يشخر بصوت مزعج.

ظلت في سريرها لمدة من الزمن وهي تقلّب في ذهنها أحداث الليلة وتتأمل المعلومات التي عرفتها عن حياته. لاحظت أن الرجل عنده جوانب يكتنفها الغموض والسرية، فهي ما زالت تجهل الكثير عن حياته الشخصية وعلاقاته الاجتماعية وخاصة العلاقات النسائية. لم تره يشتري الزهور أو يتأهب لموعد للذهاب إلى موعد غرامي،

ولم تصله مكالمة هاتفية خاصة خارج إطار العمل.

ولو كان الأمر غير ذلك، لعرفت الحقيقة أو عثرت على دليل يقودها لمعرفة حقيقته. ما هي خباياه وماذا يكمن خلف شخصيته التي لا يفصح عن مكنونها أمامها أو أمام أي شخص آخر؟ والسؤال الآخر الهام: لماذا يناديها بكولييت، ومن هي كولييت يا ترى؟ دافني لم تسمعه يتكلم عن امرأة بهذا الاسم. وردّت على نفسها قائلة: قد تكون بطلة إحدى الروايات التي قرأها؛ فهو بجانب الاقتصاد يقرأ الأدب والروايات.

والسؤال المهم الذي ظل من دون إجابة هو: لماذا لا توجد علاقة خاصة تربطه بامرأة وهو في أوج الشباب والحيوية؟ ربما ترك شأن العلاقات العاطفية حتى يستقر في لندن، رغم أن المدة التي أقام فيها بالمدينة ليست قصيرة. وهي وسط هذه الأفكار، نامت وبدأت هي الأخرى تشخر شخيراً شديداً من التعب والإرهاق.

ولم تستيقظ إلا وناجي يلمسها بيديه ويحاول تقبيلها. وفكرت في الأمر، فهي لا تريد منه مجرد نزوة عابرة؛ إنها تريد علاقة ثابتة مثل التي ربطتها بهانري وهيربيرت. إذا استسلمت له الآن، فهل يكون ذلك عملاً سليماً لن تندم عليه في الصباح؟ وهل عندما يفيق من السكر، سينسى أمر ما سيجري بينهما؟ لم تكن لديها إجابة واضحة على أي من هذين السؤالين.

على الرغم من الحيرة التي غمرتها، بدأت تتلذذ بلمسة يديه المرتعشة وقبلاته المهتزة. وأعطته الفرصة ليواصل رغبته حتى أخذ منها ما يريد. تم الأمر بطريقة سريعة ومرتبكة لدرجة لم تكن متأكدة من أنه كان واعياً بما يقوم به.. أم أن الأمر لا يتعدى

القيام بحركات آلية بدافع السكر الشديد؟ لكم تمنت لو لم يكن دافع العلاقة الجسدية بينهما هو السكر، ليت ناجي قدم لها دعوة إلى العشاء وأعرب لها عن إعجابه بجمالها وشخصيتها ثم تقرب منها عاطفياً وجسدياً. وعلى كل حال، تمت التجربة الأولى بينهما، وفرحت دافني لتحقيق هدفها وكسر الحاجز الذي حال بينها وبين ناجي. وكان فرحها عظيماً أن ناجي قد بادر برغبة منه إلى تطوير العلاقة بينهما، وليس كما كانت الحال في السابق عندما حاولته وقابلها هو بالنفور والصدود. ولقد دخلت حياة ناجي ولا يهم إن كان الدخول من الباب أو من النافذة.

عاد ناجي إلى النوم من جديد وهو يتقلب بحركات سريعة ومضطربة. كانت في غاية القلق والترقب. وفجأة عاود لمسها لكن كان في حالة من اليقظة لا بأس بها وبدأ تأثير الكحول يتبخّر من رأسه. وظنت أنه هذه المرة قد طلبها بدافع من الرغبة الذاتية لا بدافع نزوة يمليها عليه السكر الشديد. لذلك، استسلمت له بتجاوب أكثر من المرة السابقة وشعرت بحرارة قبلاته تلتهب على شفتيها وساعده القوي يضغط على خصرها. وأدركت كم هي في رغبة إلى القبلات المحمومة من شاب لم يعطها اهتماماً في الأشهر التي قضتها معه في أجواء العمل داخل مكتبهما الخاص. وتمتعت بشبابه وهو يأخذها إلى قمة السعادة واللذة.

رقد على السرير بجانبها ونام. تأملت الشاب مفتول العضلات ونظرت لجسدها العجوز المترهل، وعلمت أن العمر قد فعل فيها فعلته القاسية الرهيبة. هل تنسحب من المسرح أم تواصل البحث عن السعادة والحب؟ ورأت أن من حقها أن تقيم علاقة مع ناجي، قد تكون آخر علاقة مع موظفي الصحيفة التي أخلصت لها وأفنت

فيها زهرة شبابها. وقبل أن تدخل في نوم عميق، فكرت في الكيفية التي ستحل بها لغز كولييت التي يتغنى بها عشيقها الجديد ناجي؛ كولييت تسبب لها القلق والغيرة والاضطراب.

واستيقظت في صباح اليوم التالي في ساعة متأخرة على غير عادتها ثم استيقظ هو بعدها بقليل. وأول ما قام به كان مد يده للمذياع الموضوع على الطاولة قرب السرير ليستمع لأخبار الصباح وتوقعات الطقس. ألقى نظرة فاحصة على الأشياء الموضوعة على الطاولة: كتب ومجلات اقتصادية، وأدوية منها حبوب البروزاك المهدئة للأعصاب التي يتناولها بصورة دائمة وحبوب تساعد على النوم وحبوب فيتامينات تنشط الجسم. لم يتبادلا التحية والحديث وظلاً جنباً إلى جنب في السرير مثل غرباء تقابلا نهاية الليل في شارع مظلم عند حانة عتيقة. حدق في أفق بعيد ثم تناول سيجارة وأشعلها وأخذ ينفث دخانها إلى أعلى وعينان زائغتان مع الدخان دون تركيز أو متعة.

لم تحاول تبديد الصمت الذي يلف المكان. عليه أن يكسر الصمت القاتل بكلمة أو حركة. وعندما طالت الفترة، سألته: هل تريد فنجان قهوة ؟ أنا أشعر بحاجة ملحّة لشراب شيء دافئ وإلا أعود للنوم مرة أخرى.

قال لها من دون أن يلتفت نحوها: لا، شكراً، لا أريد تناول أي شيء. ومن دون شك، أنت تعرفين أين المطبخ؟ نهضت ومشت أمامه وهي عارية تماماً. وقالت وهي تدّعي المرح لتبدد الوجوم: ألا يوجد قماش، فوطة أو ملاءة في المكان يلف به المرء جسده؟

قال وهو ما زال في وجومه سارحاً في أفكاره: في الخزانة القريبة

من المطبخ. وواصلت سيرها فرأت منشفة كبيرة على الكرسي والتقطتها بسرعة ولفتها على جسدها ثم خرجت من الحجرة. بعد قليل، عادت إلى الحجرة بفنجاني قهوة، ووجدت ناجي مرتدياً قميصاً خفيفاً وسروالاً من القطن. حاولت قراءة أفكاره والتعبير المرتسم على وجهه لكنها لم تستطع فهم ما يدور في ذهنه. هل يفكر الرجل في أحداث الليلة الماضية: إفراطه في السكر والحالة المزرية التي وجد نفسه فيها؟ تعبير وجهه لا يقول إنه قد استمتع بما فعله ليلة أمس وأنه على وشك الدخول في علاقة حميمة وثابتة معها. ولهذا فهي تحاول تدارك الأمر وتخليصه من دوامة التخبط التي تحيط به من كل حدب وصوب.

جلست على الكنبة بالقرب منه ونظرت إليه بينما هو شارد العينين يبحلق في الحائط الذي أمامه كأنه ينظر في عالم مستور عن بقية خلق الله. وقامت بحركات خفيفة لتحثه على الكلام لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة وظل في صمته يتناول سيجارة بعد الأخرى. وصلت حداً لم يكن السكوت عنده محتملاً بالنسبة لها.

قالت: أليس لديك موسيقى؟ دعنا نستمع إلى القليل من الموسيقى فالمكان يخيم عليه سكون قاتم موحش؛ دعنا نبدد السكون ببعض الأنغام الشجية. كانت دافني تدرك، من الأسطوانات التي رأتها في شقته، أنه يحب الموسيقى الحديثة مثل الروك والجاز والبوب، عكسها حيث إنها تحب الموسيقى الكلاسيكية مثل موسيقى الأوبرا.

قال: الموسيقى في الخزانة بجانب طاولة الطعام. قال هذا ولم يزد عليه بل واصل صمته.

واتجهت إلى آلة الموسيقى وأخذت تقلّب في مجموعة الأسطوانات

ولم تجد فيها ما يروق لها من أغان وموسيقى. وبعد جهد، عثرت على شريط يضم أغاني لمغني الجاز الشهير لوي آرم سترونغ؛ وضعت الشريط في آلة الموسيقى وضغطت على الزر وعادت إلى مكانها في محاولة أخرى لإخراجه من وسط الوجوم الذي يلفه. صدحت الموسيقى لكنه لم يكترث وظل سابحاً في أفكاره بينما كانت هي تحاول العثور على منفذ تتمكن من خلاله الدخول لتقول له ما يدور في داخلها عن أحداث الليلة الماضية.

وسمعته يقول: ألم تجدي أغنية أخرى غير هذه الأغنية؟ نعم، أنا أحب لوي آرم سترونغ لكن الوقت مبكر لسماع موسيقى من هذا النوع. ولم ترد عليه وظلاّ في جلستهما وهي تحاول قطع التوتر بتصفح بعض المجلات الاقتصادية التي كانت متراكمة بكثرة على طاولة القهوة التي أمامهما.

وقال: دافني أنا وأنت يجب أن نتحادث. رفعت عينيها عن المقالة التي تقرأها بسرعة شديدة لأنها كانت متشوقة لتسمع منه كلاماً عن العلاقة التي بينها وبينه. لكنها تريثت في مشاعرها وردت عليه قائلة: نتكلم في أي موضوع؟

قال: عن الوضع المزري الذي كنت فيه ليلة أمس؛ ولقد ورطتك معي.

قالت: ذلك لم يكن وضعاً مزرياً بل أمر طبيعي يحدث لناس مثلنا وحدث لناس كثيرين من قبلنا.

قال: أن أكون سكران فذلك شيء وأن آخذك إلى السرير فذلك شيء آخر.

استنتجت في داخلها أنه يحاول التملص من أي علاقة تطمح في إقامتها معه. ورأت أنه يريد أن يوضح لها بصورة لا تقبل الجدل أن ما حدث ليلة أمس لم يكن سوى تصرف عابر حدث بسبب الكحول؛ أراد أن يقول لها: ليس على السكران حرج.

لكنها لم تستسلم وقالت: الذي حدث بيننا كان طبيعياً للغاية. عثرت عليك في الحانة وأتيت بك إلى هنا وأنت الذي بدأت معي وحدث الذي حدث؛ ألست سعيداً بذلك؟ من ناحيتي، أنا سعيدة لأننا تجاوزنا طور الزمالة ودخلنا في أمر متوقع حدوثه بين أي امرأة ورجل كتب لهما القدر العمل في مكان ضيق كما نفعل أنا وأنت؛ لقد دخلنا في طور جديد في العلاقة التي تربطنا.

وعند سماعه ما قالت، بلع ريقه وظهرت له بوضوح الغاية التي تسعى دافني لكي تحققها. في الحقيقة، كان يحس بخطط دافني نحوه منذ فترة طويلة إلا أنه نجح في عدم السير في الدهاليز التي رسمتها له بقدرة وبراعة. والآن جاء وقت الحساب، لكنه لا يعرف ما الذي يجب عليه قوله لها، فسكت لبرهة من الزمن. بعدها، أدرك أن من الأجدر به عدم التخاذل أمامها، وعليه أن يقول لها ما يؤمن به لصدها عن التمادي في التفكير حول علاقة وهمية تربطها به. هذا أمر لا مساومة فيه ولكن يجب اتباع الأسلوب المناسب في مثل تلك الظروف الصعبة؛ صد المرأة ورفضها مسألة ليست بالسهلة.

وعليه حتى في موقف كهذا مسايرتها وإلا تحوّل إلى فرد لا أصول له ولا مبادئ. الموقف صعب لكن عليه معاملة دافني بأسلوب لطيف ومؤدب، خصوصاً أنها من طبقة اجتماعية تعطي اهتماماً

كبيراً للأدب والأخلاق والتصرف السليم. عليه التخلص من المأزق الذي وجد نفسه فيه وفي الوقت نفسه عليه استخدام اللطف والتهذيب حتى لا يجرح مشاعرها.

قال: دافني، ماذا عسى أن أقول في موقف كهذا سوى أني آسف جداً على الذي قمت به ليلة أمس وأتمنى ألا أكون قد سببت لك أذى أو قمت بشيء أزعجك. وأهم من ذلك أخشى أنني قمت بعمل يخالف القانون؛ قال ذلك وفي ذهنه أن ممارسة الجنس دون الموافقة قد توقع الإنسان في جريمة الاغتصاب. ناجي حتى اللحظة لا يعرف الظروف التي دفعت به ليجد نفسه على سرير واحد بجانب دافني.

عليه النظر للواقع الجديد ولا فائدة من إنكاره أو التصرف وكأن أمراً لم يحدث بينه وبين دافني. ما يراه مرتسماً على عيني دافني هو بلوغها هدفاً طالما سعت لتحقيقه.

كان يدرك أن دافني تريده أن يكون الرجل الثالث في حياتها بعد هيربيرت وهانري. وما حدث الليلة الماضية وضعه في الموقع الذي خططت أن تضعه فيه، ولا مفر من ذلك بسهولة. بدأت الهواجس تلعب به بينما لم يستطع البوح لها بما في داخله ومصارحتها بما يخالجه تجاهها، لذلك فضّل كبت هواجسه داخل عقله ووجدانه.

وهو يتخبط في هواجسه الهوجاء، شعر كأنه تلميذ واقف أمام مديرة المدرسة ويجب عليه القيام بما يُطلب منه بأسلوب يتسم بالأدب والاحترام والخضوع.

ونظرت إليه وأدركت الحيرة التي تعصف به والهواجس التي

تخيفه. حاولت عدم توضيح كل ما يخالجها تجاهه عندما قالت: ناجي دعني أقل لك شيئاً واحداً مهماً علمتني إياه خبرتي في الحياة التي كسبتها خلال سنين طويلة من العلاقة مع الرجال: دعنا نعيش الحياة بمتعة وهناء، أيام الحياة بالنسبة لي قصيرة ولا بد من التمتع بها قبل زوالها.

واقتربت منه أكثر حتى كادت أن تلتصق بجسده ورفعت يدها بحنان لتلمس شعره الكثيف المتموج. ولم يمانع لأنه كان في حالة من الدهشة الشديدة التي ضعضعت قدرته على مقاومة مخططاتها. وظلاّ في وضع مريح وهما يستمتعان بموسيقى الجاز من عبقري الموسيقى لوي آرم سترونغ وبكلماته التي تمجد جمال الكون وحلاوة الحياة.

هكذا دخلت دافني إلى حياه ناجي بعد أشهر من الملاحقة المستمرة، وعادت من جديد إلى الشقة التي خرجت منها بعد وفاة هيربيرت. دافني حققت طموحها وصارت حبيبة للمحرر الجديد للصفحة الاقتصادية. وأخذت تنظر إلى المكان وكأنها تريد لمس أرضه وأركانه وأثاثه. المكان محمل، ولا شك، بذكريات الماضي الذي جمعها بهانري وبعده هيربيرت.

وظلاّ في الجلسة المريحة لفترة ليست بالقصيرة. ودار قليل من الحديث بينهما. الرجل هائم في أفكاره ينفث الدخان من سيجارته بشراهة وعصبية، ودافني سعيدة بالعلاقة الجديدة التي بدأت في حياتها. لكنها شعرت بعدم الارتياح لأن ناجي لم يطلب منها الخروج معه لتناول الغداء كما يجب عليه أن يفعل، ولم يقل لها شيئاً من حديث الحب والغرام. وعند الساعة الرابعة عادت إلى شقتها محملة بأمل جديد وتفاؤل شديد.

لم تسر الرومانسية بين دافني وناجي في طريق سهل ومعبد كما كانت تتمنى دافني. بعد خروجها من شقته إثر أحداث الليلة المثيرة التي عاشاها، لم يحاول حسب قواعد الغرام أن يخرج معها للعشاء أو يدعوها إلى شقته للشرب والأنس. انغمسا في العمل الذي كان يبتلع ساعات طويلة من النهار وأطراف المساء. وفي نهاية اليوم، يودعها ويخرج من المكتب ليعود للبيت أو إلى مكان آخر تجهله.

واستمرت الحال على هذا المنوال لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر ودافني في عجب من أمر ناجي. فقد ظنت أن أواصر علاقتهما قد توطدت وأنهما دخلا طور العاطفة الحميمة وعليه مواصلة الشوط بإبداء رغبته وإظهارها بطريقة أو أخرى، إلا أنه لم يفعل. ومن جانبها، لم تحاول مناقشته في الأمر إلى أن جاء يوم الأحد من الأسبوع الثالث بعد تلك الليلة.

وكعادتها ذهبت إلى الكنيسة للصلاة ولتنصير حفيد إحدى صديقاتها التي تعرفت إليها عن طريق هيربيرت. بعد الكنيسة، ذهبت إلى حديقتها الخاصة في منطقه إيلنغ لحرث الأرض، وحصاد محصول الخضر والفواكه والزهور، ولري الشجيرات التي تظلل قبري هانري وهيربيرت. وهي في طريقها عائدة إلى شقتها، دهمها دافع ملحّ حثها على التوجه نحو شقة ناجي. حاولت التغلب على هذه الرغبة الملحة ولم تستطع، فبدلاً من أخذ الحافلة رقم ١٢ إلى بيتها وقفت منتظرة الحافلة رقم ٤٣ المتجهة إلى منطقة هولبورن لتغيرها بعد ذلك وتأخذ حافلة رقم ٢١ التي تصل بها إلى حارته؛ هذا ما فعلت.

وعند وصولها واقترابها من باب العمارة، تمنت عدم وجود الحارس

بروس خلف مكتبه حتى لا تتعرض لنظراته الحادة المقيتة. إلا أن الحارس كان يجلس في مكانه المعهود وهو منهمك في قراءة جرائد يوم الأحد الموضوعة أمامه على الطاولة. وضغطت على جرس العمارة ولم يتحرك بروس من مكانه لكنه ضغط على أحد الأزرار ففتح لها الباب لتدخل.

وقال بروس باقتضاب: صباح الخير دافني. لم ينادها بالآنسة دافني كما هو مفترض منه حسب التقاليد والأعراف المرعية. أما هي فقد أرادت أن تخفي عنه التوتر الذي ينتابها وتبدو أمامه في وضع طبيعي وكأنها ذاهبة لزيارة زميلها ناجي. وكانت دافني تدرك أن بروس لا يستسيغها إطلاقاً بسبب أنها امرأة أرستقراطية ولها مكانة أعلى من مكانته الاجتماعية وتتمتع بامتيازات مادية أحسن منه ومن طبقته الاجتماعية. كذلك دافني على معرفة بأن العلاقة متوترة بينها وبين الحارس لعلاقاتها الغرامية بمحرري الصفحة الاقتصادية في الجريدة هانري وهيربيرت. كان بروس يقلل من شأنها وينظر لها باحتقار لا سيما بعدما شعر أنها تنوي إقامة علاقة مع المحرر الشاب الذي يصغرها بأعوام كثيرة. لم يرض بروس بعلاقة دافني مع هانري الرجل المتزوج، ولا باختطافها لجثته من زوجته ودفنه في مزرعتها الصغيرة، كما لم يرض عن العلاقة التي قامت بينها وبين هيربيرت، الرجل المتوحش المكروه المتعالي. كان هيربيرت ضابطاً في الجيش وكان يطالب بروس بتقديم التحية العسكرية له؛ بروس كان جندياً عادياً في الجيش.

وأخذ بروس ينظر إلى الأمور الغريبة التي تدور في حياه دافني بصفتها أموراً خارجة عن الحشمة والتصرف اللائق لامرأة في سنها. وزاد استياء بروس من دافني وصار يصنف تصرفاتها

بالتصرفات المجنونة والشاذة؛ دافني امرأة لعب العمر بعقلها ومن الصعب إصلاح حالها. هذا ما كان يراه بروس.

ووصلت إلى باب شقة ناجي وضغطت على الجرس. لم تكن على يقين من الكيفية التي سيقابلها بها؛ لقد حضرت لشقته يوم عطلته الأسبوعية دون موعد مسبق. وأتاها صوته من الداخل يقول: من بالباب؟

وقالت: ناجي، أنا دافني أتيت لك ببعض الزهور التي قطفتها اليوم من حديقتي.

وعندما سمع صوتها شعر بالاضطراب لأن دافني سمحت لنفسها بالمجيء إلى بيته من دون دعوة مسبقة. بالنسبة لناجي، البيت هو الملاذ الوحيد الذي يحميه من المتطفلين، إلا أن دافني غزته وخرجت عن إطار العادات والأصول المرعية. يجب عدم انتهاك خصوصية الفرد في أيام الراحة، لكن لم يكن أمامه سوى فتح الباب، فقال بصوت متوتر: انتظري دقائق من فضلك.

وأدركت من نبرة صوته أنه لم يكن مرحباً بزيارتها. بالرغم من ذلك، أرادت المضي قدماً ومواجهة الموقف بشجاعة؛ لقد جاءت لمناقشة الأمور التي بينها وبينه ومعرفة الحقيقة بأسرع فرصة ممكنة. عليه عدم تجاهل ما حدث في تلك الليلة العاصفة وعليه معرفة ما يدور في نفسها حول العلاقة التي تربط بينهما.

وفتح الباب، شعره مبلل وجسده ملفوف بروب حمام قطني أبيض، ثم قال: تفضلي. دخلت وهي تحس بعدم ترحيبه بها. وشعرت أنه ما زال لا يعرف ما القصد من الزيارة المفاجئة.

سألها إن كانت تريد شرب شيء؛ سؤاله جعلها تحس بأنه ما زال يعاملها كامرأة غريبة ولا تربط بينه وبينها علاقة خاصة. أدركت أنه يريدها أن تتصرف في الشقة بنوع من التحفظ؛ شعرت بعدم القدرة على التصرف بحرية مثل الحرية التي تمتعت بها زمن هانري وهيربيرت. وكتمت ما يدور في ذهنها وردت عليه قائلة: لو سمحت فنجان قهوة. ثم استطردت قائلة: الصباح حضرت مراسم تنصير في الكنيسة وبعد ذلك ذهبت إلى حديقتي الصغيرة وحصدت محصول الأسبوع من فواكه وخضر وزهور؛ لقد أحضرت لك بعض الزهور التي زرعتها زراعة طبيعيه تخلو من أي مواد كيماوية، هل لي أن أضعها في المزهرية؟

ولم يكن قد تناول منها الأكياس وما حملت من أشياء ليريحها من الحمل الثقيل الذي تحمله.

قال: لا عليك من تلك المهمة، سأقوم أنا بها. ولم يعجبها رده لأنها تمنت لو طلب منها وضع الزهور في المزهرية لتتحرك وتدور في الشقة كما يحلو لها. وظلت في مكانها تنتظره ليعود بالقهوة والمزهرية. وعاد بعد أكثر من عشرين دقيقة ووضع فنجان القهوة أمامها لكنه لم يجلب معه المزهرية.

قالت وهي تغالب التوتر: دعني آتي بمزهرية لهذه الزهور الطبيعية سريعة الذبول، إنها تستحق معاملة ألطف وعلينا عدم تركها من دون اكتراث واهتمام؛ إن لم نضعها في الماء فوراً فستذبل وتموت.

وانتبهت لرائحة العطر تفوح من جسده وملابسه، ولاحظت أنه قد غيّر ملابس النوم وارتدى قميصاً خفيفاً وسروالاً داكناً. ظنت أنه قد تهيأ لاصطحابها للغداء. وفرحت لذلك لأن من عادة الناس

الخروج يوم الأحد للمطاعم والفنادق لتناول الإفطار أو الغداء. لكنه لم يحرك ساكناً، وجلس على الكنبة المواجهة للمكان الذي جلست فيه وظلّ صامتاً صمت القبور. وبعد مضي وقت ليس بالقصير، نهض وأدار الآلة الموسيقية فصدحت موسيقى من النوع الحديث الذي لا تعرفه ولا تستسيغه. لقد كان ناجي في حالة من الوجوم والجمود ولا حياة فيه؛ سألت نفسها: هل ينتظر مني بداية الكلام؟

وفجأة قام من مكانه على الكنبة وسار نحو المطبخ بصورة آلية خالية من الحيوية والأحاسيس. ورجع بسرعة وهو يحمل زجاجة نبيذ أبيض وكأسين من الزجاج. صب النبيذ وناولها كأساً. شكرته وهي في حيرة من تصرفاته وحركاته المرتبكة التي لا طائل من ورائها.

وأخذا يحتسيان النبيذ حتى لم يبق منه في الزجاجة سوى القليل. وكعادته عندما يشرب الخمر، لا يستطيع التوقف حتى يصل حد الثمالة. نهض وأتى بزجاجة أخرى وواصل في صب الكأس بعد الكأس. وأدركت أن الأمر سيصل به إلى فقدان التوازن فخافت أن يصل للمرحلة التي وصلها ليلة وجدته ثملاً في حانة الحي. ولذلك سألته: هل أنت جائع؟ أنا لا أستطيع البقاء من دون طعام لمدة أطول من ذلك؛ لماذا لا نذهب لتناول شيء في أحد الفنادق القريبة من هنا؟

أجابها قائلاً: ماذا تريدين أن تأكلي؟ لدي في البراد بيض وخبز وجبن وقطع من شرائح اللحم؛ لماذا لا تذهبين وتحضرين لنفسك وجبة خفيفة وسريعة؟

بدأت تشعر بالارتياح لتحسن الجو فيما بينهما وزوال الوجوم الرهيب الذي سيطر على بداية الزيارة. وخلعت رداءها الذي لم يزل عليها لأن ناجي لم يطلب منها خلعه حسب التقاليد والذوق. وذهبت للمطبخ وبدأت في تحضير طبق من البيض بالزبد مع قطع من شرائح لحم الخنزير والخبز المحمص. واتجهت بالوجبة لصالة الجلوس حيث وجدته أقل ضجراً مما كان عليه في بداية الزيارة.

وشعرت براحة معقولة وانفرجت أساريرها، لكنها لم تزل لا تعرف إلى أين سيصلان في نقاشهما حول الأمر الذي أتت من أجله. لقد كانت على يقين من أنها لن تدع الفرصة تفلت من يدها قبل الكشف عن الذي يدور في خاطرها عن معاملته لها بأسلوب يتسم بعدم المبالاة وقلة الاكتراث. عليه أن يدرك أنه صفعها على وجهها بعد أن مكنته من نفسها في تلك الليلة؛ الأمر لم يكن نزوة عابرة مثل سحابة الصيف بل يستند إلى حاجته لها بوصفها امرأة تقف بجانبه في السراء والضراء. عليه أن يعرف حاجته لامرأة حنون تسنده في مدينة موحشة تسبب الضجر والضيق والوحدة.

وضعت الطعام في الأواني وطلبت منه المجيء للأكل. وجاء وجلس بجانبها لكنه امتنع عن الأكل بنهم وشهية كما كانت تود أن تراه يفعل؛ أخذ يتلاعب بالطعام ويرفع قطعاً صغيرة لفمه من دون رغبة وتركيز. إلا أنه بدأ يفقد بعضا من التوتر الذي ينتابه وارتخت عضلاته وهو يشرب المزيد من النبيذ أما هي فتناولت طعامها بشهية.

ولم تنتبه له حتى سمعته يقول: سأذهب لشراء جرائد الأحد من الدكان قرب محطة القطار ثم أرجع سريعاً. ونهض قبل سماعه

لردها، وتناول من سترته المعلّقة خلف الكرسي محفظته وخرج من الشقة. وظلت هي لفترة وجيزة بمفردها وتذكرت أنهما لم يدخلا في الكلام الهام الذي جاءت من أجله.

وبينما هي تتأمل أمره، انتبهت لشيء مهم وهو تعاطيه المفرط للمشروبات الكحولية. وخافت من الوصول لمرحلة من السكر تعوق التفاهم المطلوب في مثل تلك الظروف والملابسات.

وعاد بالصحف وبدأ في تصفحها وهو لا زال يشرب النبيذ بوتيرة سريعة حتى احمّرت عيناه وتغيرت قسمات وجهه. ثم قال بلسان ثقيل: دافني، لماذا لا تغنين إحدى أغانيك الأوبريتية الجميلة؛ اختاري الأغنية على ذوقك. هيا، أريد سماع صوتك الطروب الجميل.

وقالت: لكنك لا تحب الموسيقى الكلاسيكية كما قلت لي أكثر من مرة؟

قال وقد وصل لدرجة الثمالة المفرطة: أهوى جميع أنواع الموسيقى؛ لا عليك من الذي أهواه ولا أهواه، ما أريده هو سماع صوتك الطروب العذب. هيا، دعيني أتمتع بصوتك الجميل الشجي.

وبدأت دافني تتأهب للغناء وهي تشعر براحة كبيرة لأن تعامله البارد معها قد تغيّر لأبعد الحدود. وغنت إحدى أغانيها الأوبريتية المفضلة. وظلاّ على هذه الحال: هي تغني وهو يستمع.

وعندما تعبت وأرادت بعض التغيير طلبت منه أن يريها صور والديه. وذهب فوراً وعلى وجهه ابتسامة عريضة وأتى بألبوم الصور. نوت أن ترى صورة المرأة الراقصة التي رأتها في شقته يوم

ذهبت لإيصال بعض الأوراق حسب طلبه. وبدأ يعرّفها إلى الوجوه المطلة من الصور من دون ظهور صورة المرأة الراقصة. الصور أكثرها لوالده ووالدته. وتبينت لها مما رأت حالة أسرته الاجتماعية والحي الذي يعيشون فيه: إنه ينحدر من أسرة متواضعة الحال على الرغم من شكله المهذب وثقافته العالية والهالة الرزينة التي يحيط بها نفسه. فوالدته في جميع الصور ترتدي ملابس بسيطة، ووالده يرتدي سترة سائق سيارة الإسعاف. وعرفت أن تعليمه هو الذي رفعه إلى هذا المنصب العالي في الوظيفة والحياة، وليس وضعه الاجتماعي والأسري.

احتفظت بخواطرها لنفسها وأخذت تكيل الثناء لحسن حديقة المنزل التي تتكرر صورها. وسألته عن طفولته وأيامه في المدرسة والجامعة، أسئلة رد عليها بتفاصيل وإسهاب.

وبعد مدة قال لها: أفضل طريقة أعرّفك بها إلى أبي وأمي هي الاتصال بهما؛ سأتصل بهما الآن لتتحدثي معهما. كانت دافني تدرك أن الوقت غير مناسب لكنها لم تستطع إقناعه بالعدول عما ينوي القيام به. وأدار الرقم ودفع بالسماعة إلى يدها وطلب منها التحدث مع أمه وأبيه. قامت بتحيتهما وعرفتهما بنفسها على أنها السكرتيرة الخاصة لابنهما ناجي.

أدركت دافني أن ما أتت من أجله لن يرى النور وما عليها سوى انتظار ما ستأتي به الأقدار. وبعد الخمر جاء دور الرقص. وقام وبدأ يرقص أمامها وسط الصالة وطلب منها مشاركته ففعلت دون تردد. وأخذا يتمايلان بجسديهما يميناً وشمالاً وبين الحين والآخر يرتفع صوت الموسيقى لدرجة غير معقولة.

وبعد زمن، سمعا طرقاً على باب الشقة. فتحت الباب فرأت أمامها الحارس بروس، أتى ليطلب منهما خفض صوت الموسيقى لأن سكان العمارة قد أصابهم إزعاج شديد من جراء ما يقومان به. لكن هذا لم يمنعهما من مواصلة الرقص؛ وراحا يرقصان بعنف وصخب شديدين. وحين ناداها مرة أخرى بكوليبيت؛ ردت عليه بغضب قائلة: ناجي، أنا لا أدعى كوليبيت أنا دافني، دافني ولنغتون، هل نسيت اسمي؟

وهز رأسه وقال: وما الضرر إن استعملت اسماً غير اسمك؟ أسماء النساء جميعها متشابهة ولها نفس النغمة والمعنى. وسكت لبرهة ثم قال : أريد أن أطلب منك شيئاً هاماً، هذا خارج حدود المزاح، أريد أن أطلب يدك منك؛ هل تقبلين بي زوجاً يا دافني؟

ضحكت، وكانت تريد أن تصدق ما جرى على لسانه، ثم قالت: هل هذا صحيح يا ناجي؟ كانت هي الأخرى ثملة.

وقال: بالطبع، هذا صحيح فهو طلب جاد لأنني أريدك زوجة لتهتمي بي كما فعلت مع المحررين السابقين، هانري وهيربيرت. هذا الكلام يخرج من صميم قبلي ووجداني.

وتمنت في داخلها لو كان طلبه جاداً كما يقول، لكنها كانت تدرك أنه ثمل ولا يمكن أخذ كلامه على محمل الجد. إن ما تريده منه هو الاعتراف بعلاقتهما والتوقف عن التنكر لها وإهمالها. وتقدمت منه وعانقته بحرارة وهو ما زال يميل ذات اليمين والشمال.

قادها من يدها إلى حجرة النوم؛ تركا حلبة الرقص الخيالية خلفهما وأصوات الموسيقى تصدح لتدل على جمال الحياة وعذوبة الحب.

وعادت معه إلى حجرة النوم. أسعدتها العودة إلى المكان من جديد وارتمت في أحضانه وشمت رائحة جسده القوي ولمست عضلاته الصلبة. وتسربت إلى أنفها عطور الشبق والشباب لتدخل معه في شوط جديد من الحب واللذة الأبدية. وذابا في خضم الجسد ونسيا العالم الخارجي حتى سحبهما النوم إلى مجار عميقة ومريحة؛ لم يربكهما سوى تنفسه العالي وتلهفه لشرب الماء وعرقه الذي جرى ليبلل السرير.

وفي الصباح استيقظا من النوم في وقت مبكر على غير العادة. ولم يكن ناجي في صحة جيدة وكلما كان يفتح عينيه، يسرع للحمام ويخرج ما في جوفه. أما هي فظلت في السرير في حيرة مما حدث. وكان ناجي يطمع أن تغادر دافني سريره وشقته وتذهب إلى المكتب لتترك له وقتاً ينفرد فيه بنفسه ويرتاح من العناء الجسدي والنفسي الذي حلّ به، لكن دافني لم تحقق له أمنيته.

لذلك لم يكن غريباً أن بدأ يفكر مرة أخرى في الذي سيفعله ليتخلص من تعلقها به وملاحقتها له. وانتبه لنقطه مهمة وهي أنه هو الذي جذبها إلى السرير للمرة الثانية لا العكس. جر الغطاء إلى جسده وانسحب كي لا يلامس جسدها وواصل في نوم عميق.

أدركت أن الأمر لم يتغير عن السابق وأن الأمور يجب أن تراجع برمتها من جديد حتى تصل معه إلى حلول واضحة ولا غموض فيها. وظلاّ صامتيين لمدة ربع ساعة، حتى كسرت هي الصمت بسؤالها له إن كان يريد فنجان قهوة. لم يرد عليها لكنها نهضت واتجهت للمطبخ وعادت بفنجاني قهوة.

وتساءلت في داخلها عن الذي سيفعلانه اليوم بالنسبة إلى العمل والساعة تشير إلى السابعة صباحاً. لقد تيقنت أنهما لن يستطيعا الذهاب للعمل وهما يعانيان من الإعياء والتشويش والتوتر. لذلك، اتصلت بالمكتب وتركت رسالة لرئيس التحرير تخبره فيها أنها هي وناجي قد ذهبا لحضور محاضرة في باريس ولم يتمكنا من الرجوع لأن رحلة العودة إلى لندن ليلة أمس ألغيت من جانب شركة الطيران.

وعادت من جديد تفكر في الواقع الذي هي فيه مع ناجي. ودخل ناجي وهو في حالة السكوت التام ولم يبارح السرير إلا عند الساعة الثانية عشرة بعد الظهر. وجدها في صالة الجلوس تضع زينتها أمام المرآة وتعدل شعرها المتناثر، فقال لها: أنا متعب للغاية وأشعر بإرهاق شديد؛ وأظن أنك أنت الأخرى مرهقة. أرجو أن تتصلي بالصحيفة وتعتذري عن عدم استطاعتنا مزاولة العمل اليوم.

وقالت: لقد فعلت ذلك؛ اتصلت بالصحيفة منذ الساعة السابعة وأخبرتهم عن عدم استطاعتنا مزاولة العمل.

فقال: لماذا لا تعودين إلى بيتك لترتاحي في هدوء ونلتقي غداً في المكتب؟

عندما سمعت ما قاله بدأ فكرها يدور حول مصارحته بخصوص العلاقة التي بينهما. قالت له: ناجي، ليس من باب اللياقة لشاب في مستواك العلمي والتربوي التصرف بهذه الطريقة؛ تطلب من امرأة قدمت لك نفسها برضاء، مغادرة بيتك ولا تقدم لها الاحترام المطلوب في مثل هذه الأوضاع. ألا تجيد التصرف الصحيح مع الجنس الآخر؟ ألم تتعامل مع النساء من قبل؟ ألا تدرك أن للمرأة

احتراماً في مجتمعنا ويجب أن يعاملها الرجل بطريقة أكثر لطفاً وتهذيباً؟

وقف أمامها وهو في حالة ارتباك ويدرك أنه يواجه موقفاً صعباً ولا يعرف كيف يتصرف. وسأل نفسه: ما الذي تريده مني دافني؟ وقال لها: أرجوك يا دافني أن تصدقي أني مرهق وأنت كذلك مرهقة، لهذا من الأفضل أن نأخذ بعض الراحة وسأراك غداً في العمل.

نظرت إليه نظرة باردة خالية من الود وقالت: ماذا تقصد؛ هل تريد التخلص مني بمجرد إطفاء شهوتك الملتهبة كما فعلت ليلة أمس؟ لن أدعك تفعل ذلك؛ لن أدعك تجعل مني علكة، تنتهي من حلاوتها وتبصق بها خارج فمك على الأرض من دون اكتراث. ومهما كلف الأمر، سأرغمك على أن تعترف بي امرأة لها مكانة هامة في حياتك وقلبك ووجدانك. لن أرضى بأقل من ذلك. هل تظن أنك تستطيع الهروب مني؟ إن كنت تظن ذلك، فأنت مخطئ؛ لن أدعك تتنصل من مسؤولياتك تجاهي، مهما كلفني الأمر. أنت الآن أصبحت مسؤولاً عني وعن تصرفاتك معي؛ هل فهمت؟

وبدأت تبكي بدموع حارة ثم قالت له: كيف لك أن تتركني وأنا امرأة محترمة لا ترضى أن ترقد في حضن رجل إن لم تكن متأكدة من احترامه وتقديره لها. ولا يمكنني الدخول في علاقة مع رجل إلا في الإطار المحترم الذي أرضاه لنفسي وتسمح به مكانتي الاجتماعية والأسرية. وأظنك تحاول لعبه لعبتها كثيراً في الماضي؛ لكن هذه اللعبة ستنتهي اليوم وسأعمل كل جهدي في هذا الشأن.

أجابها: دافني، تصرفي بعقل وانظري للأمور بواقعية. هل تتصورين أن مجرد لقاءين بيننا، نتيجة إفراطي في الشرب، يؤديان إلى علاقة وطيدة بيني وبينك؟ كيف ذلك، أخبريني؟ ثم إنني لم آت إلى لندن لأحدّ من حريتي وانطلاقتي؛ لم أشغل الوظيفة لجر سكرتيرة القسم إلى السرير.

فقالت: كما قلت، لن أدعك تتخلى عني بهذه السهولة. لن أدعك تغسل يدك من أمري. وكشفت صدرها فظهر الوشمان اللذان يشيران لهانري وهيربيرت، وواصلت قائلة: هذان الرجلان جاءا قبلك ولم يستطيعا مقاومتي؛ فكيف لطفل مثلك أن يحاول مقاومتي؟ لن أعطيك فرصة للفرار مني كما تتصوَر وسأظل في حياتك مهما تطلب الأمر؛ لن أعطيك منفذاً لتأتي بامرأة غيري بعد كل التفاني الذي قدمته لهذه الجريدة ولمحرري صفحتها الاقتصادية. وأنا من قمت باختيارك لتشغل المنصب المهم الذي أنت فيه؛ لولا مجهودي، لظللت طول حياتك صحافياً مغموراً في الضواحي البريطانية كما كنت قبل شغلك لهذا المنصب. هل تظن أنني لا أعرف كم كان لعابك يسيل للحصول على هذا المنصب؟ إن أنت نسيت، فلن أنسى؟

قال: لكن يا دافني ما دخل العمل بالعلاقة العاطفية، وما دخل هذا بذاك؟ ألا ترين أن حقيقة أمرنا الحالي ليست بهذه سهولة والبساطة؟ لم أكن أريد قول ما سأقوله لكنك تجبرينني: أنا أصغرك بأعوام كثيرة وعليك الرضاء بالواقع المرير. وعليه، لا رغبة لي بربط حياتي بعلاقة مع امرأة لمجرد أن جمعتني بها ظروف العمل. لقد أتيت للندن لأعمل وأعيش وأسافر وأنطلق ؛ لم أحضر لأربط مستقبلي بعلاقة كالتي تريدينها، أو بعلاقات ثقيلة تكبل حريتي.

وقالت: قل ما تشاء أن تقوله؛ أنا أصبحت واقعاً في حياتك ولن تستطيع الانسلاخ منه، رضيت أم أبيت، ويجب عليك مواجهة هذه الحقيقة. وأخذت تصرخ في وجهه بعصبية وتُردد: يجب عليك الاعتراف بوجودي في حياتك منذ اليوم؛ دافني هنا لتبقى.

وتركها وذهب إلى حجرة النوم واندسّ في السرير ليتأمل الوضع الذي وجد نفسه فيه. وظلت دافني في الشقة إذ لم يستطع إقناعها بالخروج والعودة لبيتها؛ رفضت رفضاً باتاً وبقيت معه في الشقة حتى اليوم التالي.

وفي صباح اليوم التالي، خرج من البيت بمفرده وذهب إلى العمل وهو في حالة ذهنية ونفسية مضطربة ومشوشة. لم يجد بدّاً من ترك دافني وحدها في الشقة. وبدأ يشعر بتأنيب الضمير؛ لام نفسه على الإفراط في تعاطي الكحول لدرجة فقدان الصواب والتورط مع دافني. والآن يريد معرفة الحد الذي ستصل إليه دافني في العناد وإلى متى تظل معتصمة في شقته؟ ووعد نفسه أن يتقبل ما يأتي منها خلال الأيام المقبلة، وأقنع نفسه أن بقاءها في الشقة سينتهي عاجلاً أم آجلاً.

وعند عودته في المساء، وجد البيت نظيفاً والفرش مرتباً والطعام جاهزاً في انتظاره وحوض الحمام مليئاً بالماء المعطر. ووجد دافني في أكمل زينتها وفي حالة نفسية عالية، كأن الأمور فيما بينهما طبيعية وكأنهما لم يتناقشا في ضرورة خروجها من الشقة. ولم يقل الكثير بل تناول العشاء معها بسهولة ويسر. وشاهدا التلفزيون وتطلعا على الصحف المسائية التي جلبها معه من مكتبه.

وبعد ذلك، ذهبا للفراش. حاول وهما في سرير النوم إبعاد جسده

عنها ليتفادى لمس جسدها، على الرغم من محاولتها إرضاءه والابتسامة في وجهه. وظل الوضع يتكرر حتى نهاية الأسبوع، وفي صباح يومِ الأحد بعد مغادرة السرير، قال ناجي: دافني، دعينا نفطر أولاً وبعد ذلك يجب مناقشه الأمر الغريب الذي نحن في وسطه. أومأت له برأسها في إشارة إلى الموافقة.

وبعد الإفطار قالت: قل لي الذي تريد قوله.

قال لها: ألا ترين أنك تغيبت عن العمل لمدة أسبوع كامل تحت ستار التظاهر بالمرض؟ أؤكد لك استحالة المكوث في الشقة لمدة أطول من ذلك؛ من الأجدى الوصول لحل المسألة المستعصية التي تعصف بي وبك، لا بد من الوصول لاتفاق بأسرع فرصة ممكنة.

قالت: قل ما لديك من قول وسأبدي رأيي في ما بعد.

قال: سؤالي الأول ماذا تريدين مني؟

قالت: أريد منك تحمل مسؤولية ما فعلته معي. أريدك أن تقبل كونك الرجل الثالث في حياتي، بعد هانري وهيربيرت. أريدك أن تكون الرجل الثالث والأخير في حياتي؛ أنت خاتم الرجال في دنياي.

أدهشه ما سمعه منها ولجم لسانه لفترة من الزمن، ثم قال: كيف لك النظر إلى الأمور بهذه الطريقة السهلة المسطّحة؛ أنت تعرفين أن الأمور أكثر تعقيدا من ذلك؟ لقد قلت إني لا أبحث عن علاقة ثابتة معك، وأن الذي حدث بيننا كان من تأثير السكر الذي كنت فيه، لا أكثر ولا أقل.

فأجابت: كل ما أطلبه منك يا ناجي أن تترك الأمور كما هي عليه الآن؛ أنا امرأة من جيل لا يحب التغيير، فالتغيير يصيبني بالاضطراب والتشويش. هل من الممكن أن تجعلني خليلتك كما كنت خليلة لهانري وهيربيرت من بعده؟

قال: لكن يا دافني ما الغاية من علاقة مثل التي تريدين؛ إلى أين ستصل بنا علاقة مثل التي تصفين؟ قدمي لي تفسير وأنا مستعد لسماعه وتقبله.

نهضت من مكانها ووصلت النافذة المطلة على كاتدرائية القديس بول وقالت: لا أريد الوصول بهذه العلاقة إلى أي غاية محددة. كما ترى، لم يبق من عمري سوى القليل وكل ما أطلبه منك أن تتحملني ولو لأعوام قليلة قادمة؛ لم يعد أمامي متسع من الوقت والعمر قد انقضى منه الكثير وشمسي آلت للمغيب.

وتناولت منديلها الصغير من حقيبتها لتجفف الدموع الساخنة التي انهمرت على خدّيها المتعبين المجعّدين. اقترب منها وأحاطها بذراعه ورفع ذقنها إلى أعلى واخذ ينظر إلى عينيها وهو في حيرة مما يدور أمامه. وقال: ما أريده منك الآن هو نسيان الخوف والتوتر؛ انظري إلى المستقبل بعين بصيرة وقلب متفائل. أعدك بألا أجرح شعورك أو أنسى فضلك الكبير ومساعدتك المستمرة لي في العمل؛ سنصل لحل وسط قد لا يحقق كل الطموحات المرجوة.

فقالت: ناجي، هناك أشياء كثيرة في داخلي لم أكشفها لأحد بما في ذلك هانري وهيربيرت. إنها أشياء جعلتني طوال السنين المنصرمة أعيش في اضطرابات نفسية مستمرة وقلق فكري عميق. لقد قطعت شوطاً طويلاً من حياتي وعشت مع الرجال وتفانيت

في إسعادهم، لكنني أمشي وحيدة في دروب الحياة الشائكة الموحشة. إنه لأمر مقلق أن أسير بمفردي وأنا على مشارف المرحلة الأخيرة من حياتي؛ لا أعرف وضعي الراهن ولا الذي يخفيه لي القدر في المقبل من الأيام.

نظر إليها بصمت وهي تبكي وتمسح دموعها، وظهر التأثر جلياً على وجهه. ذهب إلى المطبخ وأحضر كأسين من النبيذ، وأمسك بيدها وقادها إلى الكنبة ثم أحاطها بذراعه وقال: لولا خوفي عليك من الهزات التي يمكن أن تصيبك لو ربطتي نفسك بعلاقة معي، لقلت لكي ما تريدين سماعه مني وجاريتك في الأمر. في الحقيقة، لا أريد التلاعب بعواطفك لأنني احترمك كشخص وأقدر لك الخدمات الجليلة التي تقومين بها لمساعدتي في العمل. لكن كما ترين أنا أعزب وأمامي مستقبل طويل في لندن، وإن وفقت في البقاء في هذا العمل، فسأتفانى في إعطائه كل طاقتي وخبرتي حتى أتقدم وأنجح فيه. لهذا، لا أستطيع وعدك بشيء محدد في تلك العلاقة. الذي أستطيع قوله الآن هو انتظار ما ستجلبه لنا الأيام والأشهر القادمة. وأطلب منك عدم الخوف من مسألة عمرك للدرجة التي تربك حياتك وتسبب لك القلق والهم. والآن أرجوك كفي عن البكاء.

نظرت إليه نظرة فيها الكثير من التوسل وقالت: ناجي، لا أريد الكثير منك ولا أطمع في الكثير، فكما قلت سابقاً أنا امرأة دخلت في عقد متقدم من العمر وكل ما في الأمر هو عدم استطاعتي التخلي عما تعودت عليه من حياة لا سيما بعد فقداني لهانري وهيربيرت. ما أطلبه منك هو أن تدرك وضعي وتتجاوب معي؛ هل هذا طلب صعب عليك تنفيذه؟ لن أتدخل في حياتك وأمورك

الخاصة وسأكون رفيقتك في أوقات معينة ومحددة. سأعطيك حريتك لتفعل ما تشاء في خارج الوقت والمكان اللذين نلتقي فيهما. هذا كل ما أريده منك.

بعدما استمع لما قالته، هز رأسه في حيرة وذهول، ولم يراوده شك في أن لدافني مشاكل نفسية عويصة ومعقدة. فكر في أنها قد استطاعت تغطية عُقَدها الخطيرة عن طريق لبسها لقناع من الثقة والتوازن تظهر به أمام الناس. تبدو دافني لمن ينظر لها من الخارج امرأة قوية واثقة من نفسها وناجحة في عملها، فيما الواقع يشير إلى ضعف شديد في داخلها وفي بنائها الوجداني والنفسي. من لا يدقق في داخلها، ير أمامه امرأة إنكليزية من الطراز الكلاسيكي العريق الذي ينتمي للطبقة شبه الأرستقراطية، لكن الواقع يكشف عن إنسانة مشوشة ومضطربة ولا تعرف مكانها في المجتمع.

وما لم يعرفه ناجي أن دافني تعاني من أوهام رهيبة استقرت في عقلها الباطن منذ سنين طويلة، وقد قويت تلك الأوهام والهواجس حتى أصبحت مثل الحقائق التي تلازمها صباح مساء. واليوم فقط انفجرت وأفضت بأوهامها وهواجسها له.

وبدأت في سرد الأوهام والهواجس التي سكنت في رأسها منذ طفولتها المبكرة، لكنها لم تكشفها لأي شخص حتى لوالديها. تتوهم أنها جارية من جواري أباطرة الروس، لذلك تتفانى في خدمة الرجال كما تفعل الأمَة لسيدها. وقد تعمقت هذه الصورة في ذهنها عن طريق إحدى العرافات المشهورات في لندن. ذات يوم زارت العرافة لتفسر لها حادثاً وقع لها أيام طفولتها عندما كانت الأسرة تعيش في جنوب أفريقيا.

عندما كانت صغيرة في السن، لاحظت أنها تختلف عن أخواتها وأمها في الشكل والقوام. أمها جميلة رشيقة القوام ولها عينان خضراوان وشعر أشقر وناعم، أما هي فتعاني من زيادة الوزن وخالية من الخفة والرشاقة. وعانت فوق ذلك من خلل في صدرها يتمثل في أن أحد ثدييها أكبر من الآخر بصورة شاذة ولافتة.

لم تستطع البوح بهذه المشاكل رغم العذاب الذي تعانيه. وظل الأمر يقلقها ويبكيها. وفي يوم من الأيام، أخبرت صديقتها هيريت بالعلة الغريبة التي ابتليت بها. قالت لهيريت إن حالتها عبارة عن لعنة من الرب بسبب عنادها لوالديها وسرقاتها المستمرة للتفاح من حديقة جيرانهم. هيريت أرشدتها أن تذهب إلى الكنيسة وتعترف للقس ابرهمسون بأخطائها ومنها السرقة والكذب والعناد. قالت لها هيريت: أخبري القس عن أمر العلة الموجودة في صدرك، لعله يصلي لكي فيصير ثديك اليمين قدر ثديك اليسار.

وفي يوم ما، قررت الأخذ بنصيحة هيريت وذهبت للكنيسة لتصلي وتعترف للقس فوستر. بعد أن ركعت وقرأت الصلاة، وقفت تنتظر دورها للوقوف أمام شباك الاعتراف الصغير. وعندما وصلها الدور، جمعت قواها وشرحت للقس أمر العلة التي في صدرها. ووعدها القس بالصلاة وطلب منها العودة الأسبوع التالي لمقابلته في مكتبه الخاص الذي يقع في حديقة الكنيسة.

وذهبت في الموعد حسب الاتفاق معه. أصابها الفزع من الذي سيقوله لها بخصوص علتها الغريبة. وعند وصولها، قرعت الباب ودخلت إلى مكتب صغير رُصت على حيطانه كتب كثيرة وقديمة، ذكّرها بمكتب جدها. ولاحظ القس خوفها واضطرابها فطلب منها الجلوس على الكرسي أمامه ورفع القلم وبدأ يرسم

ويخطط على ورقة صغيرة بيضاء كانت أمامه.

قال القس بكل ثقة: دعيني أقل لكي شيئاً مهماً وهو أني لن أستطيع مساعدتك إن لم أر بنفسي الإعاقة التي تعانين منها. لذلك، ارفعي قميصك لأرى وأتحسس العاهة التي تتحدثين عنها؛ هذا سيساعدني على تقديم النصيحة السليمة لكي. هيا، اقتربي ودعيني أرى وألمس صدرك.

لم تكن تتوقع منه مثل هذا الطلب، إلا أنها وهي ترتعش من الرهبة أذعنت له ورفعت قميصها واقتربت منه. وبدأ يتحسس صدرها بجرأة احمرّ لها وجهه وأخذ يتنفس بصعوبة. وقبل القيام بخطأ أكبر معها، تدارك الأمر وطلب منها العودة لمقابلته في الوقت ذاته من الأسبوع المقبل.

وواصلت هذه المقابلات الغريبة ولم يخطر على بالها أن القس فوستر يقوم بفعل يخالف تعاليم الكنيسة. كما لم يخطر على بالها أن رجل دين يمكن أن يدخل في المحرمات والممنوع. ما تعلمته عن الكنيسة ورجالها يتعلق بالفضيلة والصدق والتفاني في خدمة الآخرين.

وبعد شهر من هذه اللقاءات السرية بينها وبين القس، أدركت خطأها وعرفت أن ما يطلبه منها الأب مخالف لقوانين الكنيسة وتعاليمها الدينية والأخلاقية. كانت الكنيسة من أحب الأماكن لديها، لكن بعد عمل القس المشين بدأ الشك يتسرب إلى نفسها تجاه الكنيسة ورجالها وامتنعت عن الذهاب لها.

ولم تبح لأحد بهذه التجربة القاسية التي جرت بينها وبين القس،

خوفاً من الحرج أمام أهلها وبقية المجتمع. وعاشت لأشهر وهي تحمل السر على كتفها، وعندما لم تستطع كتمانه، أخبرت صديقتها هيريت. وقالت هيريت لدافني: لا تسكتي على قضية كهذه، وقبل ذلك كيف تسمحين لنفسك يا غبية بالتعري أمام رجل حتى وإن كان قساً؟ ونصحتها أن تخبر أمها وتطلب منها تقديم شكوى لإدارة الكنيسة على القس فوستر حتى ينال جزاءه.

دافني لم تأخذ بنصيحة هيريت ولم تخبر أمها خوفاً من الإحراج والتأنيب. لكنها لم تعد للكنيسة حتى جاء اليوم الذي توفي فيه جدها حيث ذهبت هناك وتدريجياً عادت ثقتها بالمكان وبالقساوسة؛ لم تعد ترى رجال الكنيسة كلهم أشراراً، بل نظرت للقس الشرير مثل إنسان فرد خالف التعاليم المرعية. أفراد الكنيسة أناس عاديون يساعدون الآخرين ويتحلون بالفضيلة ويقومون بالأعمال الصالحة كما هو واضح من الأعمال الكثيرة التي يقومون بها تجاه الفقراء والمحتاجين.

إن الاضطرابات التي واجهتها في صباها جعلتها ضعيفة الثقة بنفسها وبالآخرين. وهي وسط العواصف النفسية، اقترحت عليها هيريت أن تذهب لاستشارة وسيطة روحية. تقوم الوسيطة بالوصول لروح شخص قريب متوفى لكي تصل لمصدر المشاكل التي تعصف بدافني وتخليصها منها.

وبعد عوده الأسرة إلى بريطانيا، أخذت دافني بنصيحة هيريت وذهبت لاستشارة وسيطة تدعى أنجلينا كوناي. الوسيطة تنحدر من سلالة مجرية معروفة بالقدرة في مجال السحر وتحضير الأرواح. كانت تجارتها رائجة بسبب رغبة الناس في التواصل الروحي مع

ذويهم الذين هلكوا في الحرب العالمية الثانية، وكانت أعدادهم كبيرة للغاية.

كان مقر أنجلينا كوناي عبارة عن شقه في إحدى العمارات القديمة في شارع فرعي من شارع لانكاستر غيت في لندن. الشقة نوافذها عالية غطيت بستائر من القطيفة البنفسجية، وتتصدر سقف صالتها ثريا ضخمة من الكريستال المجري الأصيل. استقبل دافني عند باب الشقة قزم صغير في العمر قوي البنية يرتدي ملابس صفراء فاقعة، القزم يعمل مساعداً للوسيطة. وقاد القزم دافني إلى حجرة صغيرة بها ضوء ضعيف يصدر من شمعة وضعت فوق طاولة مستديرة تتصدر المكان. الحجرة أشبه بالقفص، لها نافذة واحدة قصيرة وقضبان حديدية سميكة وأثاثها من خشب اللوز الأصلي وبها حاملات شموع ضخمة صنعت من الحديد الصلب.

وجلست خلف الطاولة المستديرة سيدة طاعنة في السن، لا تزال بها ملامح جمال من فترة الشباب. عيونها جميلة لكن الكبر هجم على بقية جسدها وخاصة بشرتها التي كانت تشبه الغابات الشائكة الوعرة؛ هذه كانت أنجلينا. ارتدت أنجلينا قفطاناً من القطيفة الخضراء مطرزاً بخيوط من الذهب، وغطت شعرها بغطاء أسود ووضعت على صدرها وجيدها أعداداً كثيرة من الحلي والسلاسل والعقود الذهبية، وعلى أصابعها خواتم من الفيروز الأصلي والعقيق، وأظافرها طويلة مقوسة طليت بلون أسود تشبه أرجل الخفاش.

وعندما رأت دافني ابتسمت ابتسامة لطيفة مهذبة. وتخلصت دافني من التوتر الذي انتابها وهي أمام الوسيطة، حيث لم يسبق لها أن ذهبت لمكان تحضير الأرواح أو رأت امرأة مثل أنجلينا أو دخلت حجرة مثل حجرتها.

وضعت أنجلينا يدها على الطاولة وتناولت يدي دافني في يديها وقالت: سأرحل حالاً إلى عالم الأموات؛ سأحضر روح من تشائين من أمواتك. أخبريني روح من التي تريدين الوصول إليها والتحدث معها اليوم؟

وقالت دافني وهي تتلعثم من الرهبة: أريد الوصول إلى روح جدي وليام ولنغتون الذي فارقنا من مده قريبة.

قالت: قبل أن أصل إلى السيد ولنغتون، دعيني أخبرك عما قرأته من حالتك وأنت تجلسين أمامي وعن بعض الأحداث التي مرت بحياتك. واستمعت لها بكل هدوء وهي تقول: استوقفيني إن لم تفهمي شيئاً مما سأقصه عليك. أنت تنحدرين من أسرة كبيرة لكنك لا تشعرين بالاندماج في أسرتك. وهناك حادث أثر على حياتك وجعلك تشعرين بالقلق والخوف. ولتتغلبي على القلق والخوف، سأعطيك حجراً صغيراً من الكريستال الأصلي؛ احمليه معك في جيبك طوال الوقت وسترين كيف ستتغير حياتك إلى الأفضل وستشعرين بدخولك في عالم جديد كله سحر وطمأنينة وسكون.

ما سمعته دافني من أنجلينا أدهشها لدرجة فتحت فاها وعرفت مقدرتها في قراءة أسرار الوجه والحركات. وتساءلت: كيف يا ترى عرفت أنجلينا عن قلقها واضطراب حياتها وهي لم ترها سابقاً؟ هذا دليل يؤكد على قدرتها العالية في قراءة الغيب وتحضير الأرواح.

وقالت أنجلينا: سأبدأ الآن في البحث عن روح جدك في الملكوت الواسع لإحضارها؛ عليك أن تفكري في أسئلة تريدين طرحها عليه

عن طريقي وسأخبرك بردّه على أسئلتك. والآن أطلب منك السكوت لأن ذلك مهمّ في تحضير الأرواح؛ عملية تحضير الأرواح عبارة عن مغامرة تتطلب الهدوء والسكون. من الصعب أن أصطاد الروح المطلوبة من بين العديد من الأرواح التي تدور في الفضاء الفسيح؛ هذه الأرواح تتوق للحديث معنا.

وأخذت أنجلينا تتمتم بكلمات غير مفهومة وبلغة أجنبية ومن ثم قالت بلهجة إنكليزية ركيكة: وليام ولنغتون، هذا أنت؟ ورفعت إصبعها إلى فمها لتشير إلى دافني بالسكوت؛ خيم على المكان جو مرعب ارتعش له جسد دافني.

وقالت أنجلينا: سيد ولنغتون، اليوم أتت حفيدتك دافني لزيارتي طالبة البحث عنك، فهل تريد مني إبلاغها بوصية أو بخبر؟ وسكتت لبرهة قصيرة وكأنها فعلاً تستمع لخبر مرسل لدافني عن طريقها.

ثم قالت: دافني، جدك يقول إنه كان يحبك ويفضلك على باقي أحفاده ويقول إنك في حياتك الماضية وقبل مجيئك إلى هذه الدنيا، كنت جارية من جواري قياصرة الروس القدامى. كنت تعيشين داخل أسوار القصور العامرة وخدمت وتفانيت من أجل راحة القياصرة وتوابعهم؛ إن المعاناة التي تواجهك في الحياة الآن ناتجة من اضطراب وقلق يرجعان لتلك الفترة. وليعمّ الهدوء والاستقرار حياتك من جديد ينصحك جدك بمواصلة هذا الدور المهم الذي قمت به سابقاً على أكمل وجه؛ عليك بالاعتناء بالرجال وخدمتهم. ويجب أن تمتثلي لهذا الأمر وهكذا سيكون طابع حياتك إلى الأبد ومن المستحسن ألا تثوري على هذا الواقع أو تحاولي تغييره.

وفجأة تلاشت أنجلينا من أمام دافني وكأنها هي الروح وليس وليام ولنغتون. ولبرهة قصيرة غطت الحجرة ظلمة دامسة لم تر دافني فيها شيئاً. وشعرت بيد القزم الثقيلة تهز كتفها هزات خفيفة؛ اصطحبها القزم إلى خارج الحجرة ومن ثم إلى خارج المكان كله.

ومنذ ذلك اليوم، تعيش دافني في التصور الوهمي الذي رسمته لها أنجلينا؛ لم تكن لها قدرة على الخروج منه والتصرف خارج حدوده ومؤشراته.

وأول تطبيق عملي لتصور أنجلينا ووصية الجد كان عندما أقامت دافني علاقة بأستاذ الغناء والموسيقى أنغوس؛ تفانت في أيام شبابها في خدمته على أمل الزواج منه لكنه لم يتزوجها، ودخلت في علاقة مماثلة مع المشير وهانري وبعده هيربيرت. لقد خدمت كل هؤلاء الرجال بتفان ونكران ذات والآن جاء دور ناجي وهي تقص عليه تاريخها الطويل المعقد.

دُهش ناجي مما سمعه منها وأحس بالشفقة تجاهها. كان يساوره شك قبل سماع هذه القصة أن هناك روحاً ما توجه شخصية دافني وتتحكم في تصرفاتها الغريبة، على الرغم من القشرة الخارجية السميكة التي تظهر بها أمام الناس.

وفي نهاية الأمر، اتفقا على الدخول في علاقة طفيفة تستجيب لوضع دافني وتناسب رغبة ناجي وظروفه. تم تحديد الأحد يوماً يقابل فيه ناجي دافني؛ له الحرية المطلقة في بقية أيام الأسبوع ليفعل ما يشاء ويصادق من يشاء من النساء.

وعلى حسب الاتفاق، يلتقيان كل يوم أحد في شقته. إلا أن

دافني واجهت مشكلة تمثلت في تجنب الحارس بروس وتحاشي نظراته القاسية اللئيمة. وبسبب هذه المعضلة، بدأت تقدم موعد قدومها من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة العاشرة؛ تأتي مباشرة من الكنيسة حيث لم تعد تذهب لمزرعتها لزيارة قبري هانري وهيربيرت.

كانت زيارتها لناجي تعني لها الكثير؛ تجهز لها طوال أيام الأسبوع وتختار ما تلبسه وتختار الموسيقى والكتب التي ستأخذها معها والورود التي ستزين بها الشقة. تعتني بشعرها وتجمّل بشرتها وجسدها لتظهر أمامه بأفضل حالة وأجمل صورة.

ولم يعكر صفو هذه الزيارات سوى وجود الحارس بروس في العمارة، فهي تدرك وتشعر بمقته لها. وزيارتها أعطته فرصة أكبر ليشمت بها ويتندر عليها؛ يحلو له القول أن دافني وصلت درجة من الانحطاط الأخلاقي حتى صاحبت رجلاً يصغرها بأعوام كثيرة هو ناجي. وكل هذا دعاها إلى أن تتحاشاه وتتهرب من نظراته، رغم صعوبة الأمر لأن بروس يأخذ عمله على محمل الجد. من النادر أن يفارق مكانه في ساعات العمل أو يتحرك بعيداً عن مدخل العمارة؛ بروس يراقب كل شاردة وواردة. لقد جلب لمكان العمل إبريقاً لغلي الماء والسكر والقهوة والحليب وحتى الخبز والزبد والجبن والمربى والبسكويت ليتمكن من الجلوس قرب الباب؛ لا يفارقه إلا لثوان لقضاء الحاجة أو للتدخين خارج المبنى أو لمساعدة أحد السكان على دخول المصعد.

وعلى الرغم من مشاكلها مع بروس، لم تتخل دافني عن محاولاتها كي تتجنبه وتتفاداه. أول ما تقوم به عند وصولها إلى العمارة هو الاختفاء والتلصص من خلف الحيطان لترى إن كان

موجودا أم غير موجود. إن رأته في مكانه، تظل في مكانها هي الأخرى بعيداً عن حيز نظره، تترقب بفارغ الصبر اللحظة التي ينصرف فيها. أما إذا طال بقاؤه وشعرت بالتعب، فتذهب إلى مقهى قريب من العمارة يدعى «مطبخ تشيلسي» وتنتظر حتى يجيء الفرج.

ولهذا المقهى قصة غريبة. تعود ملكيته لرجل ألماني يدعى كلاوس هايزن، يتفنن في تقديم أصناف عديدة من المعجنات والفطائر الألمانية العريقة. تجد الزبائن معظمهم من المسنين الذين عاشوا بين الحربين العالميتين واحتفظوا بذكريات يجتّرونها بعيداً عن واقع العالم الحديث. المقهى يمثل لهم مكاناً يتمتعون فيه بأطعمة لا توجد على قائمة المطاعم والمقاهي الحديثة، ويستمعون لموسيقى النصر والحماسة والرومانسية الغابرة. الزبائن يرتدون ملابس الثلاثينيات والأربعينيات ومنهم من يرتدي ملابس الجندية القديمة؛ النساء يتصرفن تصرفات الماضي ويرتدين ملابس تشبه ملابس المسارح القديمة. كان الجميع يوظف كؤوس النبيذ لغسل الهموم والوحدة والعزلة وتقدم العمر.

وأصبح المقهى مزاراً للسياح الذين يرغبون في رؤية مقتطفات حية من الماضي المنصرم، وتم توظيفه في عدد من الأفلام السينمائية. ودافني بسبب وضعها ومحنتها مع بروس، أصبحت هي الأخرى من رواده وصارت من الوجوه المعروفة في أروقته. ومع مرور الأيام، تعرف صاحب المقهى كلاوس إلى دافني وتعرفت هي إلى الزبائن الآخرين. تقضي وقتاً طويلاً في الحديث مع كلاوس، ويشمل الحديث الحرب والموسيقى والحداثة وجمال الماضي الغابر.

في الحقيقة، يعرف كلاوس السبب الذي يضطر دافني لقضاء

ساعات طويلة في المقهى لكنه لم يفصح لها عما يعرفه. وهي في انتظارها الجبري في المقهى، تشرب كميات من النبيذ وكلما شربت كأساً وجهت لعناتها لحارس العمارة اللئيم.

وذات يوم وهي في حالة الانتظار المريرة المتعبة، قررت الخروج من المقهى ومواجهة بروس بشجاعة ودون خوف ولا وجل. توجهت للمبنى وعندما اقتربت منه، شعرت بالخذلان وبدأ العرق ينزل من جسدها بغزارة، ولم يكن أمامها سوى التخفي خلف الحائط. وعندما لاحظت أن نظره وقع عليها، سارعت واختفت وسط السيارات الواقفة أمام العمارة. بروس ليس رجلاً غبياً فهو على معرفة بمحاولات دافني لتجنبه، لذلك خرج وكأنه يبحث عن لص يحاول سرقة العمارة. في تلك اللحظة، دست دافني نفسها بين سيارتين ولم تتحرك.

ولكي يحرجها، عاد بروس إلى داخل المبنى واستدعى الشرطة لمساعدته على تحري الأمر الغريب الذي يجري خارج العمارة التي يحرسها. كان على دافني أن تظل مختبئة محشورة تجثو على رصيف الإسفلت القوي لتعاني الألم الجسدي والنفسي. وعلى رغم التعب، صممت على عدم إعطاء بروس الفرصة ليراها ويشمت بها؛ لن تدع الجندي البائس ينتصر عليها.

ووصلت الشرطة وبدأ البحث عن مصدر الحركة الغريبة التي تحدث عنها بروس، وبعد مدة قصيرة عثر رجال الشرطة على امرأة محشورة بين السيارات دون سبب واضح لتصرفها. عندما رآها بروس هز رأسه وصرخ قائلاً: دافني، ما الذي دفع بك لتختفي بين السيارات؛ إن كان عندك غرض في موقف السيارات، فلماذا لم تطلبي مساعدتي؟

وظهر الحرج على وجه دافني وظلت ترتعش من الخجل وبدأت في جمع ما تناثر من أشياء من حقيبتها التي انفتحت أثناء وقوعها على الأرض، مثل محفظتها ومذكرتها ومشطها العاجي الصغير وزجاجة العطر الجديدة. وحاولت ترتيب ملابسها وزينتها لتظهر بمظهر لائق أمام رجال الشرطة، الذين ظلوا ينظرون لها في دهشة واستغراب. وبعدما استجمعت قواها، قالت لمن كان حولها: لقد كنت بين السيارات لجمع الأشياء التي تناثرت من حقيبتي؛ تعثرت ووقعت على الأرض بينما كنت أمر بين السيارات.

وظلّت تنظر للشرطة والعرق ينزل من جبينها وكل جسمها وأنفاسها تلهث وصوتها يتحشرج، ثم قالت: أبحث عن ساعتي لأنها ساعة فكتورية ثمينة وهي من الذهب الخالص، لكن حتى الآن لم اعثر عليها. هنا أدركت الشرطة أن هناك أمراً آخر غير الساعة ومحتويات الحقيبة دفع بالسيدة المحتشمة لتختفي بين السيارات؛ نظروا إليها في ريبة لأن ساعتها الذهبية الصغيرة التي تتحدث عنها كانت على معصمها.

وقال أحدهم مشيراً بيده إلى الساعة: لكن ساعتك يا سيدتي على معصمك، انظري إليها.

وقالت وهي في ارتباك وحرج: كم أنا مغفلة لأن ساعتي كما تفضلت وقلت على معصمي. لا تلوموني لأن رأسي مليء بالأفكار والأشياء التي يجب القيام بها اليوم؛ هذا ما أدخلني في فوضى محرجة.

حاول رجال الشرطة عدم إحراجها أكثر فمد أحدهم يده لمساعدتها على النهوض ومغادرة المكان. وغمر بروس شعور بالفوز

على دافني وقال في شماتة واضحة: آنسة دافني، أرجوك إن وقع منك شي مرة أخرى مثل طقم أسنانك الاصطناعية أو محفظتك، أخبريني كي أساعدك. إن إدارة العمارة تدفع لي كي أساعد السكان وزائري العمارة على السواء؛ إن لم أفعل ذلك، وقعت في مشكلة إدارة مع المبنى. وعلى هذا، يجب ألا نضيع وقت الشرطة في مسائل تافهة مثل ما حدث الآن؛ فقط اطلبي مساعدتي.

وقالت وقد تجهم وجهها من شماتته: لا أظن أنني سأكون في يوم من الأيام في وضع يجعلني أطلب المساعدة من رجل مثلك؛ كن على يقين من ذلك. قالت هذا وهرولت في طريقها إلى داخل العمارة، لكن قبل أن تتوارى في المصعد، تبين لها من بعيد المدخل الخلفي للعمارة المسمى بالمدخل التجاري. قالت في ذهنها: سأحاول استخدامه للدخول في زياراتي القادمة؛ إنه بعيد عن عيون بروس وأي متطفل آخر.

وفي زيارتها التالية، أتت إلى العمارة وهي متأهبة لاستخدام المدخل الخلفي للعمارة كما نوت أن تفعل. وعند وصولها، قامت بدورها المعتاد وهو التلصص على بروس ومحاولة التخفي كي لا يعرف شيئاً عن نيتها في استخدام المدخل الخلفي للمبنى. وهي في طريقها إلى المدخل الجديد بخفة وحذر، بدأت السماء تمطر بغزارة وذلك ما لم تكن تضع له حساباً حيث لم تكن تحمل مظلتها. وقفت لبرهة داخل الممر الضيق المظلم المؤدي إلى باب المدخل في انتظار توقف المطر. وفجأة بدأت رائحة نتنة تتسرب إلى أنفها من القمامة التي تملأ البراميل الموضوعة في نهاية الممر. بجانب البراميل، هناك قطط ضالة كثيرة تلعب وتقفز على أغطية البراميل في محاولة يائسة لفتحها واصطياد الفئران التي تقبع بالداخل؛ القطط

أحدثت الرعب في نفس دافني وزادت من توترها.

وبدأت ترثي نفسها وتقول: هل مكانتي في الدنيا انحدرت إلى مستوى يجعلني أدخل من الأبواب الخلفية وأمرّ عبر القمامة والقطط المتوحشة ورائحة القمامة النتنة؟ وواصلت سيرها نحو باب المدخل القذر ودفعته في محاولة لفتحه لكنه كان مغلقاً بالمفتاح. كادت تصرخ من الصدمة وقالت بصوت مسموع: حظي عاثر ويومي مشؤوم. وظلت لفترة قصيرة من الزمن واقفة أمام الباب وهي في حيرة شديدة من الذي بها فعله. إلا أنها شعرت بخوف شديد من أن يسمعها أحد السكان وتعرض نفسها لفضيحة أخرى وتوفر فرصة لبروس للشماتة بها والسخرية منها. من دون شك، بروس في شوق عظيم لفضح دافني، قررت أن تخيب أمله وتسفّه أحلامه وألا تظهر أمامه ليضحك عليها ويشمت بها.

وبينما هي تخطو نحو الباب، وقعت عينها على قطتين سوداويين شكلهما متعب وشعرهما منكوش وجلدهما ممزق. وقفت القطتان وحدهما بعيداً عن القطط التي تتعارك من أجل الطعام في براميل القمامة أمام الباب. وفي محاولة لتجنب النظر للقطتين، نظرت دافني في الاتجاه المعاكس فرأت سلّماً حلزونياً طويلاً يستخدم لدخول العمارة في حالات الطوارئ. وأدركت فوراً أن الحل يكمن في استخدام هذا السلم للوصول إلى شقة ناجي، على الرغم صعوبة من صعوده بسبب علّوه وثقل وزنها.

إلا أنها فضلت ركوب الصعاب على رؤية وجه بروس المتهكم العبوس. لذا رفعت فستانها إلى أعلى استعداداً لتسلق السلم فشعرت ببروده الطقس على فخذيها وأسفل بطنها. وحاولت

تجاهل البرد وخطت الخطوتين الأولى والثانية، وعندما شعرت بالتعب، خلعت حذاءها وواصلت التسلق. ثم شعرت بوخز الحجارة الصغيرة تثقب جواربها الحريرية وتطعن قدميها؛ لم تكترث للطعن المؤلم ولا للثقوب التي أصابت جواربها الغالية. وقالت: هذا أهون من الفشل، ومن الضروري إنجاز المهمة التي أمامي. وألقت نظرة سريعة على الأرض ورأت القطتين وهما تنظران إليها بعيون خضراء مخيفة. وواصلت التسلق، إحدى يديها على السلم البارد واليد الأخرى تحمل ما معها من أغراض.

وعندما وصلت الدور الأول، نظرت إلى الباب وتنفست الصعداء لأنها حققت غايتها بنجاح. ودفعت الباب على يقين من أنه مفتوح، إلا أن الباب كان مغلقاً. لعنتْه واستجمعت قواها من جديد وواصلت التسلق حتى الدور الثاني ودفعت الباب لكن الباب كان مغلقاً أيضاً. وشعرت بقسوة البرد تلفح فخذيها، وشعرت بألم في قدميها بسبب الحجارة والأوساخ والتراب التي التصقت بجواربها. وواصلت التسلق وهي في غاية التعب والإجهاد حتى الدور الثالث، ودفعت الباب الذي كان هو الآخر مغلقاً.

وواصلت الصعود حتى الدور الرابع الذي وصلته وهي منهكة وفي حالة من الإعياء والغثيان. وقبل أن تستعيد توازنها، انسلّت من تحت إبطها فردة حذائها وهوت إلى القاع فوقعت على رأس إحدى القطط أسفل السلم. كادت أن تجنّ من الهلع والغضب والعناء؛ صرخت: لا أصدق، حظي عاثر ولعين. وتمالكت نفسها وأمسكت السلم ورأسها يدور؛ أفرغت محتويات بطنها فوقع القيء على حذائها وعلى القطتين تحت السلم. وشعرت بحزن شديد

ونزلت دموعها من عيونها بغزارة ولعنت القدر الذي أعطى الفرصة لبروس ليكون حارساً على العمارة.

ولعنت فردة الحذاء وظنت أنها ستقع هي كما وقعت فردة الحذاء وتنتهي حياتها بصورة مؤلمة ومأساوية. وبتراخ دفعت الباب؛ على خلاف أبواب الأدوار الأخرى، انفتح أمامها وبسهولة ويسر. وتنفست الصعداء وشكرت ربها على النعيم الذي أسبغه عليها وأوصلها إلى بر الأمان وحقق لها أمنيتها. وبدأ جسدها يرتجف تلهفاً للراحة والهدوء؛ دخلت بنصفها العلوي لتضع أغراضها على الأرض وترتاح قليلاً، إلا أن الباب انسدّ بقوة وأمسك بفستانها من الخلف. وشدت جزء الفستان العالق بين طرفي الباب بعصبية في محاولة لتخليص نفسها من قبضة الباب المحكمة، لكن القبضة مزقت قطعة كبيرة من الفستان.

وبعد أن تمالكت بعض قوتها، بدأت مسيرة النزول على السلم لتلتقط فردة حذائها؛ لم ترد أن يراها ناجي بفردة حذاء واحدة. عادت إلى أسفل مرة أخرى وبصعوبة التقطت فردة الحذاء القذرة وعادت بها متسلقة السلم إلى أعلى والإعياء يكاد يقتلها. ووصلت أخيراً إلى شقة ناجي وهي مهزوزة البدن حافية القدمين مصفرّة الوجه وتعاني من التعب والإرهاق. عندما رآها، أدرك ناجي أن أمراً ما قد حل بها.

وقال: ماذا ألمّ بك يا دافني؛ الظاهر أنك تعبت في المجيء إلى هنا اليوم؟ كان على ثقة من أن المسافة التي تقطعها تسبب لها التعب الشديد، على امرأة في سنها الراحة التامة كل يوم أحد بدلاً من الجري كما تفعل. دافني كانت خائفة أن يطلب منها ناجي عدم المجيء لزيارته الأسبوعية.

لم يقل لها شيئاً من هذه الأفكار لكنه لاحظ الشرخ الذي في تنورتها، ولاحظ حذاءها المتسخ فأحس بالشفقة والعطف تجاهها.

وحاولت دافني التستر على حالها وعدم البوح بما حدث لها على سلم العمارة، لذلك لم تتردد في القول: الحافلة التي أستقلها إلى هنا، توقفت اليوم على بعد مسافة محطتين لذلك قطعت المسافة مشياً على الأقدام فاتسخ حذائي.

قال: دعيني أساعدك في خلع ردائك؛ اذهبي لتستحمي وتجددي نشاطك ومن ثم نتناول وجبة الغداء. وانتبهت إلى أمر تنورتها وأرادت إخفاء الحقيقة عنه، فرفضت أن يساعدها على خلع ردائها حتى لا يظهر له الشرخ. ومن دون مشاورتها ملأ لها حوض الاستحمام بالماء وساعدها على الدخول فيه ثم أعطاها قرصي أسبرين وكوب شاي ساخن إذ أحس بارتفاع حرارة جسدها. وبدأ في إعداد وجبة طعام خفيفة من اللحم البارد والجبن والسلطة والخبز والزبد، مع كأسين من النبيذ الأحمر.

وبعد عشر دقائق من دخولها الحمام، سمعها تنادي عليه ليساعدها في الخروج من الماء؛ لاحظ أنها في حالة مزرية وصحة متدهورة. لم تستطع الجلوس معه لتناول الغداء بل فضلت الراحة في السرير وطلبت منه استدعاء الطبيب لإعطائها دواء يخفض الحرارة الشديدة التي عمت جسدها بكامله. وبقيت في السرير حتى اليوم التالي ولم تستطع الذهاب إلى العمل.

وواصلا اللقاء يوم الأحد حسب الاتفاق المبرم بينهما. وبدأت دافني تتقدم في العمر يوماً بعد يوم وتزايدت التجاعيد على وجهها وترهلت عيناها وذبلت بشرتها؛ يبدو المستقبل أمامها قاتماً مكفهراً

بينما ترى أن ناجي هو آخر أمل لها في السعادة والاستقرار. تحاول دافني جاهدة إخفاء زحف العمر بوضع المزيد من مساحيق التجميل؛ تدخل الحمام وتضع كميات كبيرة من المساحيق على بشرتها وتسوّي شعرها.

كان الواقع يحتم أن تذهب إلى دار العجزة عندما لا تستطيع الاعتناء بنفسها، وهو أمر يخيفها لدرجة الهوس والجنون. ففي بيت العجزة، تعي فقدان حريتها واعتمادها على نفسها؛ دافني تخوض معركتها الأخيرة وتمسك بآخر خيط من خيوط السعادة.

وبالرغم من خوفها وضعفها، تقوم بممارسة هوايتها المفضلة في الغناء الأوبريتي؛ تغني لناجي أغاني شهيرة مثل «ملكة الليل». ويستمع هو للغناء في هدوء على الرغم من عدم ميله للأغاني الأوبريتية. ومرات تقرأ له من مقالات احتفظت بها عن السياسة والاقتصاد والموسيقى، وتقرأ له من صحف ومجلات الأحد.

وكانت تتمنى لو بقيت في أحضانه حتى يوم الاثنين حيث يذهبان معاً للعمل، أمام سمع بروس وبصره حتى يفيض به الغيظ ويقتله الكمد. لكن ذلك مستحيل فهي تخاف إن أصرت على البقاء في الشقة، أن يغضب ناجي ويمنعها من المجيء في يوم الأحد كلياً.

مما لا شك فيه، أن وجود دافني في حياه ناجي أفقده الكثير من الفرص ودفع به وسط دوامة لم يحسب لها حساباً ولا توقعها. تصور أن لندن ستكون مكاناً يجد فيه شتى أنواع الملذات الخاصة التي سبق له أن حرم منها أثناء وجوده في الضواحي الجافة؛ لندن ستفتح أمامه مجالاً للعيش يتميز بالنشاط والحيوية. لكن الأحداث حالت دون تحقيق أحلامه وآماله، فهو لا يزال من دون علاقة

خاصة وحياته ما زالت مكبلة برتابة العمل التي تتكرر يوماً بعد يوم. مخرجه الوحيد هو ساعات المساء عندما يلازم الكأس وزجاجة النبيذ الأحمر. ولكم تمنى أن يقع حدث، أي حدث، ليخرجه من الركود الذي يخيم على حياته ومشاعره.

والشيء الآخر الذي وجد فيه العزاء هو نجاحه الباهر في العمل والوظيفة. فقد صار اسمه من ألمع الأسماء الصحافية في لندن وصفحته من أهم الصفحات الاقتصادية على مستوى بريطانيا كلها.

لقد أثارت مقالته الأخيرة جدلاً واسعاً في الأوساط الصحافية والاقتصادية والسياسية. موضوعها كان عن قروض البنك الدولي التي يقدمها للدول النامية، وما يدور من جدل حول إيجابيات تلك القروض وسلبياتها على مجتمعات الدول المستقبلة للقروض. النقطة التي دار حولها الحوار بالذات هي مطالبة البنك الدولي للدول النامية بتطبيق وصفات اقتصادية متزمتة يضعها اقتصاديو البنك نفسه، الذين وصفهم بأنهم يعيشون في أبراج عاجية بعيداً عن واقع المجتمعات النامية. وانتقدهم أشد النقد لأنهم، وعلى الرغم من بعدهم عن الواقع، يتحكمون في اقتصاد الدول الفقيرة ويحثونها على السير في نهج هدفه زيادة فوائد المشاريع التي مولتها القروض وأرباحها.

كذلك أنتقد المقال البنك الدولي لأن سياساته تؤثر سلباً على معيشة الناس العاديين وتسلبهم ضروريات الحياة مثل الماء والصحة والتعليم والمأوى. ووصل الحد لدرجة التحكم في الماء الذي تم تسجيله سلعة استهلاكية مثله مثل سلع الاستثمار والتجارة التي تخضع للبيع والشراء. وقد أدت تلك السياسات إلى تجريد الفرد العادي من قدرة

الحصول على لوازم الحياة وضروراتها؛ صار همّ البنك الدولي هو جني الفوائد والأرباح من القروض التي تمنح للدول الفقيرة.

وإذا رفضت دولة ما المشي على حسب خطط البنك، يقول المقال، تتعرض للعقاب الاقتصادي والذي يشمل حرمانها من القروض والمساعدات المالية وعون الإغاثة، حتى في حالات الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والأعاصير والبراكين والزلازل. ويحدث ذلك في الوقت الذي تكون هذه المجتمعات في أمس الحاجة للمساعدات لتخرج من العوز والتعرض للهلاك، فالدول لا قدرة لها على مواجهة الصعوبات والعقبات. ونتيجة لذلك، يرتبك الفرد في معيشته وضرورات حياته ويفقد أبسط حقوقه كإنسان؛ البنك الدولي يربط الأمور بمؤشرات اقتصادية جافة وبعيدة عن المعاناة التي يعيشها الفقراء. يطالب الحكومات بتطبيق وصفته تحت أي ظرف من الظروف ومهما كانت قسوتها وتأثيرها على الأفراد والمجتمعات، تأثيرات تؤدي إلى تقلبات عاصفة في مجالات شتى منها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري.

والبنك الدولي لا يتدخل لحل المشاكل التي تسببها خططه وسياساته، كما كتب في المقال. كل ما يهمه هو أن تسدد الدول القروض مضافةً إليها الفوائد والغرامات التي تفرض عليها حينما تعجز عن السداد حسب الجداول الصارمة التي يضعها مسؤولو البنك. ومما يزيد الأمور تعقيداً هو أن البنك يحرم حكومات الدول الفقيرة حق التدخل لمساعدة القطاع العام والطبقات الفقيرة للخروج من المصاعب المالية الناتجة من سياسته، ولو كان التدخل يعد من الضروريات الملحة.

إضافة إلى ذلك، تطرق المقال إلى مناقشة اعتماد الاقتصاديات

العالمية بعضها على بعض وصعوبة عمل أي اقتصاد على انفراد. لكن الاقتصاد العالمي يعاني من عدم التوازن بين الدول الغنية والدول الفقيرة. ومن الضروري أن تتم معالجات للتخلص من العوامل التي تعوق الدول الفقيرة وتكبل مسيرتها نحو التقدم والتنمية. الأسواق الاقتصادية العالمية تعطي الدول الغنية الفرصة لبيع سلعها بالأسعار المطلوبة وجني أرباح طائلة، بينما الدول الفقيرة تواجه صعوبات في تسويق منتجاتها وبيعها. والدول الفقيرة ترزح تحت إغراق سلعي من الدول الغنية، فيما تجد صعوبة في بيع سلعها من الخامات الطبيعية بأسعار مجزية مقارنة بالتكلفة التي تدفعها في عمليات الإنتاج والتصدير. وقد أدى عدم التوازن في الاقتصاد العالمي لخلق واقع مرير في حياة شعوب الدول الفقيرة في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

ويقول المقال: كثيراً ما غضبت الشعوب الفقيرة وخرجت في تظاهرات عارمة لتحتج على هذا الاختناق الاقتصادي والتعسف السياسي الذي يعانون منه، مشاكل ناتجة من احتكار الدول الغنية وضغوطها على الدول الفقيرة ومجتمعاتها.

ويمضي ليقول إن الدول الغنية نفسها قد بدأت في الآونة الأخيرة تعاني من اضطرابات اجتماعية وإضرابات عمالية بسبب السياسات الاقتصادية الخاطئة التي تنتهجها الحكومات. لقد تعرض الشعب في الدول الغنية، نتيجة لجور الأسواق العالمية، إلى نقص في المعيشة وارتفاع في أسعار المواد الاستهلاكية مثل مواد الطعام ومشتقات الطاقة.

لذلك يؤكد على ضرورة أن يقوم البنك الدولي والدول الغنية بمراجعة عميقة وجدية لواقع الاقتصاد العالمي وقضية القروض

بهدف وضع أسس جديدة تخدم جميع دول العالم وشعوبه وتعمل على تعميم الرخاء والتنمية. وينادي بمراجعة عاجلة لما يحدث في قطاعي الزراعة والبترول، حيث تقوم الدول الغنية بشراء خامات الزراعة والبترول بأسعار زهيدة وبعد تصنيعها تعرضها على الدول المنتجة بأسعار باهظة تعجز عن دفعها. نتيجة لذلك الخلل، لا تعود الخامات الطبيعية والزراعية المصدرة للأسواق العالمية من الدول الفقيرة بالفائدة المرجوة للمزارعين والعاملين والمنتجين. وتحدث الاضطرابات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في دول العالم الفقير وتؤدي إلى نتائج فادحة تتمثل في العوز المستمر وانعدام الاستقرار السياسي وضعف البنى الأسرية والنفسية، كما تؤدي لخلل كبير في الخدمات الصحية والتعليمية والبيئية.

ونتيجة طبيعية لضعف الدول الفقيرة، يقول، تحدث ظاهرة الهجرة المكثفة من تلك الدول نحو الدول الغنية. الهجرة تؤثر سلباً على الدول الفقيرة وعلى الدول الغنية وتخلق أوضاعاً مأساوية للمهاجر نفسه ولأسرته ومجتمعه. يجب على المجتمعات الغنية أن تضع مشاكل الدول الفقيرة في الحسبان وتعمل على ردم الفجوة الكبيرة التي تفصل بينها وبين الدول الفقيرة، من أجل عالم تسوده قيم السلام والاستقرار والحرية والعدالة.

ويحذّر من أن تجاهل الفجوة التي تفصل بين العالم الغني والعالم الفقير، تخمة في مكان وعوز في مكان، لن يحقق السلام بل سيؤدي لحركات عنيفة تطالب بحقوقها في الغذاء والعدالة والحرية فيخسر الجميع. ويؤدي غياب العدالة السياسية، مثل حالة فلسطين، إلى العنف السياسي الذي يضر بمنطقة الشرق الأوسط والعالم بأسره؛ يجب حسم القضية كما حسم أمر العنصرية البيضاء في

جنوب أفريقيا. وقدم أمثلة لقضايا سياسية تؤثر على العالم، مثل كوبا وأميركا، سببها محاولة الدول الغنية التدخل في الشؤون الداخلية للدول الفقيرة والسيطرة على مقدراتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

وبعد أسابيع من نشر المقال، طلب رئيس التحرير من ناجي الحضور لمقابلته وأبلغه أن إحدى الجرائد في دولة أفريقية عرضت على الصحيفة إعارته لمدة أشهر ليدقق في بعض الأمور المتعلقة بمحتوى المقال ويقدم نصائح في ميادين أخرى تتعلق بالضائقة الاقتصادية التي تمر بها الدولة. وأخبره أن العرض سيكون مفيداً من حيث إن المعلومات التي يجمعها ناجي يمكن توظيفها في كتابة المزيد من المقالات.

وقال رئيس التحرير لناجي: أريد معرفة رأيك في الأمر، أرى أنه من المفيد لك ولنا ولهم أن تقبل العرض وتذهب لترى تجربة جديدة في الدولة الأفريقية.

قال ناجي: الفكرة جيدة لكن أعطني مهلة لمدة يوم أو يومين لأفكر وأعود لك بالجواب.

غمرته السعادة عندما سمع بالعرض المقدم له من الجريدة. فكر في أنه سيذهب إلى مكان تحدث فيه الأحداث التي يكتب عنها؛ سيعزز نظرياته التي كوّنها عن طريق القراءة والتأمل في موضوع شغل فكره زمناً طويلاً. أثناء وجوده في دولة فقيرة سيتعمق في لب الأمور ويلاحظ التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ لقد سبق له أن فكر في التدريس في إحدى جامعات العالم الثالث حتى يجد فرصة لدراسة الاختلافات الاقتصادية والسياسية بين

المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية.

لقد جاءت فرصة كبيرة لتحقيق مهمة طالما تاق للقيام بها منذ أن كان طالباً بالجامعة. سيكتب عن المجتمع الفقير ويقارن بينه وبين التطورات التي تجري في العالم الغني، وسيدرس سبب الفوضى الاقتصادية والسياسية الموجودة في الدول الفقيرة. وسيركز بصورة خاصة على أسباب الانقلابات العسكرية المستمرة التي تعصف بالدول الأفريقية والتدهور التعليمي والصحي والثقافي والإعلامي؛ لعله يصل إلى جواب مقنع لأسئلة أرّقت الباحثين والأكاديميين لسنين عديدة. أضف لذلك، الذهاب خارج بريطانيا سيساعده في الابتعاد عن الوسط الممل الذي يعيشه في لندن وسيجنبه اللقاء الأسبوعي الذي يجمع بينه وبين الآنسة دافني.

وفي يوم السفر لأفريقيا، لم تكن في خياله صورة واضحة عن الحياة التي سيعيشها في المجتمع الجديد، ولم يكن يعرف شيئاً عن الشخصيات التي سيتعامل معها، كل ما عرفه هو أنه سيعمل في صحيفة ويسكن في مبنى يقع بقلب العاصمة وسيكون له من يخدمه ويهتم براحته. وفي الحقيقة، لم يتصل أي مسؤول من الصحيفة ويزوده بمعلومات، لكنه عرف تلك المعلومات الشحيحة من عرض العمل الذي وصله من إدارة الصحيفة.

وهكذا ركب الطائرة وتوجه نحو أفريقيا، عالم آخر جديد ومليء بتوقعات واحتمالات عديدة لا حصر لها. في الطائرة جلس بجانب رجل هادئ الطباع لم يتكلم معه ولم يُبد اهتماماً في التحدث معه أو معرفة اسمه أو الجهة التي يقصدها. لكن الوضع تغير بعد دقائق من إقلاع الطائرة، وذلك عندما وقعت حقيبة الرجل من خزانة الأمتعة وحطمت كؤوس الخمر والأواني التي

على الطاولة. كادت الحقيبة أن تضرب ناجي وتسبب له أذى إلا أن لطف الله وتدخل مضيفة الطائرة حالا دون حدوث ذلك.

الحادث سبب ضجة في الطائرة وبعض الهلع لمدة من الزمن، لكنه أخرج الرجل عن صمته حين قال لناجي: أنا آسف فالحقيبة سببت الكثير من المشاكل ونحن معلقون بين السماء والأرض. أخبر الرجل ناجي أنه تاجر أقمشة وشرح له أعماله التجارية ومشاريعه الآتية، وأطلعه على أسماء الذين يعرفهم من التجار. كذلك طلب منه الاتصال به وزيارته في بيته بعد استقراره في البلد.

وصلت الطائرة، ومن الوهلة الأولى تبين له اختلاف كبير بين لندن والمدينة التي حط رحاله فيها، فقد لاحظ اختلاف المطارين. مطار لندن معروف بنظامه وكفاءة العاملين فيه لكن ما يراه أمامه شيء مختلف غاية الاختلاف. في هذا المطار، الركاب يحملون أمتعتهم من الطائرة لداخل مبنى المطار بأنفسهم وبجانبهم تحوم أعداد غفيرة من الشباب بغرض الحصول على مبلغ زهيد لقاء تقديم أي نوع من المساعدة والخدمة؛ بعض المسافرين يعطونهم شيئاً من المال ويطلبون منهم حمل الأمتعة من صالة المغادرة حتى السيارات الواقفة بالخارج وبعضهم ينفرون منهم ويتجاهلونهم.

حرارة الطقس مرتفعة للغاية لدرجة شعر كأن وجهه سينكمش، الجو خانق كأنه قاع السعير نفسه. ولاحظ أن زجاج نظارته الشمسية طفق يعوم وسط رذاذ الرطوبة المحيطة بالمكان حتى اضطر لخلع النظارة وتنظيفها المرة تلو الأخرى ولكن دون جدوى، لا مفر من الرطوبة الخانقة الرهيبة. وهناك أصوات كثيرة تتداخل في تنافر يصم الآذان، هدير الطائرات وأصوات المسافرين القادمين والمغادرين وصراخ الأطفال والباعة الذين

يعرضون سلعهم بأصوات عالية، يبيعون زهوراً ذابلة وكريم الثلج ونظارات شمسية وأوراق اليانصيب. يعرضون عليك بضاعتهم الفاسدة ويصرون على الشراء وإن كنت لا ترغب في عروضهم، وكأنهم لم يسمعوا بالنظرية الشهيرة التي تصف علاقة بين العرض والطلب.

وفي وسط الزحمة المربكة، خطر له سؤال هام وملح: هل هذا هو النجاح والتقدم الاقتصادي الذي يتحدث عنه البنك الدولي من خلال المؤشرات الاقتصادية التي يضعها ويطالب حكومات هذه الدول بتطبيقها ضمن برامج القروض التي يقدمها؟ هل هذا الذي يراه أمامه يشير إلى أي درجة من درجات النجاح الَتي تتحدث عنها تقارير البنك الدولي المكتوبة على أوراق سميكة ومصقولة؟ وخطر له الفرق الكبير الموجود بين واقع المطار المزري، وما يُكتب في تقارير وكتيبات البنك الدولي والمنظمات الغربية عن أفريقيا؛ من أين أتوا بتلك التقارير المنمقة؟

وواصل النظر إلى الأعداد الغفيرة من الناس وظهر له المكان في غاية الفوضى والبؤس. الأجسام ضعيفة البنى والوجوه كالحة الملامح والملابس بالية؛ هل هذا هو الإنسان الذي تعمل من أجله الجيوش الجرارة من موظفي البنك الدولي ومنظمات التنمية الكثيرة الموجودة في القارة السمراء؟

لم يكن يحمل الكثير من الأمتعة فكل ما لديه عبارة عن حقيبة ملابس صغيرة وآلة تصوير وكيس فيه كتب ومجلات أسبوعية وجرائد يومية. طلب من أحد الشباب الذين يدورون حول المكان أن يحمل حقيبته ويساعده للوصول إلى داخل المطار لختم جواز السفر وإكمال إجراءات الوصول ودخول البلد. وفعل الشاب ما

طلب منه وأوصله إلى طابور طويل ومتعرج، لكن الكثير من المسافرين لا يلتزمون بالنظام ويدخلون في الطابور ويخرجون منه حتى أصبح من المستحيل أن تعرف أين موقعك من طوفان البشر ومتى تصل لمكتب مسؤول الجمارك والجوازات. عدد كبير من الرجال هم شرطة المطار يتصادمون مع الركاب في محاولة يائسة لتنظيم الطابور وضبطه، لكن الحال لم تتغير أو تتحسن.

وصل إلى أحد الصناديق الزجاجية الصغيرة الموزعة على صالة الوصول؛ بداخلها جنود عابسون وأمام كل واحد رزم من الأوراق يعاملها بإهمال وقلة اكتراث. العرق على كل الوجوه والأجساد، حينها أدرك أن مكيفات المطار جميعها معطلة وأنه لا فكاك من الحر والرطوبة في البلد الذي حط رحاله فيه.

قدم جوازه للشرطي الشاب الذي أمامه فأخذه منه وبدأ يدقق في أوراقه، الورقة تلو الأخرى ليتبين إن كان الجواز مزيفاً أم لا. الشرطي كان في شك كبير من كل شيء، لذلك انهال عليه بأسئلة عديدة ليتأكد إن كانت تأشيرة الدخول صحيحة أم مزورة. وبينما ينتظر قرار الشرطي، لاح له منظر المسافرين وقد خلعوا ستراتهم وقمصانهم وبقوا بسراويلهم في محاولة مستميتة لتفادي الحر الشديد والرطوبة الخانقة.

وأرجع له الشرطي جواز سفره، وطلب منه الذهاب مع جندي آخر إلى حجرة فرعية ليقابل كبير ضباط الجمارك المسؤول عن صالة القادمين. ذلك الطلب سبب له خوفاً شديداً إلا أنه امتثل للأوامر ومشى خلف الجندي حتى دخل حجرة صغيرة ذات جدران عالية، وظل واقفاً في صمت ينتظر وصول الضابط المسؤول. تمعن في الحجرة فرأى طاولة صغيرة. حجم الطاولة الصغيرة تلك قلل من

هيبة المكان في نظره. رأى على حيطان الحجرة الأربعة مجموعة صور زيتية لرئيس الدولة؛ الصورة الواحدة تغطي الحائط بأكمله حتى بدا كأن المكان زنزانة تعتقل الرئيس ذاته ولا تعتقل من بالزنزانة. وصور الرئيس تنتشر في كل مكاتب المطار وردهاته.

شعر بالارتباك لأنه لم يكن يعرف الغرض الذي جُلب من أجله للحجرة الصغيرة. أوراقه جميعها ختمت قبل مغادرته لندن، وتأشيرته تحمل الأختام والشروط المطلوبة لدخول البلد. لذلك، قرر أن يتمالك أعصابه ويتفادى الدخول في مشاكل مع الجنود المدججين بالسلاح. لم يسبق له أن امتلك أي قطعة سلاح أو استعملها أو اقترب منها؛ الآن يجد نفسه وجهاً لوجه مع الأسلحة التي تنتجها المصانع الأميركية والأوروبية والروسية والصينية.

وبعد انتظار لأكثر من ساعة، دخل ضابط ومعه جنديان من صغار السن. خلع الضابط قبعته فظهر لمعان شعره الأبيض بجانب لمعان أزراره النحاسية. أدى الضابط التحية العسكريةَ لصورة من صور الرئيس بإخلاص وجدية وكأنما هو يرى الرئيس بشحمه ولحمه ولا يرى مجرد صورة أمامه. بعد ذلك قدّم أحد الجنديين للضابط رزمة أوراق حزمت بحبل رقيق، تناولها الضابط ورماها على الطاولة، وزفر زفرة عالية، ثم أخذ مكانه على المقعد خلف الطاولة الصغيرة وبدأ يقلب الأوراق. وتناول من جيبه قلماً وبدأ يدون بعض المعلومات بينما كان الجنديان بقربه، واحد على يمينه والآخر على يساره. نظر الضابط لبنادق الجنديين المرفوعة وكأنه يود أن يحرضهم على التأهب لأمر خطير سيصدر منه بين لحظة وأخرى.

قال الضابط موجهاً كلامه لناجي: وما أتى بك إلى بلد رئيسنا العظيم؟

ردّ بصوت خافت أقرب للهمس: أنا صحافي أعمل بصحيفة مرموقة في بريطانيا جئت إلى بلدكم باتفاق مع صحيفة محلية في عاصمتكم.

وقال الضابط: وما الذي تريد أن تنقله عن بلدنا الأمين مما لم تنقله صحفكم والصحف العالمية الأخرى؟

قال: أردت أن أنقل الأخبار الحقيقية عن بلدكم والتعرف إلى طريقة التحرير والنشر واختلافها عن الطرق المتبعة في بلدي خصوصاً في صحيفتي في لندن.

قال الضابط: وماذا في هذه الأكياس التي تحملها؟

قال: كتب ومجلات أسبوعية وبعض الجرائد اليومية التي اشتريتها من مطار هيثرو قبل مغادرتي، عندي آلة تصوير كذلك.

قال الضابط: نحن لا نسمح بدخول الكتب قبل معرفة مضمونها، لذلك دعها وسنحفظها لتأخذها عند مغادرتك هذا البلد الكريم.

وتناول الضابط الأكياس من الجندي الواقف على يمينه وأودعها في درج من أدراج المكتب. ثم أخبره الضابط أن باستطاعته استئناف إجراءات الخروج من المطار. أومأ الضابط برأسه للجنديين وأدى تحية الوداع العسكرية لصورة الرئيس، وفتح الباب وخرج ومعه ناجي والجنديان، فإذا بهم يجدون أنفسهم مرة أخرى بين جموع المسافرين والباعة المتجولين. وبينما كان ناجي يقترب من الباب الخارجي للمطار، سمع طلقات رصاص علا صوتها على ضجيج الناس، فانتابه رعب شديد، وتراجع إلى الخلف في محاولة للاحتماء بحائط المبنى. وبعد برهة، وجد نفسه ومعه قلة من المسافرين الأجانب يتصرفون بخوف ويحاولون حماية أنفسهم من

الرصاص المنهمر. هرع داخل المبنى وسأل أحد الجنود عن سبب إطلاق النار، قيل له هي مناوشات بين القوات الحكومية وقوات المعارضة التي تسعى لإطاحة النظام الحاكم؛ أمر طبيعي يحدث باستمرار وعليه التعود عليه.

خرج من مبنى المطار وقصد موقفاً لسيارات الأجرة، فنظر حوله ليجد عصابة من اللصوص تحاول سرقته. لذلك جرى إلى أول سيارة أجرة يجدها أمامه. ركب السيارة ونظر إلى وجه السائق نظرة تأمل؛ الرجل ذكّره بوالده. وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث. قال للسائق: أمركم غريب! كيف تعيشون على أصوات الرصاص، وكأن الأمر طبيعي؟

رد السائق: لقد تأقلمنا مع أصوات الرصاص حتى غدت جزءاً من حياتنا اليومية، الرصاص في كل مكان. كيف هو الوضع في بلدك، هل تتعاملون مع الرصاص بحميمية كما نفعل نحن؟

قال: إن الأمر يختلف تماماً في المجتمع الذي أنتمي إليه وفي المجتمعات الأوروبية كلها؛ فقد استبدلنا أصوات القنابل والبنادق بصيحات السلام والأمان، في جميع مناهج الحياة، حتى غدت أوروبا نموذجاً للسلام. عندنا، الأمان من أهم عناصر الحياة العصرية ولا مساومة حول دور الدولة في تثبيته وحمايته. لكن للأسف، كما يتضح لي الآن، فإن حرصنا على الأمان دعانا أن ندفع المخاطر إلى خارج عواصم بلداننا الأوروبية، وهذا ما يجري على مرأى ومسمع مني. فعلاً، صدّرنا المخاطر التي تهددنا للعالم الخارجي، خاصة إلى عالمكم المسكين؛ نحن صدرنا لكم السلاح ومعه البلبلة السياسية والانقلابات العسكرية والثورات المسلحة.

وقال السائق العجوز بإنكليزية ضعيفة: أنا سعيد بأنكم تشاهدون بأم أعينكم، كما رأيت أنت اليوم، الذي يجري في مجتمعاتنا البعيدة عنكم؛ انظر للجحيم الذي نعيش فيه. لا خوف عليك، لن يصيبك أذى لأنك ستعيش، في فترة إقامتك بيننا، في منطقة آمنة وبعيدة عن الخطر. فنحن لدينا مناطق كثيرة آمنة، كما هي الحال في بعض مناطقكم في أوروبا وأميركا، خصصت للأجانب أثناء وجودهم في بلدنا.

وأضاف السائق: دعنا من هذا، الآن سأسمعك بعض الموسيقى الإنكليزية التي أستمع لها عادة وأنا في طريقي من وإلى المناطق المختلفة في المدينة. هذه موسيقى ظللت أستمع لها على مدى سنين طويلة؛ على الرغم من تقدمي في العمر فحبي لها يزداد يوماً بعد يوم. أنا أحدثك عن أفضل الموسيقى التي تبث من المحطة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية.

وحوّل المذياع إلى هيئة الإذاعة البريطانية، وعندما سمع صوت المذيع يبث نشرة الأخبار، أغلق المذياع بسرعة ورجع للحديث مع ناجي. وقال: ما دام المذياع يبث الأخبار، من الأفضل أن أسمعك شيئاً من الموسيقى عبر مسجل السيارة، إنني على ثقة بأنك ستستمتع بصوت المغني الإنكليزي المعروف كات ستيفن، فهو على قمة الغناء في بريطانيا والعالم أجمع. هذا شريط طلبته من أحد الركاب البريطانيين عندما أوصلته للمطار. الرجل لم يقصر حيث أرسله بعد عودته لبلده بفترة قصيرة. إنني أبدأ عملي صباحاً بالاستماع لصوت هذا المغني ذي الألحان الشجية؛ ألست من عشاق كات ستيفن؟

قال ناجي: عموماً أنا أحب الموسيقى الحديثة، ومن ضمنها موسيقى

كات ستيفن، ذلك على خلاف أبناء طبقتي الذين يفضلون الموسيقى الكلاسيكية.

قال: دعنا إذاً نستمع إليه.

وانساب صوت كات ستيفن الحزين ليملأ أجواء السيارة بينما واصل السائق سيره من شارع لشارع. أما ناجي، فكان بين الحين والآخر ينظر إلى اليسار وإلى اليمين في محاولة لتكوين انطباع عن المدينة وسكانها.

وقال ناجي للسائق من دون تفكير مسبق: اعذرني لسؤالي، ألست في سن التقاعد؛ ماذا تعمل في السيارة وأنت في هذا العمر؟

قال السائق العجوز: ما هو التقاعد؟ كلمه التقاعد لا وجود لها في مجتمعنا، التقاعد كما يعرف في الغرب لم يصلنا بعد. في هذا البلد نعمل حتى آخر يوم لنا في الدنيا، والتقاعد بالنسبة لي شخصياً سيكون يوم أدفن تحت الثرى، ذلك هو يوم التقاعد. وحتى تلك اللحظة، ستستمر حياتي في سلسلة من العمل المتواصل من أجل سد رمقي، لأن التقاعد يا سيدي هو ترف يستحقه المنعمون في أوروبا والبلدان الغنية الأخرى. فكما قلت لا وجود للتقاعد في قاموسنا.

الكلام الذي قاله السائق أذهل ناجي الذي أعجب بصلابة الرجل وثقته في نفسه، تماماً كما هي عادة أبيه. قال ناجي: بالفعل، نحن نعيش في عالمين يختلف كل واحد فيه عن الآخر؛ لا أكاد أصدق أن الأوضاع عندكم على هذه الحال من السوء والبؤس والتردي. وأضاف بينه وبين نفسه: هذه الحقيقة ستكون مادة حية لكتاباتي

وتعليقاتي الصحافية أثناء إقامتي بينكم، كما ستنير طريقي لمعرفة أوضاعكم عندما أدافع عنكم في المستقبل.

قال السائق العجوز: اعذرني إن قلت ما سأقوله، إن كنت أتيت لتكتب عن أوضاعنا فلا فائدة من كتاباتك وكتابات غيرك، أنتم تأتون إلى هنا لتتندروا على واقعنا المؤلم كما أتصور، وعند عودتكم تنسون ما ترون وتنخرطون في حياتكم الرغدة. حتى الآن لم أسمع عن أي موضوع كتب في صحفكم قد أتى لنا بالخير أو أعاننا في مصيبتنا ومحنتنا ونحن في هذا الجزء المنسي من العالم.

ومضى الرجل في وصف حالهم بقوله: نحن نعاني من العوز والمرض والجهل. سمعت أن لديكم مجموعات ضغط وأحزاباً لمكافحة الفقر والتعسف السياسي والإرهاب العسكري والعبودية، ومعاونة الأطفال ضد مهانة العمل المبكر، وتقديم العون للأرامل وتحرير النساء ومحو الأمية والرفق بالحيوان. صدقني، لم أسمع أنكم قد وجدتم حلولاً لهذه المشاكل العديدة والعويصة.

وأضاف قائلاً: هذه الشعارات الإنسانية المغرية تأتي على ألسنة المذيعين الذين يطلّون من على شاشات التلفزيونات العالمية ونسمعهم في الإذاعات العديدة الموجهة للعالم الخارجي مثل المحطة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية. كذلك نسمع عمن يدافعون عنا من داخل قاعات الجامعات والبرلمانات والاجتماعات العالمية. أنا شخصياً لا أملك تلفازاً لكنني أذهب لمقهى يملكه صديقي في قلب العاصمة وأشاهد حوارات عن الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية التي نعاني منها، وأسمع الكلام الذي يقوله رؤساؤكم وأساتذتكم عن وضع حدّ لتردي الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية والفقر في أفريقيا وأميركا اللاتينية وفي بلدان وقارات

أخرى، فتصيبني حيرة شديدة. قل لي، ما الفائدة من كل هذه المناقشات المطروحة في بحوثكم إن كانت لا تصل لإجابات تعالج مشاكلنا المزمنة؟

وأضاف بقوله: لا رغبة صادقة لديكم في التخلص من المشاكل التي يرزح تحتها العالم؛ كل البحوث والندوات التي تجرونها غرضها واحد وهو متعة المشاهد الغربي البعيد كل البعد عن واقعنا وحياتنا العصيبة، وذلك من خلال عرض حالنا على الشاشات البلورية. إن ما تقدمونه خيال ولا علاقة له بالواقع المرير الذي نعيشه يوماً بعد يوم.

شعر بإحراج شديد من الكلام الذي سمعه من السائق وقال له: ما قلته يا سيدي كلام صائب لكن أختلف معك في نقطه واحدة. إنني أصر على الكتابة عما أرى وأسمع وسأعدّ نفسي ناجحاً إذا استطعت إقناع شخص واحد في العالم الغربي بحقيقة الأوضاع الموجودة عندكم. إنني أود من الناس في العالم الغربيَ أن يعرفوا الحقائق وأن يتولد عندهم الاهتمام بكم والرغبة في مساعدتكم، ذلك يتم عن طريق المقالات والتقارير الصحافية.

قال السائق: كم أنت متفائل يا بني، لكن دعني أخبرك بأن أناساً كثراً من العالم الغربي قد حضروا لبلدنا وصوروا حالنا واختلطوا بنا، ثم غادروا المكان وتركونا نسياً منسياً، بينما نحن ننتظر نتائج محاولاتهم. وكما ترى، الفقر ينخر في عظامنا دون رحمة؛ نحن نعاني من التقلبات السياسية والعسكرية والظلم والأمية والبطالة والأمراض المستعصية. بالرغم من وجود أدوية للأمراض التي نعاني منها في صيدليات ومستشفيات أوروبا وأميركا، فإنها لم تصلنا ونحن في أمسّ الحاجة إليها. ظل الطعام على موائدكم المترفة ولم

يصل إلى أيادينا المتضرعة وأفواهنا الجائعة. كيف تتصور أن تقريرك سيعالج هذه المعضلات؟

ثم أضاف السائق: لقد دخلت السجن عدة مرات في شبابي وذقت فيه التعذيب بأنواعه وتدهورت صحتي وفقدت حريتي. وكان السجن أفضل لي من حياة الذل والهوان، والرضوخ لما يقع أمامي من أوضاع لا أستسيغها ولا أقبلها. في ذلك الزمن، كنت عضواً في حزب المعارضة، وقد سمح لي مركزي أن أجري العديد من الحوارات مع أشخاص من أمثالك. هؤلاء الناس يزعمون أنهم جاؤوا لمساندتنا في تحقيق أهدافنا السياسية، وتحسين أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية والتطلع نحو غد أفضل، إلا أن وضعنا ظل كما هو. أرجوك، لا تقل لي إن في إمكانك تغيير حالنا وأوضاعنا وواقعنا؛ أنت الآن في رحلة سياحية أكثر من أنها رحلة لتطوير العالم وتخليصه من الفقر، وتحسين أوضاع النزاع والفقر والأمية والجهل وجميع المشاكل التي تقذف بمجتمعات العالم الفقير لمشارف الانحلال والتفكك. أدعوك إلى الاعتراف بحقيقة وضعك. خذ بنصيحتي وتمتع بوجودك معنا سائحاً؛ فلدينا أماكن سياحية كثيرة وجميلة لا تتوافر في مناطق العالم الأخرى.

سكت السائق لوهلة ليلتقط أنفاسه ثم تابع: بنّي، أنا رجل عركتني الحياة أكثر منك وهذه الخطوط العميقة المرتسمة على جبيني هي من صنع الزمان القاسي والخوض في الصراع المستمر من أجل العيش الكريم، وهي دليل على خبرتي الطويلة في الحياة. لقد علمني الزمان أنكم لا تقدمون لنا العون إلا بمقابل ثمن ندفعه لكم من عرقنا ودمنا؛ فالثمن هو أول شروط التعامل بيننا وبين الغرب. فكيف لكم مساعدتنا من دون مقابل ومجتمعاتكم تقوم على

أسس اقتصادية بحتة؟ الاقتصاد هو الذي يحكمكم ويتحكم في مسيرة حياتكم وفي أمور دنياكم جميعها، الصغير منها والكبير. أنتم تضعون معايير اقتصادية حتى للهواء والتنفس الذي هو هبة من هبات الله وليس من صنع أيديكم.

واليوم بسبب حاجاتكم المتزايدة للطاقة، تلوثون البيئة بدخان المصانع والمعامل والغازات المنبعثة من المواصلات الأرضية والجوية والبحرية، وبالنفايات السامة مثل تلك النووية والكيماوية. وعندما أعياكم التفكير في كيفية التخلص منها علمياً وبطرق آمنة، لجأتم إلى تصديرها على متن بواخر إلى مناطق نائية من العالم لتتخلصوا من رواسبها السامة، وتبعدوها عن شواطئكم وعالمكم غير معترفين بأن التلوث في أي منطقة من العالم له تأثير على العالم كله.

أنتم يا سيدي ستواصلون سعيكم النهم لتسدوا احتياجاتكم الاستهلاكية التي تزيد كل يوم، وهي احتياجات كمالية تنمّ عن الجشع والأنانية. أما نحن فحاجاتنا كلها لسد الرمق. المشكلة هي أنكم لا تنشدون تنمية حياة الفرد بل تركزون على الحصول على الربح الفاحش؛ الفائدة تعود للتجار الأغنياء ولا علاقة لها بالمحتاجين والفقراء.

تابع قائلاً: دعني أعطيك نبذة عن وضعنا. ينصبّ اهتمامنا على ضروريات العيش لا على الكماليات، ودولنا لم تعد قادرة على توفير احتياجاتنا الدوائية بسبب الفقر المدقع الذي يتزايد يوماً بعد يوم. أمّا أنتم في الغرب فمحاطون بسياج من الرفاهية والترف، ولسد هذه الكماليات سلبتم خاماتنا الطبيعية، وألحقتم الضرر ببيئتنا، وحطمتم اقتصادنا الوطني.

أنتم أفواهكم مفتوحة على الدوام وبطونكم شرهة للمزيد من الطعام، وهمّكم هو أن تعيشوا في ما تسمونه بالتقدم والرفاهية، لكن ذلك لا يتم إلا على حساب الأمم الأخرى؛ فيؤثر على المسكن والمأكل والمشرب وكل شيء في حياة الشعوب الفقيرة. في الماضي، لم تكن هناك صعوبة لسد هذه الاحتياجات، أما الآن ومع تضخم السكان وزيادة متطلباتهم حتى في مجتمعاتكم وقد عرفتم تحديد النسل وضبطه، أصبحت مشاكلكم أكثر تعقيداً وصعوبةً. كيف لحكومتكم المنتخبة بواسطة الشعب في المقر الأول أن تواصل هذا البرنامج الثقيل والمكلف مادياً وبشرياً بعد أن ضاق الخناق على رقابها؟ دولكم باتت تتخبط في دوامة العالم الجديد بعد الإمبريالية القديمة، وهو عالم لا يعرفون طبيعته ومراميه ليواصلوا هذا الاستنزاف الطاغي.

حكوماتكم يا صديقي تحاول ممارسة استنزاف الشعوب الأخرى في محاولة لمقابلة الاستهلاك المتزايد لمجتمعاتكم، والمشكلة هي الكلفة العالية للتعليم والصحة والسكن والطاقة والغذاء. هل تستطيعون المحافظة على نمط حياتكم المترفة لأمد طويل، أم سينهار الوضع الحالي على رؤوسكم ورؤوس حكوماتكم؟

ثم قال: قبل الحرب العالمية الثانية، كانت المستعمرات تسد حاجات الدول الاستعمارية من الخامات الطبيعية لتسيير المصانع والسفن والبوارج الحربية. وبعد الاستقلال بدأ المستعمر في ممارسة السيطرة على المستعمرات القديمة لكن بطرق جديدة تتماشى مع مرحلة الاستقلال الوطني. بكل أسف جعلتم الدول المستضعفة تتعاطف معكم وتلبي مطالبكم وذلك بعد أن أراقت دماءها من أجل الاستقلال والتحرر.

وأدّى الوضع الجديد إلى تعميق الهوة التي تقسم العالم، نحن نعيش في عالمين غير متساويين، عالم ينعم بالتقدم العلمي والصناعي وله إنجازات متميزة من التقدم في كل المجالات، وعالم يعاني من الفقر والتخلف والجهل والمرض. بالرغم من الفروق الكبيرة، نجد أن العالمين مرتبطان بعوامل مشتركة مثل البيئة الملوثة وارتفاع درجة الحرارة التي قد تؤدي إلى تحطم الكون وهلاك البشرية إذا لم تعمل الدول على التصدي لها وأخذ إجراءات صارمة. على الرغم من هذه الحقائق التي تعلمونها جيداً، ورغم بحوث جامعاتكم حول هذه المشاكل، لم تصلوا إلى نتيجة تحد من التدهور المريع في مجالات الظلم الاقتصادي وتدهور البيئة.

إن أغلب شعوب العالم تعاني من المشاكل التي ذكرتها، والسبب يرجع للفوضى السياسية مثل التي ظهرت اليوم في المطار وخارجه. ونحن نعاني من مشاكل اجتماعية لا حصر لها مثل البطالة والأمية والأمراض الخطيرة، الأمراض تفتك بنا ونحن لا نستطيع علاجها لعدم توافر العملات العالمية لدينا كالدولار والين والجنيه الإسترليني، وأنتم تنعمون بالصحة والعافية. أين العدل والإنصاف؟

الشرح المطول الذي قدمه السائق العجوز أعجب ناجي لأنه شرح عميق ينم عن معرفة متمكنة بأوضاع هذا العالم. مد يده إلى جيب سترته وسحب علبة السجائر وقدم للسائق سيجارة، أخذها السائق وشكره. تعجب ناجي وسأل نفسه: كيف تحصّل السائق العجوز على معلومات حديثة ودقيقة عن العالم لا يكتسبها إنسان إلا بعد سنين طويلة من الدراسة والخبرة والتأمل؟

قال ناجي: أظن أنك قارئ نهم، أليس كذلك؟ أم أن هيئة الإذاعة البريطانية هي التي مدتك بهذه الثقافة العالمية العالية؟ لقد سمعت

الكثير عن هذه الإذاعة التي أرادتها الحكومة البريطانية أن تكون مصدر معلومات في متناول جميع الناس في العالم الثالث، عبر المذياع الذي غالباً ما يكون مستورداً من بريطانيا ذاتها. هذه الإذاعة تتيح للسامع معرفة خبايا العالم من الأخبار التي لا تريد حكومته ونشراته المحلية أن يعرفها، وتمده بثقافة عميقة، وها أنا أجدك مثالاً حياً للدور الذي تؤديه هيئة الإذاعة البريطانية، ألست صادقاً في ما أقوله؟

ضحك ناجي ضحكة قصيرة وواصل قائلاً: إن الذي تحدثت عنه كله صواب ولا أختلف معك حتى في نقطة واحدة. نعم، نهمنا وجشعنا للحصول على الموارد، لقد لوث ذلك أرض الكون من شرقه إلى غربه وقد صدقت حين قلت إننا جردنا الأرض من مواردها وثرواتها الطبيعية كالأسماك والأراضي الزراعية والغاز والماء. إن انفجار السكان يشكّل تهديداً للعالم خاصةً عندما يتعلق الأمر بمجتمعاتنا، ذلك لأن متطلبات الفرد عندنا تعادل متطلبات عشرين فرداً من أفراد العالم الثالث. الانفجار السكاني تزايد بعد الحرب العالمية الثانية، وهو وضع يتطلب موارد طبيعية ضخمة ومتجددة كالمياه والزراعة والأرض، من أين لنا الحصول على هذه الموارد الطبيعية التي أصبحت شحيحة لدرجة مخيفة؟ نحن غرقنا في محيط الاستهلاك لذلك اضطررنا إلى مزاحمة دول العالم الفقيرة في مواردها وثرواتها.

وتابع ناجي مؤكداً كلام السائق: اللوم يقع على حكومات الغرب التي جعلت الفرد يعيش في توقعات تفوق قدرتها وقدرة العالم بأسره. تحولت التوقعات إلى مطالب وضروريات على الحكومات الاستجابة لها وتحقيقها. ومن المؤكد أنه إن ماطلت الحكومات

الغربية في الاستجابة لهذه التوقعات والعمل على تحقيقها، فستقوم حروب داخلية، يختلف أسلوبها عن أسلوب القنابل والبنادق، هي حروب الانتخابات. الشركات الكبيرة لها دورها في إشعال حروب الانتخابات عن طريق الدعم المادي المقدم للأحزاب السياسية المتصارعة.

والأحزاب في الغرب وفي الولايات المتحدة وحتى في اليابان تراها في خوف مستمر من هذا النوع من الحروب، لأنها حروب الرأسمالية التي لا تعطي أهمية للحرية السياسية؛ فكل هدفها مواصلة إدارة الأحزاب التي تناصر برنامجها التجاري والاقتصادي. وذلك من أهم مهام مالكي ومديري هذه الأموال ولو على حساب حرية منتخبيهم السياسية ومن وضعوهم في كراسيهم السياسية في المقام الأول.

بدأت السيارة تقترب من مشارف حي جميل بأشجار خضراء ونهر ينساب متدفقاً بتأنٍّ، وكان المكان مميزاً جغرافياً عمّا حوله كأنه سفينة في عرض البحر.

وقفت السيارة في نهاية الرحلة الطويلة أمام مبنى عريق صمم على الطراز الاستعماري، بدرج من المرمر الأسود والأبيض القديم، يؤدي إلى داخل البيت. وأعلى سطح المدخل علق قنديل كهربائي حديدي كبير كالقناديل التي تضيء مباني باريس القديمة. لا يكاد يصدق أنه سيجد مكاناً بهذا الجمال والهدوء في وسط العتمة والفوضى التي رآها في المطار، فأحسّ بتناقض هذه البيئة وتضارب الأحداث فيها.

فجأة ظهر من داخل المبنى شاب طويل نحيل بشعر كثيف، تقدم

نحوه ليستقبله وليحمل حقائبه، وخلفه ظهرت امرأة قصيرة سمينة الجسم. سرعان ما عرّفاه بنفسيهما وأخبراه باسميهما، إنهما الخادم والخادمة اللذان سيقومان بخدمته أثناء إقامته في هذا البيت. دخل إلى قاعة واسعة في وسطها طاولة مستديرة وضعت عليها بعض القطع الفخارية الأثرية، وعلى الجدران مكتبة مليئة بكتب قديمة وحديثة. شد منظر الكتب انتباهه، وتساءل في داخله: من يا ترى أتى بهذه الكتب كلها ولمن هي؟ على جوانب القاعة حجرات عديدة منها صالة الجلوس التي أثثت بأثاث إنكليزي عريق، تماماً كما هي الحال في السفارات البريطانية.

بجانب صالة الجلوس هناك ممر ضيق يؤدي إلى صالة الطعام التي تتوسط أرضيتها طاولة من خشب جوز الهند الأملس الخالص وعلى جوانبها عشرين كرسياً. ويكمن جمال هذه الصالة في نوافذها الشاهقة اللامعة التي تطل على حديقة بأشجار خضراء ضخمة وبحيرة صغيرة. بهره جمالها وظل واقفاً ينظر إليها وهو هائم في روعة المكان وهدوئه. وبعد دقائق معدودات، تأقلم مع هذا المكان، فنسي التعب والإرهاق والخوف الذي ألمّ به خلال رحلته الطويلة وبسبب العرقلة التي لاقاها في المطار من طلقات نارية وغيرها. استغرب كيف يجد الإنسان في بلد واحد وعلى بعد بضعة أميال موقعاً مثل المطار يشبه الجحيم وآخر مثل مكان سكنه يشبه الجنة.

اتجه إلى حجرة النوم التي يتوسطها سرير قديم تغطيه ملاءات بيضاء من القطن الخالص. وعلى الجدران علقت صورة زيتية كبيرة لفتاة شقراء على رأسها قبعة كبيرة عليها زهور مختلفة الألوان. واصل سيره في المكان ليستكشف الموجود من الحُجر الأخرى، فوجد

المكان كله مزيّناً بلوحات زيتية تعكس الحياة البريطانية القديمة؛ ففي القاعة صورة للملكة فيكتوريا وصورة أخرى للكاتب البريطاني الكبير تشارلز ديكنز. كل هذا الكنز من اللوحات الزيتية الثمينة لم يلاحظه في بادئ الأمر. وفي صالة الطعام علّقت صورة للممرضة الشهيرة فلورنس نايتنغيل. فعاود الكرّة متسائلاً في داخله: من يا ترى نظّم ديكور هذا المكان؟ كان المكان أرقى بكثير ممّا كان يتصوره؛ لم يكن يتصور أن يجد مكاناً كهذا في وسط هذه البلدة الفقيرة؛ أثاث المكان أثمن من أثاث منزله بلندن.

بعد هذه الجولة السريعة في أرجاء المكان، اتجه إلى القاعة ليجلس فيها ويقرأ بعض الكتب فتناول كتاباً، إلا انه سرعان ما عدل عن ذلك بسبب التعب الذي عانى منه؛ فقرر العودة إلى حجرة النوم والاستلقاء على السرير وأخذ قسط من الراحة.

عند قيامه كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، اتجه إلى الصالة فوجد الخادم والخادمة وقد نسي اسميهما؛ وجدهما في انتظاره بصينية عليها إبريق شاي وكأس ماء. سألهما عن اسميهما مرة أخرى؛ المرأة تدعى بيترايس، والشاب راموس. بعد انتهائه من شرب الشاي أشارا له باتجاه صالة الطعام حيث حضّرا وجبة عشاء دسمة، لكنه عزف عن الأكل وأخبرهما بأنه يريد تناول بعض الحساء والخبز والنبيذ فقط.

أدرك أن الحياة هنا تختلف عن حياة الوحدة في لندن. فهنا سيتواجد كل من بيترايس وراموس طوال اليوم ليهتمّا بلوازمه، وفي المساء بعد الانتهاء من واجبات البيت يعودان إلى بيتهما. وفترة المساء ستكون الفترة الوحيدة التي سيمضيها بمفرده ولعمل ما يشاء.

في صباح اليوم التالي استقلّ سيارة أجرة إلى مكان عمله الجديد في قلب العاصمة التي تنبض بالحياة والمزدحمة. مزيج من الفقر والتقدم، إلا أن أجمل ما على هذا الطريق المؤدي إلى المدينة هو النهر المتدفق بسلاسة عاكساً أشعةَ الشمس الذهبية. فما إن رأى سحر الطبيعة الخلابة، إلا وعاهد نفسه بقضاء يوم كامل على ضفافه ليتمتع باعتدال الجو وروعة المنظر.

وصل إلى مكتب الصحيفة وكان المحرر والصحافيون جميعهم في انتظاره باعتباره ضيفاً مهماً حل عليهم، وقد كان كذلك؛ فقد أتى بخبرةٍ في مجال الصحافة والتحرير كانوا في تعطشٍ لها. قلة من سنحت لهم الفرصة للسفر ورؤية مكاتب صحافة أجنبية. وقلة يعدّون على أصابع اليد ممّن زاروا باريس ونيويورك ولندن وطوكيو وأستراليا، والأغلبية زارت مصر بدعوة من صحف عديدة هناك لِما يربط بين البلدين من صداقه متينة سياسياً وثقافياً.

تعجّب من هذا الاستقبال الحار، وتساءل مستغرباً، ماذا يمكن أن يقدّم لهم، وما الذي سيفيدهم من خبراته؟ تمنى ألا يخيّب آمالهم الكبيرة؛ فسوف تكون خسارة مادية كبيرة إذ إنهم أنفقوا مالاً كثيراً لدعوته. اصطحبه رئيس التحرير في جولة حول مبني الصحيفة، وعرّفه على الأساليب المستخدمة في الطباعة والنشر وتلقّي الأخبار. أدرك فوراً أن طريقة العمل المتبعة بدائية، وآلات الطباعة قديمة، وهذا كلّه جعله في حيرة، كيف يستطيعون طبع الصحيفة الأولى بهذا البلد ونشرها بواسطة هذه الآلات البالية؟ حيّره أيضاً الاختلاف في انتقاء الأخبار وترتيبها من حيث الأهمية، فأهم الأخبار لديهم هي ما يتعلق بالحكومة، فيما تتصدّر الصفحات الرئيسية صورة الرئيس.

لم تكن الصحف اليومية مهمة كما هي في العالم الخارجي؛ ذلك لضعف مضمونها، كما أنها تعدّ من الكماليات لسعرها الباهظ مقارنة بدخل الفرد. كذلك الأخبار لا تنشر في الصحف إلا بتصديق من وزارة الإعلام والاستخبارات، وإن خالفت الصحف ذلك تمنع من الإصدار كلّياً. تعجّب من هذه النقطة؛ إذ إنها تعطل الصحافة والنشر السريع، خصوصاً أنها أهم صحيفة في البلد.

سأل ناجي المحرّر: ماذا سيحدث إذا لم تحظ برخصة من الاستخبارات ووزارة الإعلام عما تنوي نشره في صحيفتكم؟

ردّ قائلاً: الأمر بسيط جداً، أسجن وتغلق الصحيفة؛ ولذلك نعمل على إطلاع دائرة الاستخبارات عمّا ننوي نشره وبدون تأخير. فقد مُنعت جميع الصحف عن نشر أخبار المعارضة والجهات السياسية المنشقة عن الحكومة؛ حتى لا تحظى بتلك الأهمية وحتى لا نظهر اعترافنا بوجودها كلياً.

قال ناجي: وهل حاولت يوماً خرق هذا الحصار؟

ردّ بثقة: نعم، فعلت ذلك في الماضي وذقت السجن مرات عديدة ولمدد طويلة. لكن في كل مرة تتدخل المنظمة الفدرالية في أمر اعتقالي، وهي منظمة شبه سياسية، سُمح لها وحدها بممارسة نشاطها في هذا البلد بنوع من الحرية لسبب أو لآخر، على الرغم من تضييق الخناق على المنظمات غير الحكومية الأخرى. تتدخّل فتبحث عن سبب اعتقالي، وبعد مناقشات طويلة بينها وبين الجهة الأمنية الحكومية، يفرج عني. وفي النهاية توقفت عن المشاغبة السياسية بأي صورة من الصور ولم أنضمّ لأي جناح سياسي سراً

أم علناً، ولم أعد أجرؤ على معارضة المراسيم المضروبة على النشر والصحافيين كما كنت أفعل سابقاً.

تقدّم عمري وأصبحت أحس بالمسؤولية تجاه أسرتي أكثر. هذا الواقع دعاني إلى أن أتنازل عن نشاطي السياسي الذي كان أكبر اهتماماتي في الحياة وألذها. الآن أنوي العيش في أمان؛ فما عدت أنا ذاك الشاب المدفوع بالحماسة الإيديولوجية. وما عاد بإمكاني مناصرة فلسفتي السياسية أو بالأحرى اليسارية، والمعارضة السياسية، فقد كنت أميل إليها سابقاً وقرأت وانغمست في خبايا إيديولوجيتها. ينصبّ اهتمامي على أبنائي الذين هم رسالتي ومسؤوليتي الجديدة.

سأله ناجي مستنكراً عليه ذلك: إذن بعت حماستك وتخليت عنها كما تخليت عن موقفك السياسي من أجل العيش بسلام؟

ردّ المحرر: يمكنك قول ذلك إن أردت. ما يشغلني الآن هو العيش بسلام والانسحاب من الساحة السياسية المعارضة وغيرها. الأهم من ذلك الزحف نحو ردهات المجتمع العام والسياسة الجارية رغم صعوبة المسألة؛ الدخول إلى ما هو مقبول سياسياً واجتماعياً سيكون لغرض العيش لا أكثر ولا أقل.

أضاف: لا يعني كلامي هذا أن شعلة الثورة بداخلي قد أخمدت، بل ستظل ملتهبة في كياني ما دمت حياً، لكن المعضلة هي أن عضلاتي وعظامي لم تعد قادرة على حملي إلى ما وراء القضبان وما يتبعه من تعذيب. وذلك بالطبع إن قبض علي متلبساً بتهمة الاختلاف السياسي، فلِمَ أُقحم نفسي بهذا وقد غدوت متقدماً في السن؟ الآن ما عاد بمقدوري سوى أن أغذي تلك الشعلة بالقراءة،

كذلك أتابع بتلهّف المناظرات الجارية لتغيير مجري العالم سياسياً واقتصادياً. هكذا أقضي أيامي الآن.

كان حواره مع المحرر جريئاً، فلمس ناجي بذلك مجرى النشر وطبيعته عن كثب، كما أنه استمع لأفكار ثائر قديم. الصحافة الأوروبية لا تخلى من القيود التي تقيّد حريتها في النشر كما هي الحال هنا، إلا أن الطرق المتبعة لذلك تختلف بين العالمين اختلاف الليل عن النهار؛ ففي الغرب يحدث ذلك بطرق منظمة غير ملموسة، ولا تدخل بدرجات عالية في شؤون الصحافة.

للتجارة والمال في الغرب دور مهم في تسيير المنشور ومضمونه، إلا أنهما أشبه باليد الخفية التي تحوّر مجرى الأخبار دون تدخل واضح، كما تغيّر فكر القارئ وتشجعه على مناصرة الأحزاب السياسية التي تناصر مبدأ التجارة الحرة. وتشجعه على مناصرة اتجاه سياسي أو دبلوماسي ضد غيره؛ الحال مماثلة: هنا الحكومة وهناك المال والتجارة.

إن إبقاء المال متلازماً مع الصحافة هو غاية إداريي الصحف والأخبار في الغرب، لأن المال الآتي عن طريق الدعايات إنما هو الدم الذي يجري في عروق الصحافة، بل هو الوقود الذي يحرّك اتجاهها ولا غنى عنه.

وضع الصحافة الغربية فيه مزيج من التعايش بين حرية الرأي والتعبير، وبين القيد الذي تضربه التجارة حول هذه الحرية؛ وهو أمر مهم. لم يحسم هذا الأمر على مرّ السنين، بالرغم من المناقشات الجادة والمكثفة التي دارت حول هذا الموضوع وحول أهمية الحرية الصحافية وتحرر الصحافة إجمالاً من اليد الخفية. هذه

اليد الخفية التي جعلت هدف الصحافة هو القبض على عقل القارئ وتفكيره لمناصرة التجارة الحرة والسياسة اليمينية. ما يراد من القارئ بصورة أو بأخرى، تقبل ما يُقترح من أفكار سياسية وعدم رفض ما يصدر من السياسة الجارية وقراراتها في المجالات المختلفة.

في نهاية أول دوام له في الصحيفة، قدّم محرّر الصحيفة كتاباً يروي حياة مراسل وموسيقي شاب من مراسلي الصحيفة. عند عودته ذاك المساء قرأ هذا الكتاب الذي أوضح له خطر التلاعب بالمحظور في عالم النشر في العالم الثالث.

يروي هذا الكتاب قصة شاب مراسل يهوى العزف على الموسيقى والشعر والأدب؛ كان يعمل في الصحيفة ذاتها. وذات يوم كتب قصيدة شعرية سياسية تحت اسم مستعار، ووزعها ليلاً في أماكن مختلفة من العاصمة، وألصق بعضها على أعمدة الكهرباء والحافلات والمباني دون أن يراه أحد. حتى جدران مخافر الشرطة والمؤسسات الحكومية لم تخل من قصيدته. وفي الصباح، عندما رأى الناس هذه القصيدة الجريئة منشورة على أماكن حساسة، متحدية المحظور، تعجبوا. ونشرت إحدى المجلات المحلية الأسبوعية تلك القصيدة كاملةً. والقصيدة كلماتها تقول:

– فوق مقابرِ جندِكَ –

وحدكَ تخطبُ فوق السهوبِ التي حرثتها القذائفُ

ترسمُ معركةً في غبارِ الزجاجِ، فيمسحها نادلُ البارِ

تحتجُ... لكنهم يدفعونكَ فوق الرصيف كما الجرذ

(تسمعُ حشدَ الملايين تهتفُ حولكَ:

بالروح، بالدم نفديك يا..)

– عشر قنانٍ من البيرةِ الوطنيةِ لا تملأ الكرشَ [عشرُ سنين وعبود
يركضُ
تحت الرصاصِ،
هزيلاً كنخل السماوة...] منتفخاً بالمقالاتِ
– لحمِ الشعوبِ المقلّى
بزيتِ الشعاراتِ.. [... في مطبخِ الجنرالِ ـ الجريدةِ،
نخرجُ من بين أسنانهِ: لافتاتٍ
تسدُّ
الشوارعَ
يجترّنا، ثم ينبشُ أسنانه: نتساقط
مثل حروفِ المطابعِ]

سارعت الجهات الأمنية للتحري عن مصدر القصيدة الجريئة، وتوصلوا إلى صاحبها الذي يدعى سيوم، المراسل الشاب المعروف أيضا بعلوان أحمدو. وعلى أثر ذلك دهمت الشرطة مكتب الجريدة بحثاً عن الكاتب وقصيدته، فعثروا على القصيدة ولم يعثروا على كاتبها. وبعد بحث مكثّف، عُثر على الكاتب وقبض عليه وأودع السجن من دون محاكمة. ولم يصل أمر سجنه حتى لأسرته التي بادرت بالبحث عنه بعد مضي أيام، إلا أن الشرطة لم تطلعهم على أخباره قط.

في بادئ الأمر سُجن علوان في زنزانة عادية في أحد السجون ضاقت جدرانها بأعداد هائلة من المعتقلين. طالب بمحام يمثله ويتولّى الدفاع عنه، إلا أنه لا حياة لمن ينادي. فأخذ يشاغب ويصرخ، ظنّاً منه بأن ذلك سيحسن الوضع، وهدد بكشف أمور

خطيرة تتعلق بالفساد المالي والإداري والأخلاقي عرفها عن بعض الفئات السياسية ذات النفوذ في البلاد. استفز هذا الشغب والتحدي سلطات السجن، فقررت إدارة السجن ممارسة شتى أنواع التعذيب عليه ليل نهار.

بعد ذلك نُقل إلى زنزانة صغيرة منفردة تكاد جدرانها تطبق عليه، تفوح منها رائحة الدماء البشرية، كما تفوح منها رائحة الفئران والقطط التي أطلقت بهدف تطهير المكان من الفضلات والدماء، وذلك تبعاً لمشروع إدارة السجن. إلا أن تلك الحيوانات قد زادت الطّين بلّة، فقد كانت تنطلق في أرجاء ذلك الحيز الضيق ليل نهار ممزقة بعضها بعضاً ودماؤها تسيل من أعلى السقوف على المعتقلين. كانت نتائج التعذيب المهين أن وجد علوان ملقياً على الأرض يلهث ما بين الحياة والموت. لكن لم يكن الموت غاية الحرّاس إلا إن جاء بعد عذاب شديد.

نقل بعدها من تلك الزنزانة إلى زنزانة أخرى من نوع آخر تقع في مكان ناء خارج العاصمة. وهي عبارة عن حفرة قاحلة في قعر الأرض، أذاقته قيظ الحرّ نهاراً، كما أذاقته زمهرير البرد ليلاً. هذه الزنزانة لها سلم خشبي رخو هزيل يؤدي إلى قعرها، وعلى أرضيتها قطع قليله بالية من الأغطية القذرة المتمزقة، وقارورة ماءٍ صغيرة. عند وصوله إلى هذه الحفرة كان جسده يتمزق من العذاب الذي وقع عليه، وعيناه كانتا معصوبتين بقناع أسود حز على جفنيه وأطراف وجهه حزاً شديداً.

قال له الجندي الذي رافقه إلى قعر الحفرة بلهجة ساخرة: هذا مقرّك الجديد، أعدك أنك لن تستطيع الفرار من هنا. وفي صباح كل يوم استعدّ لاستقبال ما سيتيسر من طعامٍ مبعوث من مطبخ السجن العام.

كذلك أعدك، لن يسمع أحد صراخك ومشاغبتك؛ لذلك عليك التمتع بالحرية المطلقة التي تنشدها في أشعارك التافهة. نحن أتينا بك لهذه الزنزانة البعيدة حتى نحقق أمنيتك في الصراخ العالي والمشاغبة اليومية، كما ترى، نحن رجال أمن نؤمن بالحرية والديموقراطية.

قال هذا وانطلق ضاحكاً ساخراً بعد أن سمع مناداة زملائه من أعلى يخبرونه بأنه عليهم الذهاب لزيارة السجون الأخرى، ثم عليهم العودة إلى الثكن العسكرية. تسلّق الجندي السلّم بعجله وسحب السلّم الرخو بسرعة. أدرك علوان مما سمعه من هؤلاء الجنود أن هذا النوع من السجون الانفرادية له أمثال كثر.

فك القناع من على عينيه بصعوبة فشعر بالراحة، وأخذ يحرّك جفنيه محاولاً استعادة بصره الذي أضعفته ربطة القناع المحكمة. وانتابته نوبة من الغثيان وبدأ جسده يرتجف ورأى كل ما أمامه يدور بسرعة، وسقطت دمعة من عينيه تلتها دموع أخرى من دون توقف، وشعر من جديد بنبض جروحه البالغة التي غطت بكثافة أجزاء جسده، فما عاد قادراً على الوقوف.

بعد هذه الأحداث السريعة التي ألمّت به، تذكّر أسرته التي تعاني من القلق، وراوده منظر أمّه المسكينة. فمن المؤكّد أنهم لا يعرفون عنه خبراً، وكيف لهم أن يعرفوا وقد أخفى رجال الشرطة هذه المعلومات؟ فمن عادتهم ألا يفصحوا عن معلومات المعتقلين. ذلك الأسى تجاه أسرته آلمه أكثر من الجراح التي على جسده.

بدأ يواجه واقعه الجديد، واقعه في قعر حفرة، وبدأ يفكّر في طريقة لإبلاغ أهله حتى يحاولوا إخراجه. أنهكه الهمّ وأرهقه التفكير فخرّ على الأرض وغاب عن الوعي.

استيقظ بقطرات ماء على وجهه، فنظر حوله بدهشة ليرى جنديين يرش أحدهما الماء والآخر ينظر إليه نظرة احتقار. وبعد ثوان أدرك أنه في صباح اليوم التالي. أتى هذان الجنديان ببعض الطعام وأخبراه ببرنامج غذائه اليومي. سحب أحدهما علوان إلى جنب، وتسلقا السلم وأغلقا غطاء الحفرة بإحكام ثم غادرا. قال في نفسه لقد طفح الكيل فلا بد من طريقة للخروج. وجد طريقة يروّح بها عن نفسه؛ أخذ حجارة تشبه الطباشير وطفق يكتب أبياتاً من الشعر تصف المرارة التي ذاقها شخصياً ومأساة مجتمعه العريض. الكلمات كانت ملتهبة وتتحدث عن الظلم والفقر والتسلط الذي أنهك الفرد وسلبه أبسط حقوقه الإنسانية مثل التعليم والصحة، فضلاً عن حق الممارسة السياسية الذي لا مكان له في الوسط العسكري المتعنت الذي يخيم على المجتمع. سمى ما كتب من قصائد معلقات، تقول:

مرحى، لكم دورةُ الأرضِ (صفحة ١٨١)

لي، دورةُ الحبرِ

مرحى، لمن حقنوهُ بمصلِ المعاشِ،

فعاشَ،

ليهتف :

((عااااشَ))،

لمن ينصبون فخاخَ الشعاراتِ،

نلصقها

ثم نسقطُ...

كي يصعدَ الجنرالُ إلى مجدهِ،

جثةُ، جثةً

ويحيّي الجموعَ التي أجّلتْ موتها
كي تصفّقَ...

....

....

فأحرقْ أوراقكَ، يا ابن الصائغ، (صفحة ١٨٢)
لن تجني من هذا العلمِ
غير القهر
وهذا الشعر يغلْقُ عينيك بمنديلِ الدمعِ فلا تبصرُ من متع الدنيا شيئاً.
واوٌ
طاءٌ
نونٌ..
مرّ الحراسُ على جفني فاستوقفهم وقعُ خطئً ينسلّ خفيفاً بين الأهدابِ وبيني...
شرعوا ببنادقهم
صفاً صفاً
وانتظروا...
فصرختُ بهم:
هذا قلبي!...
يا هذا الملفوف بأوراقِ الآسِ، لماذا تتركُ حجرتَكَ البلوريةُ كي تتسكّعُ

في الطرقاتِ المحظورةِ.. (قلتُ سأختصرُ العمرَ الفضفاضَ،
بسطرين يتيمين من الشعر،
على قبرٍ مجهولٍ.
وأريحُ العالَمَ
من ثرثرةِ الشعراءِ.
سأختصرُ القلبَ على نهدي امرأةٍ يكتظّانِ بشوقٍ مسعورٍ
تحت قميص الشيفون الشفاف،
وأمضي) مرتعشَ الأحلام يطاردني أفقٌ من غيمٍ
ونباحٍ
يتكاثفُ فوق زجاجي مطراً أسودُ..
فالليلةَ لا تعصمني من طوفانِ الحزنِ الممتدِّ جبالُ الكلماتِ،
ولا...
....
....

صرختُ حزيناً : يا وطني (صفحة ١٩٣)
فارتجّتْ جدرانُ الزنزانةِ يا...!
... واقتسمَ الحراسُ بقايا الأحرفِ والتبغِ
المخبوءِ ببطانيةِ إحدى
المسجوناتِ قُبيلَ الإعدامِ...
صرختُ أحبكَ يا دمعَ النجماتِ على سفحِ الجبلِ المحروثِ
بدوشكاتِ الجندِ،

أحبكَ يا بوحَ البرعمِ تحت قميصِ التلميذةِ،
يا أشعاري الممنوعةَ،
يا أضلاعي الموقودةَ فوق الجسرِ
مصابيحاً،
يا ميمَ الحلوة، يا ألَقي وجنوني وبكائي،
يا نهرَ طفولتنا المتعرجَ بين بساتينِ التكي والمركزِ،
يا خجلَ الفتياتِ من النظراتِ الأولى

....

....

خرجتُ من المدرسةِ الأولى، (صفحة ١٩٦)
احملُ أشعاري للغاباتِ، أفتشُ في أعشاشِ النخلِ عن
الفاختِ،
منبهراً بسراويلِ الأرملةِ المبلولةِ فوق السطحِ، لماذا لا
أسرقُ
سروالاً
بدلَ البيضِ الفاسدِ، لكني... الطرقاتُ تشاكسُ جوعي، تتمددُ في
كورِ الحدادِ
الأعمى يطرقها كلّ صباحِ فوق السندانةِ كي تكبرَ، تكبرَ في عينِ
الطفل إلى الجسر
وتمتدُّ فيطويها الباصُ وسيقانُ الخوفِ وسياراتُ الشرطةِ، حتى تغدو
دولابَ هواء يختصرُ الدنيا. الطرقات ستعوي خلفي. الطرقات
ستنسى طفلَ القملِ، الطرقات ستحمل اسمي.

الطرقاتُ...
أنا تكفيني كسرةُ خبزٍ من تـنّورِ أمي، فلماذا لا يكفيك سوى رأسي،
هذا الضاج بأحلام بيضاء كثوبِ عروسٍ لمْ تدخلْ غرفتها بعدُ....
أنا يكفيني أن أتنشقَ ملءَ الرئتين نسيمَ بلادي فلماذا لا يكفيكَ سوى ان تتنشقَ رائحةَ الجثةِ فيَّ....

....

....

قالت: (صفحة ٢٠٠)
كلمات الشعراءِ جميعاً لا تكفي وصفَ العشبِ المبتلِّ بعيني،
وابتسمتُ بدلالِ
قال الطفلُ المتسربل تحت ثيابي:
ريح العالمِ لا تكفي لتجفيف دمع يتيمِ
فبكيت أنا.
قال العاشقُ في شفتي:
لو تتجمعُ كلّ شفاهِ نساءِ العالمِ
في شفةِ
للعقتُ لذائذها وارتحتُ
فعاتبني ثغرُكِ...
قال الدكتاتور الحامضُ:
كلّ جماجمِ شعبي لا تكفي

كي أصنعَ عرشاً أبدياً لطموحي،
ومضى بعساكرِهِ يفتحُ آفاقاً أخرى
قالتْ كلماتي:
كلّ هواءِ الحريةِ في بلدي
لا يكفي عصفوراً نزقاً بين ضلوع.... [حكتْ اقدامي
الطرقاتُ إليكِ،
توكأتُ على عمري
ومشيتُ....
أأخطأتُ العنوان؟

....

....

(صفحة ٢٠٧)
أفقتُ على كرسيّ مكسورٍ وبقايا كتبٍ وعناكب.
ماذا أفعلُ؟
أجلسُ فوق الرفّ، أرى مدني يغمرها الطوفانُ وحاشيةٌ للملوكِ
تتقاتل حول غزالٍ مطعون.

....

....

على طولِ طريقِ أبي صخير... (صفحة ٢١٠)
رياحٌ تلهو بسراويلِ القتلى المتروكين،

رياحٌ تحملُ نشرةَ أخبارِ الأهلِ من المنفى،
ورياحٌ حلمتْ أن صارتْ نهراً، فاضتْ فوق الرملِ فجفّتْ
ورياحٌ تتآكلُ في حيطانِ الملجأ، تحملُ أذيالَ رياحٍ تسرعُ
بالخطو لكي تلحقَ بالباصِ،
رياحُ طواحين وجنودٍ تقضمُ أطرافَ المدنِ المهزومةِ، أقواماً
هلكوا بحروبٍ غابرةٍ، وعظاماً تركتها فوق الأرضِ المحروقةِ ديدانُ
التاريخِ..
رياحُ لمدار رياح من أطمارٍ في المتحفِ، تسألُ عن جلاديها
أرتال حماقاتٍ يسحبها رتلُ بغالٍ يصعدُ نحو الرأسِ، سأحملُ مطرقةً
وكلاليبَ. سأرمي هذا الرأسَ المتشحّمَ للقططِ المهزولةِ.
....
....

أبصر في عينيها الوالهتين (صفحة ٢١٣)

مياهاً غائرةً وقواربَ صيادين،
قرى يوقظها صوتُ الديكِ
وأخرى توقظها الطلقاتُ.
....
....
(صفحة ٧٠)
ايقظني صاحبُ البارِ

وهو يخرخشُ في كيسهِ المعدني. فقمتُ
أجرجرُ خطوي بين الكراسي
- الرؤوس التي تترنحُ
بين الكؤوسِ
فأين أثبّتُ رأسي غداً
فوق طاولةٍ للمحقّقِ، ممسوحةٍ
وهو يسألني عنكَ...]
كان لعابُ السبابِ
يسيلُ
على شفتيهِ
فيمسحُ في كمّهِ المتآكلِ شاربَهُ الكثَّ، متسخاً مثل طيزِ
الخنازيرِ ....
....

(صفحة ١٨٦)

ألا يتركُ لي متسعاً لتأملِ هذا الفجرِ الفيروزيِّ الأزرقِ مثل
قميصِ
مراهقةٍ مفتوح خلفَ الكثبانِ البيضِ. يسيلُ لعابُ الكلماتِ
بحلقي
المتشنجِ من فرطِ الصمتِ وكبتِ السنواتِ المرّةِ. لو يغسلُ هذا
المطرُ الناعمُ
أحزانَ العالمِ في روحي
مطرٌ من ليمونٍ وأغانٍ

مطرٌ من فئرانٍ سودٍ
مطرٌ من خوذٍ وطبلٍ،
مطرٌ من شقراواتٍ يلعبنَ البوكرَ.....
(محتضناً جمجمتي الزرقاءَ على مشرحةِ العصرِ تؤرّخُ
بالكدماتِ
طفولتنا المنسيةَ، في حاناتِ القملِ، وأقبيةِ التعذيبِ. نعلّقُ فوق
المسمارِ
رئاتٍ ينخرها الصرصرُ والحزنُ، ننفضها في الصبحِ ونلبسها عجلين.
مضى
العمرُ بنفخةِ نارٍ...) وأصيحُ على قارعةِ المارةِ:
ـ مَنْ يرحمُ عمراً كالثلجِ يذوبُ بعزِّ الصيفِ؟
بكيتُ على صحبٍ سيذوبون على طاولتي. أحسستُ بلا جدوى
العالم. من يدري قد تصبحُ آخر ما أكتبهُ هذي الهذيانات، وقد
لا
أكملها...

(صفحة ٣٦٥)
عبودُ في السجنِ يركلهُ الحارسُ الفظُّ
يشعلُ سيجارةً ثم يطفئها
فوق طبلةِ خصيتهِ
.... فتشم المدينةُ رائحةَ الشويِّ
تغفو على جوعها جرساً يابساً..
من طحينِ القنابلِ،

نصنعُ خبزَ الحياةِ الشهيَّ،
ونحلبُ هذا السرابَ....
جروحي مسيّجةٌ بالكريستالِ،
تضوي أمام السياطِ
بحكمتها
كلُّ موتٍ يجذّرني بالحياةِ
تئنّ من الضربِ روحي، فأصعدُ
في السنديانِ الوريفِ
إلى آخر الأفقِ
هل تسمعين حفيفَ الغصونِ التي تتساقطُ..
هل تسمعين رفيفَ البراعمِ تزهرُ....
هل تسمعين... ني ني ني ني ني ني
بأفواههم
يمضغون... ني ني ني ني ني ني ني ني ني ني
ني ني ني ني ني ني ني ني ني
وهم يحتسونَ النبيذَ الفرنسيَّ
كان المفوّضُ ينقلُ عينيهِ
بين الأضابيرِ
والزرِّ

ليست لديه أدنى فكرة عن المدة التي سيظل فيها مسجوناً تحت الأرض يعاني عذاب الوحدة والعزلة. الوحدة مرّة إلا أنه فضّلها

على رؤية وجوه الحراس الشيطانية وعلى سماع أصوات من يتعرضون للعذاب. في الحفرة، يستطيع أن يكتب بحرية على الجدران؛ فالجنود يزورونه ويتركونه يتسلى بالكتابة التي هي على حد قولهم مهنة العاطلين.

حاول عدّة مرات تسلق الحائط وفتْح الغطاء علّه يستطيع الهروب، لكن جميع محاولاته باءت بالفشل. فبدأت تنتابه نوبات غضب حادة فينهض تارة يضرب جسده على الحيطان الصماء، ويحاول تارة أخرى تهدئة نفسه بكتابة أبيات شعرية لمنظمة العفو الدولية شارحاً فيها جريمة القبض عليه دون تهمة ودون محاكمة.

في أحد الأيام فتح أحدهم سقف الحفرة، وتدلى السلم الخشبي، فظن أنهم الجنديين أتيا له ببعض الطعام فواصل رقاده. نظر مرة أخرى فإذا بضابط عالي الرتبة برفقته جندي صغير الرتبة لم يسبق له أن رآهما. نزلا ببطء، فما بارح مكانه المليء بأبيات الشعر والقصص والخواطر. بعد نزولهما بقليل رمي بكرسي قابل للطي من أعلى، التقطه الجندي صغير الرتبة ووضعه للضابط الكبير ليجلس عليه. كان الضابط ضخم البنية وله كرش كبير، على إصبعه خاتم من الذهب البراق. لم يعرف رتبة هذا الضابط بالضبط، لأنه لم يعر الرتب العسكرية اهتماماً في السابق. كل ما عرفه أنه ضابط عالي الرتبة بعد أن نظر إلى بذلته المزينة بالميداليات. شرع الضابط يمسح على شاربيه، ووجّه حديثه لعلوان مشيراً بإصبعه إلى أبيات الشعر التي تحيط بهم وسأل بسخرية: لِمن كتبت كل هذه الكلمات التافهة؟

ثم استبدل السخرية بلهجة خشنه ونبرة صوت عالية قائلاً: أخبرني، أكتبته ليقولوا إنك شاعر عظيم، أم أن هذا أحد أساليب

الاستهزاء بالنظام الذي جعل من بلدنا أحسن بلاد الدنيا؟ أريد سماع شرح لفلسفتك السياسية كما ترسمها الأيديولوجية الماركسية التي تنتمي إليها.

لم يردّ عليه وظل في جلسته حيث كان، وإذا بالجندي صغير الرتبة يركله بقوة على خصره. وبالرغم من الألم الذي عانى منه إلا أنه لم يردّ على الرجل.

قال الجندي الأدنى رتبة صارخاً: لماذا لا ترد على سؤال العميد؟ هنا عرف رتبة الضابط.

أمر العميد الجندي صغير الرتبة بأن يدعه وواصل موجهاً كلامه له قائلاً: أسألك مرة أخرى لمن كتبت هذه الكلام التافه على الحيطان؟ إن كانت لنا، فكن على يقين أن الكتابة لا تهمنا. نظر إلى الجندي صغير الرتبة وقال له ساخراً: أم كتبها لإشعال فتنة في البلد؟ ضحك بطرف وجهه ثم نظر إليه وقال: من الأفضل أن تجهز تلك الأجوبة عند زيارتنا التالية. ابحث عن الأجوبة داخل رأسك الذي يتمتع بالغباء، فلولاه لما انقدت إلى ما انقدت إليه من انحراف وما يسمى بالتعليمات العالمية والصيحات السياسية اليسارية الجوفاء الآتية من أفكار ماركس ولينين وماو وغيرهم من الجهلة، هدف هؤلاء الحاقدين هو تدمير الأمن الذي يعم أرجاء العالم.

تابع القول بلهجة جافة: أنت وأمثالك لستم سوى حفنة من الجبناء المنقادين، ستظلون كالكلاب الضالة تجرون خلف الخراب وتواصلون الحديث الفارغ حول تحرير الإنسان من الفقر والعبودية.

قام من كرسيه وبصق على الأرض ووجه كلامه للجندي صغير الرتبة قائلاً: دعه اليوم يجمع أفكاره. ثم اتجه للسلم وخلفه الجندي صغير الرتبة وهو يحمل الكرسي. وعلى خلاف نظام الرتب العسكرية الذي يحتم تقدم صاحب الرتبة العسكرية العليا أوّلاً، أمر العميد الجندي أن يصعد السلم قبله.

وبينما كان الجندي صغير الرتبة يصعد السلم، تناول العميد من جيب بزته منديلاً ملفوفاً بعناية تفوح منه رائحة كولونيا «باكو رابان»، ورماه على وجه علوان. ما زاد على ذلك بكلمة وصعد السلم. تناول علوان المنديل وهو في ذهول مما حدث في ذلك اليوم. انتشرت رائحة الكولونيا في المكان. ذهل علوان أكثر عندما رأى ما بداخل المنديل؛ عليه نقش لبندقية وزهرة حمراء غرز عودها داخل فوهة البندقية وتحتهما بخط أحمر عريض كلمة «سنلتقي».

ظن أن الزهرة الحمراء تعني مزيداً من الدم والتعذيب في تحذير خفي من العميد إن تمادى في الشغب وكتابة الأشعار على الحائط. لم يجد تفسيراً آخر لهذا الأمر الغريب؛ اقشعر بدنه وارتمى على الأرض وتحسر على ابتعاد فرصة الإفراج عنه. انتشل نفسه من وسط اليأس وحاول إيجاد تبرير للحادثة، قد لا يعني المنديل شيئاً البتة، فقط رائحة المكان النتنة أزكمت أنف العميد.

الأفكار تعصف بذهنه، عليه التفكير بالمنديل الذي معه، وبطريقة لخروجه من حفرة السجن وبأهله الذين لا يعرفون عنه شيئاً. سقط في شباك الحيرة ولم يعد يديريك الفرق بين الليل والنهار والظلام والنور والجوع والشبع، كان يعرف الوقت فقط بالقوت الذي يتدلى صباح كل يوم من السماء.

ذات يوم سمع ضجيجاً عالياً بالخارج وهو أمر لم يتعود عليه في ذلك الوقت من اليوم بالذات. وبعد ثوان قليلة، فُتح الغطاء ورمي السلم بسرعة، فما كان من علوان سوى القفز بعيداً عن السلم حتى لا يقع فوق رأسه ويهشمه. نظر إلى الأعلى ورأى وجهاً مبتسماً لجندي في مقتبل العمر نشيط الحركة لائق المظهر متناسق الملامح، على عكس ما عهده من الجنود الآخرين، إذ كانوا دوماً في تجهم وعبوس، تراهم وقد ترهلت أجسادهم وظهر عليهم الكبر والتعب.

استنتج فوراً أن لدى الجندي الذي نزل للحفرة هدفاً محدداً حمله على الحضور. لم يقل شيئاً وظل ينظر دون تركيز وينتظر بصمت وصول زائره وهو يقترب منه. وقف أمامه وبدأ يمشي ثم وضع الطعام الذي جلبه من مطبخ السجن، ثم توقف عن المشي. ظن علوان أنه سيستدير ليغادر، إلا أنه لم يفعل ذلك. سمعه علوان يتحدث إليه بصوت منخفض قائلاً: منذ متى وأنت في هذه الحال التي يرثى لها؟

رد عليه قائلاً: لا علم لي لكنها ليست بالمدة القصيرة. قال ذلك وهو لا يعرف ما إذا كان حلماً هذا أم واقعاً.

قال الجندي: ألم تراودك فكرة الخروج من هنا؟

عندما سمع هذا السؤال لم يعرف إن كان من الصواب تجاهله، أم يجب الرد عليه. راوده الشك بشأن الجندي، قد يكون جاسوساً يريد توريطه في مشكلة ما لكي يزيدوا مدة السجن والتعذيب. وفي آن واحد قفزت إلى ذهنه صورة منديل العميد المعطر، فتساءل ما إذا كان هناك رابط بين الأمرين.

سأله الجندي مجدداً ليحثه على الرد والتجاوب معه: أسمعت سؤالي؟ أم أنك خائف مني لأن لي صلة بالسلطات الأمنية؟ قال هذا وضحك والسرور يغمر وجهه وواصل قائلاً: أرجوك أن تثق بالدور الذي أقوم بأدائه، أنا لست من الصنف الذي يقوم بالأذى والمؤامرات؛ أتيت خصيصاً لأقدم العون لشخصكم المحترم. فهل تريد أن تسمع تفاصيل الأمر الذي أود قوله؟

رد وهو في حيرة من أمره: ما دمت أنت صاحب الخطة فعليك فعل ما تشاء. أخبرني بتفاصيلها إن شئت، كما يمكنك الامتناع عن ذلك.

قال: سأطلعك على التفاصيل، اسمع يا صديقي، أنا وأنت على معرفة بأنك تريد الفرار من هنا بأسرع وقت ممكن، كما أنك لم تقترف جريمة تتطلب اعتقالك، لكن في بلدنا لا حساب للقانون ولا دخل له في تسوية المشاكل بين الفرد والدولة. ولهذا السبب أنت هنا، ولو كنت في مكانك لما تخليت عن يد العون التي يمدها لك الآخرون، فما قولك؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة هي الأولى منذ حضوره لحفرة السجن المقيتة وقال: تفضل أخبرني عن هذه الخطة.

قال الجندي وقد شعر بالسرور والغبطة: نعم، لدي خطة محكمة وذكية لمساعدتك كي تخرج من هنا لكنها ستكلفك.

قال: ستكلفني؟.

قال: نعم ستكلفك ألفي دولار فقط.

قال: ومن أين لي بألفي دولار وأنا أقبع في السجن؟

قال: ألا أهل لديك في المدينة تطلب منهم العون في هذه المحنة؟

قال: نعم، لدي، لكن كيف سأطلب منهم العون؛ كيف أتصل بهم من هنا؟

قال: لا عليك، سأوصل لهم طلبك، اطلب منهم جمع المبلغ المطلوب وتسليمي إياه، وستكون في طريقك إلى الحرية في لمح البصر. أعدك وعد شرف.

قال: وهل الأمر بسيط إلى هذه الدرجة؟

قال: نعم، بسيط للغاية، كل ما هناك أن تدفع ألفي دولار وهي ليست كثيرة مقابل نيل الحرية والتخلص من عذاب السجن. نعم إنها ألفا دولار فقط.

وجّه الجندي كلامه بجدية وقال: سوف تصبح هيكلاً عظمياً وقد تموت في هذا المكان الذي يشبه جهنم؛ فإدارة السجن ستنسى أمرك كما هو مصير العديد من الذين رماهم حظهم العاثر في سجوننا، وما من أحد يساعدك في هذا المجتمع الدنيء. في هذا البلد نحن في أحضان أم عاقة، أم لم تهتم بأبنائها البتة. أفراد أسرتك فقط هم من باستطاعتهم مساعدتك إن كانوا يعرفون مصيرك طبعاً، لذا خذ بنصحي وتقدم لهم بطلب المساعدة. ولكن قبل كل شيء، قل لي أين تقيم أسرتك؟

سمع ما قاله الجندي بتمعن وقد وافق في أعماقه على الشرط الذي اشترطه عليه، واتكأ على الحائط ممسكاً برأسه بين راحتيه.

قال الجندي: هيا قل لي ماذا قررت؟

قال: ماذا أقول؟ إني في حيرة من أمري، لا أدري ما هو الطريق السليم الذي يجب علي انتهاجه للخروج من هنا.

قال: دعني أتركك الآن لتفكر في الأمر جيداً وسأعود لزيارتك بعد أيام، علّك تكون قد توصلت إلى قرار. عاد الجندي ليصعد السلم، وبينما هو يصعد فكر علوان وخاف من أن تضيع منه هذه الفرصة الثمينة، فوجد نفسه ينادي عليه قائلاً: انزل، لقد اتخذت قراري، اذهب إلى أسرتي وسلمهم رسالة مني، إذا استطاعوا مساعدتي، أنال حريتي، وإن لم يستطيعوا فسأنتظر الفرج.

طلب منه ورقة وقلماً وبدأ يخط بيد مرتجفة رسالة ملتهبة مشحونة بالمشاعر، قصيرة الكلمات مليئة بالأشواق. كتبها لأسرته يخبرهم بحاله ويطمئنهم. أخذها منه وحيّاه قائلاً: سأعود، أعدك بأني سأعود، لا تخف.

مرت أيام طويلة وظلّ معتقلاً، وبدأ اليأس يدب في كيانه. وفي محاولات يائسة لتبديد ذلك اليأس، أخذ يكتب الأشعار هنا وهناك، حتى ظن الجنود ـ من كثرة أشعاره ـ ظنوا أنه قد جُنّ.

وهو في خضمّ اليأس والإحباط، وبعد ثلاث أسابيع من تلك الحادثة، فُتح غطاء الحفرة بسرعة وطلّ منها وجه ذاك الجندي الشاب. نزل مبتسماً، ثم قال وهو في فرح عظيم: اسمع لقد وجدت عائلتك وحصلت على المال الذي طلبته منهم، لهذا أنا هنا اليوم لتهريبك من السجن. خذ هذا المسدس المحشو بالرصاص، إنه سبيلك للخروج من هنا وتعامل معه بحذر إن كنت مبتدئاً. ثم

كرر: نعم إنه سبيلك للخروج وأنا لا أستطيع فعل شيء سوى تسليمك المسدس؛ استعماله مسألة تتعلق بك. نحن الجنود نستعمل أسلحتنا في ساحة المعركة لدحر العدو وأنت تستعمل المسدس لنيل الحرية.

تابع الجندي، ووجهه تكسوه ابتسامة عريضة، قائلاً: أمّا أنا فقد أكملت خطة سفري إلى أوروبا بمساعدة المبلغ الذي قبضته من عائلتك. حصلت على تأشيرة سفر للسويد، وسيكون اليوم آخر يوم لي في هذا البلد. عندما أخرج سوف أستقل الحافلة التي تقع على مقربة من هذا المكان لأذهب إلى المطار. حظاً سعيداً يا صديقي، أتمنى أن تخرج من هنا عاجلاً لا آجلاً. صافحه بحرارة وصعد السلم تاركاً إياه في دوامة من اليأس والقنوط، فما يمكنه أن يفعل بهذا المسدس وقد أمسكه لأول مرة في حياته، أيواجه بالمسدس الجنود المدربين والمدججين بالسلاح؟ شرع يقلّب المسدس في يده كما يقلب الطفل لعبة جديدة، فأدرك أن هذا الحل إنما هو محض غباء.

وذات ليلة، سمع صرير غطاء الحفرة يفتح تدريجياً. الغريب في الأمر أن ذلك الوقت لم يكن وقت الطعام، فمن القادم؟ نهض ليتبين هوية الزائر. لبرهة ظن أنه الجندي الشاب الذي أخذ الفلوس، أتى ليساعده على الهروب.

أخذ ذاك الشخص ينزل من على السلم بحذر محدثاً دوياً قوياً، كان شخصاً ضخماً كالفيل. بدأ علوان يحدق فيه بخوف ودهشة، فاكتشف أن الزائر هو العميد صاحب المنديل. لم يكن مرتدياً بزته العسكرية، بل لبس ملابس مدنية بيضاء مكونة من قميص وسروال ضيق للغاية تفوح منها رائحة كولونيا «باكو رابان»

التي عطر بها المنديل. خاف علوان غاية الخوف لأنه ظن أن العميد على علم بالمسدس وقد أتى للتحقيق معه في جريمة حيازة السلاح غير المرخص وللتحقيق معه وسؤاله عن دوره في اختفاء الجندي الشاب. بدأ يدبر في رأسه ما سيقوله دفاعاً عن نفسه في محاولة لتفادي أساليب التحقيق العنيفة المعهودة في مثل تلك الظروف. بينما كان العميد ينزل بجسده الضخم على السلم، انتهز سيوم علوان الفرصة ودس المسدس في حفرة كان قد جهزها لمثل تلك الحالات المفاجئة.

وأخيراً وصل العميد إلى قعر الحفرة حيث يجلس علوان، وذلك بعد تعب شديد كاد يكتم أنفاسه ويوقفها؛ جسمه مبلل بالعرق وعيونه محمرة من الخوف. العميد خاف من النزول إلى ذلك المكان النتن والضيق الذي لا يسع إلا لعلوان والقارورة التي يتبول فيها.

قال وهو يبتسم ابتسامه لا معنى لها: يجب أن أعود للتدريب العسكري وممارسة التمارين الرياضية حتى تعود لي قوتي ورشاقتي التي كانت عندي في الماضي؛ لقد كنت جندياً قوياً يتمتع بالشباب والحيوية. لن أبقى على هذا الوزن لأنه سيضرني من النواحي الصحية والجمالية؛ أليس كذلك؟

سمع علوان ما قاله العميد إلا أنه لم يرد عليه. واصل العميد قائلاً: لا تخف يا سيوم؛ هذا اسمك، أليس كذلك؟ لقد أخذت اسمك من سجل السجناء. وإن لم يكن هو اسمك، فأخبرني اسمك الصحيح. لا مشكلة، سأعطيك اسماً من اختياري؛ اسمك الجديد هو أرنب.

ثم قال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة: اسمع يا أرنب، هذا المساء أتيت بخصوص أمر يرضيني ويرضيك؛ لم آت بصفتي ضابطاً أو بحكم عملي للتحقيق معك كما كان الأمر ذلك اليوم. الآن أنا أتيت إلى هنا بصفتي المدنية وكصديق من أصدقائك؛ جئت لنتسلى معاً لبعض الوقت فماذا تقول؟

قال هذا وغمزه بطرف عينه وواصل قوله: أرجوك لا تخف مني؛ دعنا نتحدث ونتسامر فهناك الكثير الذي نستطيع قوله وفعله لأن الليل في أوله وأمامنا الساعات الطويلة؛ دعنا نسهر حتى الساعات الأولى من الصباح. نستطيع أن نجلب السعادة أحدنا للآخر؛ ألم تقرأ ما كتبته ورسمته في المنديل الذي تركته في حفرتك الجميلة ذلك اليوم؟ لقد وضحت غرضي ومطلبي وكانت الرسوم إشارة كافية لما أقوله الآن وأتيت من أجله.

ردّ عليه علوان قائلاً: ما الذي تقصده بهذا الكلام وما هو الغرض الذي تتحدث عنه؟

قال العميد: بكل تأكيد أنت تعرف ما أقصده، فلا تمثل دور الغبي، لا تتصنع الغباء يا صبي وأنت على درجة عالية من الذكاء؛ أنت شاعر وكلماتك المنتشرة على حيطان الزنزانة كلمات شاعرية وتتكلم عن الحب والحرية. لكن دعني أقل شيئاً ربما لم يقله شخص من قبل ألا وهو أن مشكلة المدنيين من أمثالك أنهم يظنون أن العسكريين أناس من دون روح وإحساس. العسكري الذي يقف أمامك بخلاف ذلك وسترى معنى ما أقوله حالاً.

وأخذ يقترب منه تدريجياً ثم أخرج من جيب قميصه زهرة حمراء أشبه بالزهرة المرسومة على المنديل. لمس بالزهرة طرف خد علوان

لمسة خفيفة والابتسامة الخبيثة التي على وجهه تزداد خبثاً على خبثها.

قال العميد: لا تبتعد عني ودعني اقترب منك أكثر؛ دعني أقترب من أرنبي الخائف وألمسه بيدين طالما قبضتا على البندقية في الزمان الماضي. اليوم لي يدان لينتا الملمس ولا عودة لعهد الخشونة المزعجة؛ الآن أنا عسكري رقيق مثل المدنيين لأني أقضي اليوم في المكاتب وتحت الظل والهواء المكيف المنعش. أنا أعيش حياه رغدة فيها كل المتع والرخاء بعيداً عن البندقية والحروب والشظف. دعني ألمس هاتين الوجنتين النضرتين، دعني اقترب منك أكثر ولا تخف فلا أحد معنا سوى الليل والهوى. هيا تعال قربي ولا تخجل أو تتردد، نحن الآن بمفردنا؛ دعنا نصل سريعاً إلى ما أتيت من أجله.

ومن ثم قال: لقد أتيتك الليلة مسالماً ولا أحمل سلاحاً أو أضمر شراً؛ هذه ليلة الحب مع علوان. ورفع يديه في الهواء فوقعت الزهرة الحمراء التي يحملها على الأرض.

قال: انظر، أنا أحمل زهرة السلام.

كان علوان في دهشة من الذي يجري أمامه. منظر الرجل العسكري في حالة بذيئة ومخجلة. بدأ فكره يجري بسرعة خلف الوصول لطريقة تخلصه من العسكري غريب الأطوار. ومن دون تفكير انحنى للأرض كأنه يحاول التقاط الزهرة وإعطاءها لصاحبها، إلا أنه بدلاً من ذلك سحب المسدس من الحفرة الصغيرة حيث دفنه ورفعه وبسرعة خاطفه أطلق النار على العميد؛ الطلقة أصابته في مقتل ففارق الحياة.

وقف علوان لبرهة قصيرة وهو ينظر ببرود إلى الجثة الهامدة التي أمامه والدماء تنزف منها بغزارة. وأدرك أنه بات في الخطوة الأولى في درب الحرية؛ إنه يدخل عالم الحرية من أوسع أبوابه. وبدأت الغبطة تدب في سائر جسده، حتى أنه طلع على الجثة الهامدة وأخذ يرقص عليها ويضربها بقدميه كما يضرب الطبال الطبل. ورفع المسدس إلى أعلى ثم تحولت الغبطة إلى غضب، فأخذ يضغط برجليه على رأس العميد ووجهه؛ الدماء تنزف من فتحات الأنف والفم والأذن.

وتمنى لو كانت قيثارته معه حتى يعزف لحن الحرية التي نالها؛ المكان مفعم برائحة النصر الممزوج بالبارود والدم وعطر العميد المفضل «باكو رابان».

ونزل من على الجثة والتقط الزهرة الحمراء وداسها بقدمه ثم غرس عودها القصير في فم الجثة بين فتحة السنين الأماميتين. وبسرعة مذهلة تسلق السلم الهزيل من دون توقف وصعد، ترك الجثة تسبح في الدماء الغزيرة. ألقى نظرة أخيرة على كلمات الشعر على الجدران؛ كانت تتحدى السجن والسجان وتمتم بكلمات قصيدة تقول:

في الطريقِ لعينيكِ

أوقفني الرجلُ الجمركي

وفتّشَ قلبي ومحفظتي...

لمْ يكنْ في دمي غير خارطةٍ للعذاباتِ

لمْ ترها عينهُ الزئبقيةُ

– واللهِ، يا سيدي إنها صورتي
ناحلٌ كالقطارات في البرد
متشحٌ بالتشردِ والمفرداتِ اللعينةِ
... يا ليتها تعرف الآن أيَّ المخاوفِ تقتسمُ القلبَ ـ هذا
المجوّفَ، كالطبلِ ـ هذا الكسيرَ أمام وجومِ المفوّضِ
– والله يا سيدي إنها...
كان وجهي خلاصةَ جوعِ المدينةِ
كان صديقَ الكلابِ التي قاسمتني فتاتَ المزابلِ والبردِ
ها إنني أعرفُ الناسَ والأثرياءَ المرابين ـ يا سيدي ـ واحداً، واحدًا،
من خلالِ امتلاء مزابلهم..
أعرفُ الآن
أيَّ اللحومِ يفضّلُ هذا المفوّضُ...

ووجد نفسه خارج الحفرة الرهيبة. وقف على غطاء الحفرة بينما كانت النجوم تنير طريقه نحو الحرية التي لا حدود لها. وقف لثوان كي يتمتع بالجمال والحرية قبل قيام ضجة الصباح وحركة الناس ودخان السيارات. بعد أن تمكن من الفوز بالحرية انطلق يعدو إلى الأمام لجهة لا يعرفها، وواصل يجري وهو يستمع لأصوات الثعالب ونباح الكلاب الضالة تأتي من أغوار بعيدة. وصل إلى محطة بنزين مهجورة وتوقف لحظات أمامها وأخذ نفساً عميقاً ثم جلس على عتبه المدخل ورمى عليها جسده المنهك. ترك التفكير في المشاكل ودخل في نوم طويل حتى الصباح عندما بدأت خيوط الضوء تنعكس على عينيه وتدعوه إلى اليقظة

والنشاط، وتعلن بداية يوم جديد.

هنا انتهت قصة سيوم علوان. أما بالنسبة لناجي فقد جعلته هذه القصة يعيش واقع هذا المكان الذي يختلف عن مجرى الحياة في مجتمعه المليء بالتناقضات والصراعات، على الرغم من المحاولات التي تبذلها كتل الضغط السياسية وتنظيمات المجتمع المدني لإجبار الحكومات على تغيير سياساتها المناهضة لطموحات الشعب وحقوقه الفردية والإنسانية.

مكوثه في هذه المدينة أخرجه من التقوقع الذي كان يعيشه في لندن بسبب سرعة إيقاع الحياة والمشاكل التي لا تنتهي أبداً؛ اليوم في لندن عبارة عن عملٍ متواصل يجعل الفرد يلهث خلف الوقت تماماً كالآلة الميكانيكية. في المدينة الظالمة تنعدم الشفقة ويصير الإنسان عبداً للوقت؛ والمجتمعات الغربية أماكن شرسة ولا متسع فيها للراحة من التعب أو الاستمتاع بملذات الحياة. وبالمقابل تجد أن المجتمعات النامية تمشي على إيقاع حياة هيّن ومتمهل؛ ستكون المصيبة كبيرة لو تعودوا على السير السريع وربطوا أنفسهم بنظام الزمن المتبع في المجتمعات الغربية.

في مكانه هذا استطاع التمتع ببعض الاستجمام مثل النزهات على ضفاف النهر الذي سحره بجماله والحفلات المستمرة التي يدعوه إليها رجال الأعمال والصحافيون والدبلوماسيون. المجتمع هنا يمكن وصفه بالحيز الضيق فهو مقسم إلى طبقات كما هي الحال في المجتمع البريطاني، لكن التقسيم الطبقي هنا يظهر بوضوح إذا عملت مقارنة بينه وبين المجتمع البريطاني.

في هذا المجتمع البعيد عن لندن، لم يستطع التقليل من تناول

الكحول، بل وجد مجالاً أوسع للشرب جراء العزائم والحفلات. هنا، كل شيء مجهز لحياة رجل أعزب مغترب. هناك علاقته بدافني جعلته يقتصر على أشياء قليلة من المأكولات والمشروبات؛ هنا لديه بيترايس وراموس يديران البيت ويعتنيان به.

بيترايس وراموس لهما قصة أدهشته ووضحت له واقع حياة الأفراد الفقراء من اللاجئين والمهاجرين، وجهدهم لاقتناص فرص العمل الضئيلة على الرغم من فقر السكان الأصليين. في يوم عاد إلى البيت مبكراً على غير عادته ليأخذ تقريراً كتبه للصحيفة نسي أن يأخذه معه في الصباح. عند عودته لم يتوقعه كل من بيترايس وراموس لأنه يعود دائماً عند الرابعة لتناول وجبة الغداء وأخذ القيلولة.

عند وصوله لاحظ هدوءاً تاماً، ظن أنهما خارج المنزل. عادةً ما يقومان بالأعمال الثقيلة في غيابه، كتنظيف الحديقة وكي الملابس، أما اليوم فلا وجود لهما إطلاقاً. عندما تقدم إلى مدخل البيت فاجأته رائحة قوية تزداد كلما اقترب أكثر. الرائحة كانت آتية من القسم الذي يقطنان فيه أثناء وجودهما في المنزل. بجانب تلك الرائحة، سمع صوت موسيقى محلية صاخبة، فقد كانت خليطاً من اللغة الأفريقية المتداولة ممزوجة باللغة الفرنسية.

اقترب من النافذة، ونظر خلال ثقب صغير في الستارة ليرى ما يدور بالداخل. دهش مما رآه دهشة مصحوبة بالضحك. كانت الحجرة مطفأة الأنوار مضاءة بشموع سوداء موضوعة على السجاد. وفي ذلك الطرف وعاء كبير أشعلت فيه جمرات ملتهبة تحت بخور من الأعشاب يحترق بشدة. وكانت هناك نارجيلة كبيرة يفوح منها دخان تبغ ذو رائحة نفاذة. ما أدهشه أكثر من هذا

وذاك أن بيترايس وراموس كانا عاريين تماماً عدا تلك العصابة السوداء الملفوفة على رأس بيترايس. كانت بيترايس تحمل عصا مكنسة طويلة وترقص على إيقاع سريع يحدثه تصفيق راموس العالي، وبين الحين والآخر تتوقف لتأخذ رشفة من النارجيلة المتقدة بالجمر، وتقهقه قهقهات عالية وراموس يحثها على القفز عالياً على عصا المكنسة الطويلة قائلاً: إلى أعلى بيترايس إلى أعلى. وتواصل هي الرقص؛ يرتلان بصوت عال تراتيل بلغة غير مفهومة لناجي، والعرق ينزل من جسديهما كأنه شلال من نهر أفريقي.

بدا له المشهد وكأنه طقس وثني خارج حدود المدنية والعصر الحديث. فقد أعاده إلى العصور المظلمة، عصور السحر والزار التي انقرضت من الغرب منذ بدء التقدم العلمي الذي أعقب الحرب العالمية الأولى. أثناء هذه الرقصة التي برأيه رقصة لتجنب الحسد وكسر عثرة الحظ، كانت بيترايس تقع على الأرض بحركة تلقائية سريعة وهي ترتل، وراموس يدور حولها سريعاً حتى يفقد توازنه، ويقع بجسده عليها وهي خارج حدود الوعي. بين الحين والآخر كانا يرشفان من بعض النبيذ الأحمر، وزجاجات فارغة منتشرة في القاعة وفي النهاية يمارسان الحب بهمجية وعنف.

بعد أن شاهد ما شاهده، ذهب إلى الجزء الذي يشغله من المنزل وتركهما في طقسهما الوثني المدهش. أدرك أن علاقتهما تتعدى الزمالة، ذلك على الرغم من فارق العمر، حيث كان راموس في أواسط العشرينيات، بينما كانت بيترايس في أواسط الأربعينيات. كانت علاقتهما الودية لا تخلو من المصادمات والمشاحنات التي تدور في المطبخ؛ أساس هذه المصادمات هو عدم قيام راموس بواجباته المنزلية بسبب كسله وعدم تحمله المسؤولية. ودائماً ما كان

ناجي يأتي ويجدهما في وسط شجار تقوم فيه بيترايس بضرب راموس بأدوات تنظيف البيت.

ولراموس صفة أخرى بجانب الكسل، وهي ولعه الشديد بأغاني البوب وملابس الشباب الغربي، يشتريها من راتبه الشهري القليل. يشتري الملابس من الباعة على أرصفة السوق في العاصمة المكتظة بالبضائع الصينية والكورية وغيرها. راموس وبيترايس مدمنان على تعاطي الخمر، يجلبانه من النوع الرديء رخيص الثمن. فقد اعتاد ناجي على العراك والضحك اللذين يحدثانهما في فناء البيت عندما يلعب الخمر برأسيهما. لم يحاول ولو لمرة واحدة التدخل في شؤونهما الخاصة أو فض العراك بينهما.

تعاطي الخمر لدى راموس وبيترايس هو الوسيلة الوحيدة لنسيان الواقع المرير الذي يعيشانه نتيجة للبعد عن الأسرة لسنين طويلة؛ إذ إنهما لا يستطيعان توفير المال اللازم لجلب أقاربهما أو السفر لمقابلتهم. هذه الحياة، كما بدت لناجي، إنما هي حياة تخلف وشظف وعوز؛ راموس وبيترايس يمثلان لناجي النموذج الصارخ لضحايا الظلم الاقتصادي العالمي، الذي قسم العالم إلى قسمين تفصل بينهما هوة سحيقة تمتد لقرون طويلة من الزمن.

أحد القسمين يجرفه تيار الفقر الذي ينتزع استقرار الأفراد ويحول الشوارع لمسارح من الاضطرابات، حيث الفقر داء لا دواء له. ترى الشوارع الفقيرة المزدحمة مثل ساحة للقتال، يمشي فيها الكبار والصغار وهم يحملون الأسلحة الأميركية والروسية والصينية، أسلحة قديمة تسربت لهم بعد أن فقدت قيمتها في الدول التي قامت بصناعتها. هذه الأسلحة تعطى للفئات المتنازعة لمواجهة بعضها بعضاً في نزاعاتها العسكرية والسياسية والعرقية، مما جعل

هذه المجتمعات تعيش في نزاع وكأنها غابة من دون قانون ولا رقيب ولا حسيب.

وتظل المجتمعات النامية في حالة من الفوضى الشاملة، رغم وجود فئة صغيرة تنعم بالاستقرار وتتمتع بالمأكل والمشرب والمأوى. لقد اتضحت له القصة الحقيقية لصراع الفرد العادي عندما زار بيت بيترايس وراموس الذي يبعد ساعة عن العاصمة. منزلهما الصغير مبني من صفيح تلفحه حرارة الشمس نهاراً، وتقتلع الأعاصير والأمطار أساس بنيانه.

لهذا السبب كان كل من بيترايس وراموس يتغيبان عن العمل كثيراً. ففي يوم أتى كل من بيترايس وراموس وقالا إنهما يريدان التحدث معه. فاستنتج ما أرادا قوله.

قالت بيترايس: سيدي ما مصيرنا بعد عودتك إلى المملكة المتحدة؟

قال مستغرباً: تعنيان بعد عودتي إلى لندن؟

قالت بيترايس: هذا ما نعنيه، ونعني هل سنستطيع أنا وراموس العودة معك إلى المملكة المتحدة لخدمتك والاعتناء بك هناك كما نفعل هنا؟

قال: أولاً أنتما لستما مستأجرين للخدمة من جانبي شخصياً، بل وضعتكما الشركة في خدمتي التي تدير هذا المنزل؛ لذلك بعد عودتي ستعودان للعمل في أي مكان ترسلكما الشركة إليه. أنتما أساساً لم تأتيا معي من المملكة المتحدة حتى أستطيع أخذكما معي. أنا وجدتكما هنا، وإن أردت أخذكما معي فذلك مستحيل. فكيف لي أن أحصل على تأشيرة دخولكما معي إلى المملكة المتحدة؟.

كانا متعلقين بخيط رفيع من الأمل في أنهما يستطيعان العودة معه إلى أوروبا، كي يغادرا هذه الرقعة القاحلة من بلاد الله. هذه حالتهما ومعهما أعداد كبيرة من المهاجرين الفقراء، نزحوا للحصول على مال يسد الرمق ويبقي على الحياة. تراهم يجوبون الشوارع ليل نهار في محاولة يائسة لالتقاط الرزق واقتناص فرص العمل الضئيلة. بيترايس وراموس على سبيل المثال، قبل عثورهما على العمل مع الشركة التي تدير منازل كمنزل ناجي، كانا يجوبان شوارع العاصمة ويتعيشان من التسول ومما يصل إليهما من أقمشة وعطور محلية ومستوردة من شتى بلدان العالم. يبعثان المال إلى أفراد أسرتيهما في المناطق البعيدة المهجورة ليعيشوا عليه رغم قلّته وشحه.

هذه الحالة من اليأس والبؤس والفقر، أدت إلى حالة مهلكة من الجهل والخوف من المجهول. وحلّت ظلمة لا يبددها سوى التخبط وسط الشعوذة والسحر والحسد وإدمان الكحول والمخدرات. وهذا الواقع جعل حياة راموس وبيترايس ترتبط بالصراع واليأس والاضطراب، وبصيص من الأمل في أنهما سيتخلصان من محنة الفقر الذي يحيط بهما. الفقر يحيط بأعداد كبيرة ممن يعيشون في الوسط المتهتك المنهك، حيث لا حقّ للفرد في ممارسة أبسط حقوقه الإنسانية مثل سد الرمق والعمل والتعليم والصحة والسكن. نخبة صغيرة تتمتع بخدمات التعليم والصحة وغيرهما.

ووصل معدل البطالة إلى أعلى درجاته مما دفع بهذا الوسط إلى انهيار سياسي وعسكري واقتصادي كامل. حل التفكك وعمت الفوضى، وظهرت جرائم القتل والتظاهرات العنيفة في الشوارع بينما وقفت الحكومة عاجزة عن التصدي لما يجري حولها. هذه

هي الحال منذ سنين طويلة ولا تظهر في الأفق بادرة نحو الحلول الناجعة.

وعلى الرغم من بؤس الوضع، فإن البنك الدولي ما زال يحث بلداناً كثيرة على شد أحزمتها واتخاذ نمط اقتصادي يحاكي النمط الرأسمالي المتبع في البلدان الغربية، دون النظر في اختلاف الأوضاع الاقتصادية والسياسية والتجارية. الأولوية في الأسواق الاقتصادية العالمية تعطى لصادرات الدول المتقدمة على حساب منتجات الدول الفقيرة، التي تحرم من التسهيلات لصالح صادراتها الزراعية إلى الأسواق الغربية. ويضع السوق العالمي، بسبب عدم عدالة المنافسة، عراقيل كبيرة أمام الدول الفقيرة ومنتجاتها وخاماتها الطبيعية.

واقع الحياة في الدول الفقيرة يحظى بتغطية عابرة في الصحف البريطانية والغربية. وهذا ما أتى به إلى هنا في المقام الأول، هدفه هو رؤية الواقع عن كثب ورصده والكتابة عنه. أراد كشف الغطاء عن المشاكل الشائكة والمستعصية التي تدفع أكثر من نصف سكان العالم لأن يعيشوا خلف سياج الفقر والعوز. الناس لا يحصلون على الحاجات الأساسية والضرورية، مثل الغذاء والدواء والتعليم والماء، وهي من حقوق الإنسان المعروفة على المستويات كلها العالمية والإقليمية والمحلية.

وجوده في دولة فقيرة أتاح له فرصة ليقارن بين الفلسفة والقوانين الاقتصادية الغربية وبين الواقع المعاش في المجال الاقتصادي والاجتماعي. أراد الوقوف على نظريات اقتصادية درسها في الجامعات خاصة تلك المنادية بعدم تدخل الحكومة في حركة السوق الوطني والعالمي، وترك العوامل الاقتصادية تحدد مسار السوق والأسعار. يجب العمل بسياسة السوق الحر رغم الصعوبات

التي تجلبها على معيشة الفرد والأسرة والمجتمع؛ هناك يد خفية ستنقذ الاقتصاد من نكساته وتقلباته كما أكد الفيلسوف الاقتصادي آدم سميث وغيره من الفلاسفة الاقتصاديين الذين وضعوا أسس فلسفة الاقتصاد الرأسمالي الغربي.

هذه الفلسفة طبقت على العلاقات الاقتصادية العالمية حيث يجب احترام حرية التجارة مهما كانت عواقبها، مثل تكدس البضائع الغربية في أسواق الدول التي تعجز عن استيعابها وتسديد قيمتها. الأحكام الاقتصادية يجب أن تظل قائمة كما هي، على الرغم من أن واقع الحياة يتطلب أحكاماً اقتصادية جديدة، أهمها رفع أسعار الخامات الطبيعية التي تبيعها الدول الفقيرة في الأسواق العالمية.

أراد طرح هذه الأفكار في كتاب ومذكرات يبعث بها إلى البنك الدولي لكشف الحقائق كما شاهدها على أرض الواقع. وهو يقلّب هذه الأفكار في ذهنه، قفزت في مخيلته صورة عودته إلى لندن وتذكر أن عودته ستعني استعادة منصبه من دافني التي أخذته في غيابه. وعلى هذا سأل نفسه كيف سيواجهها وكيف سيعود إلى الحياة الرتيبة التي رسمتها له ولا سيما لقاؤهما يوم الأحد؟

لقد عاش طوال هذه المدة حياة سهله خارج تعقيدات الحياة العصرية التي عاشها في لندن. حياته في لندن عبارة عن سلسلة من العمل المتواصل المتعب. ومتعته الوحيدة كانت سجائره وكتبه وكؤوس الخمر التي يشرب منها الكثير حتى صار مدمناً. غير أن اعتماده على الكحول لم يقلّ خلال إقامته في أفريقيا، وذلك بسبب الدعوات لحفلات العشاء والغداء الكثيرة التي يدعى لها.

إحدى هذه الدعوات التي لبّاها هي دعوة مهمة من إحدى

السفارات الأوروبية إلى حضور حفل عشاء ساهر في بيت السفير الذي يبعد عن العاصمة ما يقارب ٤٥ دقيقة. البيت يقع على تلٍّ عالٍ ومنفردٍ، هذا العلو أبعده عن التصدع الذي يعيشه المجتمع المحلي من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية.

بيت السفير محاط بسور عال وله بوابة حديدية يقف أمامها جنود مسلحون يحرسونه ليلاً ونهاراً. كان بيت منظماً إلى درجه عالية، في داخله بهو كبير وقاعة استقبال واسعة جدرانها مغطاة بصور زيتية للسفراء الذين عملوا في هذا البلد. من أرجاء المكان تنبعث موسيقى كلاسيكية تتبع الفرد أينما اتجه؛ الموسيقى تنبعث من مكبرات صوتية وُضعت داخل الجدران، لا شيء يشير إلى مكانها.

وهناك مضيفون لا حصر لهم يقومون بتقديم أنواع مختلفة من النبيذ والشمبانيا الغالية. بجانب صالة الجلوس الكبيرة والتي تتسع لأكثر من مائتي زائر، هناك قاعة طعام بطاولة تتسع لأكثر من مائتي شخص. المدعوون خليط من المسؤولين المحليين والأجانب من أمثاله. في الحفل، وجد فرصة للتحدث مع عدد كبير من المدعوين، وتعرف إلى الأجانب المقيمين في البلد.

أراد بصورة خاصة معرفة رأي الموجودين في مستقبل البلد والنكسات العديدة التي يعاني منها والكوارث والنكبات المتوقع حدوثها. وقرر تدوين ما سيسمعه عن المسألة في مفكرته الخاصة التي أعدها لهذا الغرض.

إلى طاولة العشاء، جلس بجانب زوجة رئيس الوزراء. لماذا؟ لا يعرف، فهو مجرد صحافي وليس من الضيوف المهمين كالدبلوماسيين ورجال الأعمال، وهو لا يجيد التحدث بالفرنسية

باعتبارها اللغة المتداولة بجانب اللغة الأفريقية. لكن بما أن صحيفته لها شهرة عالمية، فقد أجلسه مضيفه بجانب السيدة الأولى في البلاد.

أصناف طعام العشاء متعددة وذات نوعية في غاية الجودة، جلبت من أوروبا خصيصاً لحفل السفارة. وكالعادة فقد ألقى السفير كلمة ترحيب بضيوفه، أطرى فيها على العلاقة المتينة والطويلة التي تربط بين دولته وهذه الدولة.

زوجة رئيس الوزراء امرأة جميلة الملامح، طويلة سمراء ذات شعر أسود قصير. وهي تتحدث الإنكليزية بصعوبة، لكنها تجيد الفرنسية إجادة تامة، فقد أكملت دراستها في جامعة السوربون في فرنسا. بعد تناول العشاء، خرجوا للاستراحة في حديقة البيت الكبيرة التي صممت لتشبه الأدغال والغابات الأفريقية الوعرة، بأشجارها الكثيفة الشاهقة، وزقزقة طيورها ليلاً. خرج ناجي مع مجموعة من رجال الأعمال وخبراء أجانب من الذين أتوا أساساً من أجل مساعدة الدولة في بعض الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية والتعليمية والصحية.

أخذوا يتجولون بين الأشجار وينظرون للسماء الصافية ويشمون الهواء العليل الذي يخلو من دخان المصانع وسط المدينة. بين الضيوف ينتشر المضيفون يقدمون كؤوس الخمور، ويملأونها الكؤوس كلما فرغت. بدأ يشعر بثقل رأسه من كمية الخمر التي تعاطاها، لكن عقله كان حاضراً.

انضمت إلى المجموعة زوجة رئيس الوزراء وفسح لها الجميع مكاناً بينهم وواصل الجميع الحديث في مواضيع مختلفة. بدأت

المجموعة تتناقص تدريجياً، فوجد نفسه منفرداً بجانب زوجة رئيس الوزراء. واصلا الحديث ومن ثم مشيا في أرجاء الحديقة الجميلة التي تنير طرقاتها أضواء خافتة بين الأغصان تشبه النجوم. الجو على درجة من الشاعرية تعجز الكلمات عن وصفها. واصلا المشي حتى نزلا من على الهضبة العالية إلى أسفل المنحدر والحديقة، وبان المكان خلفهما وكأنه مدينة أحلام رحلا من وسطها لتوهما. وقفا لبرهة يتأملان المنظر الساحر في الأعلى، ثم جلسا ليتمتعا بهدوء الليل وجماله وخلو المكان الذي لا يبدد سكونه سوى صوت الموسيقى المنخفض المنبعث من داخل البيت.

وهما في هذه الجلسة سألته عن لندن وعمله وعن مدة بقائه في البلاد، أجاب عن أسألتها بأدب وتهذيب. كانا مثقلي الرأس وفي حالة استرخاء كلّي لكثرة ما شرباه من نبيذ. قالت: يظهر عليك التعب؟

قال: أنت على صواب، فقد قضيت يوماً طويلاً في دار الصحيفة اليومية التي أعمل فيها. عدت للبيت لنصف ساعة فقط لأغير ملابسي ثم أتيت ها هنا.

قالت بعد سكوت قصير: هل لي أن أرى لون عينيك؟

تعجب من هذا الطلب لكنه رد عليها بقوله: لن تستطيعي رؤيتهما في الظلام تحت هذه الأضواء الخافتة. عيناي عسليتان رغم أن عيون أمي وأبي زرقاء وبشرتهما بيضاء. أنا بشرتي حنطية، وكما تقول أمي فإن شكلي يشبه أبناء البحر الأبيض المتوسط. أنا أتعجب من ذلك، فقد أردت أن أدرس شجرة عائلتي لأرى ما إذا كان

أحد من أسرتي من منطقة البحر الأبيض المتوسط. لكن مشاغلي حالت دون ذلك.

قالت: أنا أصر على تأملهما لأرى إلى أي عمق يأخذانني.

ابتسم لما قالته وهو في استغراب من جرأتها. اتسعت ابتسامته وكأنه يحثها على مواصلة الكلام حتى يصل إلى مغزى ما تقوله. وفي ذلك الوقت كان يشعر بلذة الشراب تدغدغ أعصابه وبراحة واسترخاء داخل هذا الوسط الشاعري حولهما. لقد نسي اضطراباته ونسيت هي الأخرى وجود الحفلة والمحتفلين، كما نسيت وجود زوجها في المكان. مد يده والتقط يدها، قدمتها له بتلقائية وبيدها الأخرى سحبت شالها الكشماري الأسود الناعم، طرحته على الأرض وألقت بجسدها المرتخي عليه، وجذبته من يده ليستلقي بجانبها. ومن دون مقاومة تجاوب معها ونسي ما يدور حوله.

ومد يده وتحسس عنقها الأملس الطويل الشبيه بعنق الغزال البري، وواصل منحدراً إلى داخل فتحة صدر فستانها الأسود الشفاف. ولمدة دقائق غابا داخل مداعبة مثيرة بينما الخمر تلعب بالرؤوس. وأخذ يحدق في وجهها الأسمر وشفتيها البارزتين، وشعرها الأسود القصير الذي أضفى عليها جمالاً حديثاً. وبخفة دفع بشفتيه حتى احتوت شفتيها وغابا في عالم لا وجود فيه لشيء سوى لذة الخلوة.

أراد مزيداً مما هما فيه، فنزل بيده أكثر وأكثر داخل فتحة فستانها حتى خلعه كلياً من على كتفها، فظهرت أمامه تفاصيل صدرها الغض. وبقي لثوان يتأمله في هدوء وصمت. نظر إلى السماء

فتراءى له منظر النجوم وكأنها تزحف في قافلة لتقبض على بعض المتعة معه، كما تصور النجوم نازلة لكي تلثم حلمتيها. فجأة وهما وسط هذه اللذة سمعا صوت قرع جرس آتياً من بعيد، أفزعتهما دقاته وأخرجتهما من داخل الغيبوبة القصيرة التي كانا فيها.

قرعات الجرس كانت إيذاناً بنهاية الحفلة، فأخذت ترتب حالها. كما تذكرت وجود زوجها بمفرده. انتابها الذعر الشديد والرهبة العميقة، لكن سرعان ما عادت لصوابها. وقفت بجانبه وهو يحيطها بذراعه، ثم مشيا عائدين للمنزل خارجين من جنة الأحلام. بانت لهما من بعيد رؤوس المحتفلين، فتركها تواصل السير بمفردها وكأن شيئاً لم يحدث. عند وصولها وجدت زوجها جالساً بمفرده، ضائعاً في لذة نكهة سيجاره الهافاني الثمين، يفكر في أفكاره الخاصة؛ حاولت قراءة تعبير وجهه لتتبين ما إن كان غاضباً، لكنها لم تجد سوى النشوة تعلو وجهه. اقتربت منه وأحاطته بذراعيها وطبعت قبلة على شفتيه.

قال: دعينا نعود فالحفل شارف على الانتهاء. ثم اقترب منهم السفير وزوجته، تبادلا معهما التحية وطلبا الاستئذان بالعودة شاكرين الحفاوة وحسن الضيافة. لكن السفير وزوجته طلبا منهما البقاء الليلة معهما في الجناح الخاص بالضيوف. حاولا الاعتذار والشكر على هذا الطلب الكريم، إلا أنهما رضخا أمام إصرار السفير وزوجته.

أما ناجي فودع مضيفين وخرج حيث كان سائقه في انتظاره. كانت الساعة حينها تشير إلى قبل الرابعة فجراً بقليل. وأخذت السيارة تشق به الطريق المعتم في هدوء حتى وصل لمشارف بيته.

أمامه حركة غير عادية، وكلما اقتربت به السيارة من البيت أكثر، زادت الأصوات والحركة وغدت واضحة. كان خائفاً بعض الشيء، إلى أن رأى بيترايس وراموس يدوران أمام مدخل البيت بعصبية؛ ظن أنهما يلعبان لعبة الزار تلك.

بجانبهما رأى أعداداً كبيرة من الناس تدخل البيت وتخرج منه. فقال في نفسه قد يكون ثمة شجار بينهما وتدخل الجيران للحجز بينهما. هذا كان الاحتمال الأكبر، وذلك لما شاهده في الماضي من صراعات. بعد برهة، دقق النظر فرأى جنوداً مسلحين وأمتعة تجر وتسحب من داخل البيت، وسيارات عسكرية كبيرة.

ما إن وصل إلى البيت، حتى رمت بيترايس نفسها عليه مستنجدة معتذرة عن دخول الجنود البيت، وأخبرته بأنهم اقتحموا البيت؛ ما كانت لتسمح لهم بالدخول. اقتحموا المكان وأخلوه من محتوياته. اقترب ناجي من الجنود وهم في حركة سريعة، وسألهم عن الذي يجري.

أجابه أحدهم قائلاً: أوامر من رئيس الوزراء والحكومة ووزارة الخارجية بمساعدة الأجانب كي يخرجوا من البلد بسرعة تحسباً لوقوع انقلاب في اللحظات التالية؛ لذا فسلامة الضيوف تقتضي ذلك. لم يعرف ما هو الصواب، تصديق ذلك أم عدم تصديقه؛ لكنه أدرك أنه لا بد من التجاوب مع الأوامر رغم أنفه.

بعد انتهائهم من إفراغ البيت وهو يقف أمامهم في ريبة وحيرة، أراد الدخول ليغير ملابسه، إلا أنهم نصحوه بالعدول عن ذلك لضيق الوقت. ركب السيارة العسكرية، وكانت مملوءة بالأمتعة. ألقى بجسده المتعب على مقعد السيارة. وواصلت السيارة تشق

طريقها في ذلك الوقت المبكر قبل بزوغ الفجر، والمدينة في سهاد خفيف. كانت السيارة متجهة إلى المطار كما قيل له. أخذت لفحات الهواء العليل تلعب بشعره المبلل بالعرق، ووجهه الساخن من دفء ما تعاطاه من شراب، والقلق والخوف يعتريانه.

انتبه من جديد إلى أنه ما زال يرتدي ملابس السهرة، بذلته السوداء وحذاءه الجلدي اللامع وربطة عنقه المنقطة. وسأل نفسه كيف له السفر وهو في ملابس السهرة التي تبدو مضحكة؟ عند وصولهم إلى مشارف المطار اتضحت له حركه سريعة تدب في المكان ورأى أعداداً كبيرة من الأجانب وهم في هلع؛ الجميع في عجلة للخروج من المكان. تناول جواز سفره ووقف في الصف ينتظر وصول الطائرة، وكل ما حوله تدبّ فيه الحياة تماماً كما رأى المطار أول يوم؛ فهناك باعة ومتسوقون وسائقو سيارات محدثين ضوضاء تثقب الآذان. قال في نفسه: كيف يجهلون محاولة الانقلاب تلك؟

اليوم سيترك هذا المكان إلى غير رجعة. لم تتحقق نيته في البقاء لستة أشهر إضافية لجمع معلومات أكثر عن بحثه، ولم يستطع دراسة الاقتصاد والسياسة بالقدر الذي أراد. ظلت هذه الأفكار تتلاطم في رأسه حتى وصوله إلى مقعده في الطائرة.

غط في سبات عميق. استيقظ على أصوات الأدراج فوقه تفتح والركاب يتناولون أمتعتهم. لقد وصل إلى مطار هيثرو منهكاً، وشق طريقه لأخذ سيارة أجرة. وصل إلى البيت وهو في حالة مزرية فرمى بنفسه على الفراش ونام نوماً عميقاً.

في صباح اليوم التالي، باشر العمل. لم يُدهش زملاؤه من رجوعه لأن أخبار الانقلاب وصلت إلى الصحيفة. أما دافني فكانت تدير شؤون

الصفحة الاقتصادية وتحررها، اسمها يتصدر صفحة مهمة في أهم صحيفة لندنية. وصول ناجي يعني عودتها للعمل سكرتيرة ومساعدة له، كما تعني الرجوع إلى حياته الماضية والتقاءه بها يوم الأحد.

لم يُدهش ماثيو ـ رئيس التحرير ـ لعودته، فقد كان ينوي الاتصال به هذا الصباح ليحثه على العودة.

سرد ناجي القصة باختصار: كان الأمر مفاجئاً، كنت محتفلاً مع مجموعة من الضيوف في بيت سفير أوروبي، وبعد انتهاء الحفل عدت إلى البيت ووجدت عدداً من رجال الجيش المسلحين يُخلون مسكني، وقيل إنه احتياط لتوقع حدوث انقلاب في أي لحظة، ولحمايتنا نحن الأجانب سفّرونا كلٌّ إلى دياره..

قال ماثيو: بالفعل دوائر الأخبار حملت هذا الصباح أخبار هذا الانقلاب الذي أوى بحياة الرئيس ورئيس الوزراء وجلب حكماً عسكرياً آخر.

عندما سمع اسم رئيس الوزراء اهتز جسده، إلا أنه لم يفصح لماثيو عن شيء.

قال ماثيو ضاحكاً مما سمع: وهل وجدت وقتاً لتغير ملابس السهرة؟ لقد كنت تلبس الزي الرسمي أليس كذلك؟

قال: صدقني، في تلك الساعة كنت في ذهول، نسيت أمر ملابسي التي كنت ألبسها. كنت أسمع عن فوضى هذه البلدان التي نسميها بالبلدان النامية، لكن لم أتصور يوماً مدى هذه الفوضى. سوف أكتب ما شاهدته في كتاب بدأت العمل عليه.

بعد هذه المقابلة مع مدير التحرير بدأ يفكر في دافني، كيف سيعود لها بعد أن ذاق الحرية والانفرادية في حياته؟ دافني قد تقدمت في العمر إلا أنها ما زالت على أسلوبها السابق وحبها للتنسيق والنظام، وأهم من هذا وذاك هو انتظار وصوله على الرغم من أن وصوله يعني نزولها من وظيفة محررة إلى سكرتيرة. لكن عودته تعني الكثير لها؛ ففي غيابه كانت أوقاتها مقسمة على عملها في الجريدة، وزيارتها لأرضها للاعتناء بالمحصول والقبرين، وفي بعض الأحيان كانت تذهب للمسرح والأوبرا مع أصدقائها وصديقاتها القدماء.

وصوله إلى لندن دفع به للانغماس مجدداً في العمل والاستجابة لزيارات دافني المعتادة يوم الأحد، فقد عاد ذاك الروتين. عاد إلى الأمسيات التي يتعاطى فيها الكحول ليبدد الكآبة والوحدة، حتى أصبح نهوضه في الصباح شيئاً متعباً للغاية، وبدأ يتغيب عن العمل كثيراً. هذه الحالة دفعت به للملل والكآبة التي لا يعرف لها مخرجاً.

الحياة كما يراها الآن أصبحت كابوساً من الضياع. كان على مستوى من النضج والخبرة الصحافية، إلا أن حياته الشخصية كانت فارغة، لا يدري ما هو مستقبله. بدأ يدرك أنه إن ظل على هذا المنوال فسيقوده ذلك إلى الهاوية، هاوية اللاشيء والعدم. مرارة الواقع جعلته يلوذ إلى الوحدة، فما عاد كما كان، يهتم بالاشتراك في تجمعات الصحافيين والمشاركة في الاجتماعات والمحاضرات الثقافية التي تدور في لندن.

غدا وقته مكرساً لسلسلة متواصلة من السكْر والوحدة، يغيب اليوم تلو الآخر متعللاً بالمرض. وفي صباح أحد هذه الأيام، وصله ما

كان يخشاه. وصلته رسالة تفيد بفصله عن العمل، موقّعة من الرجل الذي لم يكن سوى رئيس التحرير نفسه، السيد ماثيو.

قال ماثيو في الرسالة: تأسف إدارة الصحيفة إبلاغك الاستغناء عن خدماتك لسبب عدم استطاعتك التجاوب مع سرعة الأحداث والوقائع الاقتصادية الجارية عالمياً ومحلياً، إن تحليل الأحداث شيء لا تريد الصحيفة التفريط فيه. تدرك إدارة الصحيفة أن ما قدمته في الماضي للصحيفة شيء عظيم ومهم، لكن سرعة الأحداث تتطلب من دون شك حركة أسرع لم تعد في استطاعتك، لذلك نتمنى لك حظاً أفضل في مستقبلك الآتي.

وأدرك أنه قد أصبح ضحية من ضحايا الصحافة الذين لا حصر لهم، وأن الصحافة قد أخذت منه زهرة شبابه وتركته ليواجه مصيره المجهول القاتم. الآن هو في مواجهة رهيبة مع الوحدة التي لا أنيس فيها سوى كأس الخمر والكتاب.

في السابق، تميز بالفكر والتجديد والابتكار، لكنه الآن قد سقط كما سقط من قبله بشر كثر تحت عجلة الحياة السريعة التي تفرم الناس في المجتمعات المتقدمة. سرعة الحياة قطعت التواصل بين الفرد وما حوله حتى صار مثل آلة الإنتاج والاستهلاك وليس لديه الوقت الكافي للترفيه الروحي والارتباط الأسري والاجتماعي؛ الحياة في هذا الوسط سلسلة من العمل المتواصل وهي تشبه الآلة الحديدية التي تطحن الساعات والدقائق والأيام والأسابيع والأشهر والسنين. الطحن سريع ورهيب ومن دون رحمة، ويؤدي بالفرد في نهاية الأمر إلى اليأس والعزلة والتحطيم؛ هذا ما يواجهه ناجي في الأيام القادمة من حياته.

كان شاباً ذكياً وطموحاً نزح من الأرياف وتسلق سلم النجاح

بمثابرة وعطاء حتى وصل إلى يمكن وصفه بالقمة. المشكلة أن القمة التي وصل لها ما هي إلا منطقة صماء ولا منفذ منها لأنها تمثل النهاية الأبدية. وهذه حال المجتمعات ذات الإيقاع السريع التي تلهث خلف الحصول على الوقت لإحراز أشياء كثيرة لا حصر لها؛ في نهاية الشوط يتحول الفرد مثل ناجي إلى ضحية من ضحايا المدنية والتقدم.

بعد فصله من الجريدة، عرف أن انتقاله من الشقة التي يسكن فيها صار أمراً حتمياً. بدأ يبحث عن شقة جديدة وعثر على واحدة في منطقة كينسنغتون في الطرف الأعلى من الشارع، قريب من قاعة «الألبرت» التي تقام فيها الاحتفالات الشهيرة في لندن. نوافذ الشقة تطل على القاعة الشهيرة. انتقاله للشقة الجديدة أنهى مرحلة من حياته أعطى فيها الكثير من جهده ووقته للفكر والصحافة والإعلام واكتسب خبرة ممتازة ومهارات كثيرة. لم يعط نفسه وصحته الاهتمام المطلوب؛ عاش في إيقاع سريع وخرج من زحمة السنين خالي الوفاض كئيب النفس محطم الفؤاد. طوال سنين العمل، قطع نفسه عن مجرى الحياة العامة، وضعفت حياته الأسرية حتى أنه لم يتمكن من إعطاء أبويه المسنين الوقت الكافي وزيارتهما بصورة دورية، زياراته لهما قليلة ومتباعدة.

وبخروجه من العمل، تلاشى كل شيء وبدأ يفقد الزملاء والأصدقاء، لم يبق له من حياته الصحافية سوى الأوراق والملفات والكتب والمقالات وقصاصات الصحف، تنتشر في أركان الشقة المختلفة. وقد احتفظ في دفتر عناوينه بأسماء عديدة لرجال السياسة والصحافة والدبلوماسية، شخصيات لامعة لكنها تبخرت عندما ترك الوظيفة التي جمعته بهم.

أما مهمة تحرير الصفحة الاقتصادية فقد أوكلت لدافني من دون منازع، بعد السنين الطويلة التي عملت فيها سكرتيرة لمحرر الصفحة. وبالطبع تسلمت المهمة بشغف لكنها حزنت للنهاية السريعة للحياة المهنية لزميلها وحبيبها. دافني أدركت على وجه اليقين أن ناجي سيواجه هذا المصير، بسبب إدمانه على الكحول. سألت نفسها مراراً وتكراراً عن الأسباب التي تدفع ناجي لتعاطي الكحول بكثرة، إلا أنها لم تصل إلى إجابة مقنعة. عندما تعود بذاكرتها إلى الوراء، تتذكر عدداً كبيراً من الرجال والنساء يتعاطون الكحول بشراهة وتتذكر أنهم كانوا من المهتمين بالثقافة والسياسة والحركة الفكرية والفنية. في أيام صباها حين عاشت في بيت أسرتها، عرفت عدداً من أصدقاء أبويها وأزواج خالاتها وعماتها وأساتذتها من المدمنين على الكحول، وهناك قصص كثيرة عن المدمنين الذين عرفتهم، منها ما يضحك ومنها ما يثير الشفقة. ما زالت تذكر مدّرسة الكيمياء الآنسة بننكتون التي كانت تخفي الكحول في زجاجات عصير الفاكهة وتتعاطاه أمامهم في الصف على أنه عصير فاكهة لا غير. حالة مدرستها توضح أن تناول الكحول من الضروريات التي يقرها المجتمع ولا يرى فيها حرجاً كبيراً.

أراد ناجي أن يمثل انتقاله للشقة الجديدة بداية جديدة لحياته، وتاق للانسلاخ من جلده القديم وتوديع ماضيه. هدف لمغادرة حقبة من حياته الماضية والدخول في حقبة جديدة ينسى فيها شوائب الماضي وذكرياته خاصة دافني والحياة التي عاشها معها. أخيراً، قرر ترك دافني لكنه لم يرد مواجهتها بالأمر لأنه يدرك أنها لن تقبل رغبته في الانفصال عنها والتخلي عن لقاءات أيام الأحد. ناجي متأكد أن دافني ستطلب منه استقبالها يوم الأحد

في شقته الجديدة وهو أمر لم يكن يرغب في الموافقة عليه وقبوله مهما كلفه من جهد وعنت لأنه يريد بداية جديدة خالية من رواسب الماضي وذكرياته.

وبدأ يبحث عن طريق للابتعاد عن دافني لكن بهدوء ومن دون ضجة بل من دون علمها. وبعد تفكير عميق في الموضوع، اهتدى لحل مناسب للمشكلة؛ عند زيارتها له يوم الأحد في ذلك الأسبوع يمسك يدها ويقول لها: حبيبتي والدي ووالدتي سيأتيان لزيارتي والبقاء معي لمدة أسبوعين لأن صحة والدي تدهورت؛ دعينا نلتقي بعد مغادرتهما. وعليها أن تدرك أنه لن يستطيع قبولها في شقته أثناء وجود والده ووالدته.

ورتب رحيله من الشقة بدقة بحيث لا تعرف دافني حقيقة ما يجري وانتقل إلى «خمسة وعشرين مولبيري مانشيونز» عنوان الشقة الجديدة في قلب حارة كينسنغتون. وبدأ حياة تعمها الوحدة على مدار الساعة، وحدة لا يبددها سوى العودة إلى الأيام الماضية واهتماماته الفكرية والقراءة والتطلع المستمر للمعرفة.

وفي يوم الأحد الذي اتفق أن يلاقي فيه دافني بعد حضور أبويه الوهمي، ذهبت دافني لزيارته كالعادة غير مكترثة بملاحقة أعين الحارس بروس لها وسخريته منها. عند دخولها، وجدت بروس جالساً في مكانه المعتاد يتصفح جريدة «نيوز أوف ذا ورلد» التي تصدر يوم الأحد. لم يكترث لوصولها وهي تمر أمامه؛ واصلت سيرها متجهة إلى المصعد. عند وصولها أمام باب الشقة، دقت الجرس ووقفت تنتظر رد ناجي، ليس لدى دافني مفتاح لشقة ناجي. لم تشعر بوجود حركة بالداخل، دقت الجرس مرة أخرى وانتظرت. وعندما لم يأتها رد، وضعت ما كانت تحمل من ورود

وفواكه على الأرض وظلت واقفة تتلفت يميناً وشمالاً كأنها تتوقع ظهور ناجي من عدة جهات كشخص يهبط من السماء أو يخرج من باطن الأرض.

وشعرت بالقلق وأخذت الظنون تعصف بعقلها وفكرها: ما الذي أخرّه ولماذا لا يفتح لها الباب، هل هو في الداخل أم رافق أبويه إلى مكانهما؟ لم تتحمل أعصابها ما يجري، لذلك أخذت تدق على الباب دقات سريعة ومتواصلة، ثم دقات عنيفة أدت لخروج الجارة العجوز التي تسكن في شقة رقم ١٤. أرادت الجارة أن تتبين الذي يجري أمام شقة جارها؛ في العادة يتميز المكان بالهدوء وقلة الحركة. عادة لا تهتم المرأة العجوز، اسكتلندية الأصل، بما يدور خارج شقتها، فهي شبه مجنونة وتعيش منزوية ولا تخرج لا بالليل ولا النهار. لقد اعتكفت في بيتها بعد وفاة زوجها وهو في ريعان شبابه إثر نوبة قلبية لم تمهله طويلاً، ثم توفي ابنها الذي كان في الخدمة العسكرية البريطانية مشاركاً في الحرب على جبهة التحرير الأيرلندية. لا تخرج إلا نادراً مثل الذهاب لدائرة الإعانة الاجتماعية والسوق والمستشفى. الأطباء يعطونها أدوية كثيرة في محاولة مستميتة لصد أمراض تقدم العمر؛ الأدوية لم تنجح في انتشالها من الحزن والكآبة التي تلازمها في حركاتها وسكونها.

طرقات دافني القوية أخرجت المرأة من سباتها العميق وعزلتها القاتلة. نظرت من الباب نظرة استغراب لدافني وعادت مسرعة إلى الداخل دون التفوه بكلمة واحدة وأغلقت الباب خلفها بإحكام. دافني كانت مصرة على ألا تترك المكان قبل أن تعرف حقيقة اختفاء ناجي اليوم؛ ليس من عادته التخلي عن موعد يوم الأحد. بدأت الظنون تلعب بعقلها وتوصلت إلى أنه راقد في الشقة غائباً

عن الوعي إثر ليلة قضاها في تعاطي الخمور، أو ربما أغضبه قبولها لمنصبه محررة للصفحة الاقتصادية ورأى خطوتها خيانة له ولحبهما.

الظنون والأفكار تعصف بعقلها وهي في حيرة من أمرها أمام الباب الذي يلفه الصمت الشديد والهدوء القاتل. وبدأت تلملم ما فرغ من أكياس على الأرض استعداداً للعودة لمسكنها، لكنها لم تستطع ذلك قبل محاولة أخرى للقرع على الباب، لكن لا حياة لمن تنادي. واتجهت عائدة وقلبها منقبض من الأمر الغريب الذي واجهها اليوم. إلا أنها قبل أن تصل إلى المصعد بقليل، رجعت للباب لأن شيئاً في رأسها دفعها للقيام بخطوة قبل ترك المكان نهائياً. رفعت قفل فتحة الرسائل ونظرت منها إلى داخل الشقة في محاولة لحل لغز اختفاء ناجي؛ نادت عليه ليصحو إن كان يغط في نوم عميق. من فتحة الرسائل، ظهر لها أن أضواء الشقة جميعها مغلقة والمكان يكسوه الظلام، وعلى الأرض رأت أكواماً من الرسائل بعضها فوق بعض. شعرت بقشعريرة في بدنها ونادت بأعلى صوتها: ناجي، أنا دافني، افتح الباب لقد مرت مدة طويلة وأنا في انتظارك هنا في الخارج. هيا افتح الباب، لم يعد لدي وقت لمزيد من الانتظار.

لكن السكون ظل سيد الموقف بالداخل. عادت وهي في حيرة من أمر ناجي الذي لم يفتح لها الباب. عند وصولها لمكتب بروس في مدخل العمارة، توقفت وهي على يقين أنها لن تستطيع تجاهل الحارس؛ هي تريد مساعدته في إلقاء الضوء على اختفاء ناجي المحير والغامض، فلعله يعرف شيئاً غائباً عنها.

قالت وكأنها تسأل من باب الاستفسار العادي: أين الأستاذ ناجي

اليوم؟ هل رأيته هذا الصباح؟ نظر إليها نظرة ثاقبة وهو محتار من سؤالها السخيف وعدم معرفتها بانتقاله، وقال: لقد ترك الشقة نهاية هذا الأسبوع، يوم الجمعة بالتحديد، ألم يخبرك بذلك؟

قالت وهي تحاول تفادي سخريته منها: لقد أخبرني لكن مسؤوليات الحياة وعملي الجديد محررة للصفحة الاقتصادية لعبا بذاكرتي إلى حد النسيان، نسيت حتى هذا الأمر المهم. وتركت المكان عائدة في طريقها إلى البيت بقلب واجف والأسئلة تعصف برأسها حول اختفاء ناجي وعدم إخباره لها بانتقاله من المكان الذي قضيا فيه أجمل أيام حبهما؛ عاشت مع ناجي حقبة رومانسية وهادئة على الرغم من المصاعب التي واجهتها في البداية.

أما ناجي فقد ترك علاقاته القديمة بعيداً عن أيام حياته الجديدة وبدأ يعيش في حقبة الأيام الجديدة التي دخلها وهو محمل بالهموم والأفكار والتساؤلات عن الاتجاه الذي عليه السير فيه. لم يعثر على أجوبة وظل عقله مشوشاً ومحمّلاً بصور متضاربة لأمور مختلفة. ناجي يدرك أنه طوال السنين المنصرمة لم يتمتع بجمال الحياة كما يريد ولم يدخل في علاقات خاصة مع الجنس الآخر؛ مشاغل الأيام وهموم الحياة ومتطلبات العمل سحقته وجرفته إلى أبعاد خارج الحياة الخاصة. شعر أنه أهدر وقتاً ثميناً من عمره مع دافني في علاقة مفروضة عليه ولا تحمل المعنى الحقيقي للمحبة والود؛ كانت مجرد علاقة دفعته للدخول فيها وهو دخل فيها دون اعتراض. تلك لم تكن علاقة حقيقية بل مجرد أيام آحاد ضائعة، مع امرأة تعاني من شقاء السنين والعناء والتوتر، امرأة عانت في عقلها الباطني منذ الصغر، وفي الكبر تعيش وسط تخيلات ومعتقدات وأوهام كثيرة. عليه الآن مواجهة نفسه المحطمة وأيامه

الفارغة ووحدته التي ستكون أخطر واقع في حياته.

وبعد ثلاثة أيام من انتقاله إلى الشقة، اتصلت أمه وأخبرته أن أباه في أزمة صحية حادة وأنه ملازم للسرير ليلاً ونهاراً. أزمته الصحية تعود إلى مرض الكلى المزمن الذي يعاني منه منذ زمن طويل، لهذا تطلب منه الحضور لرؤية أبيه. ذكرت له أمه أن أباه يود حضوره لغرض آخر مهم، فهو يريد البوح له بأمر كان قد خبأه عنه منذ زمن طويل، وذلك قبل أن يدهمه الموت.

أخذ يفكر في الأمر الذي يود والده أن يكشفه له ويحدثه عنه. هل هناك مالاً أودعه في حساب سري بالبنك طوال هذه السنين ويريد إطلاعه عليه بعد أن هدده المرض وشعر أنه على حافة الموت؟ وترك التفكير في حقيقة الأمر حتى يقابل والده وجهاً لوجه.

وصل إلى بيتهم، الذي تباعدت زياراته له بعد ذهابه إلى الجامعة، ووجد المكان والشارع والبيوت والسيارات كما هي لم تتغير. وبيتهم كما هو، الستائر البيضاء المتشربة بصفرة العتق وعدم الغسيل منسدلة على الشبابيك، ورائحة السنين متشبثة بقطع الأثاث وزوايا البيت. الرائحة أعادته من جديد إلى أيام صباه، حينما تمرّغ في أحضان الحب السخي والحنان الدافق من والديه. زجاجات الخمر الرخيصة لا تزال في مكانها حيث كانت؛ الزجاجات هي التي ولّدت فيه حب الفضول ودفعته لتعاطي الكحول والإدمان. وحديقة البيت هي الأخرى كما كانت إلا أن منظرها المقلم اختفى فباتت الأعشاب تتراكم عليها؛ البركة الصغيرة ما زالت ضحلة وتعج بالضفادع والأسماك الصغيرة والحشرات.

الذي تغير في المكان كان الحائط الفاصل بين بيتهم وبيت الجيران

الذي سكن فيه العم ألفونس وكولييت، حيث استبدل بجدار سميك وعال يمنع الرؤية. وسأل نفسه: ما الذي حل بالعم ألفونس وكولييت؟ من المؤكد أنهما قد بلغا مرحلة الشيخوخة، والعم ألفونس ربما توفي أو قتلته كولييت. سأل أمه عن الجيران الذين جاءوا بعد خروج ألفونس وكولييت من البيت.

قالت: إن البيت مهجور منذ سنين طويلة ولم يرغب الناس في شرائه على الرغم من المحاولات المكثفة من جانب شركات بيع وتسويق البيوت.

والدته أعدت العشاء وهو عبارة عن طبق من اللحم المفروم مع البطاطس وهي إحدى أكلاته المفضلة، ووضعت الطعام على الطاولة التي ما زالت كما تركها منذ سنين. يتصدر وسط الطاولة وعاء محمل بمختلف أنواع الفواكه؛ الطاولة والأشياء الأخرى ذكّرته بحياة والديه البسيطة والمكان الذي ترعرع فيه. وشعر بالفخر لأنه استطاع الخروج من هذا الوسط الضيق إلى رحاب واسعة، شملت الجامعة والعمل في العاصمة لندن؛ تعليمه من دون شك هو الذي ساعده على العمل وأتاح له حياة مختلفة وبعيدة عن تلك التي عاشها في صغره وصباه. وعلى الرغم من ابتعاده عن هذا الوسط، فهو يشعر أن هناك أشياء صغيرة ما زالت عالقة بذاكرته، كحبه للأكلة الشعبية المشهورة المكونة من السمك المقلي مع البطاطس المقلية ومعجون الطماطم.

رفع الأب جسده الضعيف من على السرير بمساعدة ابنه وزوجته اللذين قاداه بتأن إلى طاولة الطعام حيث قرأت الأم الصلاة. تناولوا الطعام بمهل وختموا الوجبة بطبق من الحلوى المكون من «الجلو» والفواكه.

نظر إليه أبوه بحزن وقال: كما ترى يا ناجي لقد فقدت صحتي وقوتي وبدأت أتلاشى تدريجياً حتى أصبحت مثل الشبح. لقد جاء الأوان لأطلعك على أمراً مهم، لازمنا أنا وأمك سنوات طويلة وأخفيناه عنك عمداً طوال هذه السنين على الرغم من أنه يتعلق بك. لماذا فعلنا ذلك، لا نعرف؛ ربما لحبنا المفرط لأبننا فهو حب يفوق الخيال. أنا على يقين من أنك ستسأل نفسك: لماذا لم نطلعك على مضمون هذه الحقيقة الآن ولم نفعل هذا من قبل؟ والصدق يكمن في أمرين، الأول هو أني كما ترى على مشارف النهاية والأمر الآخر يتعلق بحلم رأيته في نومي قبل شهر؛ في هذا الحلم رأيت رجلاً أتى إلى البيت حاملاً رسالة تخصك كتب عليها اسمك. سأل عنك فأخبرته أنك تقيم في لندن وحلفت له بالله أن يترك الرسالة معي وسأسلمك إياها سالمة حال لقائي بك. بعد تردد قصير ترك الرجل الرسالة معي وانتهى الأمر، إلا أني بعد طلوعه ببرهة قصيرة وبعد تردد فتحتها وقرأت مضمونها. الرسالة تتحدث عن الموضوع الذي أخفيناه عنك أنا وأمك طوال هذه السنين. شعرت بالحرج من فعلتي فكيف لي مس رسالة موجهة لابني ناجي، على الرغم من أني لم أترب على منطق فتح الرسائل والتلصص على الآخرين. فقد نشأت على أن فتح رسائل الغير جريمة يعاقب عليها القانون؛ عندما كنت صبياً كان والدي ينهرني عند التطلع على رسائل عناوين الغير، دعك عن فتحها ومعرفة محتواها. لقد شعرت بتأنيب الضمير ودخلت في نوبة بكاء، وبعد ثوان سمعت صوت الرجل من الخارج يواسيني ويخفف عني.

قال الرجل: لا تبك، ما عليك سوى مواجهة ابنك وكشف مضمون الرسالة أمام سمعه وبصره. استيقظت مذعوراً وأخبرت

أمك بالحلم ولهذا السبب رأينا أن الوقت قد حان لكشف الأمر وطلبنا منك المجيء لرؤيتنا على عجل.

بدأ يقلب في رأسه ما سمعه من أبيه ويتساءل عن طبيعة الأمر المهم الذي يتحدث عنه أبوه. لم يسأل والده وظل منتظراً سماع ما سيقوله. ترقرقت عيناً أبيه في الدموع. نهض الرجل الكبير بصعوبة متجهاً إلى الخزانة القديمة التي عليها زجاجات الخمر الشهيرة وتناول من داخلها صندوقاً صغيراً، ومن جيب قميصه أخرج مفتاحاً وفتح الصندوق. من داخل الصندوق، أخرج كيساً بلاستيكياً ووضعه على طاولة الطعام أمامه وفتحه وأخرج منه ظرفاً كبيراً. أخرج محتوياته وهي عبارة عن أوراق بيضاء وظرف صغير عليه طابع بريد قديم، فتحه الرجل وأخرج منه بطاقة ورقية.

وقال الأب: ما أنوي قوله الآن سيذهلك، من حقك أن تلومني وتلوم أمك كما تشاء. لكن دفاعاً عني وعنها دعني أقول الآتي: ما فعلناه، كما قلت سابقاً، سببه حبنا الشديد لناجي الذي جاء إلى حياتنا ونحن في سن متقدمة؛ أردنا حمايتك من الاضطراب في سنوات الصبا والشباب.

قال ناجي: أبي، من فضلك أخبرني ما هي قصة هذه الورقة، وما الذي بهذا الظرف من سر؟ أريد سماع القصة من فمك قبل قراءة المكتوب في الورقة؛ أخرجاني من هذا الضياع لأني لا أستطيع تصور ما بهذا الظرف.

قال الرجل الكبير: إن كانت هذه رغبتك فسأحدثك عن هذا اللغز كما تسميه. كل ما في الأمر هو أننا أنا وأمك تبنيناك وعمرك ثلاثة أيام فقط، هذا هو الأمر الذي أخفيناه عنك طوال هذه

السنين. ربما ما فعلناه كان عملاً أنانياً لكي نشعر أنك ابننا الذي جاء من لحمنا ودمنا. وبالفعل هذا شعورنا نحوك منذ أول يوم تبنيناك، نحبك فوق ما تتصور. كتمان السر عنك ظل في نفوسنا نقطة ألم طوال هذه السنين، ولكي أخفف عن نفسي قبل موتي ولكي لا أترك الأمر يقع على كاهل أمك من بعدي، قررنا مفاتحتك وإطلاعك على الحقيقة. ندرك أنك متعجل لمعرفة خلفية والديك الأصليين وكيف قدموك للتبني.

أتى أبوك وأمك إلى بريطانيا طالبين لتكملة دراسة الطب، لكنهما تعرضا لحادث سير مؤسف في عام ١٩٤٨ أودى بحياتهما ونجوت أنت من ذلك الحادث. وأصل أبويك من الشرق الأوسط؛ الآن تعرف لماذا شكلك يختلف عنا كما كنت تسألنا بصفة مستمرة.

قالت الأم: بالفعل، مرات كثيرة في صباك سألتني عن اختلاف لون عينيك وشعرك وبشرتك عني وعن والدك. كنت أختلق إجابة وأقولها حتى أتخلص من المأزق، لكنها لم تكن إجابات مرضية ومقنعة.

وهو يستمع لما قالاه شعر برجفة تسري في بدنه وبذهول؛ ما سمعه كان آخر ما يتوقع سماعه. طوال السنين لم يشك إطلاقاً بأنهما أبواه الطبيعيان؛ حبهما المتين بدد احتمالات الشكوك والظنون. تمنى لو أفصحا عن الأمر في وقت سابق وليس في هذا الوقت العصيب الذي تمثل في مرض أبيه وفقدانه لعمله الذي سكب فيه طاقته وقدراته ونشاطه وجدارته. أدرك أنه وعلى الرغم من الدوامة التي هو بداخلها الآن يجب ألا يرمي باللوم على أبويه المسنين. في نهاية الأمر، والده ووالدته قدما له فرص العلم والاستقرار في بيئة أسرية متكاملة لم ينقصها شي سوى إخوة وأخوات.

وتدفقت على رأسه مئات الأسئلة والصور المتضاربة عن خلفية والده ووالدته اللذين توفيا وعن البيئة التي انحدرا منها في الشرق الأوسط. وسأل نفسه ماذا يعرف عن الشرق الأوسط؟ هذه بقعة من العالم لم يزر منها سوى بلدان قليلة إحداها سورية وذلك في اجتماع صحافي خاطف، ولبنان وتونس لتغيير رحلة جوية. وعاهد نفسه أن يحاول التعرف إلى خلفية أبويه الأصليين والعالم الذي انحدرا منه في الشرق الأوسط.

الآن هو أمام أب مريض ويجب عليه إغداق الحب والاهتمام والرعاية ليجعله يشعر أن إخفاء مسألة التبني لم يؤثر سلباً على نفسه وأنهما أرادا حمايته ورعايته. وظل مع والديه لمدة أسبوع يدير أمورهما ويرافق أباه المريض إلى المستشفى للعلاج. وقبل عودته للندن بيوم، استيقظ على صوت بكاء أمه واكتشف أن أباه فارق الحياة وهو على سريره. ساعد والدته في إجراءات الدفن وبقي معها حتى اطمأن إلى حالها وهي تواجه الوحدة بعد حياة طويلة مليئة بالمحبة مع أبيه.

الوحدة التي فيها أمه ذكرته بالوحدة التي سيواجهها بعد عودته إلى لندن. وتخيّل مستقبله مع عدم العمل والإدمان والضياع، إضافة لمصيبة فقدان هوية والديه الطبيعيين اللذين سمع بهما أخيراً.

دافني واصلت تحرير الصفحة الاقتصادية، إلا أن فقدان ناجي سبب لها هماً كبيراً وحسرة مريرة. تساءلت كثيراً عن المكان الذي ذهب إليه والسبب الذي أدى لاختفائه من على ظهر الأرض. سبب تركه للشقة أصبح لغزاً لم تستطع فك طلاسمه. تساءلت: لو لم يفصل من العمل فهل كان سيقدم على الاختفاء والابتعاد عنها بهذه الطريقة السريعة والمحرجة؟ هل هرب لأنه لا

يريد الاستمرار في العلاقة معها؟ أم أنه غار منها لأنها أخذت منصبه محررة للصفحة الاقتصادية؟ ولماذا لم تستطع أن تجد مكانه رغم محاولاتها المستمرة؟

بعد اختفاء ناجي، انحصرت حياة دافني في العمل وزيارة المقبرة كل يوم أحد. وبدأت تشعر بزحف العمر وبثقل مهمة العمل، فقدمت استقالتها. فضّلت كما تقول الخروج وهي في القمة. لكن همّ اختفاء ناجي ظل معها لا يفارقها ليلاً ونهاراً. رأت في اختفائه نوعاً من الغدر والخيانة؛ كيف له أن يهجرها بهذه الطريقة المشينة؟ أمر العثور عليه أصبح من المهام التي عاهدت نفسها أن تنجزها مهما كلفها الأمر. لكن كيف ستعثر عليه وسط مدينة كبيرة ممتدة الأطراف وتعج بملايين البشر؟ فكرت في زيارة الأماكن التي يرتادها لكنها تذكرت: بما أنه ترك مكان إقامته فلا بد أن يكون قد وجد أماكن جديدة يرتادها، قد تكون في حي بعيد لا تعرفه. قد يكون تركِ لندن، من يعرف؟ وقد عاد إلى أفريقيا ليعيش في البلد والذي أُرسل إليه من جانب الصحيفة. في داخلها هاجس يحثها على الاتصال بسفارة هذه الدولة الأفريقية والسؤال إن كان ناجي قدم طلب تأشيرة دخول إلى هناك أم أن اسمه مدرج في قائمة المسافرين؟

وبالفعل اتصلت بالسفارة فقيل لها إن السفارة لا تدلي بأسماء المسافرين أو طالبي تأشيرة الدخول لها. خاب أملها لكن مسألة البحث عنه ظلت تلعب بخيالها وحولت أيامها ولياليها إلى جحيم لا يطاق. يجب أن تعثر عليه وتصل إلى السبب الذي جعله يهرب منها ويتخلى عنها بهذه الطريقة المهينة. وما زاد إصرارها هو الوحدة التي بدأت تعيش فيها بعد تقاعدها؛ المستقبل الذي رسمته

لنفسها كان لناجي حضور كبير فيه. كانت تأمل أنهما بعد تقاعدها سيقومان برحلات عديدة حول العالم ويحضران أجمل ما تقدمه المسارح وبيوت الأوبرا في لندن وباريس وألمانيا وروما ونيويورك؛ ستحاول مساعدته على التخلص من قبضة الإدمان على الكحول حتى تمنع عنه الاندفاع نحو الهاوية.

غياب ناجي عن حياتها ظل أمراً يخصها وحدها حيث لم تفصح عنه لأحد حتى للشلة الصغيرة من أصدقائها؛ لم ترد أن تفضح نفسها أمامهم. عادت لتعيش تحت قبضة ظنونها وأوهامها السابقة التي تدفعها أن تتخيل أنها إحدى جواري قياصرة الروس؛ بدأت هذه الصورة تجد مكانة راسخة في ذهنها حتى بدت كالحقيقة التي لا جدل حولها. كانت قد شفيت من هذه الخيالات المريضة خلال أيام علاقتها بناجي؛ الآن عادت الكوابيس تضربها من جديد بصورة لا تستطيع التغلب عليها.

وفي محاولة يائسة لتفادي الوحدة، اتجهت للقراءة وغناء الأوبرا يومياً. وفي يوم، وهي تبحث في ما عندها من كتب الأدب الإنكليزي والروسي والفرنسي، عثرت على رواية تشارلز دكنز التي سبق أن قرأتها بمتعة شديدة أيام علاقتها بمدرس البيانو الأستاذ أنغوس، الذي تخلى عنها في نهاية المطاف. الرواية هي «التوقعات العظيمة» وهي رواية لها علاقة قوية بالحالة التي حدثت لها في سابق الأيام عندما تخلى عنها حبيبها أنغوس.

تلك الأيام العصيبة، بعد فشل غرامها مع أنغوس، انتهت لأنها عاشت أيام حب جميلة مع العديد من الرجال. واليوم عندما وقع نظرها على هذه الرواية من دون الروايات العديدة فرحت والتقطتها من الأرض ونفضت عنها الغبار المتراكم؛ بدأت تقرأ منها

مقتطفات مختارة. سبحت في خيالها وتركت الكتب الأخرى ملقاة حيث كانت وعادت بالرواية إلى المطبخ وجلست على الكرسي الصغير الهزاز الذي تعودت الجلوس عليه بجانب المذياع الأسود القديم لتستمتع بالأغاني الكلاسيكية التي تعشقها. أخذت تقرأ الرواية فعادت لها خبايا مضمونها، لذا هزت رأسها اعترافاً بقدرة الكاتب العظيم في حبك صور رواياته ومقدرته على التوغل في النفس البشرية والوصول لشعور الفرد عند مواجهة المصاعب. الرواية تلمس جوانب عديدة من الواقع الذي تعيشه هذه الأيام، فهي تعبير صادق عن شعورها تجاه ناجي الذي اختفى ولم يترك أثراً خلفه.

في هذه الرائعة من روائع دكنز، جربت الآنسة فافرشم خيانة حبيبها عندما تنازل في آخر لحظه عن الزواج منها وتركها تواجه قدرها وحدها. الاحتفال والضيوف والزفاف في انتظار الزوج الذي لم يأت قط، شعرت بخيبة الأمل وبدأت تعيش مع ساعاتها التي أوقفت عقاربها على ساعة الزفاف الذي لم يأت فظلت ترتدي فستان الزواج تأهباً للحدث الذي ظلت في انتظاره حتى آخر لحظة من لحظات عمرها. تمنت دافني لو قامت هي الأخرى بإيقاف ساعتها على الوقت الذي اكتشفت فيه غياب ناجي؛ تمنت أن تتبنى طفلة تحطم قلوب الرجال عندما تكبر، مثلما حدث في الرواية.

وهي في هذه الأمواج من التصدع والوحدة، انحدرت دمعة ساخنة على خدها فيما تابعت القراءة وكأن السطور ستوصلها إلى جواب عن الفوضى وعدم الاستقرار في حياتها. وشعرت بتعب شديد ومالت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها وفي يدها فنجان

الشاي تستمع للأغاني الكلاسيكية. ودخلت في نوم عميق لم تستفق منه حتى سمعت صوت ساعي البريد يدفع بمجموعة من الرسائل داخل فتحة الباب. نهضت ومشت ببطء نحو حجرة النوم وإلى السرير وغطت جسدها المنهك ودخلت في نوم عميق من جديد. رأت في الحلم نفسها تتخبط من دون هدف وتمشي في طرقات ومتاهات غريبة وضيقه لا تعرفها. كانت منفوشة الشعر لاهثة الأنفاس؛ استيقظت عدة مرات وصرخت من هول الكوابيس المزعجة.

بعد أيام من التوتر والضياع، قررت وضع خطة جديدة لمواصلة البحث الجاد عن ناجي. كل يوم وعند تمام الساعة التاسعة صباحاً، تترك البيت وهي تحمل على صدرها لافتة صغيرة تكتب عليها: «أبحث عن ناجي». لعل اللافتة تشد انتباه المارين ويدلها أحدهم على مقره، من يعلم؟ في اليوم التالي لرسم هذه الخطة في خيالها، بدأت في تنفيذها وكتبت على ورقه بيضاء «أبحث عن ناجي» وعلقتها على صدرها ووقفت أمام المرآة في ممر الشقة تستعرض شكلها؛ رفعت الورقة إلى أعلى ودفعتها إلى أسفل وإلى أعلى، ومن ثم نظرت إلى وجهها وهندامها واستعدّت للخروج.

خرجت مسرعة واتجهت إلى الشارع قبل أن تفتر عزيمتها. وبدأت يومها بالوقوف أمام محطة الحافلات القريبة من بيتها، إلا أنها سريعاً ما شعرت بالملل، فاتجهت إلى محطة أخرى. وهي في وقفتها هذه، توقف المارون لقراءة الخبر المحمول على اللافتة، ونظروا باستغراب للسيدة المسنة المحترمة وهي تحمل تلك اللافتة. بعضهم ظن إن ناجي قد يكون من الغائبين في إحدى الحربين العالميتين، طفقوا يسألونها عن سبب غياب من تبحث عنه. قالت لهم لقد

فُقد من تبحث عنه في حرب الفوكلاند التي شنتها بريطانيا على الأرجنتين. الأغلبية من السائلين نصحوها أن تذهب إلى وزارة الدفاع وبعضهم قال إن لديهم جار يدعى ناجي وطلبوا منها اسمه العائلي كي يساعدوها على معرفة الحقيقة.

واصلت البحث اليومي وفي نهاية كل يوم تعود إلى البيت خائبة لتعاود الكرة في اليوم التالي. ذات يوم وهي تجوب الشوارع، وصلت إلى مشارف شارع «جرين بارك» القريب من بكدلي، حيث صادفت صديقة قديمة تدعى جويس. تعانقتا هي وجويس بحرارة ووقع نظر جويس فوراً على اللافتة التي على صدر دافني. حاولت جويس كبت فضولها وعدم السؤال عن هدف دافني من تعليق اللافتة على صدرها في شارع مزدحم وسط لندن. لم ترد أن تحرجها أو تتدخل في شؤونها الخاصة، لكنها لم تستطع السكوت.

قالت جويس: دافني حبيبتي، ماذا تعني هذه اللافتة التي على صدرك ومن هو ناجي المذكور؟ أخبريني، ماذا تقصدين بعملك هذا في وسط هذا الشارع المزدحم؟

السؤال مثجل مفاجأة لدافني لأنها لم تكن تتوقع مقابلة جويس في هذا الوضع. ندمت على عدم تمكنها من خلع اللافتة قبل مقابلة جويس حتى تتفادى أسئلة الفضوليين والمتطفلين. وحاولت بسرعة وذكاء اختراع كذبة لتتفادى فضول جويس ومنعها من طرح أسئلة محرجة؛ خافت أن تظن أن مسّاً من الجنون قد أصابها.

قالت بصوت مرتجف: لقد ضاعت قطتي منذ أيام عندما قفزت من نافذة المطبخ، في غفلة مني، وبحثت عنها في الحارة ولم أعثر عليها. لذلك رأيت أن أتجول في الشوارع القريبة من بيتي على

أمل العثور عليها، وعندما فشلتُ قلت أبحث في مناطق أخرى، فقد يدلني أحد المارين على مكانها؛ هذه القطة هي من آنستني لسنين طويلة.

قالت جويس وهي في شك كبير: أليس ناجي هو صديقك الشاب ومديرك في العمل يا دافني؟

قالت دافني: بجانب ناجي ذاك، لدي قطة اسمها ناجي.

أدركت جويس أن دافني في مشكلة ما وأنها مرتبكة لأنها تدور في الشوارع وهي في حالة محزنة يرثى لها. جويس تعرف خلفيات دافني حق المعرفة خاصة علاقاتها السابقة بهانري وهيربيرت، وتعرف بحادث اعتداء زوجة هانري عليها يوم دفنه؛ كانت جويس بين المشيعين. وعرفت عن هيربيرت ومقتله على يد ابنه، كما عرفت علاقتها بناجي في السنوات الأخيرة. انتقلت جويس من لندن إلى ضاحية في منطقة تقع خارج العاصمة البريطانية واليوم أتت إلى المدينة لمشاهدة معرض في المتحف الوطني للفنون، لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام دافني.

قالت جويس: لنذهب لشرب الشاي في مقهاك المفضل يا دافني في فورتنم آند ميسون، المكان الذي ذهبنا إليه أيام شبابنا. المكان قريب من هنا، تعالي نعيد ذكريات الأيام الخوالي، ونتداول أخبارنا فيما بيننا، فلم نر بعضنا منذ زمن طويل. مرات كثيرة سألت نفسي عن الذي جرى لصديقتي دافني واليوم نلتقي صدفة؛ رب صدفة خير من موعد.

وقالت وهي تضحك: سنذهب للشاي على شرط أن تخلعي هذه

اللافتة الغريبة التي على صدرك؛ أرجوك يا دافني اخلعيها حتى لا يراها العاملون والمتسوقون في المقهى. وتناولت طرف الورقة وخفضت دافني رأسها لتخلص نفسها من اللافتة؛ لم ترمها بل دسّتها في حقيبتها.

وسارعتا في المشي نحو المقهى. بعد أن استقرتا على الطاولة، أدركت جويس أن شيئاً قد تغير في دافني، لم تعد المرأة القوية المستقلة الجريئة التي تهتم برونقها وأناقتها. في الماضي كان يطلب ودها أهم رجال المجتمع والآن ليست سوى امرأة عجوز هزمها الزمن فصارت ذابلة وفاقدة السيطرة على نفسها وغير مستقرة نفسياً وذهنياً.

ورغبت جويس في الوصول إلى لب الموضوع ومعرفة المشكلة التي تعاني منها دافني؛ لماذا تحمل اللافتة على صدرها، وما حل بصديقتها دافني؟ أين دافني التي سافرت ورقصت وتمتعت بالحياة لأقصى حد ممكن؟ هذه نهاية محزنة؛ دافني الآن امرأة تثير الشفقة، وحيدة ولم تتزوج ومن دون أطفال.

قالت الصديقة القديمة: دافني هل تتذكرين أيام الرقص في سنين الحرب عندما كنا نشد خصورنا ونرقص مع الجنود والضباط إلى ساعات متأخرة من الليل؟ تلك كانت أياماً جميلة لن ننساها أبداً.

قالت دافني: بالفعل يا جويس، تلك كانت أياماً جميلة وكل يوم أسأل نفسي أين غابت تلك الأيام الممتعة بل وأين راح شبابنا وأين راحت حيويتنا؟ لم نعد نملك من تلك الأيام سوى الذكريات التي تعيش في أذهاننا؛ أنا وأنت لسنا سوى سيدتين بلغتا أرذل العمر. أنت على الأقل تحتفين بأبنائك وأحفادك، أما أنا فالحياة قست

عليّ، لا معين سوى الخادمة التي تأتي لتنظف البيت مرتين في الأسبوع. ودعيني أخبرك: ذهبت منذ أشهر إلى فندق «السافوي» في الستراند لتناول وجبة الغداء يوم الأحد، كما كنت أفعل سابقاً. من دون شك تتذكرين كيف كان ذلك الفندق من الأماكن الجميلة والمحببة لدينا أنا وأنت، لكن، لدهشتي وجدت المكان تغير في نوعية الطعام التي تقدم وهيئة النزلاء؛ «السافوي» لم يعد المكان الذي عرفناه، لقد حل محله مكان جديد وناس جدد.

قالت جويس: أنت على صواب؛ «السافوي» وأماكن أخرى كثيرة كنا نرتادها ونحبها قد تغيرت معالمها إلى الأبد. العالم بأسره تغير بعد أن اجتاحته موجة المال الجديدة، المال الأميركي بدأ يغزو العالم خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية؛ هذا الغزو أصبح حقيقة ونحن لا نستطيع مقاومته وصده. لقد تغيرت ملامح الاستقرار والجمال التي كانت تميز لندن؛ الأميركان استولوا على كل ما نملك بعملتهم الخضراء التي تمثل الشعار الجديد للعالم بأسره. إنها خطوة محزنة وخطيرة للعالم؛ قواعد تراثنا ستنهار تحت الزحف المالي القوي القادم من هوليود ورعاة البقر؛ لم تعد أي دولة في العالم سالمة من هذا الاجتياح الطاغي لأميركا في سبيل أسر العالم وتحويله إلى مستعمرات اقتصادية لصالحها.

ردت دافني عليها قائلة: بجانب الاستعمار المالي، الذي تحدثت عنه، هناك الاستعمار العسكري الذي يأتي من الأرض والجو والبحر. العالم لن يستطيع بعد اليوم التحكم في أموره الوطنية نهائياً؛ أميركا وضعت القواعد لتسيير العالم على حسب هواها ورغبتها.

ردت جويس قائلة: بجانب ذلك، هناك استعمار ثقافي طاغ.

فرنسا بسبب خوفها من الاجتياح الأميركي الذي بدأ يتسرب إلى أراضيها ويتحدى الثقافة القومية الفرنسية واللغة، منعت دخول الأفلام الأميركية إلى أراضيها قبل ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، خوفاً من أن تضعف اللغة الفرنسية التي هي مصدر عزة وفخر لعموم الفرنسيين.

قالت دافني مستجيرة: جويس، أرجوك كفّي عن الحديث في هذا الموضوع، لو فكرنا فيه لشابت رؤوسنا أكثر مما هي عليه الآن ولأصابنا اليأس والقنوط.

قالت جويس: الأمر من دون شك محزن وخطير، فدعينا نترك الحديث فيه ونستمتع بجلستنا؛ اشتقت كثيراً للحديث معك، لكن كما تعرفين مشاغل الدنيا هي التي حالت دون التواصل معك. ظني أنك ما زلت تعملين في الصحيفة، لذلك لم أرد إزعاجك بمكالماتي وزياراتي غير الضرورية. أرجوك، اخبريني عن حالك وحال الزمان معك؛ قبل كل شيء ما هي حقيقة اللافتة التي تحملينها على صدرك؟ أخبريني بالحقيقة كما هي ولا تخجلي؛ أنا صديقتك ولا ينبغي أن يكون بيننا ما يسبب الحرج. أنا متأكدة من أن في الأمر شيئاً خطيراً دفع بك للتجول في الشوارع باحثة عن ناجي.

بدأت دافني تشرح القصة لجويس فيما انهمرت دمعة حارة على وجنتها. مدت جويس يدها لتمسح الدمعة وتواسي صديقتها العزيزة.

قالت دافني: فعلاً، هناك أمر في حياتي دفعني للتجول في الشوارع، إيماناً مني أني سأقابل أحداً يعرف ناجي ويدلني على

مكانه. وواصلت شارحة قصة اختفاء ناجي المفاجئ وقصة علاقتها العاطفية معه ووصولها إلى نقطة اليأس التي هي فيها الآن.

في تلك اللحظة، أتت المضيفة وطلبت المرأتان الشاي والفطائر. وانقطع الحديث لمدة حاولت فيها جويس كبت دهشتها من الذي سمعته من دافني وخاصة التفاصيل الغريبة والمثيرة عن علاقتها بناجي، وفي الوقت ذاته تحاول إيجاد حل لمشكلة صديقتها الضائعة. جويس تعرف دافني جيداً ورأت عن كثب كل ما مر في حياتها من تقلبات طوال السنين الماضية.

قالت جويس وهي تنظر إلى دافني بعطف: دعيني أقول شيئاً في غاية الأهمية، مهما كانت رغبة العثور على هذا الرجل قوية، ليس من المستحب البحث عنه بهذه الطريقة. ما تفعلين لا تناسب امرأة في مقامك ومكانتك المهنية والاجتماعية؛ أنت دافني ولنغتون المحررة الاقتصادية لأهم صحيفة في لندن. كيف يا عزيزتي أن تتجولي في الشوارع طوال النهار واللافتة على صدرك؟ أرجوك، إن هذه طريقة لا تناسبك؛ هناك طرق أخرى تستطيعين من خلالها البحث عن الغائب، كالذهاب إلى المنظمات الخيرية التي من اختصاصها البحث عن المفقودين، أشهرها منظمة جيش الإنقاذ الخيرية، التي ساعدت في العثور على عدد كبير من المفقودين. فلماذا لا تذهبين إليهم؟ وإن وافقت، فسأصطحبك إلى مقرهم؛ باستطاعتي اصطحابك غداً، ماذا تقولين؟

قالت دافني: لكن غداً يوم السبت ولا أظن هذه المنظمات تعمل في أيام العطل الأسبوعية.

قالت جويس: أنت على صواب، دعينا نتقابل يوم الاثنين من

الأسبوع القادم لنذهب إلى هذه المنظمة التي ستساعدك في العثور على ناجي.

قالت دافني: لكن إن عرفوا أنه صديقي فلن يساعدوني في البحث عنه والعثور عليه؛ هذه المنظمات لا تتدخل في البحث عن الأزواج والأحبة خوفاً من التدخل في الشؤون الخاصة والشخصية. اختفاء تلك الفئة من المفقودين ليس من اختصاصهم، يبحثون فقط عن الأقارب مثل الابن والأخ.

قالت جويس: دافني، أنت على صواب في ما تقولين، والأغرب من ذلك في هذا البلد أن الشرطة لا تتدخل في البحث عن الأزواج المفقودين كي لا يكون أمر الغائب بسبب مسألة شخصية لا يريد أن تتدخل أسرته فيها؛ كل هذا يعود لمبدأ الحرية الفردية. هل تصدقين أني سمعت عن جارة من جاراتنا تدعى سالي، عندما اختفى زوجها، بلغت الشرطة إلا أن الأخيرة لم تكترث كثيراً بل ولم ترد التدخل في المشكلة. قيل لها إن اختفاءه يتعلق بحريته الفردية، لذلك فلن يسعوا إلى البحث عنه، ولم تعرف سالي المسكينة لمن تذهب لتلقّي المساعدة؛ عاشت محنتها لأعوام طويلة على أمل عودته في يوم من الأيام. وعندما أصابها اليأس، رحلت عن المكان تاركة خلفها بيتهم ومزرعتهم ومفاتيح البيت مع الجيران. وبعد فترة وجيزة من رحيلها عن المكان، سمعت أن زوجها شوهد عند حدود ويلز حيث يعيش مع امرأة وله منها ثلاثة أبناء.

وواصلت جويس بقولها: يوم ذهابك إلى هذه المؤسسة، سأرافقك ولا تقولي إنك تبحثين عن خليلك؛ قولي إنك تبحثين عن ابنك. عندما قالت كلمة ابنك، نظرت إليها دافني نظرة عدم ارتياح،

كيف لها أن تقول (ابنك)، هل يعني ذلك أنها كبيرة إلى درجة إن جويس تصف ناجي بابنها؟ أدركت جويس أنها قالت شيئاً أزعج دافني، لذلك سارعت إلى تغيير ما قالته وطلبت من دافني أن تدّعي أنه ابن أخيها. اذهبي في الأسبوع القادم يوم الاثنين بالتحديد ومن الأفضل كتابة ما ستقولينه لهم؛ سألقاك أمام الأكاديمية الملكية للفنون. ودّعت جويس دافني وعادت كل واحدة لبيتها.

الحقبة الجديدة من حياة ناجي كانت مرعبة ومليئة بالقلق والتوتر والإدمان على الكحول. ذات ليلة، استيقظ وفي ذهنه صور قاتمة تلاحقه وتخنق حلقه وتضغط على عيونه. واصلت الصور تتلاعب بذهنه وتمنعه من النوم والراحة وهدوء البال، أنفاسه محملة برائحة الكحول وبطنه مصاب بالغثيان. نهض وذهب إلى الحمام في نهاية الممر المظلم وحاول العثور على زر الإضاءة لكنه فشل بسبب ارتباك ذهنه وضعف بدنه. واصل التخبط في العتمة وهو يضغط ما على الأرض من ملابس وكؤوس وزجاجات وطفايات سجائر.

الأصوات والصور تتتبعه إلى حيث يذهب. واصل السير ببطء إلى أن خارت قواه ولم يستطع مواصلة السير من دون التمسك بشيء ليسند جسده. مد يديه للحائط ليثبت في وقفته وهو يتخيل أنه كلما اقترب من باب الحمام، ابتعد الباب عنه. ووصل إلى باب مكتبه الواقع قبل باب الحمام وشعر بقوته تنهار وأمعائه تتلوى؛ تقيأ ما في جوفه. نظر فرأى ما خرج من بطنه عبارة عن أشياء تشبه الثعابين الجائعة تتمطى أمامه بألسنة من لهب لتلتهمه، فصرخ واتجه بوجهه بعيداً عنها. حاول الهرب، إلا أن حالته لم تسعفه، فألقى بجسده على الأرض كأنه جثة هامدة.

ودخل في غيبوبة وكادت أطراف بدنه تتفتت وتذوب في الأرض.

ثم شعر أن الأرض تجره بشدة إلى داخل جوفها ليصل لقعر الجحيم الأبدي. وظل يدور في هلوسة مرعبة حيث لا منفذ ولا ملاذ. وسمع رنين جرس الشقة لكنه لم يستطع الذهاب والرد على القادم. نهض وخلع ملابسه المبللة بالعرق والبول والقيء؛ شعر بالشفقة على الحالة التي وصل إليها.

وعاد إلى السرير وأعصابه متوترة وقواه منهكة والأصوات والصور الشيطانية تلاحقه وتضرب على بدنه وذهنه. اندس وسط الفرش وواصل النوم إلى وقت لا يعرف مداه. عند ما استيقظ، وجد الظلمة تدهمه كأنها قطع كبيرة من الفحم تهبط عليه من كل الجهات. بحث عن قنينة الماء التي كانت على المنضدة الصغيرة بجانب سريره وتناولها وأفرغ نصفها في جوفه ليقتل عطشه وحرقته. وضغط على زر الإضاءة الذي بجانبه وسحب سيجارة وأشعلها، وتناول كتابه الذي كان مفتوحاً على صفحة ١٦٥ وبدأ يقرأ حتى ساعات الصباح الأولى. وقع الكتاب من بين يديه بسبب النعاس، ونام من جديد؛ فالآن لا عمل ينتظره ويمكنه النوم دون توقف.

وعندما استيقظ، بدأت أسئلة كثيرة تطرح نفسها على ذهنه. جلس لبرهة على حافة السرير وكأنه عائد لتوه من رحلة بعيدة، فلاحظ علامات غير مألوفة ترتسم على أعضاء جسده. تحسس بطنه ولمس الانتفاخ البارز وسأل نفسه: متى حدث التغير العجيب في جسده الذي لم يلاحظه في السابق. ربما في الماضي كان منغمساً في هموم العمل ولم يلاحظ التغير الذي جرى لجسده. مواجهة الحقيقة المرة دفعته للذهاب إلى السرير من جديد، جر الملاءة على وجهه وكأنه يحاول الاختفاء خلف ستارة سميكة تبعده من شبح مزعج يطارده.

ظل هكذا لفترة ليست بالقصيرة، وعندما أزاح الغطاء عن وجهه وقع نظره على اللوحة المعلقة على الحائط، في السابق لم يعرها كثير اهتمام، بسبب همومه الكثيرة. وتذكر الشخص الذي أهداه اللوحة وعادت ذكريات أيامه في شقته السابقة وملاحقة دافني له. وعلى الرغم من الضغوط، كانت له أيام ذات طعم خاص وجميل.

أما الآن فهو يواجه أيام الملل والكآبة في الصباح والليل. وسأل نفسه هل سيظل في وحدة وصل خانقة وسط شقة مليئة بالكتب وزجاجات النبيذ ولا غير؟ وصل نهاية الخمسينيات من العمر وليس من الصواب العيش على هذا الحال، حياة من دون لذة أو متعة خاصة. في تلك اللحظة بالذات عاهد نفسه أن يخرج من وسط الحصار الخانق الذي ألقى حوله سياجاً محكماً؛ الطريق الذي سينتهجه لتحقيق هذه الغاية غير واضح المعالم، لكنه سيحاول العثور على حل للخروج من المشكلة.

توصل إلى أن خبرته الصحافية والاقتصادية وصداقاته الماضية مع الصحافيين والسياسيين والأكاديميين ستكون هي الوسيلة المناسبة للخروج من الحصار، والانخراط من جديد في حياة لندن الثقافية. نوى أن تكون بداية الشوط هي الاتصال بالأصدقاء والمعارف القدامى حيث يعرض عليهم خبرته في إلقاء المحاضرات في الجامعات والاجتماعات الصحافية والاقتصادية والأكاديمية.

لذلك نهض واتجه إلى الحمام في همة ونشاط وكأنه بهذا القرار قد تلقّى حقنة منشطة تغيّر مجرى حياته العصيبة المدمرة. اقترب من المرآة ونظر إلى وجهه فرأى الخطوط والتجاعيد التي ظهرت عليه في غفلة من الزمن؛ ابتسم وشعر أن التغيير لم يزعجه كما كان

الأمر منذ دقائق. العزم والتصميم في داخله يدفعانه لتغيير مجرى حياته والشعور بالسعادة والبهجة. وفجأة أحس بالاقتراب من لندن وشقته والمكان؛ لا غربة بعد اليوم.

وبدأ تدريجياً في إعادة بناء علاقاته القديمة مع أصدقائه وزملائه القدامى، راح يختلط بهم من جديد ويذهب إلى النوادي الثقافية والسينما والمسرح، كما قلل من تعاطي الكحول. الطريق صعب لكنه مصمم على المضي فيه. انغمس في علاقات طفيفة مع عدد من النساء، ليسترجع رجولته ويستمتع بحياته؛ عادت له لذة الحياة من جديد.

وهو في هذا الصفاء الذهني والنفسي الجديد والمحدود، بدأ يجمع أوراقه وملفاته وكتبه الكثيرة المتناثرة في أرجاء الشقة؛ شعر بنوع من التوازن والنشاط يعودان إليه. حقيقة تبنّيه من أسرته الإنكليزية تمر بخياله بين الحين والآخر، لكن توتر الحياة لم يعطه الفرصة ليقوم بالبحث عن أصله. كان كثيراً ما يجد نفسه يتساءل عن كيف كانت ستكون حياته لو لم يحدث هذا التبنّي؟ يصل إلى هذه النقطة ويدع الأمر يفارق ذهنه من جديد.

ذات يوم، وصله خبر وفاة والدته عن عمر يناهز الثامنة والثمانين. أصابه ألم فظيع وشعر أنه بفراقها قد فارق الماضي الذي عرفه غاية المعرفة.

وفي يوم، وصلته دعوة إلى إلقاء محاضرة في جامعة في شمال بريطانيا أمام طلبة كلية الصحافة. سر من الدعوة غاية السرور لأنها تعني أنه سيشارك الآخرين خبراته العملية والمهنية، وأن معرفته لن تنزوي بل تنشط وتنتعش. الدعوة عنت كذلك بداية الدخول في

الخطة التي رسمها لنفسه لتغيير مستقبله بعيداً عن الإدمان والضياع.

المحاضرة تمحورت حول دور الصحافة في المجتمع. أراد مناقشة الدور الذي تقوم به الصحافة في تكوين الرأي العام وتقييم صدق دور الصحافة وشفافيتها. إن عدم الأمانة في رسالة الصحافة تعني استعمال سلاح قوي يقوض الحرية في المجتمع، ويسبب الانغلاق وقلة المعلومات ويزيد من الأخطاء الفكرية والسياسية والدبلوماسية. انحياز الصحافة الغربية لصالح الفئات المحافظة يجعلها شبيهة بالصحافة في الدول النامية من حيث ضعف التحليل وتوجيه الرأي العام والتعامل مع المعلومات بالشفافية المطلوبة.

وأراد التحدث عن الضغوط الخفية التي تمارس لتقيد حرية الصحافة من جانب الكتل التجارية والمالية الضخمة التي تسعى للسيطرة على الرأي العام كي تبيع خدماتها وسلعها التجارية. النفوذ السياسي يوظف لنفوذ مالي وتجاري، حيث تستخدم الضغوط الخفية ويلعب المال دوراً أساسياً في منع تغطية الأحداث وخلق الرأي العام المستنير.

في رأيه، يجب أن يتمتع المجتمع بحرية النشر لمساعدة الفرد على الدفاع عن مبادئه الإنسانية والسياسية والاجتماعية.

المحاضرة نجحت نجاحاً باهراً فاق تصوره وتوقعاته. لقد خرج من الحصار الذي عانى منه لزمن طويل واستطاع في وقت قصير أن يعدّ محاضرة حازت إعجاب الطلبة والأساتذة في الجامعة. طلب منه منظمو المحاضرة البقاء لليوم التالي لحضور مناقشات الطلبة حول الموضوع الذي حاضر عنه وإعطاء الطلاب معلومات أوفر والرد على استفساراتهم.

عند الساعة الخامسة مساء اليوم التالي، ودع الجميع واتجه إلى محطة القطار في طريقه إلى لندن، وهو يشعر بحيوية فارقته منذ زمن طويل. لقد أعطته المحاضرة فرصة الخروج من الخمول، ومدته بأمل كبير في المقدرة على المسك بزمام أمور حياته من جديد. عند وصوله محطة القطار، وجدها مزدحمة بالركاب لدرجة فكر في عدم القيام بالرحلة، لكنه استطاع الدفع بجسمه إلى الداخل ووقف مع مجموعة المسافرين بجانب الأمتعة في ممر ضيق حتى شعر بنوع من الاختناق والحر.

خلع سترته وظل واقفاً يحمل في يده حقيبته الصغيرة التي تحتوي على أوراقه ولوازمه الخاصة. وبدأ القطار يتحرك بهدوء يحمل النسيم من فتحات النافذة ليداعب وجهه الذي تسربت إليه حبات العرق، كما شعر بنوع من الراحة والاسترخاء والمتعة والتفاؤل والأمل. وبعد مسافة قصيرة، توقف القطار في المحطة الأولى ونزل عدد كبير من الركاب وخفّت الزحمة، تحرك إلى الداخل محاولاً العثور على مقعد شاغر للجلوس.

أخذت عيناه تبحثان عن مكان، وإذا بيد من بعيد تلوح له بالاقتراب وتدله على مقعد شاغر. واصل السير حتى وصل إلى مقعد أمامه طاولة وانتبه إلى اليد التي دلته للمكان وكانت يد فتاة. رفع حقيبته على رف الأمتعة أعلى المقاعد وجلس ثم قال للفتاه بتلقائية: شكراً على جميلك، لقد ظللت أبحث عن مقعد لمدة طويلة.

وقالت الفتاة: رأيتك من بعيد واقفاً طوال الجزء الأول من الرحلة، وبعد نزول المسافر الذي كان بجانبي، قلت أنبهك إلى وجود المقعد بدلاً من أن تظل واقفاً لمسافة طويلة أخرى. جلس بجانبها وحتى الآن لا يعرف ما الذي دفعها لتنبهه إلى المقعد الشاغر؛ عادةً

المسافرون لا يساعد بعضهم بعضاً، بل يدعونك تهلك حتى تجد مقعداً تجلس عليه. ارتاح في مقعده وظل لفترة غير قصيرة صامتاً، والفتاة صامتة تتصفح مجلة نسائية تهتم بالموضة والجمال، مجلة «فوغ».

ألقى برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه من التعب ولم ينتبه حتى وقف بجانبه جامع التذاكر وطلب منه التذكرة لقرضها بمقصه الغليظ. أخذ يبحث عن التذكرة في جيوب سترته لكنه لم يعثر عليها فوضع محتويات جيوبه كلها أمامه على الطاولة، إلا أنه فشل في العثور عليها. قدمت الفتاة بطاقتها، قطعها جامع التذاكر ووعده بالعودة لختم تذكرته فيما بعد.

قال بصورة تلقائية وهو يبتسم موجهاً كلامه لها: نحن الرجال أصابنا مرض النساء المزمن.

قالت متسائلة: ما هو هذا المرض يا ترى؟

قال: السفر بأشياء كثيرة ولا داعي لها. انظري، إنني أحمل في جيوبي أشياء كثيرة معظمها ليست ضرورية ولذلك لم أعثر على تذكرتي.

قالت: حمل ما هو خارج عن اللازم مرض العصر، ومن الواضح أننا نحن النساء تقاسمنا المرض معكم معشر الرجال.

بعد هذا الحديث القصير، سكتا لبرهة ودخل هو في أفكاره مرة أخرى. لكنه سمعها تتكلم وهي تبتسم وظهرت له أسنانها البيضاء الناصعة المصفوفة بنظام جميل ونسق قويم. قالت: الظاهر أنك متعب ومنهك.

قال: بالفعل، كانا يومين متعبتين قضيتهما في الجامعة بين طلاب الجامعة وأساتذتها، والآن زحمة القطار وعدم عثوري على مقعد في بداية الرحلة.

قالت: هل لي أن أسألك ما الذي كنت تفعله في الجامعة؟

قال: طلبت مني كلية الصحافة إلقاء محاضرة أمام طلاب الكلية وكان من المقرر أن أعود إلى لندن أمس، إلا أنهم طلبوا مني البقاء لأعدّ لنقاش محتوى محاضرتي والرد على أسئلة الطلبة.

قالت: أنا لست مقيمة في لندن ونادراً ما أجد الفرصة للذهاب إلى هناك؛ اليوم إحدى صديقاتي تنظم حفلاً بمناسبَة تخرجها من كلية التمريض ودعتني مع مجموعة من أصدقائها إلى أن نشاركها الاحتفال في منزلها هذا المساء. قالت ذلك وأخذت تلعب بشعرها البني الكثيف الذي تتخلله موجات خفيفة من التعرجات. وتململت على المقعد بإغراء ثم وضعت المجلة النسائية على الطاولة ووجهت اهتمامها إليه. لا تعرف الذي جذبها إليه على الرغم من فارق السن الواضح الذي بينهما وليس عنده خاصية مغرية، ربما جذبها شعره الكثيف الذي بدأت شعيرات الشيب تغزوه كأنها خيوط من فضة، وربما جمال أنفه المستقيم الأنيق.

قال لها: المعذرة، من أين أنت؟

قالت وهي تضحك: هل ذلك يهم؟ تعني من أين نزحت أصلاً؟

قال: بالطبع يهمّ، خصوصاً بالنسبة لي شخصياً؛ أنا أحب معرفة أصل الأشياء. ظن أنها تنحدر من منطقة الشرق الأوسط، ربما بسبب سمرتها الجميلة. كان قد تولد في داخله فضول قوي لمعرفة

الشرق الأوسط، خصوصا أنه قرر البحث عن أصل أبويه، الفتاة يمكن أن تساعده في مهمته الشاقة. ما يعرفه عن الشرق الأوسط هو الصدام المستمر بين إسرائيل وأصحاب الأرض الأصليين أي الفلسطينيين، ويتذكر أنه في الماضي كتب بعض التقارير عن واقع الاقتصاد في قطاع غزة والأراضي المحتلة، أوضح الضغوط التي تفرضها إسرائيل على الاقتصاد العربي إجمالاً من محاصرة واحتكار، مما هدد بانهيار حركة المال والأعمال في الأراضي المحتلة. والأمر الآخر الذي يعرفه عن الشرق الأوسط هو البترول والثروة الهائلة التي أعطاها للبلدان المنتجة له. وإن كانت هذه الجميلة من الشرق الأوسط، فستكون المدخل المناسب لفهم الإقليم وأوضاعه.

قالت: أنا أنحدر من مكان يختلط فيه البترول والفقر.

قال لنفسه: إذن هي من الشرق الأوسط.

فرد عليها قائلاً: إذن أنت من الشرق الأوسط؟

قالت: كلا، لست من الشرق الأوسط؛ عليك أن تخمن أصلي وفصلي.

قال: الغلبة لصالحك في هذا الأمر، خلصيني من حيرتي لأني أعرف أن البترول والفقر يوجدان فقط في الشرق الأوسط؛ ما هو بلدك؟

قالت: أنا من أميركا اللاتينية، من فنزويلا.

شعر أنها خيبت أمله لكونها ليست من الشرق الأوسط وقال لها: وماذا تعملين في هذا البلد البارد، تاركة شمس بلدك الدافئة؟ أنا لم أذهب إلى تلك المنطقة من العالم سوى مرة واحدة كنت

مسافراً إلى بلد لا أتذكره الآن بالتحديد ونزلت لبضع ساعات في مطار هندوراس لتغيير الطائرة.

قالت: أتيت لأتعلم اللغة، ففي بلدي اللغة الإنكليزية لها شأن كبير، أردت إجادتها والعودة لوطني والعثور على عمل جيد في قسم الترجمة في الصحف اليومية والتدريس، أو في الدوائر الحكومية والشركات الخاصة أو الهيئات العالمية.

قال: لم أدرك اللغة الإنكليزية شأنها كبير إلى هذا الحد ليجعل بنتاً جذابة مثلك تنزح إلى لندن لهذه الغاية. قال ذلك وضحك وواصل قائلاً: دعينا من المزاح، هل فعلاً اللغة الإِنكليزية مهمة في فنزويلا إلى القدر الذي تصفينه؟ لم أتصور أن تكون في العالم الذي تنحدرين منه بهذا المستوى من الأهمية؟

قالت: كيف لا تعرف ذلك وبلدك بريطانيا هو الذي دعم مكانة اللغة الإنكليزية في العالم مقابل جميع اللغات الأخرى؟

قال: أنا أمزح معك، بعد الحربين العالميتين تغير العالم ورجحت كفة الدول المنتصرة ورجحت معها كفة اللغة الإنكليزية؛ انتصار بريطانيا على ألمانيا دفع باللغة الإنكليزية إلى مقدمة اللغات بصفتها لغة المنتصر الذي يملي شروطه على المهزوم، حتى إن فتاة مثلك قطعت كل هذه المسافة لتتعلمها. قال ذلك وهو ينظر في عينيها ضاحكاً ثم سألها قائلاً: وماذا تعملين في شمال بريطانيا؟

قالت: أعمل مربية أطفال عند أسرة إنكليزية ثرية؛ هذه السنة الثالثة لي في هذا العمل.

قال: ما الذي تذهبين إلى لندن من أجله؟ وانتبه إلى أنه ليس من

اللائق طرح سؤال كهذا عليها؟ قال معتذراً: سامحيني، ليس من المناسب أن أسألك عن الغرض الذي تذهبين من أجله إلى لندن.

قالت: لا تخف، لم أغضب من سؤالك، لكن لو عدت بذاكرتك إلى الوراء، فستجد أني أخبرتك عن غرض ذهابي إلى لندن؛ سأحضر حفلاً لصديقة تدعى دورا، وسأبقى معها لمدة يومين ومن ثم أعود إلى مكان عملي في الشمال.

قال: تجاهلنا شيئاً أنا وأنت!

قالت: وما هو؟

قال: لم أسألك عن اسمك ولم تسأليني عن اسمي؟

ضحكت وقالت : دعني أسألك عن اسمك، هل للأسماء أهمية إن كان هناك انسجام بين الشخصين؟

قال: طبعاً للأسماء أهمية وإلا ناديتك آنسة فنزويلا وناديتني سيد بريطانيا.

ضحكت وقالت: إن كان الأمر كذلك، دعني أكشف اسمي فوراً ومن دون تردد ـ اسمي غابريلا.

قال: اسمي ناجي، لا أعرف السبب الذي دعا والدي ووالدتي إلى تسميتي بناجي. الأرجح أنه الاسم الذي على شهادة ميلادي؛ أنا ابن بالتبني. أبي وأمي تبنياني وعمري ثلاثة أيام بعد موت أبي وأمي الطبيعيين في حادث وهما من أصل شرقي وعربي بالتحديد. وحتى الآن لا أعرف شيئاً عن خلفيات أبي وأمي سوى ما أخبراني عنهما والدي ووالدتي بالتبني؛ لم أبدأ بعد البحث عن خلفياتهما. للأسف الشديد لا أعرف الكثير عن الشرق الأوسط

وأنوي البحث عن جذوري في القريب.

قالت: هذه أول مرة أتحدث مع شخص مُتبَنّىً؛ بماذا تحس؟

قال: لقد عشت طفولتي في أحضان والدي ووالدتي بالتبني في هناء وحب ومودة؛ عشت أحلى أيام حياتي وعرفت واقعة التبني قبل وفاة والدي بأيام.

قالت: لا أعرف هل أحزن عليك أم أهنئ أبويك اللذين استطاعا تربية ابن بهذا المستوى من الاتزان؟

عندما قالت كلمة اتزان رجع بذهنه إلى أيام الإدمان والإحباط والتدهور التي عانى منها في حياته؛ هل كانت ناتجة من التبني أم من عوامل أخرى؟ حاول إبعاد هذه التساؤلات عن ذهنه فنظر إلى عينيها العسليتين وابتسم ابتسامة إعجاب وارتياح. إلا أن قصر الرحلة أزعجه، فبعد وصول القطار إلى لندن ستختفي من ناظريه للأبد. لم يستطع كبت شعوره عنها.

قال لها: خلال أيام إقامتك في لندن ما الذي تنوين عمله بجانب حضور الحفلة؟

قالت: بعد الحفلة، سأقوم بما تطلبه مني صديقتي كالدردشة حتى الصباح وسماع الموسيقى وتعاطي النبيذ؛ أنا وصديقتي دورا لم نر بعضنا منذ زمنا طويل حيث إنني أعمل في مكان بعيد ودورا كانت منغمسة في دراستها وامتحاناتها.

قال: تجيدين اللغة الإنكليزية إجادة تامة.

قالت: الاختلاط بالأطفال من أسرع الطرق وأسهلها لتعلم أي لغة.

قال: أنت محقة لأن الأطفال لا يتركون للكبار عند التحدث معهم أي مجال للتردد ويتقبلون ما يقوله الفرد بأي صفة حتى لو كانت اللغة غير سليمة، وبهذا لا يشعر الفرد بالإحراج. هل يمكنك أنت وصديقتك دورا قبول دعوتي إلى تناول العشاء أيام إقامتك في لندن؟ لا أستطيع دعوتك بمفردك لتناول العشاء خشية أن ترفضي ظانّةً أني متسرع وحشري في التعامل مع فتاه مهذبه مثلك. لذا رأيت المناسب أن تكون الدعوة تخصك أنت وصديقتك؛ أنا شخص غريب تعرفتِ إليه في القطار. أريد معرفة فنزويلا وبالأخص اقتصادها؛ أنا اقتصادي يريد معرفة البترول والفقر عندكم.

ضحك وقابلت عيناه عينيها. الفتاة تناولت يده بتلقائية وتركتها في يدها من دون تردد أو خوف. قالت: لدي فكرة أفضل، تعال هذا المساء معي إلى حفلة دورا. ولكن ما الذي ستقوله عن الحفلة إن كانت لديك صديقة أو زوجة؟

قال: أنا أعزب ولست مرتبطاً، لا زوجة أو صديقة؛ كوني مطمئنة. وشكراً على الدعوة، لكن كيف لي الذهاب إلى حفلة لا أعرف صاحبتها من قبل؟

قالت: ستعرفها من خلالي؛ هي صديقتي وذلك يكفي.

قال: هل سترضى بفكرة جلبك لرجل غريب إلى بيتها لحضور حفلة مع أصدقائها المقربين؟.

قالت: دع طقوس البريطانيين جانباً؛ أنت الآن مع فتاة من أميركا اللاتينية، عندنا الأمور تجري على خلاف الحال في بلدك. في بلداننا، بيوتنا وقلوبنا مفتوحة للقريب والبعيد فلا تخف من أمور

التطفل التي تشغل ذهنك وذهن الأوروبيين. لدينا لا تحفُّظ كما الحال معكم؛ آسفة على قول ذلك لكن هذه هي الحقيقة. الناس عندكم تتحفظ فوق اللازم، في بلداننا الأمر يختلف عن ذلك تماماً لذلك تعال معي مساء اليوم وستتعرف إلى أصدقاء جدد؛ ماذا تقول؟ لن أعطيك مجالاً للاعتذار.

قال وقد شعر بيدها تضغط عليه: ألا تخافين من اصطحاب شخص غريب إلى حفلة أنت مدعوة لها؟.

قالت والإغراء ظاهر في كلامها: لو كنت خائفة، لما أعطيتك الفرصة للتحدث معي ثم قدمت الدعوة لمرافقتي للحفل. اصطحبني يا ناجي لأني أخاف المشي بمفردي ليلاً في الشوارع ومحطات القطار في لندن.

شعر بالحماسة عندما مالت برأسها على كتفه وقال: لقد استطعت إقناعي، لذا سآتي معك، شريطة أن تعتذري لصديقتك وتخبريها عن إصرارك على دعوتي؛ لا أريد أن تتهمني بالبريطاني المتطفل الذي لا يعرف الذوق الاجتماعي.

قالت: دعك من الرسميات فالأمر لا يتطلب كل هذا الكلام، هي مجرد حفلة مفتوحة لكل من يريد الحضور، وحتى الجيران مرحب بهم. في بلداننا لا نحبذ الحفلات الخاصة المغلقة، كل فئات المجتمع بمن فيهم المارون في الشوارع لهم الحق في الحضور والمشاركة.

قال: جميل أن يعيش الإنسان بعيداً عن قبضة التزمت والعزلة كما هي الحال في البلدان الغربية؛ في عالمنا الغربي الأمور أكثر تعقيداً

منها عندكم. عندنا تسود الرسميات والمعايير الصارمة حتى في أتفه الأشياء، ومشكلتنا في عدم ممارسة الأفعال التلقائية والعفوية.

قالت وهي تتأرجح بين الجد والهزل: في بلدي لا تبحث عن أنيس، فالجميع أصدقاؤك ويمكنك مشاركتهم أفراحهم وأحزانهم؛ العزلة محرمة عندنا. ولن تجد أطباء نفسانيين في طول أميركا اللاتينية وعرضها، حيث لا حاجة لهم؛ للفرد طبيب نفساني خاص يدعى الجار أو الصديق، هؤلاء هم الأطباء النفسانيون الحقيقيون. جارك وجارتك وزملاء العمل والمدرسة والجامعة، وأختك وأخوك وأمك وأبوك هم أطباؤك ومن يتولون أمر روحك ونفسك، لا حاجة لأطباء مختصين في علم النفس ممن لهم شهادات عالية وخبرات طويلة.

ظهرت الجدية على وجه الفتاة وقالت: دعني من المبالغة، بالطبع لدينا أطباء نفسانيون كما في أي بلد، لكن لا حاجة ماسة لصنعتهم لأن المجتمع معافى من المشاكل التي تعانون منها. في بلدان أميركا اللاتينية الكل في حفلة مشتركة ودائمة في كل يوم من الأيام وساعة من الساعات. هل تصدق أن السيدة التي أعمل معها تزور طبيبها النفساني ثلاث مرات في الأسبوع وذلك يكلفها الكثير من المال والجهد؟ عند اكتشافي لأمرها، صعقت وتساءلت كيف لسيدة غنية ومتعلمة الذهاب لطبيب نفساني؛ لديها زوج وعدد كبير من الصديقات ومربية أطفال؟ لكن مع مرور الأيام، عرفت أن الناس في الوسط المنعزل، في حاجة ماسة إلى أطباء نفسانيين؛ لم يعد الأمر يدهشني كما كان.

شعر بانجذاب شديد نحوها وشد على يدها بقوة وقال: لقد وافقت على اصطحابك إلى الحفلة على شرط واحد مهم.

شعرت بقليل من الارتباك وقالت: ما هو هذا الشرط؟

قال: أن تسمحي لي بالعودة لبيتي قبل منتصف الليل لكي لا أفقد حذائي الذهبي ويحدث لي ما حدث لسندريلا في القصة الشهيرة.

ضحكت حتى بانت أسنانها الجميلة وقالت: أنت ظريف بما تفوق الخيال. أخاف أنك تود العودة المبكرة لوجود امرأة أخرى بالبيت توبخك عندما ترجع في وقت متأخر من الليل.

قال: كوني مطمئنة من هذا الجانب؛ لا امرأة في انتظاري أبداً.

وبتلقائية وسلاسة، اندست شفاههما في بعضها البعض ودخلا في قبلة عميقة محمومة. الركاب يختلسون النظر إليهما وهما لا يشعران بالمحيط الذي حولهما. واصلا القبل الملتهبة والعناق الحميم. وقعت يده بين فتحة قميصها ولمس نهدها. نهضت وقادته من يده. انقاد خلفها وهو لا ينوي على شيء. توقفت أمام دورة المياه ودفعت الباب ودخلت. دخل خلفها وأغلق باب الحجرة الضيقة التي تتسع لشخص واحد. وواصلا القبل بلهفة وجنون؛ كانت قبل متقطعة بسبب سرعة القطار وهزاته العنيفة. تمكن من إزاحة قميصها الوردي الضيق ودس انفه في عنقها وشم صدرها الأسمر ناعم الملمس؛ لعب عطرها المختلط برائحة العرق بأعصابه وزاد من إثارته. ضمها إلى صدره بقوة وكأنه يمزج إحساسه بإحساسها ولحمه بلحمها.

الرغبة ملتهبة ومجنونة وهو يريد أخذها لمرحلة عميقة من اللذة والشبق. القطار يتمايل وهما يرقصان على إيقاعه السريع في أتون

الشهوة العارمة، كأنهما يرقصان رقصة قبائل جبال الآندي البيروفية؛ تسمع قرع الطبول وترى الأجساد تتمايل وتحس دفء نار الشتاء.

وهما في دورة المياه المفعمة بلهيب اللذة، سمعا صوت المعلن يخبر الركاب بقرب القطار من دخول محطة شارنج كروس في لندن. اعتدلا وهما لا يزالان يلهثان وانسحبا هاربين كانسحاب آدم وحواء لحظة هروبهما الأزلي من وسط النعيم المؤقت.

اندسا داخل زحام المسافرين وهما يتبادلان النظرات الصامتة الملتهبة. وقفزا من القطار إلى أرضية المحطة ونسيا متاعهما في عربة القطار بينما الليل يزحف على المحطة وقطاراتها ومكاتبها. واصلا السير لكنه توقف ليخبرها عن رغبته في شراء جريدة مسائية وزجاجة نبيذ وباقة ورد ليقدمها هدية لدورا. ومن بعد مهمة الشراء، شقا طريقهما بهدوء إلى خارج المحطة من دون حاجة لركوب سيارة أجرة لقرب بيت دورا من المحطة. بمجرد أن قطعا الشارع وابتعدا عن المحطة وزحمتها، بدأ المطر ينزل بغزارة ليحول المكان لأجواء استوائية مطيرة. أضواء الشوارع تشبه أعين الثعالب المذعورة وهي تهرب من هجوم نمر شرس.

قالت جابريلا: الطقس يذكرني بطقس بلدي الذي تختلط فيه الحرارة والرطوبة والمطر.

واصلا السير تحت هجمات المطر المتواصلة. في داخل ناجي كلام عن تطور الأحداث في القطار بينه وبين غابريلا؛ قطار مزدحم ومقعد شاغر وفتاة جميلة ولذة ملتهبة ثم دعوة إلى حفل فيه كل الاحتمالات والتوقعات. إنها بداية جدية ومواقف أشبه بمواقف القصص والروايات والأحداث الغير المتوقعة، تختلط الغرابة والإثارة

والمتعة. ما نهاية الأحداث يا ترى؟ السؤال يتردد في داخله وهو ممسك بيدها ولا يقول شيئاً، هذا ليس وقت الكلام.

وانتقل إلى صورة الليلة التي سيقضيها مع غابريلا، تحت سقف غريب في شقة لم يدخلها من قبل. ليس من الأدب ترك الشقة بمجرد انتهاء الحفلة وعليه البقاء في الشقة. الصور تتلاعب أمام ناظره وتمنى أن يكون ما جرى له اليوم مع غابريلا شيئاً دائماً.

وصلا إلى عمارة عالية ولها شرفات كثيرة وفي الدور الثالث مجموعة من الشباب يرقصون على أنغام موسيقى لاتينية صاخبة.

قال وهو واثق من صحة تخمينه: هذه شقة صديقتك؟

قالت: معرفة شقة صديقتي أمر لا يتطلب كثيراً من الذكاء فنحن الشعب اللاتيني حيث نحل تحل معنا الموسيقى.

قال: والنبيذ.

قالت: والنبيذ طبعاً؛ الشعوب اللاتينية لا تستغني عن النبيذ في جميع جلساتها وطقوسها، ومن الضروري وجوده في حياتنا فهو عندنا في غاية الأهمية.

مجموعة الشباب والشابات رأوا غابريلا وناجي ولوحوا لهم بأيديهم ورحبوا بهم بكلمات من اللغة الإسبانية.

قال: الظاهر لديك شعبية كبيرة يا غابريلا لدى هذا التجمع.

ضحكت وقالت: وأنت كذلك؛ إنهم يرحبون بنا نحن الاثنين.

واصلا التقدم نحو العمارة ووقفا أمام الباب الخارجي ثم استقلاّ المصعد القديم للدور الثالث. ضغطت على الزر وفتحت الباب فتاة

بشعر أسود طويل مسترسل على كتفيها وهي ترتدي فستاناً قصيراً أظهر ساقين جميلتين ومتناسقتين. تلك هي دورا صديقة غابريلا التي جاءت لزيارتها. حيتهما واتجهت إلى المطبخ وتركتهما وسط مجموعة المحتفلين.

وظلا يتنقلان في ردهات الشقة حتى وصلا إلى المطبخ حيث توجد أصناف عديدة من الأطعمة الخفيفة وزجاجات النبيذ الأحمر والأبيض وأوعية كثيرة مملوءة بالطعام. أخذت غابريلا تتحدث مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات بينما اتجه هو إلى صالة الجلوس الصغيرة والمحتفلون مشغولون بتعاطي النبيذ والتدخين. اتجه نحو الشباك الكبير المطل على الشارع العام، حيث تظهر معالم المدينة ومحطة شارنغ كروس والشوارع المجاورة، وأخذ يتتبع حركة المارين وهم يهرولون هروباً من قطرات المطر المنهمرة. وعاد بذهنه إلى أمر اليوم العجيب الذي جمع بينه وبين غابريلا.

بعد فترة، أتت غابريلا بكأسي نبيذ وأخذا يحتسيانه. وأمسكته من ذراعه وطلبت منه المشي معها لوسط الصالة حيث بدأ عدد من الفتيات والفتيان يرقصون على أنغام الموسيقى. وطلبت منه الرقص معها؛ تذكّر أيام شبابه في الجامعة وليالي الرقص والسهرات التي كانوا يقيمونها في ليلة السبت. شعر كأنه يمسك من جديد بزمام شبابه الغابر، فها هو وسط شلة من الشبان والشابات وغابريلا التي تتمتع بالحيوية والإغراء. واصلا الاحتفال مع المحتفلين وسط صخب الموسيقى.. فجأة سمعوا طرقات عنيفة على باب الشقة.

قالت دورا: أخفضوا صوت الموسيقى من فضلكم، محتمل أن تكون الشرطة على الباب. وبالفعل الشرطة هي التي كانت أمام الباب. بدأت القلوب ترجف من الرهبة. فتحت دورا الباب وتقدم

نحوها شرطيان، أحدهما طويل وعريض المنكبين والآخر متوسط الطول ونحيف، ومعهما كلبان ضخمان.

قال أحدهما موجهاً كلامه لدورا: من صاحبة هذه الشقة؟

قالت: أنا.

قال: ألا تدرين أن الصوت عال جداً؟ لقد أزعجتم الجيران والمشاة بالشارع، ولدينا معلومات بوجود مخدرات في هذا المكان لهذا سنقوم بتفتيشه فوراً. أصاب الجميع هلع وأخذوا يفرون بسرعة وبعضهم يحاول تسلق الشرفة للنزول من دون وعي إلى أسفل للتخلص من اصطياد الشرطة وقبضتهم، إلا أن الشرطة أمرت الجميع بالبقاء حيث هم. لم يستجب أحد لهذا الأمر وواصلوا الفرار لتعاطي المخدرات ولأنهم من دون تأشيرات قانونية للإقامة في بريطانيا؛ والبعض بجوازات سفر إسبانية وإيطالية مزورة.

الجميع خائف من أن تقبض عليهم الشرطة وترجعهم إلى بلدانهم في حالة عدم وجود إقامة قانونية عندهم. في النهاية بقيت شلة لا تتعدى العشرة أشخاص في الشقة؛ منهم غابريلا ودورا وناجي. بعد التحقيق طلب الشرطي من دورا أن تذهب في الصباح إلى أقرب مركز شرطة لتسجيل الواقعة والإجابة عن أسئلة الشرطة. وبهذا انتهت الحفلة بذعر وفزع شديدين.

عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، ودّعا دورا وخرجا عائدين إلى شقته وهو لا يزال يسأل نفسه إلى أين ستوصله هذه القصة التي دخل فيها مع غابريلا يوم أمس؟ وصلا إلى شقته التي أعجبت بها غابريلا وتعجبت من كثرة الكتب الملقاة في كل زاوية من زوايا المكان؛ سألته إن كان قد قرأ هذه الكتب جميعها. رد

عليها بأنه حتى لو لم يقرأها كلها فإنه قرأ شيئاً من كل كتاب أمامها.

بقيت غابريلا معه في الشقة لمدة أسبوع دون أن تقول شيئاً عن أمر عودتها لبيت صديقتها أو بقائها معه، وهو بدوره لم يناقشها في الموضوع. ظن أنها امرأة موظفة ويجب عليها العودة لمقر عملها طال الزمن أم قصر، إلا أنها لم تتطرق للحديث عن منطقتها في الشمال وعودتها إلى هناك حتى أتى يوم كانا يتناولان وجبة الإفطار على طاولة المطبخ الصغيرة حين قالت: لم تسألني بعد لماذا لم أعد إلى عملي؟

قال ضاحكاً: إذاً سأطرح عليك الآن السؤال الذي تريدينني أن أطرحه عليك. لماذا لم تعودي إلى الشمال حتى الآن؟

قالت: لأني أعجبت بك وبلندن وبكل ما حولي. صدق أو لا تصدق، معرفتي بك غيّرت مجرى حياتي ولم أعد أكترث في الدنيا لأمر سواك. لقد تحررت من الماضي وتوابعه وقررت أن أربط مصيري بمصيرك وأتمنى أن تسمح لي بذلك.

قال وقد أدهشه ردها: إن كان هذا ما تريدينه، فسأفسح المجال لترتبطي بمصيري للحد الذي تودين.

ونهض من مقعده وعانقها ودخلا في قبلة محمومة أدت بهما إلى السرير حيث نسيا ما في الوجود وما حولهما. وفجأة انتبها لواحد من الجيران وهو يحمل منظاراً مكبراً ويتلصص عليهما بشبق ونهم؛ جارهم المحامي السمين مستر أندرسون نظر من خلف زجاج شباك شقته لجسد غابريلا العاري الملقى على السرير ولصدرها

الناهد وشعرها الطويل المبعثر. تمتع بمنظرها وهي في أحضان ناجي على مشارف الجنة.

أما ناجي فقد مد يده وأسدل الستارة وهو في غاية الغضب من جاره المتطفل. ورقد بجانب غابريلا وظلا في أتون لذة جميلة حتى الساعة العاشرة مساء عندما دهمهما الجوع ونهضا متجهين إلى الشارع لتناول شيء من الطعام.

حالة الحب هذه التي بينهما ظلت تتجدد كل يوم بتلقائية وكأنهما نسيا وجود الكون بأكمله؛ الكون محصور في الشقة وفي الارتواء العاطفي والجسدي.

وذات يوم قالت له وهي تتحاشى النظر في عينيه: لماذا لا نتزوج؟

قال: ظننت أنك لا تهتمين بالزواج وأنك إنسانة متحررة ولا تودين أن يعيقك الزواج وتوابعه.

قالت: قبل معرفتي بك، ظننت بأني متحررة الروح والجسد، إلا أن معرفتي بك غيرت كل ذلك. الآن أريد قيود الحب حول عنقي؛ أريد قيودك يا ناجي. قيدني على سريرك وأدخلني في حياتك اللندنية. ضمني في صدرك ولفني في عباءة الكون السرمدية ومارس معي طقوس القبائل في الغابات والبوادي. قيودك مريحة وسأجرها في شوارع الكون الكبير ولن أحس بعذابها، فقيدني.

قال: غابريلا ولكن الحب في مفهومي لا يقيد.

قالت: لهذا أطلب منك تقييدي لأني لن أشعر بقيودك وهي تلتف حولي فهي قيود حب تلتف حولي حسب أمنيتي واختياري.

أعجبته الصورة الخيالية التي رسمتها لحبهما؛ الحب المتحرر ينطلق من دون أن تحده حدود، حب بين رجل وامرأة يعيشان بالصفة التي يرسمانها لحياتهما من دون واجبات والتزامات. وقال: إذا كان الأمر كذلك، فهيا نذهب لتحديد موعد الزواج؛ سنتزوج أنا وأنت من دون تردد.

الأيام التي قضياها معاً وهما يستعدان للزواج كانت من أسعد أيام حياتهما. نسيت غابريلا أمر عودتها إلى الشمال كلياً ولم تعد لبيت الأسرة لأخذ ما لها من متاع لأنها، كما قالت، لا ترى لذلك داع لأن حياتها ارتبطت بناجي. بالنسبة لها، اقتصرت استعدادات الزواج على فستان من قماش الحرير بلون العاج وحذاء من مشتقات اللون ذاته والخاتم الذي سيهديه لها ناجي رمزاً للحب السرمدي بينهما. ثقتها لا تتزعزع في ثبات الحب الذي يجمعهما؛ حبها المتقد لناجي لن يخمد مهما كانت الظروف والأحوال. لقد عثرت في القطار العائد إلى لندن من الشمال على ما كانت تبحث عنه وما أرادته طول حياتها؛ عثرت على رجل تحبه بكل جوارحها، بتلقائية ومن دون صعوبات أو معضلة. إنها تحب ناجي وتقول كلمة «أحبك» من دون تردد أو ضعف.

بدأ ناجي بدوره يبحث عن أفضل مكان لشراء الخاتم ليكون هدية أزلية منه لفتاته التي أحبته كل هذا الحب بطريقة لم يتوقعها وهو على مشارف العقد السادس من العمر وفي حالة من اليأس لا يعلم مداها إلا الله. ذهبا لشراء الخاتم من «جارارد»، أعرق محل مجوهرات في لندن وسبق للملكة أن كرمته لجودة صناعته وخدماته للقصر والتاج على مدى سنين طويلة. في ذلك اليوم

بالذات وهما يقتربان من محل المجوهرات في شارع ريجنت، وقعت عيناً دافني عليهما صدفة. لم تكد تصدق أن الصدفة هي التي جمعتها بناجي بعد بحث لا طائل من ورائه.

وشهقت دافني مما رأت وشعرت بالأمل والتفاؤل يدب في جسدها، إلا أنها عندما رأتهما، اختبأت بسرعة كي لا تقع عيونهما عليها. قلبها خفق وهي تتلصص وتشاهدهما داخل الدكان يقلبان الخواتم والأحجار الكريمة بمساعدة مساعدي المحل. وأدركت فوراً أن في الأمر خطوبة أو زواجاً، وبدأت تشعر بالغيظ والحنق وبنار الغيرة تشتعل في داخلها. وسألت نفسها: كيف لناجي أن يغدر بعلاقتهما بتلك الطريقة السريعة، ويختار فتاة في عمر الزهور؛ لِـمَ فعل ذلك بعد أن تفانت في حبه ومودته وأخلصت له وقامت بخدمته على أكمل وجه؟

واليوم تعثر عليه وبرفقته فتاة على قدر عال من الروعة والجمال! قالت لنفسها: من المؤكد أنها حكمة الإله التي قدرت لها اكتشاف هذا الأمر؛ ما الذي خلف هذه الحكمة؟ وتراجعت قليلاً من أمام الواجهة وشعرت بغمامة سوداء تلاحقها وتمنعها من النظر. تمالكت نفسها وأخذت نفساً عميقاً وواصلت مشاهدة عملية الشراء؛ لاحظت الحب والود الذي في عيني ناجي تجاه غابريلا وفي عيني غابريلا تجاه ناجي.

انتهيا من الشراء وخرجا ويده في يدها. غابريلا طبعت قبلة على شفتي ناجي، بينما واصلت دافني المشي خلفهما بحذر كي لا ينتبها لوجودها وهي تتبعهما. دخلا محلاً للأثاث. وقفت خلف الباب، تراقبهما وهما يتشاوران لشراء سرير وأثاث لصالة طعام ولوحة فنية، اشترتها غابريلا وقدمتها هدية لناجي.

وحملا اللوحة وخرجا من محل الأثاث. فور خروجهما، وقفا ينتظران سيارة أجرة، اندفعا في داخلها. وأشارت دافني لسيارة وطلبت من السائق متابعة السيارة رقم ٧٤٦٨١ من دون معرفة اتجاههما. السيارة توقفت أمام مبنى تسجيل الزواج في منطقة كنغز رود في حي تشيلسي. نزلا وهما في سعادة لا حدود لها واختفيا داخل المبنى.

تأكدت دافني من أنهما ينويان الزواج وأن المراسم ستتم في هذا المكان بالذات. بعد ذلك، عادت إلى البيت وهي خائرة القوى منزعجة ولا تعرف إلى أين تتجه. رأسها محمّل بشتى الأفكار عن الخطة التي ستنفذها ضد ناجي وزواجه المرتقب. أخذت دموعها تنزل من دون توقف؛ تبكي من الارتباك الذي خيم على حياتها منذ الطفولة. أصبحت الوحدة تلف أيامها ولياليها، لقد خانها ناجي ودخل في عالمه المليء بالسحر والغموض.

كانت تتصور أنه لن يقترب من الزواج إطلاقاً. كان يدّعي أنه لن يقرب الزواج، لكنه نسي وعده. وعاهدت نفسها ألا تدع يوم زواجه يمر بهدوء؛ ستطيح بكيانه وتقلب خطته رأساً على عقب، ولن تدعه يتغلب عليها بهذه السهولة مهما كان الثمن.

وبدأت في حبك خطة مدروسة لتحويل زواج ناجي إلى مأتم. حصلت على تاريخ الزواج من مبنى تسجيل الزيجات؛ عادة تُنشر أسماء ومواعيد الزيجات القادمة أسبوعياً على لائحة في المبنى ذاته. والهدف من النشر هو إعطاء الفرصة لمن يريد أن يتقدم باعتراض على الزواج، قبل تسجيله أو أثناء مراسم التسجيل.

بدأت الخطة تتضح في ذهنها وعاهدت نفسها على أنها لن تدع

له منفذاً للإفلات من الفخ المنصوب له مهما تكبدت من متاعب ودفعت من ثمن.

تمكنت من معرفه تاريخ الزواج (١٤ آب/أغسطس)، وكي لا تنسى التاريخ المهم، دونته على قصاصات ورق صغيرة وألصقتها على حيطان الشقة والمطبخ والسرير والباب وجدران الحمام ودورة المياه. وظلت بفارغ الصبر وعلى أتم استعداد تنتظر يوم ١٤ آب/أغسطس.

في ذلك اليوم، يوم الفرح ذاته، ذهبت بصحبة صديقة قديمة لها تدعى ماري كانت على علم بعلاقة دافني بناجي. واتجها إلى مبنى تسجيل الزيجات الذي في تشيلسي تاون هول قبل الموعد بأكثر من ساعتين، ترقباً لوصول العروسين وضيوفهما حيث تنفذ الخطة المرسومة لعرقلة الزواج.

ناجي وغابريلا قررا الذهاب إلى مكتب الزواج في حافلة عامة، مع شلة كبيرة من أصدقائهما. ارتدت غابريلا فستان الحرير، وارتدى ناجي بذلة غامقة، وكانا في غاية السعادة والحبور. ومن أين لهما بمعرفة الفخ الذي نصبته لهما دافني بمساعده صديقتها ماري؟

أثناء نزول الجميع من الحافلة مصطحبين العروسين، كانت دافني وماري مختفيتين في المكان وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ الخطة. على دافني الظهور بمفردها لتنفيذ الجزء الأول من الخطة، من دون ماري التي عليها الانتظار حتى تنتهي دافني من الشوط الأول. على دافني القيام بإلقاء نظرة على الدرج عند وقوف العروسين لالتقاط الصور التذكارية في شارع كنز قبل الدخول للمبنى. ثم تظهر من طريق فرعي حيث كانت مندسّة؛ وهذا ما عملته بالفعل.

خرجت دافني ووقفت منتصبة أمام أحد المتاجر المعروفة المقابلة للمبنى وفي يدها مكبر للصوت وهي تنادي على ناجي بأعلى صوتها لينتبه لوجودها. أخذ صوتها يعلو ليبدد أصوات المارين والمتسوقين والسيارات في الشارع المزدحم.

قالت: ناجي، انظر أنا دافني، شبح ظهر ليواجهك من خلف القبر.

بدأ المدعوون يلتفتون ويتساءلون عن السيدة حاملة مكبر الصوت والغرض من كلامها. الشخص الوحيد الذي عرفها هو ناجي، لكن ظهورها أدهشه وأرعبه. وتساءل في داخله كيف عرفت عن أمر زواجه وزمان ومكان الزواج. إلا أنه بالطبع عرف القصد من فعلها، لكن الوقت متأخر لإنقاذ يومه الجميل مع غابريلا والتخلص من المشهد الهزلي الذي أعدّته له. لم تكن لديه وسيلة يتخذها لإنقاذ الموقف المريع سوى الأخذ بيد عروسته غابريلا التي كانت هي الأخرى في دهشة أشد من دهشته. لم تفهم موقف السيدة الإنكليزية الرزينة وسط الشارع في أجمل يوم من أيام حياتها وأمام المحتفلين والمارين.

اندسّ ناجي وغابريلا داخل المبنى بسرعة بينما ظل المحتفلون من أصدقائهم يتهامسون ويضحكون في محاولة يائسة لاستنتاج حقيقة الأمر الذي يسمعونه ويشاهدونه أمامهم. واصلت دافني في تلك الحالة من الهستيريا تقذف بالشتائم والسب واللعن على ناجي وضيوفه بصوتها القوي ولهجتها الأرستقراطية العريقة الواضحة وكأنها إحدى قريبات الملكة إليزابيث الثانية. ما قالته هو اعتراض على زواج ناجي لأنه زواج بني على أنقاض حياه إنسانه مثلها تفانت في خدمته لكنه تعامل معها بطريقة السفلة الأوغاد.

قالت دافني بكلمات رصينة: من تكون تلك الأجنبية التي فضلتها علي؛ حتماً هي مهاجرة غير قانونيه تعيش على نفقات دولتنا السخية، من ضرائب أناس مثابرين وكادحين من أمثالي. نحن الذين بنينا أسس اقتصاد دولتنا الأبية من خلال العمل والجد والجهد والمثابرة، ومن خلال استعمار شعوب ما وراء البحار. العالم البعيد كان في أمسّ الحاجة لمساعدتنا خاصة في المجالات الثقافية والدينية؛ أخرجناهم من متاهات ظلام الجهل والتخلف. من أجل تلك المهمة، واجهتنا صعوبات جمة واستشهد أعداد كبيرة من الرجال والنساء الأبطال. وقمنا بدور مهم في إنقاذ العالم من النازية بالقتال الضاري في الحربيين العالميتين؛ لقد بنينا اقتصاداً متيناً يجذب شعوب العالم على بكرة أبيهم.

وقالت: بسبب سخاء المعونة الاجتماعية عندنا، أصبحت شعوب كثيرة من مختلف الأجناس تقتات من مواردنا المالية، كما هي الحال مع هذه المهاجرة الاقتصادية التي تنوي الزواج منها يا ناجي. لذلك، إني اعترض على هذا الزواج وأريد من الحاضرين جميعهم في هذه البقعة وأمام هذا المبنى العريق معرفة موقفي من زواج هذا الرجل الخائن.

وقالت الكثير عن شخصية ناجي وعن لؤمه وانحطاط أخلاقه وإدمانه الكحول، وذكرت أن مزاياه الحسنة عائدة لتفانيها وخدمتها له على مدى سنين طويلة.

بدأ المشاة والمتسوقون يتجمعون حول دافني، سيدة وقور تلبس أجمل الثياب وتضع على عنقها عقداً من اللؤلؤ الثمين. واصل المارون همسهم وضحكهم، ماري هي الأخرى من بين المتفرجين تنتظر القيام بدورها في العملية.

دافني قصدت التشهير بناجي وتوضيح ما أصابها من غضب وحقد لما فعله معها، تخلى عنها بطريقة مخزية حين هي في أمس الحاجة له.

موظفو دائرة تسجيل الزيجات انتبهوا لما تفعله دافني أمام المبنى. وخوفاً من استمرار العرقلة والتأخير في تقييد الزيجات الأخرى، استدعى الموظفون الشرطة لإزاحتها من أمام المبنى. رجال الشرطة حضروا وتعجبوا من شغب السيدة الأرستقراطية العجوز. ألقت الشرطة القبض على دافني وقادتها إلى المخفر القريب للتحقيق معها.

بعد ذلك، جاء دور ماري لتنفذ الجزء الثاني من الخطة، والذي يتطلب اللحاق بالجميع إلى حيث سيقام الاحتفال. انتظرت ماري خروج الجميع من المبنى بعد الانتهاء من تسجيل عقد الزواج. ناجي وغابريلا تنفسا الصعداء وقصد الجميع إلى مقر الاحتفال.

استقلّت ماري سيارة أجرة وتبعت المحتفلين خفية. وعند الوصول إلى قاعة الاحتفال الكبيرة في مبنى فندق عريق، دخلت ماري عليهم وأبدت إعجابها بجمال المكان؛ من عادة المحتفلين أن يفسحوا مكاناً للغريب الذي يقصدهم وعدم صده. المحتفلون يجلسون على طاولات عامرة بكؤوس الشراب. عند دخول ماري وانضمامها لهم، لم ينتبه لذلك أحد؛ الجميع كانوا مشغولين بالموسيقى الحية التي تعزفها فرقة موسيقية معروفة.

أخذت ماري تلف وتدور في أرجاء القاعة الكبيرة ومعها آلة تصوير لتصور لدافني وقائع الاحتفال بأكمله، مثلت دور واحدة من المدعوات قد بهرتها زينة القاعة وتنسيق الزهور وتنظيم الطاولات وجمال اللوحات الزيتية القديمة.

واقتربت منها إحدى المدعوات وقالت: هذه لوحات جميلة، أليست كذلك؟

شعرت ماري ببعض الخوف وقالت: إنها لوحات جميلة خاصة لوحة الملكة فيكتوريا؛ انظري لتناسق الألوان والتلاعب بالضوء والعتمة؛ هذه هي روعة الفن القديم.

قالت المرأة: الأعمال الفنية الكلاسيكية كهذه انقرضت منذ عهود ونحن الآن نلهث خلف الفضائيات والفيديو، كم أتحسر على تلك الأيام بالفعل. هل شهدت الجنون الذي يسمى الفن الحديث؛ هذا ليس سوى خربشة ألوان على قطعة قماش. والناس يقتنعون ويشترون لوحات الفن الحديث بعد دفع مبالغ كبيرة.

قالت ماري: فعلاً إنها خسارة كبيرة.

قالت المرأة: لم نتعارف بعد؛ اسمي إليزابت ـ لزي.

قالت: أنا ماري.

قالت لزي: أنت إحدى المدعوات، ألست كذلك؟

قالت ماري: كلا؛ أنا زائرة، أقصد إحدى نزيلات الفندق. وأنا في طريقي إلى الخارج رأيت حفلكم الجميل فراودتني رغبة ملحة في الدخول لأرى جمال المكان وأستمتع بالموسيقى الحية.

قالت لزي: بالفعل، الحفل جميل والموسيقى لطيفة؛ هذا زواج زميلنا ناجي وهو صحافي معروف ومرموق لكنه ترك عالم الصحافة منذ زمن قصير. وعلى هذا أقول، لم نحسب نحن أصدقاءه بأنه سيتزوج بعد أن قضى شطراً كبيراً من عمره في العزوبية.

فرحت ماري بما قالت لزي وسألت: هل تزوج من زميلة عملت معه في عالم الصحافة؟

واقتربت لزي من ماري وقالت لها في أذنها: كلا، لم يتزوج من صحافية، بل اقترن بفتاة تدعى غابريلا والتي نزحت من أميركا اللاتينية وقد تعارفا أثناء رحلة على القطار من منطقه في شمال بريطانيا إلى لندن. إن أردت الصدق، أنا شخصياً أرى الأمر كارثة كبرى؛ كيف له الزواج من فتاة أجنبية تعرف إليها لفترة قصيرة؟ وبالمناسبة، فهي لا تجيد التحدث باللغة الإنكليزية وهي غريبة عن بيئته وتقاليده؛ ألا ترين غرابة في الأمر وكارثة تنتظر الحدوث؟

لم تصدق ماري أنها حصلت على كل هذه المعلومات الثمينة عن ناجي وزواجه بهذه السهولة، فردّت قائلة: بالفعل؛ لا سيما أنه كما قلت قضى الشطر الأكبر من حياته وهو أعزب.

قالت لزي: لماذا لا تجلسين معنا لمتابعة الحفل والاستمتاع بالموسيقى وتناول الطعام؟ ليس من اللائق أن تذهبي قبل أن تتناولي شيئاً من الشمبانيا.

قالت ماري: للأسف لا أستطيع؛ أمامي يوم طويل من العمل وأريد القيام بأشياء كثيرة مثل زيارة متحف فيكتوريا والألبرت. ولذلك لا أستطيع متابعة الحفل، أنا جد آسفة، لكن هل باستطاعتي أخذ بعض الصور لوقائع الاحتفال للتذكار فقط؟

قالت لزي: لا مانع في ذلك بل على العكس سيكون الجميع سعداء لو فعلت ذلك، لكن أطلب منك مرة أخرى تناول بعض الطعام قبل مغادرتك.

قالت ماري: إن كنت مصرة على ذلك، فسأفعل.

تقدمتا نحو طاولة عامرة بالمأكولات، وبأنواع مختلفة من الحلوى والخمور وأخذتا الطعام واتجهتا إلى زاوية منفردة من زوايا القاعة الكبيرة وبدأتا في تناوله. بعد ذلك، قامت ماري بالتقاط صور عديدة لجوانب الحفل. بعد أن انتهت من التقاط الصور طلبت منها لزي أن تتقدم لتسلم على العروسين لكنها اعتذرت خوفاً من أن تثير شك أحد.

شعرت ماري بالفوز؛ فقد نجحت الخطة التي وضعتها هي ودافني على مدى أيام عديدة. الآن في حوزتها صور كثيرة لوقائع العرس والعروسين لكي تريها لدافني. وبعد ذلك ودعت ماري لزي وخرجت بحملها الثمين متجهة إلى بيت دافني. عرفت أن الشرطة أفرجت عن دافني ولم تعتقلها سوى لساعات فقط؛ بسبب سنها المتقدمة ولأنها لم تؤذ أحداً وما فعلته عبارة عن شغب لا أكثر.

وعند وصول ماري إلى بيت دافني وجدتها جالسة في المطبخ على عادتها أمام طاولتها تستعيد أحداث اليوم.

قالت ماري: دافني، أتيت لك بذخائر؛ لقد فزنا أنا وأنت اليوم في مسعانا وما خططنا لعمله فلا تدعي القلق والهم بعد اليوم يتعبانك. اليوم يحق لنا أن نهنئ أنفسنا ونقول لقد فزنا فوزاً باهراً. إني أحمل صوراً كثيرة عن مراسم حفل الزواج الأسطوري كما سنسميه أنا وأنت منذ اليوم، فقد استطعت بطريقة سهلة جداً الدخول إلى قاعة الاحتفال وادعيت بأنني ضيعت طريقي فدخلت صدفة إلى القاعة وشدتني مراسم الاحتفال الجميل فلم أستطع السير قبل رؤية الحفل والاستماع إلى الموسيقى الحية. لم يمانع أحد

وجودي بينهم بل والأهم من ذلك لم يشك أحد إطلاقاً في سبب وجودي؛ تعرفت إلى إحدى المدعوات التي ساعدتني وأخبرتني عن كل الأمور المتعلقة بهذا الزواج.

وظلت دافني صامته وهي تستمع لحصيلة ماري من الأخبار. لقد شفت غليلها من ناجي بتعكير صفو يوم زواجه، إلا أنها أدركت أنها منذ اليوم يجب أن تدقق في أمور حياتها وتراجع ما يحتاج للمراجعة. في اللحظة التي جلست فيها أمام صديقتها ماري، شعرت دافني بأن مشاعرها تجاه ناجي قد تجمدت، فهو لم يعد حياً في داخل روحها وإحساسها كما كان الأمر في السابق. منذ هذه اللحظة لم تعد تشعر بأي مشاعر تجاهه، سواء كانت مشاعر حب أو كراهية أو غيرة، بل ران عليها جليد بارد قلص شعورها وإحساسها تجاهه. وهي تريد إبقاء هذا التجمد كما هو من دون ذوبان، وأيضاً تريد الوصول إلى مرحلة أخرى في حياتها. ما هو هذا الشوط؟ هي لا تعرفه لكنه شوط جديد يجب أن تصل إليه بطريقه أو بأخرى لتنقذ حياتها من بؤره اليأس قبل أن تسكن في داخلها وترفض الخروج.

بعد انتهاء الاحتفال، عاد ناجي ومعه غابريلا إلى البيت. ناجي ما زال يحمل في ذهنه صورة دافني وهي تذيع عيوبه على المارين والمحتفلين. سأل نفسه عن الطريقة التي سيفسر بها لغابريلا أحداث اليوم الهزلية المحزنة. الغريب أن غابريلا لم تفاتح ناجي أو تسأله عن دافني وأمرها الغريب؛ انغماسها في الفرح والاحتفال جعلها تنسى حادثة دافني.

ناجي وغابريلا بدآ حياتهما الجديدة في سعادة غامرة. لم تحاول غابريلا الاتصال بالأسرة التي كانت تعمل معها في الشمال؛ لقد

نسيت ماضيها كله. أصبح ناجي هو الواقع الذي تريد العيش فيه. لكن في يوم ما، أتت الشرطة إلى المنزل تبحث عن غابريلا بطلب من الأسرة التي كانت تعمل لديهم. الأسرة لم يصلها خبر من غابريلا لمدة طويلة فخافوا أن يكون قد أصابها أذى. وإجابة على تساؤلهم، بعثت لهم برسالة عن طريق الشرطة شاكرة لهم حسن معاملتهم لها في الأيام التي عملت فيها معهم وأرفقت الرسالة ببعض صور حفل زواجها.

قضى ناجي وغابريلا أياماً لذيذة لا يعكر صفوها أي شيء، بل كل شيء في حياتهما كان يأتي تلقائياً من دون جدول محسوب أو خطط معدة. وكانا يقومان بواجبات البيت معاً، وأحياناً لا يقومان بأي عمل خوفاً من أن يخنق الروتين حياتهما. أحياناً، يظلان في السرير ساعات طويلة.

واصل ناجي متابعاته الثقافية ودراساته وحضوره المحاضرات العديدة التي تنظمها المؤسسات الدراسية والأكاديمية والصحافية. وبدت آلام الماضي وكأنها لم تكن وأصبحت أيامه سلسلة من الهناء غير المنقطع. وفي هذه الفترة بأكملها امتنع كلياً الكحول ولم يشربه إطلاقاً ولا حتى في المناسبات الاجتماعية. رغبته في الهدوء العائلي أصبحت أقوى من الرغبة الملحة لتذوق الشراب التي تنتابه بين الحين والآخر؛ قاوم الخمر بعزم مدهش.

وفي يوم من الأيام، خرجت غابريلا لزيارة إحدى صديقاتها وظل ناجي في البيت بمفرده، فعادت له وحشة الوحدة التي كان يعاني منها في الماضي من جديد، على الرغم من أن تغيب غابريلا كان لمجرد ساعات قليلة. ذكريات الأيام الماضية التي كان فيها وحيداً عادت أمام عينيه؛ لأول مرة منذ زواجه لم يستطع مقاومة إغراء

الزجاجة. نهض بعد تردد وأتى بزجاجة نبيذ ووضعها على المنضدة التي أمامه وظل ينظر إليها برغبة ملحة، وكلما حاولت يده أن تمتد لتتناول الزجاجة، سحبها. ظل هكذا لفترة ليست بالقصيرة حتى سيطر علية الإغراء فقال في داخله: مجرد كأس واحدة لا أكثر؛ لقد وعدت غابريلا بعدم العودة للشراب وإن شربت فلن أفرط. أستطيع التحكم في رغبتي ولن أدع الزجاجة تلعب بإرادتي وتستحوذ على ذهني.

ولقتل الرغبة الملحة، رفع كتاباً من بين الكتب الكثيرة المبعثرة أمامه على أرضية المكان بتلقائية وأخذ يقرأ، إلا أن الزجاجة المنتصبة أمامه بلونها الأخضر الغامق المغري ظلت تداعب نظره ولم تدعه يغير اتجاهه عنها. وبيد منقبضة، تناول الزجاجة بهدوء وسكب كأساً واسترخى على الأريكة. تناول الكأس ومن أول رشفة أحس بارتياح ممزوج ببعض الخوف الكامن في عقله الباطني، إلا أن لذة المحلول الذي أخذ يسيل على سطح لسانه ويجري في أطرافه جعله يشعر وكأن شيئاً كان يفتقده قد عاد إليه للتو. من بعد الرشفة الأولى أخذ رشفة ثانية تلتها رشفه أخرى وأخرى حتى انتهى ما كان في الكأس فملأه حتى انتهت الزجاجة بأكملها.

الآن لم تعد لجمل الكتاب معنى ولم تعد حروفه ثابتة أمام عينيه وبدأت تتمايل وترقص في اتجاهات مختلفة. وهو في وسط هذا التلاعب والاسترخاء، نهض وتناول زجاجة أخرى ولكن هذه المرة من دون أي ممانعة أو تردد. فتح غطاءها برغبة ملحه وترك السائل ينسكب في الكأس بسهولة وتلقائية، فهذه المرة نفض من داخله الخوف من سخط غابريلا ومن غضبها الجم الذي من دون شك سينصبّ عليه عند معرفتها بما حصل؛ لم ينتبه خوف من أي شيء

في الدنيا ولا حتى من الزجاجة ذاتها كما كان الأمر مع الزجاجة الأولى. وبدأ يحتسي الشراب بلذة أشد إلى أن ارتخت عضلاته وصفا ذهنه.

عند عودة غابريلا إلى البيت، نادت عليه بلهفة كما تفعل كعادتها كلما عادت من الخارج، لكنه لم يرد. نادت للمرة الثانية والثالثة ولم تسمع صوته؛ وقفت في الممر محاولة تبين مكانه. اتجهت إلى المطبخ ونادت عليه لكنها لم تجده، فظنت أنه خرج لشراء السجائر كعادته، ولكن المتاجر مغلقة في مثل هذه الساعة من الليل. أين ذهب يا ترى؟

وأخيراً، اتجهت إلى حجرة الجلوس فوجدته مستلقياً على الأريكة والكتاب على وجهه، غائباً في عالم آخر بعيد عنها. هزته بعنف والشرر يتطاير من عينيها لأنها أدركت أنها قد خسرت الجولة معه ولم تعد تسيطر عليه؛ كيف له الشراب وقد اتفقا على عدم العودة للشرب؟ بدأت أسئلة عديدة تتردد في ذهنها، هل يا ترى لم يعد يحبها، ما هو سبب عودته لتعاطي الشراب؟ لقد ترك الشرب طوال هذه المدة فما الذي جعله يعود إليه ثانية؟ هل خروجها من البيت من دونه هو السبب؟ لكنها في مرات تضطر إلى الخروج من دونه عند زياراتها لصديقاتها فما عسى أن يكون سبب عودته للشراب؟ تركته حيث كان، الغضب ينهش أعصابها، واتجهت إلى حجرة النوم بمفردها.

في الصباح تأسف لها على ما فعل وقبّل يدها، لكنها ظلت غاضبة ترتعش من فقدان السيطرة عليه ومنع إدمانه على الكحول. وعدها ألاّ يعود إلى ماضي الكحول وأرادت تصديقه، إلا أنها في أعماقها لم تصدقه، بعد اليوم لم تعد تثق بوعده لها في هذا الشأن بل

بالأحرى بدأت الآن تخاف من المستقبل معه.

وصلا هو وغابريلا إلى حل وهو البحث عن عمل يملأ يومهما ويدفعهما إلى نطاق أوسع من الحيز الضيق الذي يعيشان فيه وهو حيز الشقة الذي يدوران في داخله منذ يوم زواجهما وحتى اليوم. العمل لن يدع متسعاً لتسرب الملل أو لأي شيء آخر يدفعه لمعاقرة الكحول من جديد؛ هذا ما ظنته غابريلا. لكن الواقع كان غير ذلك، فقد بقيت هناك فجوة تسرب من خلالها الملل إلى حياته بسبب انحصار حياته في نطاق محدود، فقد أصبح يدور في وسط لم يعد حراً فيه كما كانت الحال سابقاً. أمسياته الماضية يقوم فيها بما يشاء، أما الآن فالأمر مختلف؛ يصحو وينام وغابريلا بجانبه وهو أمر لم يتعوده وهو أعزب. حريته الشخصية في نطاق معيشته أمر مهم بالنسبة له ولكن غابريلا زحمت المكان بصورة لم يكن يتوقعها. ظن أن وجودها معه سيبعد عنه الوحدة والسأم ولهذا وافق على هذا الزواج السريع، إلا أن الواقع كان غير ذلك حيث دخل واقعهما في مرحلة من الفتور والتدهور.

غابريلا عثرت على عمل في أحد المحال يسمى «بوتيك جيورجو» في شارع سلوان وأقبلت على العمل بلهفة، بالرغم من أنها كانت تدرك أن خروجها للعمل يعمّق الفتور الذي تعاني منه حياتها الزوجية، حيث إن ناجي سيظل لساعات طويلة من اليوم بمفرده بين كتبه وأوراقه. أبعدت هذه الظنون من ذهنها وأكدت لنفسها أهمية مزاولتها لعمل ما، وحثته البحث عن عمل. قالت غابريلا في داخلها إنها أتت من بلدها خصيصاً للعمل ولتعلم اللغة ونجحت في ذلك حتى أتى ذلك اليوم، يوم ذهابها إلى لندن لحضور حفلة تخرج دورا وتعرفها في القطار إلى ناجي، ومنذ

ذلك اليوم تغير كل شيء في حياتها.

ناجي من الناحية الأخرى رأى في حث غابريلا الشديد له على العثور على عمل تدخلاً في أموره الشخصية وحريته الفردية. ناجي رسم خطة لحياته فيها يعمل متى أراد ويلقي محاضرة هنا وأخرى هناك متى شاء ويواصل بحوثه الثقافية، إلا أن اقتحام غابريلا لحياته أخلّ بتوازن الخطة التي أعدها لنفسه منذ فقدانه لعمله ومحاولته للخروج من قبضه الإدمان. بجانب هذا هناك مشكلة جديدة بدأت تظهر في علاقته مع غابريلا وهي عصبيتها التي تظهر عند عودته لتعاطي الخمر؛ أصبحت حياتهما عبارة عن نزاع مستمر ولوم لا ينقطع.

هذا الوسط غير المستقر جعل غابريلا تتغيب باستمرار عن البيت ويبقى هو بمفرده في أوقات كثيرة، مما دعاه للتساؤل إلى أين تذهب وأين تقضي وقتها عند غيابها في البيت؟ فهي تعمل لساعات معينة من الساعة التاسعة صباحاً وحتى السادسة مساء ومن المفترض وصولها إلى البيت عند الساعة السابعة إلا أنها في الآونة الأخيرة بدأت تتغيب لأوقات متأخرة وأصبح يتناول عشاءه بمفرده.

الجو بينهما تحول للبرودة والضعف، غابريلا تواجهه بأعصاب متوترة وهي ثائرة وهو لم يعد يكترث من غضبها بسبب معاقرة الخمر. ممارستهما للحب الملتهب وبالحرية المطلقة التي كانا يمارسان عن طريقها الحب، اختفت وكأن لا أثر لها. أصبحا لا يقتربان من بعضهما جسدياً إطلاقاً. وبدأت غابريلا تتأفف من شم رائحة أنفاسه المتشربة بالكحول، وهو فقد متعة ملاحقتها والرغبة في الاقتراب منها كما كان في السابق.

وفي يوم من الأيام، لاحت له فكرة غريبة تقضي بأن يتتبعها من دون علمها لمعرفه ما تفعله في الأوقات التي تكون فيها خارج البيت. قرر الترصد لها خفية وقت خروجها من محل العمل. وهذا ما فعله. ففي اليوم الذي قرر فيه ذلك وصل إلى شارع سلون حيث يقع هذا البوتيك قبل موعد خروجها بنصف ساعة، وظل واقفاً بتخفٍّ ينتظر خروجها داساً جسده مع باقي المارين والمتسوقين في هرولتهم السريعة لاتجاهات مختلفة. ظل في وقفته هذه حتى الساعة السادسة والنصف، إلا أن غابريلا لم تظهر. واصل الوقوف حتى الساعة السابعة إلا ربعاً، حين ظهرت من باب البوتيك متأبطة ذراع شاب أسمر طويل غزير الشعر ربما هو الآخر من أصل لاتيني مثلها؟ مشيا كأنهما ثملان يضحكان وينظران في أعين بعضهما حتى توقفا وطوقها بذراعيه وانحنى بوجهه وقبلها قبلة طويلة وعميقة على شفتيها غير مكترث بمن حولهما أو بفقدان القطار الذي من دون شك ينويان السفر عليه ليعودا إلى مكانهما السري.

بعد ذلك، سارا وهو يسير خفيةً خلفهما متحاشياً التفاتتهما حتى وصلا إلى محطة قطار سلون سكوير المزدحمة بالمسافرين وهو يتتبعهما حتى رآهما يدخلان في أحد أقسام القطار ودخل هو في القسم التابع المجاور لقسمهما وأسرع القطار بالجميع حتى وصل إلى محطة أرلز كورت. نزلا ونزل هو خلفهما بحذر وتبعهما حتى وصلا إلى بار فيه موسيقى صاخبة وهناك التقيا بمجموعة من أصدقائهما وكانت تبدو عليهما سعادة غامرة.

رأى ناجي كل شيء بنفسه لكنه قرر عدم مفاتحتها بما رأى حتى تصل هي معه إلى ما تراه نقطة النهاية.

بعد عودتها إلى البيت ذلك المساء في ساعة متأخرة جداً وجدته

كالعادة ثملاً متمدداً على الأريكة في الصالة؛ أصبحت الأريكة هي المكان الذي ينام فيه في الآونة الأخيرة. رقدت على السرير بمفردها وتركته وشأنه. ظل هذا البرود الذي بينهما على حاله إلى أن جاء يوم ضبط فيه رسالة قصيرة تركتها عفواً على أحد رفوف المطبخ وفيها شرحت لمحبها المدعو فرناندو شعورها وأحاسيسها تجاهه ووصفت الحياة مع ناجي بالرتابة وأنها حياة مملة خالية من الحب وتجاوب الإحساس بسبب إفراطه في تعاطي الكحول. أخذ ناجي الرسالة واتجه إلى حجرة النوم حيث كانت تستعد للذهاب إلى العمل.

قال لها: غابريلا دعيني أسألك ما معنى هذه الرسالة؟ قولي ووضحي لي الأمر من فضلك؟ هل تريدين الانفصال عني لأنك لم تعودي تحبيني؟

قالت وهي تصرخ في وجهه: اتركني أرجوك، عد إلى زجاجتك فأنت لم تعد متزوجاً مني بل أنت متزوج من الزجاجة هل سمعت؟ متزوج من الزجاجة يا سكير، لقد حنثت بوعودك لي حتى غدت حياتي معك سلسلة من الإحباط ليس إلا، اتركني ولن تسمع مني بعد اليوم سوى عن طريق المحامي.

وخرجت بعد ضرب الباب خلفها بعنف غير مكترثة بصراخه ومناداته عليها. ظل واقفاً في مكانه في برود وذهول، يبحث في رأسه عن معنى لتصرفاتها وعن جواب لكل الذي حدث بينهما وتحول الحب الملتهب إلى رماد تذروه الرياح. شعر ببرودة المكان تتسرب إلى عظامه لدرجة أنه لم يعد قادراً على الوقوف، فانسحب متجهاً إلى السرير وهو يرتعش من هول الأحداث السريعة التي مرت بينه وبين غابريلا.

الجفاء الذي صدر من غابريلا لم ير مثله من قبل. أدرك أن العلاقة بينه وبينها قد انتهت وأن مرحلة جديدة في حياته قد بدأت.

دافني قضت أياماً وليالي تعيد في ذهنها صور عرس ناجي والحفلة التي تبعته والوقائع التي رأتها في الصور التي أخذتها ماري ذلك اليوم. تتذكر ما روته لها من تفاصيل وتنظر إلى صورتهم كل يوم للتعرف إلى تفاصيل الحفل. أدركت هي الأخرى، كما فعل ناجي، أن ما كان بينها وبين ناجي قد انتهى إلى غير رجعة بمجرد زواجه من غابريلا.

لم تتصور أن ناجي سيقدم على الزواج لكنه فعل. حطم قلبها وحوّل حياتها لصحراء قاحلة. لم تعد تصدح بأغاني الأوبرا المحببة لديها كما كانت تفعل في الماضي؛ صوتها لم يعد قوياً بما فيه الكفاية وأصابه الضعف والهوان. تشعر بغصة من الألم وخيبة الأمل والنفسية المتعبة. في محاولة للخروج من الكآبة، واظبت على زيارة أرضها لجني المحصول وزيارة القبرين وتأمل جمال الطبيعة إضافة إلى الذهاب للكنيسة.

تنهض من سريرها بتكاسل وتنجز مهامها بتلكؤ وقلة حماسة. عثرت أخيراً على هواية جديدة تمثلت في إطعام الحمام الذي يحوم ويحلق على ميدان الطرف الأغر. كل يوم بعد انتهائها من ترتيب شقتها، تذهب إلى الميدان محمّلة بفتات الخبز والحبوب وتقف وسط الميدان الشهير والحمام يحلق حولها وفوق رأسها وهي سابحة في الفضاء الواسع بحرية مطلقة بعيداً عن الحزن والكآبة. وبجانب الحمام، هناك السياح والسكارى والمتسكعون الذين لا يدرون ما يدور في رأس دافني المكبل بالهموم والأحزان.

بعد انتهائها من هذا الدور وقبل عودتها إلى البيت، كانت تمشي ببطء إلى فندق السافوي العريق المطل على نهر التايمز لتناول وجبة خفيفة. الزيارات للفندق لم تعد لها المتعة السابقة نفسها؛ المكان وناسه قد تغيروا. دافني نفسها قد تغيرت ولم تعد المرأة المتجددة التي تعتني بمظهرها وأناقتها وترتاد الأماكن المترفة. أصبحت تلبس من بين ملابسها الكثيرة طقمين فقط؛ ملابسها الجميلة التي جمعتها على مدى السنين بعناية فائقة لم يعد لها الطعم نفسه ولا البريق ذاته. ملابس دافني معلقة بجانب ذكريات الماضي وروائحه.

حالتها صارت أشبه بحالة المتسكعين في ميدان الطرف الأغر. تغير الزمن لكنها أصرت على عدم التخلي عن عقد اللؤلؤَ الثمين حيث لم يفارق جيدها إطلاقاً. والآن أصبحت لا تكترث بنظافتها؛ لم تعد تقلم أظفارها أو تعتني بغسل شعرها وصبغه. وبدأت تقوم بعمل غريب تمثل في حمل جواز سفرها معها كلما خرجت من البيت؛ لم تخف من ضياع وثيقة مهمة مثل جواز السفر. في داخلها تولّد ظن أنها عند خروجها من البيت قد تضطر إلى السفر لمكان بعيد لا تعرفه، بلد آخر خارج المملكة المتحدة. السفر المتخيل يخفف عنها شحنة الهموم الثقيلة التي تحملها على رأسها كل يوم وتدور في الشوارع والحارات. دافني تجر كتلة فولاذ ثقيلة مربوطة بحبل إلى رجلها اليمنى؛ تخيلت رحلة من الصعوبات تخرجها من عالم لندن المقيت وتوصلها لبر الأمان والسؤدد. هذه التصورات والخيالات صارت هي الشفاء من الجروح الدامية والبلسم الشافي لروحها المتعبة.

في كل يوم بعد عودتها إلى البيت، لا تغادره وتظل في شقتها وتحتمي خلف بابها الموصد. تعزف على البيانو وتتناول القليل من

الطعام في العشاء، مأكولات باردة بعضها من طعام الأمس وخبز جاف؛ لا تكترث لنوعية ما تتناوله من طعام. وبعد ذلك تندسّ في سريرها بقلب مقفر وتحسب الساعات والثواني حتى حلول الصباح الذي تستقبله ببعض الانشراح لأنه ينقذها من أحلام الليل وكوابيسه الكثيرة. ترى فيما يرى النائم أن ناجي عائد إلى حياتها أو مات وهي تدفن جثته بجانب جثتي هانري وهيربيرت. ترى نفسها وسط مزرعتها في ضاحية إيلنغ وهي عارية تماماً ما عدا من عقد اللؤلؤ الثمين على جيدها وهي ترقص على قبر ناجي رقصة الدراويش، التي تعلمتها في إحدى الدورات التعليمية القصيرة في جامعة لندن على يد المعلم بابا مصطفى سيدي أكبر في أيام شبابها وبوقت قصير من بداية عملها مع المشير.

في ذلك الوقت، تولدت لديها رغبة ملحّه لتتعلم شيئاً عن الثقافات الأخرى حتى تتقرب من المشير، الذي ينتمي لثقافة جديدة لا تعرف عن فلسفتها سوى القليل. تتذكر أنها أعجبت بالمعلم بابا سيدي أكبر، رجل قصير هزيل البنية يتمتع بحضور قوي بسبب ثقافته الواسعة وعلمه الغزير. العلامة بابا أكبر له لحية قصيرة ومصبوغة بالحنة الشرقية حمراء اللون زكية الرائحة، ويضع على رأسه طاقية صغيرة مطرزة بخيوط من الفضة. أعجبت بحكمة الرجل ومعرفته الواسعة ولباقته في الحديث والشرح. أطلع الطلاب على خبايا رقصة الدراويش الغامضة وأسرارها العميقة. بابا أكبر كشف أسرار الرقصة وأسرار الدراويش وجمال ثقافة الدراويش ونسكهم.

أوضح المعلم أكبر أن ثقافة الدراويش مختلفة عن الثقافة الروحية الغربية. دروسه كانت مصحوبة بموسيقى تسمى بالموشحات

الأندلسية وهي ذات أنغام وألحان جميلة الوقع على السمع ورائعة المعنى، ترفع الروح لعلو سحري وخفيف.

في يوم من الأيام، أثناء وقوف بابا أكبر أمام الطلاب لشرح حركة من حركات رقصة الدراويش، طلب من دافني الوقوف بجانبه ليوضح كيف تنفّذ إحدى الحركات، وهو يدفعها ذات اليمين وذات الشمال لمس بيده دون قصد خصرها. أحست بدغدغة ولذة هذه اللمسة تسري في بدنها كالكهرباء وشمّت رائحة بابا وهي خليط من العنبر والمسك والحنة الشرقي، تسافر في أنفها كالشذى المعتق. ومن دون شعور، دفعت بجسدها نحوه في محاولة كي تلتصق بجسده، إلا أنها انتبهت في اللحظة الأخيرة قبل أن ينتبه الطلاب لما قامت به وسحبت جسدها بعيداً عن جسد بابا. واصل بابا الشرح وكأنه هو الآخر لم ينتبه لما فعلت، وبصوت خافت تعوذ من الشيطان الرجيم.

في الأحلام والكوابيس، تتخيل أنها ترقص تحت ضوء قمر هزيل مربع الشكل وليس مستديراً، في سماء تميل وكأنها ستقع وتطبق عليها وتسحقها. تكون على وشك الوقوع في القبر حيث ترقد جثة ناجي؛ تندمج معه في تداخل أزلي وسط صمت مميت. تستفيق من الكابوس عند سماع صوت عجلات القطار أعلى المقبرة، وتعود لعالم الصباح والنور الذي يزيح العتمة عن روحها ويبدد همومها. وتعود من جديد إلى حياتها اليومية وأماكنها المعتادة والاختلاط بالوجوه الكثيرة وبرفاق النهار من المارين والعابرين والمتسكعين في ميدان الطرف الأغر والشوارع المجاورة.

تقوم ببرنامجها اليومي مثلما تقوم بالطقوس؛ تذهب لميدان الطرف الأغر ومن ثم فندق السافوي وأخيراً إلى محطة نفق القطار. باستطاعة دافني ركوب سيارات الأجرة في تنقلها، إلا أنها تفضّل

القطارات التي تسير تحت الأرض حتى تتمكن من رؤية الناس والاختلاط بهم.

ذات يوم وهي في طريق العودة، اشترت على غير عادتها ربطة كبيرة من زهور الأوركيد البيضاء من بائع الزهور أمام المحطة. نظرت للزهور على أنها تحية السلام الذي أنهكته الحروب وحطمت توازنه وأمنه. اتجهت بربطة الزهور إلى النفق المؤدي لمحطة القطار. من عادتها عند دخول النفق أن تقف وتستمع لموسيقى يعزف عليها موسيقي إنكليزي شاب، أشقر الشعر فارع الطول أزرق العينين. تقف أمامه لزمن طويل وهي في نشوة تنظر إليه مفتونة بألحانه وتمتع سمعها وإحساسها بالنغم الصافي الذي يصدر من قيثارة الشاب. وبعد أن تكتفي، ترمي له بما لديها من قطع نقود وتمر في طريقها متجهة إلى الأسفل لأستقلال القطار.

اليوم بالذات وعلى غير العادة، لم يكن العازف الأشقر في مكانه. وجدت بدلاً منه شاباً أفريقياً مشابهاً له في الشكل والملامح ولو لا اختلاف لون البشرة لظن الناس أنه الشاب الأشقر فارع الطول. تقاطيع جسمه متناسقة وكأنها نحتت بتأني وبقدرة فائقة، وعضلاته بارزة وشعره أهوج وكأنه يحيي ثورات العالم أجمع. وعلى جبينه ربط منديلاً أحمر. ابتسامته عذبة خجولة، عيناه سوداوان فيهما عذوبة وحزن ورحمة. وجهه هادئ جميل وأسنانه بيضاء ناصعة البياض وكأنها قطعت من عاج أفريقي خالص ونحتت خصيصاً لتصب في فمه ذي التقاطيع البديعة.

وقفت دافني في مكانها ونظرت إليه بتعجب ولهفة وأحست كأنها تعرفه منذ زمن طويل. صوبت نظرها إليه بدقة وتسمرت عيونها في عيونه بينما استمر هو في العزف من دون توقف. هاجمها

شعور قوي بمحادثته؛ ستقول له إنها تعرفه، ربما من أيام طفولتها في أفريقيا. لكن كيف ذلك وهو في ريعان شبابه؟ ولعنت الذاكرة التي لم تسعفها في الوصول إلى حقيقة معرفتها بالشاب الأسمر البديع.

وفجأة أدركت أنها في حقيقة الأمر لا تعرفه لكنه يشبه عازف القيثارة الأميركي الأسود جيمي هنديريكس الذي عرفته من خلال شهرته العالمية وتصدره صفحات مجلات المشاهير. وعازف محطة القطار يفوق جماله جمال جيمي هنديريكس. ارتخت عضلاتها عند وصولها إلى الربط بين عازف محطة القطار وبين جيمي هنديريكس. وظلت في مكانها تنظر إليه بينما تمر أمامها أفواج كبيرة من المسافرين. أعجبتها ألحان الفتى الساحرة المتدفقة بسلاسة وسهولة من أطراف أنامله الطويلة التي تنساب على الأوتار مثل سحب هائمة. طول الوقوف، أتعب قدميها، فأخذت تبحث عن مكان تجلس عليه وتضع ربطة الزهور.

وجلست على الدرج المؤدي إلى خارج المحطة قبالة عازف القيثارة ونسيت الوجود من حولها. والأهم من هذا نسيت متاعبها مع ناجي ولم يظهر ناجي على بالها نهائياً؛ شعرت وكأنها قد تخلصت منه ومن قبضته إلى الأبد. اليوم ومن دون شك انتهت من ماضي ذكرياتها المؤلمة مع ناجي. بعد وقت، رأت العازف يلملم أطراف سترته الجلدية الثقيلة المحلاّة بنجوم ورسوم من الفضة التي على الأرض، فرمت له ما في محفظتها من قروش وبالزهور البيضاء. شكرها بابتسامة وهو يعلق سترته على كتف والقيثارة على الكتف الأخرى. ظنت أنه سيختفي إلى الأبد ويضيع في زحمة لندن وشعرت ببعض الانقباض.

إلا أنه توجه نحوها وسألها: أأعجبك عزفي؟

قالت: بالطبع، لقد نشأت في أفريقيا قبل عودة أسرتي إلى بريطانيا منذ سنين طويلة؛ من أي بلد أنت؟

قال بابتسامة عذبة: سيدتي، أنا من أفريقيا كلها، أفريقيا التي لا حدود لها. أنا لا أعترف بالحدود لأنها من صنع الاستعمار وأؤمن بتكامل قارتي الكبرى ووحدتها.

أعجبها رده البديع، كان كرد الناس الذين تقرأ مقالاتهم في صحيفة «الغارديان» اللندنية أو تسمع خطبهم على قنوات التلفزيون وهم يدعون، من على منصات اليسار والتجمع والمسيرات الشعبية، لنصرة الحرية والديموقراطية والمساواة والعدالة. هدفهم هو أن تعم تلك المبادئ العالم كله، بعد التخلص من السياسات الرجعية البالية، هم يدعون إلى السياسات الحرة وإلى حرية الفرد وتمكينه. هذه الأفكار كانت في عرفها أفكاراً متطرفة ومصدر سخرية، اليوم أعجبتها عندما قالها عازف الموسيقى. واعترفت بأن سخرية الماضي لم تكن سوى جهل، الآن أعجبت بالرد الذكي على سؤالها الرجعي الذي سبب لها الحرج. لم تتزحزح من أمامه وظلت في وقفتها تنتظره وكأن انتظارها أمر طبيعي. سألت نفسها: ماذا أنتظر؟

أكمل العازف استعداداته للخروج من النفق ومشى بهدوء وسكينة. مشت بجانبه وواصلا السير خارجين من النفق. لم يمانع في رفقتها له. وصلا إلى الخارج وهي ما زالت تمشي بقامتها القصيرة بجانب الشاب الطويل المختال. خرجا من النفق بينما المساء يحط على المكان بعلاماته المغرية الخجولة، والشوارع تعج بالمارة والسيارات والحافلات تأهباً للقاء الليل بعد يوم عمل طويل.

استدار نحوها وقال: هل تودين يا سيدتي تناول كأس نبيذ في مكان قريب من هنا؟ أنا اسمي سيوم علوان أحمدو؟

قالت بحياء وكأنها تُدعى لأول مرة في حياتها من قبل رجل: اسمي دافني، وستكون جميلةً مشاركتك في كأس من النبيذ كما تفضلت وطلبت.

قال: إذاً يجب أن نذهب إلى الحديقة العامة لأجلب دراجتي النارية التي أودعتها بجانب سياج المتنزه؛ تعالي معي كي لا تنتظري بمفردك.

بعد أن وصلا عند الدراجة، قال: اختاري إما أن نبقى في هذه الحارة أو نذهب إلى مكان آخر.

شعرت بنشوة وقالت: دعنا نذهب إلى مكان آخر.. لكن ما الذي ستفعله بدراجتك؟

قال: هناك حل واحد هو أن تركبي عليها معي؛ هل سبق أن ركبت دراجة نارية؟

قالت: كلا، لذلك أمر ركوبها يخيفني.

قال: دعي الخوف الآن وأعدك أنك في أمان، وكل ما عليك هو عقد ذراعيك وسطي حتى لا تتأرجحي عند مرورنا بالمنعطفات.

عندما رأت دافني الدراجة، أرعبها شكلها الضخم وحديدها اللماع وعلوها، فوقفت تنظر إليها وتتفحصها بتعجب ممزوج بشيء من الرهبة والخوف. الدراجة ضخمة وهي من ماركة «هارلي ديفدسن»

الشهيرة ولم يسبق لها الاقتراب من هذا النوع من الدراجات.

قال لها: لقد اشتريتها من أحد المحال المختصة ببيع الدراجات النارية المستعملة، وقضيت وقتاً طويلاً في إصلاحها وصيانتها؛ نشأت في مجتمع خال من الإسراف والتبذير.

قالت: هل أنت صادق في رغبتك القيادة إلى الحانة على هذه الحديدة الضخمة وأنا معك عليها في الخلف؟

قال: بالطبع.

بعد تردد، اعتلت الدراجة وجلست خلفه وبدأ بدنها يرتجف من الخوف. طلب منها تعليق القيثارة على كتفها، علقتها فبدت القيثارة وهي معلقة على كتفها مثل البندقية، وبدا شكلها هي مثل ثائرات جبهات التحرير الشائخات في انتظار يوم النصر البعيد الذي طال انتظاره. أدار محرك الدراجة وبدأ أزيزها يعلو والدخان يتطاير من مؤخرتها وخطا الخطوة الأولى إلى الأمام، وتأرجحت دافني يميناً وشمالاً إلا أنها تمسكت بوسطه حتى التصق صدرها بظهره. شعرت بلذة الاحتكاك تسري كالكهرباء في جسدها الذي شاخ من هول الهموم وأعاصير السنين. رائحة عرقه الرجولية سرت إلى أنفها ودغدغت أعصابها وحركت سكون مشاعرها الراكدة، غير مصدقة ما يجري لها.

بعد سير قليل، نقرته على ظهره نقرات خفيفة فدار بوجهه إلى الخلف ليستفسر عما تريد؟ طلبت منه التوقف فوراً فتوقف بسرعة على جانب الشارع. أخبرته برغبتها في تناول غطاء الرأس من حقيبتها لتحمي تسريحتها من الهواء الذي يلعب بشعرها ويبعثره.

سحبت غطاء الرأس الهارمز الحريري المنمق والمزين بصور من الريف الفرنسي بأشجار وجداول مياه وخيول وإسطبلات، ولفّته على رأسها بعناية فائقة. وسارت الدراجة من جديد وهي في نشوة عارمة كنشوة الأطفال؛ نسيت ألمها وتخلصت من شحنة الأفكار المخيفة والضيق.

هي الآن في انطلاقة جديدة. واصلا الرحلة وعلوان يقود بسرعة كأنه طائر يحلق في سماء لا حدود لها. وبدأ الهواء يلعب بغطاء رأس دافني ويرفع أطرافه لتمثل راية الحرية المنتظرة. تكور فستانها كالبالون، أطرافه مرتفعة إلى أعلى وكأنها ستطير بالفستان وتحلق في السماء. الهواء يزيح الفستان ويكشف عن فخذيها وذلك أخجلها ودفعها للتمسك القوي بعلوان.

الاختلاف بينهما ظاهر للعيان وقد لفت انتباه المارين وسائقي السيارات ودفعهم للضحك والسخرية؛ امرأة تمثل التقاليد والرزانة على دراجة نارية مع شاب يمثل الحداثة والتمرد. على الرغم من بعض الصعوبات، استمتعت دافني بالرحلة حتى وصلا إلى حانة في طرف حارة جرين بارك قرب حي ماي فير القديم. الحانة صغيرة ذات أضواء حمراء خافتة، وجدا فيها عدداً قليل من الرواد يبدو عليهم الوقار والاحترام.

قال علوان: أنا معروف في هذا المكان، في الماضي كنت أعزف هنا ثلاث ليال في الأسبوع.

دخلا والقيثارة معهما وجلسا إلى طاولة وسط القاعة. طلب زجاجة نبيذ أحمر وأخذا يشربان في هدوء ويتحدثان عن نوع الموسيقى التي يفضلانها وعن غناء الأوبرا والمؤلفين المشهورين في

عالم الموسيقى العالمية. ذكرت دافني أنها تفضل موسيقى الأوبرا وقد سبق لها أن كتبت الألحان في هذا النوع من الموسيقى؛ برعت دافني في الكلام وأظهرت خبرتها لعلوان. اشترى علوان زجاجة نبيذ أخرى وبدأ مفعول الخمر يأخذهما إلى آفاق بعيدة.

واقترب منهما مدير الحانة مبتسماً وطلب من علوان عزف مقطوعة أو مقطوعتين من الموسيقى المحببة لرواد الحانة. قال مازحاً: نريد الاحتفال بالضيفة الجديدة ونسمع ألحانك التي لم نسمعها منذ مدة طويلة. نهض بقامته الرشيقة بعد أن أحكم ربطة المنديل على جبينه وعزف مقطوعة صاخبة تلتها مقطوعة أخرى أكثر صخباً. وبدأ المكان ينفض عن نفسه الركود وأخذ الزبائن يتجاوبون مع الموسيقى الصاخبة التي لم يتعودوا عليها؛ فرصة لكي ينسوا عالم المال والرسميات والتقاليد الصارمة. وعند انتهائه، صفقت له الأيدي بحرارة، ثم عاد وجلس بجانب دافني.

وهما في الأنس والانسجام، اقترب منها قليلاً وضغط على يدها وقال: سيدتي، أنا سعيد بمعرفتك وسعيد لأن الموسيقى التي عزفتها قد أعجبتك؛ أتمنى أن يستمر حضورك حتى أتمكن من إسماعك المزيد من ألحاني. مقطوعاتي تعبّر عن الشجن والحب والحرية وهي تعالج قضية الوجود والصراع الأبدي حول البقاء والسيادة. ألحاني تتحدث عن صراع شعبي أو بمعنى آخر الإنسان المقهور في بقاع العالم، في أفريقيا والشرق الأوسط وأميركا اللاتينية والشرق الأدنى وشبه القارة الهندية.

وواصل قائلاً: إني أتمنى من خلال أوتار قيثارتي وألحاني أن أعبر

عن صوت المقهورين والمشلولين في العالم كله، هذا كل ما أنشده ما دمت على قيد الحياة.

اقتربت دافني من علوان لعدم استطاعتها مقاومة إغرائه وضغطت على يده ورفعتها إلى أعلى حتى لمست أطرافها شفتيها. وبدوره اقترب منها وقبلها على شفتيها بشفتيه المفعمتين بالحيوية والرجولة. وغابا في قبلة عميقة من دون اكتراث لمن حولهم من رواد. العدد القليل الذي رأى ما فعله علوان مع دافني لم يفت عليهم سخرية الوضع المتمثل في فارق السن بين العاشقين. النظرات لم تصدهما عن مواصلة اللمس والعناق والقبل المحمومة؛ كانا في رحلة طويلة لم يخرجا منها سوى عندما سمعا النادل يعلن عن موعد إغلاق الحانة وحث الزبائن على التقدم إلى البار لأخذ آخر طلب قبل الإغلاق.

وافترقت شفاههما ولملما ما لديهما من متاع وتقدم علوان من مدير الحانة وودعه بحرارة. سحب دافني من يدها وانقادت خلفه حتى وصلا إلى الدراجة، وبكل سهولة اعتلت دافني المقعد وجلست خلف علوان. لم تسأل نفسها أين يذهبان. جلست على المقعد الضيق خلفه وكأن الأمر طبيعي أن تترك الحانة مع الشاب الغريب الذي وقعت في غرامه.

أدار محرك الدراجة وانطلق بالكتلة الحديدية وسط الليل سالكاً الشوارع الخلفية للمدينة. وصلا إلى شوارع متداخلة في حي قديم من المدينة يلفه الظلام عدا مصابيح صغيرة مثل ثقوب بيضاء في ثوب أسود. المكان هو منطقة سيتي أوف لندن حيث تقع مباني البنوك الحديثة، والقديمة ذات المعمار الكلاسيكي البديع. هنا مسكن علوان، مبنى أثري عتيق في عمارة مهجورة وتظهر عليها علامات الخراب.

عند وصولهما، أدخل دراجته وأوقفها في الممر أسفل الدرج. وبدآ يتسلقان السلم بحذر خوفا من أن يوقظا السكان الآخرين حتى وصلا باب رمادي شبه مغلق. رفع مفتاحاً صغيراً وأدخله في القفل بيدين مرتعشتين، من البرد الذي يوجد في العمارة العتيقة. دخلا غرفة كبيرة مظلمة وهي سكن علوان، عبارة عن ملاذ استغله علوان دون دفع أي إيجار، لقلة ما لديه من مال. هذه الأنواع من المنازل المهجورة موجودة بكثرة في لندن ولا تستغل لصالح إسكان المحتاجين إلى مساكن أمثال علوان. وإذا تم اكتشاف الساكنين دون إيجار، يصار إلى إخلائهم من المبنى فيذهبون لمبنى آخر.

في الحجرة نافذة كبيرة تطل على الشارع العام؛ على الرغم من برودة الطقس كانت مفتوحة على مصراعيها. وهناك نافذة أخرى في القسم الآخر تطل على مقبرة وكنيسة صغيرة تظللها أشجار كثيفة. الغرفة تحتوي على أدوات للطبخ وسرير ومكان محدود للجلوس وحمام صغير.على الحائط علقت خريطة العالم وعليها علامات تشير للبلدان الأفريقية، وبجانب هذه الخريطة صورة لنلسون مانديلا يوم زفافه إلى زوجته وني. وهناك زجاجات مختلفة الأحجام زرعت فيها شجيرات عبارة عن شجيرات الماريجوانا الذي يدخنه علوان في ساعات اليأس وفي الأوقات التي يؤلف فيها مقطوعات من الألحان الجديدة الصعبة.

ألقت دافني على الأرض ما كانت تحمله من زهور وجرائد يومية وبقايا الكعك والساندويتشات المتبقية من الطعام الذي تناولته في الظهيرة في الفندق، وألقى هو بقيثارته بجانب أغراض دافني. وقادها من يدها حتى وقف معها أمام الشباك المفتوح الذي يطل على الشارع العام حيث أضواء المدينة تتلألأ من بعيد في صورة

مثيرة في تلك الساعة من الليل. أدخل يده في جيب سترته التي ما زالت عليه وتناول لفة سيجارة محشوة بالماريجوانا وأشعلها ورشف منها بمتعة كبيرة؛ غطى الدخان الكثيف المكان أمامهم. ومن ثم دفع بالسيجارة بين شفتي دافني التي عرفت فوراً نوعيتها، نوع من السجائر لا تستسيغ رائحته خاصة أنها لا تدخن.

تذكرت هذا النوع من السجائر دخنه مدرس الموسيقى أنغوس الذي أحبته في الماضي. كان مهووساً بتدخين الماريجوانا بدرجة جنونية، يدخنها في الأوقات التي يقوم بتلحين مقطوعات موسيقية ويعزف على البيانو مقطوعات موسيقية جديدة ومعقدة. ولم تكن تعرف من أين أتته عادة تدخين هذا النوع من الدخان لأنه نادر في الأواسط الراقية كالتي ينحدر منها الأستاذ أنغوس. الماريجوانا دخان الطبقة الدنيا من المهاجرين ولا سيما القادمين من البحر الكاريبي والبلدان الأفريقية.

دافني تعرف أن شباب اليوم يدخنون هذا النوع من السجائر بجرأة مطلقه ومن دون تحفظ، لذلك لم ترد إحراج نفسها أمام علوان وتبدو خارج نطاق الحداثة الشبابية. رشفت رشفة واحدة ودفعت برأسها إلى الخلف وانتابتها نوبة سعال شديد كادت تقطع حبالها الصوتية، فأخذت تشهق وتتنفس بصعوبة بالغة بينما علوان ينظر إليها بدهشة حتى أنانابه الخوف عليها.

عبّر لها عن أسفه وأخذ منها السيجارة ووضعها في فمه. سارع لجلب كأس ماء وقدمه لها، وبعد شرب الماء شعرت بتحسن في حلقها. بعد انتهائه من التدخين، التفت إليها ولفها بذراعيه القويتين ودس شفتيه الغليظتين بخشونة بين شفتيها المرتعشة وكأنه يريد اعتصارها ليخلصها من الوحدة وخيبة الأمل. وبدأ خلع ملابسها

بحذر وخفة، القطعة تلو الأخرى، خوفاً من أن تتعب لو قام بذلك بسرعة، ووقفا بجسدين يختلفان في الشكل والمظهر.

قال بهدوء: سيدتي، هذا كل ما أستطيع أن أهديك إياه حالياً. لندن ذات جمال اصطناعي، أما أنا فأعدك بتقديم جمال طبيعي من قارتي الأفريقية حيث النجوم تتلألأ في الفضاء المفتوح مثل قطع البلور. سأهديك مناظر أفريقيا الطبيعية التي تنعش الذهن والروح، ستنسين المدن الاصطناعية التي هي من صنع البشر، مدن متقدمة صناعيا لكنها متخلفة روحياً وجمالياً.

شعرت بهدوء تام وقد أعجبها كلامه الصادق وقالت: أنا على ثقة يا سيوم أنك ستقدم لي جمال أفريقيا الطبيعي ذات يوم كما وعدت الآن.

وهما في وقفتهما الشاعرية أمام الشباك، رأى قمراً أصفر اللون كأنه قرص من ذهب. قال: دعيني أصحح ما قلته عن مدينتك وجمالها، فمدينتك هي الأخرى منحت شيئاً من الجمال الطبيعي مثل الذي في مدن قارتي الأفريقية. في السماء أرى قمراً صغيراً متكاملاً؛ اقتربي لننظر إليه معاً. مد يده الطويلة مشيراً إلى القمر البعيد الذي يكاد علو المباني المزدحمة يخنقه ويخفيه عن الناظرين.

وقال: وددت أن أهديك هذا القرص الصغير البعيد الذي نراه أمامنا، قلادة ذهب أفريقية حديثة التصميم لتعلقيها على جيدك الجميل، هدية عرفان لامرأة أعجبت بألحاني، وأهديك قصيدة من قصائدي، كلماتها تقول:

يكفيني قليلٌ من الناي كي تسكري بدموعي (صفحة ٣٢)

ويكفيني قليلٌ من الخمرِ والخبزِ كيما أغني..
على سورِ معبدِ ننماخ
ينفخُ ساحرُ مردوخ ريشتَهُ
فيشقُّ الفضاءَ
باسمي واسمكِ
ملتصقين
– على لوحةِ الأفقِ –
قوساً من اللازورد
فتغضبُ جونو وتأمرُ حراسها المترامين
أن يمسكوا عنقَ الريحِ

اقترب منها وتناول يدها وجلس على الأرض وأجلسها هي في حضنه وأخذ يمسح على شعرها الملفوف إلى أعلى والمثبت بمشط من العاج المحلى بالألماس الصناعي. فرد شعرها فنزل على كتفها، شعر أشقر تتخلله شعيرات بيضاء. ثم داعب وجهها بأصابعه الطويلة الممشوقة حتى شعرت بالإثارة واللذة، ومالت عليه برأسها تستنشق رائحة الشباب من صدره وعنقه. حركها بلطف من على حضنه لتستلقي على الأرض واستلقى هو بجانبها. تحت النافذة الكبيرة، تمتعا بمنظر السماء والقمر.

وبدأت دافني تحس بوخز البرد يغزو جسدها فضمها ليحميها فأخذت تتقلب في حضنه. نهض واتجه إلى المطبخ وأتى بمدفأة كهربائية صغيرة، لكنها لم تكن في حالة جيدة وكادت تسبب حريقاً في المكان. شعر بالحرج وأطفأ المدفأة؛ حاول في السابق صيانتها لكنه فشل. دافني وجدت بعض الدفء من المدفأة، والآن

تتعرض لهجمة جديدة من البرد.

قادها من يدها تجاه السرير الصغير المتداعي الأطراف ذي الملايات الممزقة والمتلطخة ببقايا الطعام الذي يتناوله عادة على حافة السرير. ودخلت تحت الفرش ودخل هو وألقى بجسده العاري بجانبها، رغم صغر السرير وضيق حيزه. لكن السرير الصغير تحول إلى ساحة لليلة ملتهبة من الحب المحموم جعلت دافني ترتجف بين ذراعي سيوم علوان الشابة القوية؛ ودعها الضياع وهجرها الحزن. واصلا حتى أولى ساعات الصباح عندما بدأت جفون دافني تستسلم لموجة نعاس خفيفة بعد نشوة ولذة طول الليل. قبل الصباح بقليل، نهض علوان من جانب دافني وقد انعكست النشوة على ملامحه الرجولية الشابة. تناول قيثارته كما يفعل عادة عندما يكون وحيداً وأخذ يعزف مقطوعة صاخبة، بددت صمت الفجر الزاحف على المكان؛ ألحانه مثل الضوء المنير تحث الظلمة على فراق الكون.

وصلت الألحان إلى مسامع دافني فرفعت رأسها واتكأت على المخدة البالية لترى ما يفعله علوان في هذا الوقت المبكر. رأت القيثارة مستلقية في حضنه بدلال والألحان طائرة من على أوتارها بخفة. بعد لحظات قصيرة سمعا دقات قوية آتية من الحائط الفاصل بينهما وبين الشقة المجاورة، وصوتاً غليظاً يهدد ويتوعد، ذلك جارهم الكهربائي ألن مولم يطلب من علوان التوقف أو سيستدعي الشرطة. ألقى علوان بالقيثارة وهو يضحك فقد تعود على تهديد مولم، واحتضن دافني وغابا في مداعبة مثيرة إلى حين سمعا ساعة الكنيسة تقرع معلنة دخول يوم جديد.

هناك شيء يجمع بين علوان ودافني لكنهما لا يعرفانه. علوان هو الفتى الصحافي الذي كتب قصيدة الحرية في أفريقيا وبسببها أودع

السجن. ناجي قرأ قصة حياة سيوم علوان في الكتاب الذي قدمه له هدية محرر الصحيفة. دافني كانت حبيبة ناجي السابقة التي لم تشف من حبه حتى اللحظة التي رأت فيها علوان يوم أمس.

بدأت دافني مع علوان حقبة حياتها الجديدة. الأمور تمشي بسهولة ويسر، لكن عانت دافني من هاجس الزواج من علوان. وبعد ضغوط شديدة من قبلها، امتثل لرغبتها وطلب يدها أمام حشد كبير من الناس الذين تجمعوا للاحتفال بمهرجان غلاستونبري الغنائي السنوي. بصفته من الموسيقيين، تمت دعوته إلى المهرجان الذي يحضره محبو الموسيقى والحرية والسلام، وشارك بمقطوعات موسيقيه عالمية ومن تأليفه الخاص. وقبل انتهائه من معزوفته الأخيرة، توقف عن العزف لبرهة ونظر للمحتفلين وركز على المكان الذي تقف فيه دافني بين الحشود. رآها وهي ترتدي زياً شبابياً يتناسب مع الاحتفال؛ قميصاً قديماً من أيام الشباب ضيقاً وشفافاً، وتنورة طويلة عليها رقع ذات ألوان زاهية.

وقال بصوت رجولي واضح: يا أصحابي المحتفلين وزملائي في الصراع ضد الإمبريالية العالمية والتعسف السياسي في العالم أجمع، محبي موسيقى الحب والحرية، أود أن أوجه حديثي إلى حبيبتي التي هي بينكم، السيدة دافني ولنغتون. دافني حبيبتي، هل تقبلين الزواج مني؟

وتلفّت الجميع إلى اليسار وإلى اليمين يبحثون عن صاحبة الاسم الإنكليزي العريق التي قصدها العازف الشهير. نظرت دافني إلى المنصة تجاه علوان وقد شدت على قميصها الضيق الشفاف حتى ظهرت حلمة نهدها بوضوح بينما حبات المطر تنهمر على صدرها. لم تكن تتوقع دافني أن يطلب علوان يدها أمام هذا

الاحتفال الكبير، لقد احتفظ بالأمر سراً بينه وبين نفسه مفاجأةً لها.

وبدهشة وفرحة عظيمة، ردت عليه قائلة: نعم يا سيوم علوان.

صفق الحشد إعجاباً بطلب الموسيقي الجريء وبرد حبيبته الذي انعدمت فيه أي درجة من درجات التردد والخجل. وقدموا لهم التهاني واقتلعت النساء عقود الزهور من على شعورهن وقدمنها هدية لها. فرحت دافني وكادت تطير من السعادة والحبور. وعزف علوان مقطوعة موسيقية سماها «راية الحرية» وأهداها لدافني ولكل المناضلين ضد القمع والاستبداد. وعند انتهائه، نزل من على المنصة واختفى خلف الستارة وذهب للبحث عن خطيبته دافني بين الألوف المحتشدة.

نوى علوان تقديم خاتم الزواج لدافني من الفضة الأفريقية الخالصة اشتراه من أحد الباعة الأفارقة يدعى جون توما، كان قد شارك في حروب الكونغو الضارية. تمكن جون توما من الفرار عبر البحر إلى دولة الكاميرون المجاورة، بعد تعرضه لهجوم أدى لبتر إحدى رجليه. وبعد رحلة مضنية عبر الصحارى والبحار وجد جون توما نفسه في مدينة لندن ملاذ الهاربين واللاجئين والمشردين وضحايا الحروب. وبعد وقت قصير من لجوئه إلى لندن، تمكن من تدبير أمور معيشته باستيراد بعض المصنوعات الأفريقية التقليدية والحرف اليدوية المحلية من الكونغو كالمصاغ والتحف والمنحوتات الخشبية والأقمشة. يقف توما كل جمعة وسبت تحت جسر في حي بورتو بلو مع أعداد كبيرة من الباعة الأجانب، يبيعون سلعاً آتية من أفريقيا والصين وكوريا وأفغانستان والهند ومصر والمغرب والجزائر والسودان وإيران وتركيا.

سلع توما وزملائه من الباعة تختلف عن السلع التي في لندن، بسبب نوعيتها وارتباطها بالدول التي كانت ضمن نطاق الاستعمار البريطاني. أبهرت السلع الإنكليز وخاصة الشباب الذين ينتمون لجيل ما بعد الاستعمار وبعض أفراد الجيل الذي بعث إلى المستعمرات وخاض الحروب هناك. الشباب لا يعلم الكثير عن المجتمعات المستعمرة، مما دُرّس لهم في المدارس والجامعات، لذلك تجدهم يقبلون على شراء سلع المستعمرات، في محاولة لتقمص حياة تلك المجتمعات وبساطتها وسحرها وغموضها.

والأهم من ذلك، ظنهم أن بضائع المستعمرات تربطهم بديانات شعوب العالم الثالث وخاصة الديانات التي تمقت العنف والحروب والصراع. وهم يتذكرون الحروب التي طحنت المجتمعات الأوروبية لقرون طويلة وآخرها الحربان العالميتان، ويتألمون من الحروب التي صدرتها الدول الأوروبية لدول العالم الثالث، فدمرت اقتصادها واستقرارها السياسي والاجتماعي.

كذلك تولدت لدى الشباب رغبة شديدة لمعرفة خبايا الأدوية الطبيعية المستخرجة من النباتات والأعشاب النادرة الموجودة في صحارى بلدان العالم الثالث وبرارية، واستخدمتها شعوبها قبل وصول الطب الحديث بقرون طويلة. كان ذلك قبل اكتشاف العقاقير الكيماوية الحديثة الموزونة بمعايير طبية جامدة، والتي تدخل في تركيبتها مجموعة من المواد الغير الطبيعية؛ يريدون معرفة فوائد الأدوية الطبيعية وإمكانية أن تستعمل بدلاً من الأدوية الكيماوية. ارتبط الغرب بتجارة الأدوية التي جمع منها ثروات طائلة ذهبت لجيوب الشركات الكبيرة ولم تستفد منها شعوب العالم الفقير، الشباب يرفض هذا النوع من الاستغلال.

واليوم اشترى علوان خاتم زواج لدافني من صديقه المحارب القديم جون توما من حي بورتو بلو.

وتم زواج دافني وسيوم علوان في ذات الكنيسة التي تمت فيها مراسيم تأبين هنرى وهيربيرت، بحضور مجموعة صغيرة من أصدقاء دافني القدامى وصديقاتها. رأى أصدقاء دافني أن الزواج أمر شاذ لكنهم حضروا تلبية لرغبة صديقتهم ومجاملة لها. قارن الجميع زواج دافني من سيوم علوان أحمدو بزواج ناجي من غابريلا. بعد انتهاء عقد الزواج، أطرب علوان الحاضرين بعزفه مقطوعات أفريقية حديثة، من تأليفه.

واصل علوان ودافني الذهاب كل صباح إلى محطة قطار الأنفاق في بكدلي، يفترش علوان سترته ويحمل قيثارته ويعزف الألحان وتقف دافني على حافة الدرج كما فعلت أول يوم رأته فيه تنظر إليه بشغف. وترقص رقصات خفيفة مثل رقصات الدراويش التي لم تنسها؛ تدور دوراناً سريعاً وتكاد تقع على الأرض لو لا تمكن علوان من إنقاذها. أثناء الرقص، يدور عقد اللؤلؤ الثمين على جيدها يميناً وشمالاً؛ تشجع المارين على الالتفات إلى زوجها وألحانه الشجية. عملهم اليومي ينتهي عادة عند الثانية عشرة حين يتوقفان لأخذ استراحة قصيرة وتناول بعض مما يحضران من طعام، ومن ثم يعاود علوان العزف ودافني الرقص حتى الساعة السادسة مساء. ويطويان ما لديهما من متاع ويتجهان عائدين إلى حجرتهما لتناول العشاء الذي عادة يعدّه علوان من الليلة الماضية.

علوان لم يناقش دافني في خصوصياتها بل ظل متزناً ويكنّ لها احتراماً كبيراً غير مكترث بخلفياتها أو ما لديها من مال، حتى فارق العمر الكبير الذي بينهما لم يحرجه. تمثل خوفه الكبير في

أن تظن دافني أنه يجري خلف مصالحه الشخصية معها؛ يقول مرات عديدة إنه لا يكترث للممتلكات الدنيوية بل يكترث للحرية والعدالة. علوان قد عانى ونال الويل والتنكيل والهجرة من أجل الحرية والعدالة؛ يجوب العالم حاملاً شؤون الحرية والعدالة على أمل تحقيقهما على أرض الواقع. إنه يعيش لفنّه ويعمل لنشره على مسامع الناس، علّه من خلال الفن يجذب انتباه الناس إلى قضايا أمّته وقضايا أمم العالم المختلفة.

وعلى الرغم من المساعي المكثفة لمحو الألم من مجتمعات العالم، فإن الألم كما هو وبنفس المعدل، يعمل لإعاقة الشعوب في سعيها لخلق عالم متزن ومستقر ومجتمعات تعمها العدالة والطمأنينة والرخاء واحترام حقوق الإنسان. وعلوان فرد يكره البطش والظلم لكن لندن أبعدته بعض الشيء عن الصور الكريهة التي تمارس يومياً في مجتمعات كثيرة من العالم، خاصة مجتمعه حيث لا احترام فيه للحرية الفردية ويسيطر العنف. وعلوان يدرك أن لندن، حالها حال غيرها من مدن العالم الأخرى، لا تخلو من الضغوط والتناقضات والسلبيات السياسية والاجتماعية التي تقيد الفرد وتعوق حريته، فهو يرى في شوارع لندن أعداداً كبيرة من الناس لفظتهم المؤسسات والأسر إلى قارعة الطريق، يلتحفون السماء ويفترشون الأرصفة من دون علاج لمشاكلهم.

إلا أن ما في لندن هو نوع من الاتزان المبني على احترام القانون الذي لا يعلو عليه أحد، أحكامه ونصوصه فوق كل شيء والفرد ملزم باحترام القوانين حتى لو لم يكن موافقاً عليها.

ضياع علوان في وسط لندن المنظم، لم يبعده عن هموم الشعوب

البعيدة ونكباتهم، المتمثلة في الضغوط والكوارث الكثيرة والقيود السياسية والفقر والجهل وعدم المساواة الاقتصادية. ولهذا ظل يحمل حلم الحرية ورايتها في رأسه ويبحث عن تطبيق للمثل العليا على أرض الواقع.

في يوم، وبينما سيوم ودافني في محطة القطار، دهم رجال الشرطة غرفة علوان واستولوا عليها ورموا الممتلكات في قارعة الطريق، بسبب أنهما يسكنان العمارة بصورة غير قانونية. وعند عودتهما مساء وجدا متاعهما في أكياس قمامة سوداء وبجانب المتاع وقف شرطيان. دافني وعلوان صعقا من المنظر وانتابتهما رهبه لعدم سبب معرفة الأمر الذي يكمن خلف هذه المداهمة. بعد الارتباك والخوف اللذين تلبّساهما أدرك سبب ما رأياه. أما الشرطة التي كانت في انتظارهما فلم يكن همها يتعلق بالسكن غير القانوني؛ أتت الشرطة لاعتقال علوان لسبب آخر.

علوان ودافني اعترضا على الإجراءات التي نفذتها الشرطة. دافني اعترضت بشدة على أساليب الشرطة ووصفتهم بالظلَمة والفاشيين، ولعنت النظام الذي يمدهم بسلطات قوية يعجز الفرد عن مقاومتها. الشرطة اعتقلت علوان وساقته مقيد اليدين إلى داخل السيارة لنقله إلى مخفر الشرطة القريب. هناك جرى استجوابه لساعات طويلة؛ تذكر أيام اعتقاله على يدي رجال الأمن في وطنه. ووجه له رجال الشرطة تهمة زراعة الماريجوانا التي عثروا عليها عند دخولهم غرفته.

وظلت دافني على قارعة الطريق بمفردها حائرة وقد صارت هي وعلوان في حالة من التشرد لا يعلم مداها إلا الله. إخلاؤهما من المكان يعني البدء في البحث عن مكان جديد ليعيشا في نوع من

الأمان، فأين يا تري سيكون المقر الجديد؟ وهي في هذه الحيرة، انتبهت إلى شيء غفلت عنه حتى الآن وهي شقتها في حي بملكوا. في الماضي، عزف علوان عن الذهاب للعيش فيها على الرغم من محاولتها المستمرة لإقناعه حتى تنتهي حياة التشرد والسكن في بيوت غير قانونية. علوان يعترض بشدة عندما تقول له دافني إن سكنه فيه تعدّ على حقوق الغير، ويدافع بقوله إن أصحاب العمارات يفضلون أن تظل مغلقه في وجود الكثير من المحتاجين للسكن من أمثاله. لم يوافق على أن يكون السكن لمن لديه القدرة المادية وينعدم لمن لا مال لهم.

اتضح له أن الأولوية في العاصمة التي تتبجح بحقوق الإنسان ليست للفرد العاجز بل لزيادة الأرباح وتدفق الأموال في حسابات التجار وأصحاب العقارات وجيوبهم. وقد رفض العيش في شقة دافني لأنه لا ينتمي إلى الطبقة التي تعيش في مثل الأماكن التي تقع فيها شقتها، أماكن بعيدة عن واقع حياة العامة من الناس.

ما إن تذكرت دافني شقتها، حتى بدأت في لمّ متاعهما القليل واستأجرت سيارتين ملأتهما بالأكياس واتجهت إلى شقتها بحي بملكوا.

الشرطة أدانت علوان بتهمة زراعة الماريجوانا في غرفته لأنه عمل مخالف للقانون. وبعد خمس ساعات من اعتقاله، أطلقوا سراحه وأخطروه أنه في وقت قريب سيمثل أمام القضاء بهذه التهمة. ترك المخفر وبحث عن زوجته دافني إلا أنه لم يجدها. تذكر شقتها وقال في داخله إنها من دون شك اتجهت إلى هناك لأنهما لم يعودا يملكان مكاناً للعيش. سارع إلى مقرهما الجديد ووجدها قد بدأت تستعد لحياتهما الجديدة. أكوام من المتاع شكله يتضارب مع

أناقة ديكور الشقة المنظم. وبدآ يعيشان في الحي الراقي بعد أن ودعا أيام الفقر والتشرد الذي عاشاه في العمارة القديمة.

وبعد فترة وجيزة، عرفا أن العمارة التي كان يعيش فيها علوان قد اشتراها رجال أعمال من الولايات المتحدة وبريطانيا وينوون هدمها وبناء شقق فاخرة في مكانها بغرض الإيجار والاستثمار.

في الحي الجديد، وجد علوان نفسه غريباً بسبب تزمت سكان العمارة ونفورهم منه ومن دافني، كانوا متأففين من زواج دافني من موسيقي أفريقي مهاجر. وقد رفضوا الزواج لأن علوان رجل فقير ومتشرد ويصغر دافني بأعوام كثيرة؛ رأوا أن ما أقدمت عليه دافني أمراً غريباً وخارج عن العرف الاجتماعي للطبقة التي تنتمي إليها.

صارا منبوذين في الوسط المغلق، فالناس يحيّونهما من طرف اللسان وحتى الجيران الذين عرفتهم دافني في السابق تأففوا منها وعزفوا عنها نهائياً وأغلقوا أبوابهم في وجهها. إلا أنه وعلى الرغم من النفور الذي واجهاه، حاول سيوم التأقلم مع الحياة الجديدة التي أخذته إليها دافني. المشكلة أن الجيران سخروا من العلاقة الزوجية التي تربطه بدافني ولذلك بدأ يتضايق من المكان ويشعر بالتزمت وتجهم الناس ونفورهم الاجتماعي.

وفوق هذا لم يستطع علوان العزف على قيثارته في شقتهم متى شاء كما كان يفعل في حجرته القديمة. الجيران اشتكوا أن صوت القيثارة يسبب إزعاجاً أكثر من الحد المسموح قانونياً؛ بدأ يذهب ليتدرب على مقطوعاته الموسيقية الجديدة في الهايد بارك.

في وسطهم الجديد، لم يفتح لهم أحد بابه ولم يستضفهما سوى

جارة ترملت منذ سنة وتعيش بمفردها، تدعى الليدي فيونا هانتر. الليدي فيونا امرأة شديدة الحرص على مظهرها الخارجي وتهتم برشاقتها وشعرها وبشرتها. زوجها كان رجلاً ثرياً وقبل وفاته بسنوات منحته الملكة لقب السير لخدمته للمجتمع البريطاني في مجال تجارة اللوحات القديمة.

لم تكن الليدي فيونا على معرفة سابقة بدافني. أتت فيونا لتوها للسكن في العمارة بعد انتقالها من بيتها الكبير في الريف بعد وفاة زوجها بشهر بالتحديد. رحبت فيونا بعلوان ودافني واستضافتهما في شقتها على عشاء وكأس شمبانيا. واستلطفت علوان وشعرت بمعاناته في الوسط المعزول التقليدي الذي يعيش فيه ونفور سكان العمارة. وبدأت تطلب من علوان المجيء إلى شقتها؛ في أول الأمر طلبت منه ذلك بعد أخذ الإذن من دافني. مع مرور الأيام، فضلت حضوره لشقتها أثناء غياب دافني خارج البيت، عندما تذهب لمصفف الشعر أو للمكتبة العامة. علوان استجاب لطلب جارتهم اللطيفة الليدي فيونا وقد أعجب بشقتها وما فيها من فنون ولوحات زيتية وفخار قديم. وقام بمساعدتها على أكمل وجه ومن دون مقابل رغبة منه أن يكون مثالا للجار الحسن.

ما كان علوان يساعد فيه فيونا تمثل في انتقاء اللوحات الفنية من بين مجموعتها الكبيرة وتعليقها على جدران الشقة. تبدّل فيونا اللوحات كل فصل، فمثلاً في فصل الصيف تعلق لوحات مستوحاة من مناظر البر البريطاني تحاكي جمال الحدائق الإنكليزية والزهور الإنكليزية والأنهار الجارية، وفي الشتاء تعلّق صوراً لجبال أوروبا المغطاة بالجليد وحقول ترعى فيها البقر والخيول أمام أنهار جليدية. مع مضي الزمن، استدرك علوان بفطنته عدم استساغة

دافني أمر ذهابه المستمر إلى شقة فيونا خاصة في أوقات كونها خارج البيت. تحير في ما يفعل بهذه المحنة التي لم يحسب لها حساباً ولا سيما أنه يرغب في مساعدة جارتهما الأرملة المسكينة التي لا معين لها. فيونا عندها ابن وابنة إلا أن الأب حرم أبناءه من الإرث، البنت بسبب سفرها إلى أميركا اللاتينية وإنجابها طفلة خارج عقد الزواج، والابن انتسب إلى الديانة البوذية وانتقل ليعيش في المعبد. وهذا جعل الأب ينبذهما ويحرمهما من الإرث ولم تستطع زوجته فيونا ثنيه عن ذلك على الرغم من إلحاحها الشديد. وبعد وفاته، اتصلت بولديها لكنهما عزفا عن زيارتها بسبب اختلاف نمط حياتهما عن حياتها. هذا الواقع كان أحد الأسباب التي دعت الليدى فيونا للعيش في لندن، كادت الوحدة أن تقتلها في الضاحية الخالية من الحركة. في لندن سنحت لها الفرصة أن تبدأ حياة جديدة في نوع من المحبة والحيوية والاختلاط مع الناس.

مع مرور الأيام، أدركت فيونا بفطنتها عدم رضاء دافني عن الطلبات الكثيرة التي تطلبها من علوان. ذات يوم قالت دافني لفيونا: لماذا لا تطلبين كهربائياً أو عاملاً مختصاً ليعلق الصور ويقوم بجميع الأعمال التي تودين عملها في الشقة؟ ففي هذا البلد أيد عاملة كثيرة وذات خبرة بالأعمال كالتي تطلبين من زوجي عملها. وسيقومون بالعمل مقابل أجر زهيد، فلا أظن أن المادة تنقصك يا عزيزتي فزوجك ترك من المال ما يكفيك وأكثر، فلا تكوني بخيلة وتضنّي على نفسك بالراحة. يا عزيزتي فيونا، زوجي ليس كما تظنين مجرد عامل، لعلمك علوان موسيقي معروف، فلماذا لا تطلبين منه عزف بعض مقطوعاته الجميلة عندما تكون عندك حفلة عشاء، ليطرب ضيوفك بعزفه المتميز بدلاً من مجرد تبديل

اللوحات والأشياء التافهة التي يعملها؟ أرجوك بعد اليوم لا تطلبي منه القيام بواجباتك الصغيرة.

وعلى الرغم من تذمر دافني، واصل علوان مساعدة الأرملة الوحيدة لكنه بدأ يعمل ذلك في السر ومن خلف ظهر دافني. بدأت فيونا مع مرور الأيام تعتمد على خدمات علوان لدرجة كبيرة. ذات يوم وفي وقت كانت فيه دافني خارج البيت، طلبت منه الذهاب لتصليح غسالة الملابس. إلا أن علوان وجد هذه المساعدة قد تعدت الطور العادي واتخذت منحىً مختلفاً عن السابق. عند اقترابه من شقتها وجدها واقفة في انتظاره وفي يدها كأس شمبانيا فيه قطع صغيرة من فاكهة الفراولة وبين أصابع يدها الأخرى سيجار هافاني طويل تفوح منه رائحة تبغ عريق. أظفارها الطويلة مقلمة بعناية فائقة ومطلية بطلاء أحمر له لمعان جذاب ومغر. كانت تدخل لفة السيجار وتخرجها من بين شفتيها بتأن.. وهي ما زالت ترتدي ملابس النوم: قميص من الحرير الخالص وردي اللون شفاف وعليه فستان خارجي مستخلص من القماش واللون ذاته بأزرار فتحت لتكشف عن الصدر. وكانت تفوح منها رائحة عطر صباحي خفيف مخلوط برائحة بودرة الوجه، وخططت جفنيها بصبغة سوداء وغطت رموش عينيها بطلاء كثيف وجذاب.

قادته من يده إلى صالة الجلوس حيث أمسكت بزجاجة الشمبانيا المثلجة وسكبت له كأسا حتى قبل أن تستشيره إن كانت له رغبة في ذلك أم لا. ومدت يدها إلى علبة السيجار الهافاني وتناولت منها حبة قصت طرفها ووضعتها بين شفتيها وأشعلتها وأخذت منها رشفة ومن ثم دفعتها إلى فمه. أخذها من دون اعتراض وهو مندهش مما يرى من تصرفات فيونا؛ لم يعلق أو يستفسر عن الذي

يدور أمامه. على طاولة القهوة، وضعت صينية فضة مغطاة بمحرمة بيضاء؛ رفعت المحرمة وكانت عليها أطباق مليئة بالخبز وغيره من طعام.

قالت: هيا شاركني في الفطور يا علوان، ما زلنا في ساعات الصباح الأولى. دعني أناولك قليلا من الفاكهة فهي أهم طعام على صينية الفطور لأنها تساعد على الهضم وترطب البشرة وهذا مهم بالنسبة لي.

وأخذت تضع على الأواني شرائح عريضة من الفاكهة وتدور بيدها هنا وهناك لوضع المزيد من الطعام والشراب. انتهت واستلقت بظهرها على الأريكة باسترخاء لا يخلو من غنج وإغراء. وأخذا يحتسيان الشمبانيا في هدوء وطمأنينة. ما رآه علوان من تصرفات الليدي فيونا هذا اليوم جعله يشك في أن سبب دعوتها له لا يتعلق بتصليح الغسالة؛ ربما أرادته أن يؤانسها وهي تحتسي شمبانيا الصباح.

قال: ليدي فيونا، خذيني لأرى الغسالة قبل عودة دافني، فبعد عودتها ننوي الذهاب إلى حديقة الهايد بارك لكي أتدرب على مقطوعات موسيقية انتهيت من تأليفها ليلة أمس.

نهضت بتكاسل وقادته إلى المطبخ وأشعلت الضوء وأشارت له بيدها إلى مكان الغسالة. شمر عن ساعديه وقرفص رجليه وانحنى أمام الغسالة ليكشف عن سبب العلة. فيونا راحت تحوم من حوله كالفراشة المبتهجة بمداعبة الزهور.

قالت: علوان دعني أجلب كأسي شمبانيا بينما تقوم بالعمل.

وطارت مسرعة قبل أن تسمع رده وأتت بكأسين، وضعت كأسه على سطح الغسالة ورشفت من كأسها رشفات متقطعة. ثم اقتربت منه وقالت: لا أعرف ما أصاب الغسالة اللعينة فهي جديدة اشتريتها الشهر الماضي؛ أتمنى أن تتوصل لسبب عطلها وألا يتعبك تصليحها. واقتربت منه أكثر وأخذت تنظر إليه وهو يحرك هذه القطعة ويهز تلك بيديه ذاتي الأنامل الطويلة الخشنة والممشوقة. ومن دون تفكير، مدت يدها نحوه شعره وقالت:علوان، دعني أتحسس هذا الشعر الكثيف، هذه نوعية من الشعر لم أر مثلها أو أقترب منها من قبل. كما تعرف، كنت أعيش في قرية صغيرة ليس يتواجد فيها سوى الإنكليز البواسل الذين حرّموا على نفوسهم لذة وجمال الاختلاف والاختلاط بناس ممن يتمتعون بجمال كجمالك وشعر كشعرك. أنتم أصحاب هذا النوع من الشعر محظوظون لأنكم تتمتعون بشعور قوية وبأسنان صلبة، خلافاً لنا نحن الأوروبيين وبالأخص الإنكليز فشعورنا وأسناننا وعظامنا هشة وضعيفة.

مدت يدها ومسحت على شعره بلطف وقالت: ألا تشعر بالحر من كثافة الشعر الذي تحمل على رأسك يا علوان؟ أتمنى ألا يتعبك تصليح غسالتي.

لم ترفع يدها عن رأسه وزادت في مداعبته بأناملها الطويلة وحك رأسه بأظافرها الحمراء بخفة وإثارة، وفجأة صرخت وقالت: علوان، ساعدني لقد انسل خاتمي من إصبعي وضاع داخل شعرك الكثيف الذي يشبه الغابة. ولعلمك الخاتم له قطعة ماس كبيرة؛ الخاتم رافقني منذ يوم خطوبتي لمستر هانتر وحتى اليوم وأخشى فقدانه داخل طيات شعرك الكثيف. أرجوك تمهل ودعني أصطاد الخاتم

من شوارع شعرك وأزقته؛ اصطياده يتطلب وقتاً طويلاً، لذلك لا تتحرك.

وأخذت تبعثر شعره وتداعبه بصورة جنونية. ثم انحدرت يدها بخفة إلى جبينه ولمست المنديل الذي على رأسه. لم يعرف ماذا يفعل تجاه هذا الاجتياح المثير الذي حدث منها، فبقي في مكانه يلعب بيديه على أزرار الغسالة المختلفة. وأحس بيدها تنزل بتسلسل خفيف ومغر من على جبينه إلى وجهه وتدغدغه، وحطت على صدره وبدأت تداعبه بإثارة؛ باليد الأخرى ترفع وتحط كأس الشمبانيا وترشف منه رشفات خفيفة. وظلت على هذه الحالة حتى لم يستطع التحمل، فجرّها من يدها واقترب من وجهها وبأنفاس ملتهبة قوية احتوى بشفتيه شفتيها حتى صارت طوع أمره وتحت تصرفه. دفعها على أرضية المطبخ ونزع ملابسها من عليها؛ لم ينتهيا مما كانا فيه حتى سمعا طرقاً قوياً على الباب. دافني تبحث عنه بجنون شديد عندما لم تجده في البيت.

ظل علوان وفيونا ينتهزان فرصة غياب دافني خارج البيت ويلتقيان في السر. ومع مرور الأيام، أرادت فيونا الاستحواذ على علوان لنفسها وإخراجه من حياة دافني كلياً ليأتي ويعيش معها تحت سقف واحد. تصورت إن رأته ليلاً ونهاراً ستتمكن من صب الماء على نار الغيرة التي اندلعت داخلها وحرقت فؤادها بسبب علاقة علوان بزوجته دافني. لكن علوان رفض عرضها وقال إنه إنسان عنده وفاء شديد واحترام كبير لزوجته ومن المستحيل أن يقدم على خيانتها. وأدرك أن انتقاله للعيش في شقة فيونا، سيخلق تصادماً رهيباً بين المرأتين في الوسط الأرستقراطي المتزمت الذي يعيش خلف أبواب موصدة؛ سيكون خبر انتقال رجل أجنبي من شقة

امرأة إنكليزية لشقة امرأة إنكليزية أخرى كالبركان الذي ينفجر في واحة من الهدوء والطمأنينة.

ظلت فيونا تقضي يومها تتحرى خفية دخول علوان ودافني وخروجهما؛ تراقب الوضع من خلف الأبواب ومن شرفة شقتها المطلة على المدخل الرئيسي للعمارة. صارت أيامها مصبوغة بالتوتر وبألم الغيرة، لا سيما عندما تتصور ما يمكن أن يفعله علوان ودافني في أوقات الخلوة والمتعة الجسدية التي تحدث في الشقة المجاورة. الغيرة دفعتها للقيام بأشياء كثيرة لمعرفة ما يفعلانه في كل ساعة من ساعات النهار والليل، لدرجة أنها بدأت تسترق النظر من فتحة الرسائل الموجودة في الباب. مرة فتحا الباب فوجداها تتنصت على حديث الغرام وأنّات الحب التي كانت تصدر عنهما.

استمر الثلاثة في تداخلهم الغريب، علوان ودافني في حياتهما الخاصة وفيونا تدور من حولهما في غيره قاتلة فيما لا تعرف دافني الذي يربط زوجها بجارتها.

مع مرور الأيام، قللت دافني من زيارة أرضها حيث قبرا هانري وهيربيرت. نوت بيع الأرض وإعطاء المال لعلوان ليساعد قومه في بلاده البعيدة. وأرادت شراء قيثارة جديدة هدية تقدمها لعلوان في يوم عيد العمال لمعرفتها ما يعني هذا العيد له. في الحقيقة، أقنع علوان دافني بأهمية عيد العمال رغم أنها لم تكن تعرف عنه الكثير في سابق أيامها؛ فقط عرفت أنه يوم عطلة عامة.

دافني بدأت تعاني من التعب الشديد عند تنقلاتها بسبب دخولها إلى عقد متقدم من العمر وضعف الصحة. قللت نشاطها وصارت تنزل وتطلع بصعوبة بالغة. كل ما بقي لها هو علوان الذي

ساعدها على رؤية أشياء جديدة ومن منطق مختلف، الآن انقادت طائعة إلى أفكاره الثورية والإنسانية. اقتنعت بأفكار علوان لأنها وجدتها متزنة ورحيمة بالآخرين؛ اكتشفت فلسفة خارج الفلك الأرستقراطي الذي كانت تدور فيه طوال حياتها.

حلم واحد بقي معلقاً بين علوان ودافني ولم يتحقق ويتمثل في أخذها إلى قارته كما وعدها تلك الليلة أمام نافذة غرفته. حلمت بالذهاب إلى أفريقيا لترى جمال الطبيعة وتقف على عادات شعبه وآلامهم وأحلامهم. جمع علوان المال لهذه الزيارة إلا أن صحة دافني لم تعد تسعفها على السفر، لذلك لم يتحقق حلم رؤية القارة السمراء.

وظل خوف واحد ينتاب دافني ويسبب لها كابوساً مستمراً يهاجمها في صحوها ونومها، وهو تخلي علوان عنها، عند دخولها في عمر لا تستطيع فيه الاعتناء بنفسها. كانت تطالبه بألا يبيعها إلى دار العجزة كما يفعل الناس بكبار السن في البلدان المتقدمة. لم تكن تود أن يتخلى عنها علوان كما تخلى عنها ناجي في السابق. علوان وعدها بعدم التخلي عنها. أصبح يحملها على كتفه عند الدخول والخروج من الحافلة ويصطحبها إلى المزرعة الصغيرة في محاولة لإقناعها بأنه لن يرميها في دار العجزة والمسنين. ويقول لها: لن أتخلى عنك حتى لو اضطررت لبيع قيثارتي وهي أعز ما أملك.

وبعد معاناة قصيرة مع المرض، ماتت دافني، قبل الدخول إلى مرحلة العوز والحاجة إلى العناية الشخصية المكثفة. علوان قام بالاعتناء بدافني أثناء مرضها على أكمل وجه. وفي صباح يوم أحد مشمس، ماتت دافني في أحضان علوان كالطفلة الرضيعة،

استسلمت أخيراً لغفوة أبدية بعد حياه مثيرة حافلة بالعمل والطيش والعبث والمشاغبة. ماتت بعد أن تلاعبت بالأعراف الاجتماعية الصارمة التي قيدتها، بسبب انحدارها من وسط يقدس التزمت والتقاليد.

علوان دفن دافني في مقبرتها بجانب قبري هانري وهيربيرت خلافاً لوصيتها التي طلبت فيها أن تحرق بعد موتها وينثر الرماد أعلى كاتدرائية القديس بول. بالنسبة له كان ذلك عملاً وحشياً ولا يمكنه فعله؛ لم يوافق على ما يفعله الناس بأمواتهم في الدول الأوروبية. ولو وافق على وصيتها فهو لن يستطيع نثر الرماد على الكاتدرائية حيث ذلك عمل مخالف للقانون؛ رماد الميت لا ينثر في المدن بل ينثر في الساحات المفتوحة وسفوح الجبال وفي الوديان والبحور.

وقد أراد دفنها في مكان يتسنى له زيارتها متى شاء ولهذا دفنها في أرضها. ويوم وفاتها، تناقلت الصحف خبر الوفاة ووصفتها بامرأة مهمة في عالم الصحافة البريطانية. وطلب من علوان إلقاء الضوء على حياتها. تعامل مع الصحف الجادة، أما الصحف الصفراء فلم يتجاوب معها على الرغم من المبالغ المغرية التي قدمت له في هذا الصدد. بعض الصحف أرادت التركيز على الفضائح والأمور الخاصة في حياة دافني، مثل كشف الغطاء عن علاقاتها العاطفية مع أحبائها من رجال الصحافة المهمين.

وبدأ علوان يذهب لزيارة قبر دافني مرة كل شهر. وتولدت في داخله فكرة جديدة وهي استغلال الزيارة لغاية نافعة تمثلت في العزف أمام باب المقبرة. وبعث ما حصل عليه من المال لأفريقيا لإغاثة الأيتام وضحايا الحروب.

بعد وفاة دافني، تنفست فيونا الصعداء وشعرت بالراحة. أتت لحظة طالما انتظرتها حيث نجحت في إقناع علوان بالسكن معها في شقتها. فيونا على خلاف دافني، لم تكن لديها رغبة في مشاركة علوان اهتماماته الفكرية والفنية. دافني أغرمت بعلوان وأغرتها حريته بعيدة الحدود والمدى وأرادت تذوقها. فيونا أغرمت بعلوان لكنها مدمنة على الكحول، الشيء الذي أبعدها عن تذوق أي طعم آخر. لم يكن صعباً عليها أن تبتعد عنه طوال ساعات النهار. دعته ينطلق بالنهار خارج البيت ويفعل ما يشاء في رحاب عالمه الخاص واهتماماته ويعود لها في المساء.

أثناء غياب علوان، تنغمس فيونا في متعة الزينة وتعاطي الشمبانيا. حين يرجع علوان، يجدها واقفة على الشرفة في انتظاره بلهفة وهي ثملة لا تكاد تقف على رجليها. تلوح له من بعيد بكأس الشمبانيا وفي يدها الأخرى لفة سيجار هافاني وهي في كامل زينتها؛ تفوح منها رائحة عطر المساء ورشاش الشعر وبودرة البشرة.

أما ناجي فبدأ يلملم شتات أيامه. عادت له العزوبية من جديد بعد خروج غابريلا من حياته. الآن باستطاعته أن يعمل بوقته ما يحلو له. ماذا يفعل بوقته بجانب القراءة وتعاطي الكحول؟ ظل هذا السؤال يلح عليه لكنه يصر على عدم الإجابة عنه. بدأ يكثر من القراءة والكتابة، كما وصل إلى الدرك السحيق في الإدمان على المسكرات. تعاطيه للكحول يحدث خلف أبواب شقته المغلقة لعدم رغبته في أن يعرف أحد بإدمانه، فكأي مدمن يخشى اكتشاف الغير لحقيقة إدمانه. ووصل إلى حد لا يستطيع فيه الخروج من البيت من دون حجب عينيه خلف نظارة شمسية تحجبه عن العالم وتجنبه تطفل المتطفلين؛ لم يكن يريد الناس أن يروا آثار الإدمان.

يجد على وجهه الكدمات والخدوش، يتلقاها بسبب تعثره ووقوعه على الأرض أو في حوض الاستحمام وفي أماكن أخرى، وهو يتجول بجسده الرخو في ردهات شقته.

وقد بدأ يشعر بالندم الشديد على فقدان غابريلا وضياع السنين. كان يقول في داخله ربما بقاء غابريلا معه كان سيبدد بعضاً من قلقه وتوتره ويبدد الوحدة والوحشة التي يعيش داخلها. وسرعان ما يتحول إلى النقيض ويقول لنفسه إن وجود غابريلا، في نهاية الأمر، لم يغير شيئاً في حياته وقبل دخولها في حياته كان يقرأ ويفكر ويعمل بوقته ما يشاء وبعد اقتحامها لحياته، بدأت المشاحنات تندلع بينهما خاصة عند إكثاره من تعاطي الكحول.

وعلى كل حال، أكثر ما يخشاه هو وقوعه فريسة مرض بسبب الإفراط في تعاطي الكحول، كالحمّى التي تصاحب الإدمان. كان يحتاج لشخص يقف بجانبه إذا هاجمه المرض ويساعده على النهوض من تحت أنقاض الحطام.

ذات مساء، أفرط في تعاطي الكحول حتى ثمل وأصابه الإعياء، فانسحب إلى سريره وهو في حالة بين النوم واليقظة. وتخيل أنه قد جمع كل كتبه وحملها على رأسه إثر حريق شب في الشقة. وفعلاً هرول إلى خارج الشقة ومن ثم إلى الشارع. الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل ولم يكن على جسده سوى سروال النوم. وقف على قارعة الطريق وطلب من الناس مساعدته، لكن لم يتقدم أحد لمساعدته. مرت بقربه إحدى السيارات ولاحظ ركابها رجلاً تحيطه المشاكل والكوابيس.

الذي انتبه لوجوده كان رجلاً متسكعاً يرزح هو الآخر تحت تأثير

الكحول. اتصل الرجل برجال الإسعاف كي يساعدوا رجلاً يتقلب في محنة لا يعرف سببها. الإسعاف نقله إلى المستشفى وهو فاقد الوعي ينادي ويصرخ بجملة واحدة: النار التهمت كتبي. عندما استيقظ في اليوم التالي، وجد نفسه طريحاً على أحد أسرّة مستشفى قريب من بيته، والممرضات يتناوبن عليه. أذهله الأمر وأحرجه في الوقت ذاته.

وتقدم الطبيب المناوب من سريره وقال له بأدب: ليس من اختصاصي نصيحتك، إلا أني سأفعل ذلك؛ سامحني. إن ظللت على هذا الحال، تدخل وتخرج في نوبات تعاطي الكحول، فلن تلوم إلا نفسك بشأن ما يصيبك من مصائب. أطلب منك محاسبه نفسك لأن العاقبة ستكون وخيمة وقد تنهي حياتك.

بعد عودته إلى البيت، وقف أمام مرآة الحمام ينظر إلى عينيه المنفوختين وجلده المتورم من سموم الكحول والخدوش التي على وجهه وأسنانه التي لم تعد على بريقها السابق وكرشه البارز. وأدرك أنه في حالة لا يقبلها لنفسه وأن عليه سحب نفسه من وسط أنقاض الحالة المؤسفة، قبل أن يصل إلى العدم وقاع الجحيم. وانحدرت دموع غزيرة على خديه عبر الكدمات السوداء التي تغطي مساحة كبيرة من وجهه. وبدأت تظهر له ذكريات حياته مع أبويه في الحي الهادئ وفقدان هويته. سأل نفسه: من أنا وما أصلي وهويتي؟

تكاثرت همومه وتداخلت التساؤلات الكثيرة حتى التحمت بقوة طاغية. حياته غدت كتلة من التوتر والقلق والتمزق. ولو لا كتبه واهتماماته الثقافية، لغدت الحياة جحيماً لا يطاق. لقد دخل دوامة ولا يعرف كيف يخرج منها؛ لقد فقد كل شيء.

ظل رأسه مليئاً بأسئلة عديدة لا إجابة لها، بعضها سبب له ارتباكاً فحاول تحاشيها. سؤال واحد ظل يقفز لمخيلته وهو: لماذا عاد إلى حياة الوحدة التي لا يطيقها؟ الأحداث توالت بسرعة مذهلة وجعلته يشعر وكأنه فقد السيطرة على زمام الأمور. شعر بالإرهاق والانقباض وسأل نفسه عدة أسئلة أهمها كيف سمح لغابريلا أن تغزو حياته بسرعة وتهجره بسرعة مشابهة؟ كان من المستحسن لو رفض فكرة بقائها معه في لندن.

ووصله الرد في صورة صريحة لا لبس فيها. غابريلا استطاعت اقتحام حياته لسببين. السبب الأول أنه شخص متذبذب ولا رسوخ في حياته، والثاني أنه شخص من دون روابط اجتماعية. غابريلا ليست الأنثى الوحيدة التي استغلت هذه الفجوة في حياته؛ كل النساء في حياته دخلن من هذه الفجوة. هو رجل أعزب حتى هذا العمر ومن دون روابط أسرية وهذا نمط مغر لكثير من النساء، لقلة الرجال العزاب.

وألقى بجسده المتعب على الأريكة وأخذت عيناه تتجولان في أرجاء الغرفة كأنه يبحث عن شيء فقده، حتى وقع نظره على قيثارته ملقية في ركن منزو وقد تراكم عليها الغبار بكثافة. وهنا شده الحنين لمداعبة أوتارها على لحن محبب، فنهض وتناولها وحاول العزف عليها لكن أصابعه تخاذلت. أدرك ألا جدوى من محاولة العزف على القيثارة.

لم يزل ناجي في ذهول من سرعة الأحداث التي تعرض لها. غابريلا وصلت إلى لندن لتبقى معه وهجرته بسرعة وعادت من حيث أتت. وكما يرى، تركته لسبب تافه تمثل في الإدمان على الكحول، بعد أن وعدته بالبقاء معه رغم مصاعب رحلة العمر

والزواج. ظل في مكانه على الأريكة غير مكترث لضوضاء العالم خارج الشقة.

وفجأة تبدد السكون الذي كان يغلفه حينما رن جرس الهاتف وجرس الباب في وقت واحد. حاول تجاهل الرنين وظل قابعاً في مكانه. سعل قليلاً ثم أغمض عينيه ورفع يده ليمسح شعره الذي خفّت غزارته وانحسر إلى الخلف. تحسس بطنه ونظر إلى الساعة المعلقة على الحائط أعلى الباب. بدأت الدنيا لا تعني لها شيئاً وشعر أنه يدور في فلك آخر خارج دوران الدنيا. إنه منغلق داخل أفكاره ويعاني من مشاكله الخاصة والمتداخلة.

ما زال فكره مع غابريلا. تذكر أنها لم تترك في الشقة أي شيء يخصها يراه فيتذكرها. عند الساعة السادسة مساء، اتجه إلى الحمام واغتسل ثم هرول إلى خارج البيت وكأنه شعر بالخوف من الملل والوحدة وهما يزحفان نحوه مثل الجيوش الجرارة. في الشارع، أدهشه صخب المكان وحركته الدائمة التي لا تتوقف ولو للحظة. قال في داخله: العالم لا يزال حياً وحركته سريعة. أخيراً، شعر أنه بطريقة أو بأخرى ينتمي إلى الفصيلة البشرية التي يراها تجري أمامه وتتجاوب مع مشاكله وهمومه. واجهات الحوانيت مضيئة وحركة السير تحافظ على كثافتها وحيويتها.

وقال في داخله: يجب التعايش مع الحياة وقبول حلوها ومرها وزحمتها وفضائها؛ يجب العيش ومسايرة الأمور كما هي، والبدء في تغيير نفسه واقتلاعها من براثن الإدمان على الكحول والوحدة القاتلة التي تلفّه ليلاً ونهاراً. سأل نفسه مرة أخرى: هل الوحدة هي سبب إدمانه على الكحول، أم أن الإدمان هو سبب الوحدة؟

مشى لفترة وجيزة ثم توقف لبرهة على حاجز الشارع ينظر إلى وجوه المارين والسيارات وهي عابرة في سرعتها المخيفة من أمامه إلى اتجاهات مختلفة. بعد ذلك، ذهب إلى الدكان الصغير القريب من بيته واشترى صحيفة «الستاندرد» المسائية. وقادته رجلاه باتجاه أقرب حانة رآها أمامه، لها بوابة ضخمة وزجاج مدخن وخشب عتيق. الحانة من الحانات الإنكليزية القديمة، الحانات القديمة ولّى عهدها واستبدلت بحانات حديثة. تذكر أنه في الماضي كتب بحثاً عن ظاهرة الحانات الحديثة واختفاء الأشياء التقليدية. تساءل في بحثه عن ضرورة التغيير وعن أثره على الحياة التقليدية في بريطانيا وعلى اقتصاد السوق الصغير، وما هو دور الأموال الكبيرة التي نمت بسرعة مخيفة في عهد مارغريت ثاتشر رئيسة الوزراء البريطانية السابقة؟

إذن هو ما زال يهتم بالمواضيع الاقتصادية ودراستها تعنيه اقتصادياً وثقافياً، على الرغم من تغير الكثير في حياته وعدم اكتراثه في الآونة الأخيرة لما يدور حوله. دفع بباب الحانة ودخل وهو يتعثر على عتبة المدخل لعدم تركيزه وبسبب أفكاره المشتتة. وبدأت الموسيقى تغزو سمعه، وتصل أنفه رائحة الحانة العتيقة وهي عبارة عن رائحة خمور وتبغ وخشب الكنبات والسجاد القديم. كل هذا أرجعه إلى الأيام الماضية عندما كانت زيارة الحانات مع أصدقائه من الأمور المحببة لديه. سأل نفسه هل يا ترى هو على مشارف العودة إلى تلك الأيام؟

وهو وسط هذه الأفكار، سمع صوتاً من بعيد من بين الأصوات المتشابكة يناديه: أهلاً ناجي. تحول بوجهه تجاه الصوت وأخذت عيناه تبحثان عن مصدر الصوت. رأى أحد أصدقائه القدامى

واسمه سايمون بنكهيرست. في الماضي، كان سايمون أقرب صديق له. أحرجته رؤية سايمون فهو لم يحاول منذ زمن طويل الاتصال به؛ ترك شلة الأصدقاء منذ فقدانه لعمله في الصحيفة. أمر فقدانه للعمل أصبح مصدر إحراج وألم. لقد أحبط وترك خلفه تاريخاً وماضياً حافلاً بالخبرة الصحافية التي ثابر من أجل إحرازها على مدى سنوات عديدة. كان ينوي ترك العمل وهو في القمة كسابقيه من المشاهير الإعلاميين. الإدمان والمعاناة النفسية كانا خلف خروجه الإجباري المبكر من الصحيفة. حاول إخفاء الحقائق عن أصدقائه بمن فيهم سايمون.

نظر إليه سايمون بغبطة وصافحه بحرارة وقال: أين أنت يا صديقي القديم، أين اختفيت طوال هذه المدة؟

سايمون رجل طويل القامة، مليح التقاطيع، أشقر الشعر، ومبتسم على الدوام وكأن هموم الدنيا لا تعرف طريقها إلى حياته. ومنذ عرفه ناجي وهو يضع على إصبع يده الصغير خاتم ذهب عليه طابع عشيرة اسكتلندية قديمة. في الماضي، كانا يمزحان بشأن لبس سايمون لهذا الخاتم الذي لا يخلعه أبداً. الخاتم يجعله يبدو بمظهر الإنكليزي العريق المنتسب إلى سلالة عريقة. الفرق الوحيد هو أن سايمون لا يعرف ما هي هذه السلالة من بين آلاف السلالات التي يدّعي الناس الانتساب إليها؛ إنه مجتمع مبهور بالسلالات والعراقة والصفوة الاجتماعية. درس سايمون في مدرسة داخلية ودخل إحدى الجامعات الاسكتلندية المرموقة. شكله أشبه بالضباط الإنكليز المنحدرين من الأسر العريقة. تناول ناجي يد سايمون بدعابة ورفعها إلى أعلى فوجد الخاتم على إصبعه الصغير لا يزال في مكانه.

سايمون عمل وعاش في لندن منذ تخرجه من الجامعة؛ عمل في

بنوك عالمية في «الستي أوف لندن». لم يحاول ترك لندن وغالب طويلاً طموحات العمل في مدن أخرى مثل مدينتي بون ونيويورك. كان كلا الرجلين يقولان إن الخروج من لندن يعني الخروج من الحياة. في السابق، كانا يلتقيان بصفة منتظمة، لكن تقلب الأحوال في حياتهما منعهما من ذلك؛ التقارب الروحي والصداقة الحميمة ظلت قوية. تذكر كيف أن سايمون عرف بولعه بالنساء وأن له علاقات لا حصر لها معهن.

سايمون ما زال غير متزوج ولم يحاول قط الاقتراب من الزواج. علاقاته تأخذ الطابع الغير الثابت وفلسفته في الحياة تطالبك أن تعيش ليومك ولا تفكر في الغد. لا شيء لدى سايمون يهم سوى عمله الذي لا يتهاون فيه تحت أي ظرف من الظروف. لكن هو الآخر كناجي بدأ العمر يسرقه ولو أنه ما زال يحتفظ بمظهره الأنيق ويتمتع بحيوية ووسامة فائقة.

جلسا إلى إحدى الطاولات القريبة من الحانة يحتسيان الويسكي ويتناقشان في تجارب الحياة وأمورها. ناجي أخبر سايمون عن قصته الغريبة والقصيرة مع غابريلا وزواجه منها، وعن وفاة والديه. سايمون بدوره أخبر ناجي عن علاقاته المتعددة مع النساء وعن مغامراته العاطفية الكثيرة وكيف أنه ما زال سريع السأم في الأمور العاطفية كما لو كان لا يزال في أوج شبابه وأنه ما زال يعدو خلف علاقات متعددة وعابرة. الأمر كان سهلاً في أيام شبابه أما الآن فهو لا يملك الطاقة للاستمرار في هذا الأسلوب من الحياة.

أدرك سايمون أن صديقه يمر بصعوبات في حياته لكنه لا يعرف ما هي بالتحديد؟ سأله: هل أنت خائف من شيء يا ناجي؟

قال ناجي: لماذا تسأل؟

قال سايمون: رُدّ علي أولاً، هل أنت خائف من أمر ما؟

قال ناجي: الإنسان بطبعه مخلوق دائم الخوف فكيف لا أخاف؟ كيف لا أخاف؟ لماذا تسألني هذا السؤال السخيف. ألّا تخاف إن كنت في بلبلة كالتي أجد نفسي فيها؟

قال سايمون: طبعاً، إن ارتبكت حياتي، من الطبيعي أن أخاف. أنا فرد من نفس الزمان الذي أنت منه ولديّ مخاوفي ومتاعبي، إلا أنني أنظر للحياة من منطلق التفاؤل وأعيش يومي دون الدخول في تعقيدات الحياة المتشعبة. أنا وأنت نختلف في تدبير أمور حياتنا وأسلوب معيشتنا. أدرك أن البلبلة وقسوة الماضي هما اللذان دفعاك للقلق وعدم الاتزان. دع كل ذلك للماضي. أنا وأنت اليوم عاودنا صداقتنا عن طريق الصدفة، بعد زمن طويل من الانقطاع. أعدك بأني سأحاول انتشالك من الوسط المهزوز الذي تعيش فيه، على شرط أن تتبع فلسفة حياتي ولو لشهور معدودة والنظر إلى الأمور من الزاوية التي أنظر أنا من خلالها للحياة. ما يهم الآن هو العثور على صديقة؛ لا بد أن تكون في حياتك صديقة تعينك على تبديد مرارة الوحدة التي تعيشها. أما أنا فالمرأة ليست مهمة في حياتي لأنها تعوق حريتي وانطلاقي.

استوقفه ناجي قائلاً: أنا على اتفاق معك في بعض ما تقول. أيام الشباب كنت أؤمن بفلسفة تشبه فلسفتك تجاه المرأة؛ أنا في هذا العمر تجدني محاطاً بالخوف من الوحدة. عندما أكون بمفردي في الليل، توقظني الكوابيس والأحلام المزعجة بسبب خوفي من الوحدة.

قال سايمون: هل تريد حلاً لمشكلة الوحدة التي تعانيها؟ لدي حل جيد للتخلص منها. عليك أن تفعل مثلي لتفادي مشكلة الوحدة التي صارت طابع الملايين من الناس خاصة سكان المدن. الحل يكمن في الرد على الإعلانات الشخصية المعروضة على صفحات الجرائد. منذ سنين وأنا أعتمد على هذه الوسيلة للتعرف إلى النساء؛ هذه وسيلة مضمونة وسهلة للتعرف إلى الجنس الآخر. أنا شخصياً أصبحت مدمناً على هذه الطريقة؛ كلما فشلت في علاقة، تناولت صحيفة جديدة وشرعت في الرد على إعلان آخر. تعرفت إلى مجموعة كبيرة من النساء، منهن من بقيت معي لفترة طويلة ومنهن من كانت مجرد عابرة سبيل. لذلك أنصحك باتخاذ هذا الأسلوب إن أردت تجنب الوحدة.

وتناول سايمون الصحيفة التي أمامه وأخذ يقلّب في صفحاتها حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة حيث الإعلانات الشخصية. أطلع ناجي على .الصفحة المليئة بالأسماء التي تطل على القراء بكل ثقة ودون حرج.

قال ناجي: لغرابة الأمر، لم أفكر في هذه الطريقة على الرغم من أنني أعرفها. إنها من دون شك طريقة مبتكرة للتعارف بين الجنسين. كنت أتصور أن الناس الذين يعرضون أنفسهم بهذه الطريقة هم غير المرغوب فيهم اجتماعياً، من ذوي العيوب الخلقية والأخلاقية. هدفهم التستر وراء الإعلان لصعوبة العثور على أناس تتعرف عليهم بالطرق التقليدية، يعطون أنفسهم صفات ترفع من شأنهم وتقربهم للناس. العيوب تظهر ظريفة لأنها كتبت بمهارة فائقة ووضعت داخل مربعات مرقمة على صفحات الجرائد والمجلات.

قال سايمون: العكس هو الصحيح، هناك أعداد من الناس الذين يسبحون في وحدة صامتة محاولين العثور على طريقة تخرجهم منها. لا تجد عيباً في الشخصيات أو الأشكال؛ الإعلان عن أنفسهم والرد على الإعلانات الشخصية وسيلة سهلة ومضمونة للوصول للآخرين. الناس في هذه الأيام، بسبب ضيق الوقت، لا متسع لديهم للتعارف بالطرق التقليدية. سابقاً الجنسان كانا يلتقيان في قاعات الرقص وحفلات الشاي والحفلات الخيرية؛ اليوم الناس مشغولون بأمور أخرى أهم من التعرف إلى الجنس الآخر. كسب العيش في عالمنا المادي لا يترك وقتاً للبحث عن شريك أو رفيق بالطرق المعروفة.

كانا سعيدين بلقائهما المفاجئ، بعد تعاطيه للكثير من الويسكي، أخذ سايمون يغني أغنية مشهورة بصوت عال، كلماتها تتحدث عن القمر والوحدة والحب من كلمات لورانز هارت

أيها القمر الأزرق

رأيتني واقفاً وحيداً

بلا حلم في قلبي

بلا حب يخصّني وحدي

أيها القمر الأزرق

أنت تعرف تماماً لماذا أنا هنا

سمعتني أتلو صلاة

من أجل إنسان أستطيع أن أهتمّ به حقاً

وفجأة ظهر أمامي

الوحيد الذي ستضمّه ذراعاي
سمعت من يقول رجاء أحبني
وعندما التفتّ للقمر وجدته صار ذهبياً
لم أعد وحيداً أيها القمر الأزرق
بلا حلم في قلبي
بلا حب يخصّني وحدي

وفجأة ظهر أمامي
الوحيد الذي ستضّمه ذراعاي
سمعت من يقول رجاء أحبني
وعندما التفتّ للقمر وجدته صار ذهبياً

لم أعد وحيداً أيها القمر الأزرق
بلا حلم في قلبي
بلا حب يخصّني وحدي

وقال وهو يتنصت من بين صخب الموسيقى العالية لنباح كلب: هل في عمرك سمعت نباح كلب وسط لندن؟ إنها غريبة من الغرائب؛ إني أسمعه بوضوح.

قال ناجي: صدقت، إنه نباح كلب ضال وجائع. هل تعرف أن نباح الكلاب في بعض بلدان العالم شؤم ونذير خراب؟

قال سايمون: ما دمت برفقتي فلا خراب سيمسّك يا صديقي

العزيز. قدم لي كأس ويسكي قبل نهاية الليل. بعد طلوعنا من هنا دعنا نواصل السهرة في بيتي أو بيتك.

قال ناجي: لديّ الكثير من زجاجات الكحول؛ دعنا نغزوها ونحتفل بلقائنا غير المتوقع. غداً سأبدأ محاولة الرد على بعض الإعلانات وسأخبرك بالنتيجة.

بقيا في البار مع كؤوس الخمر وأخذ سايمون مرة أخرى يغني بصوت عال لكن لم يستمع له الزبائن لكثرة الضجة والضوضاء. وبدأ البار تدريجياً يخلو من زبائنه وبدأت الأضواء تومض الواحدة تلو الأخرى قبل إطفائها إعلانا بموعد الإغلاق. انسحبا ورأساهما وأقدامهما ثقيلة واتجها صوب الباب. عندما مد سايمون قدمه خارج الباب، ضغط على رأس الكلب الضال الذي كان رابضاً أمام مدخل الحانة. الكلب عضّ قدم سايمون وانطلق يعدو مسرعاً وهو ينبح بصوت متحشرج كالعويل. ولْوَل سايمون من الألم لكنه استطاع مواصلة المشي معتمداً على كتف ناجي. سأله ناجي إن كان يريد الذهاب إلى المستشفى للتأكد من أن العضة لم تصبه بضرر شديد. قال: الأمر لا يتطلب ذلك فهي مجرد عضة خفيفة.

سارا في الشارع وهما يثرثران ويضحكان. شلة من المارين تتجه إلى مواقف الحافلات وقطارات الأنفاق. قال ناجي: الليلة يا أستاذ سايمون أنت معزوم على زجاجة نبيذ معتقة جلبتها من فرنسا أيام عملي في الصحيفة وأود أن أتناولها مع فرد يقدر قيمه النبيذ الجيد وليس هناك من هو أفضل منك يا صديقي.

بدأ سايمون يشعر بنوبة ألم في قدمه وباقي جسده. حاول إخفاء الألم عن ناجي كي لا يقتل فيه المرح والحبور. واصلا السير وهما

في نشوة تكاد الكلمات تعجز عن وصفها. نسائم الليل الباردة تدغدغ وجهيهما الساخنين ورذاذ المطر الخفيف يتساقط عليهما. نسي ناجي خروج غابريلا من حياته والمتاعب التي رافقت ذلك الانفصال. وصلا إلى شقة ناجي لمواصلة السهرة وهناك ظلّا يشربان الكحول حتى الصباح.

وبدأ ناجي يفكر في نصيحة سايمون والرد على الإعلانات في الصحف والمجلات. لا يشتري الجرائد لقراءتها بل لاهتمامه الجديد للرد على إعلانات التعارف والعلاقات الشخصية. بدأ يتلبسه هوس بالمهمة الجديدة؛ في الماضي كان يتصفح الجرائد وينتهي قبل وصوله إلى صفحات الإعلانات الشخصية. بجانب الجرائد، بدأ يشتري المجلات النسائية مثل مجلة فوغ وهاربر أند كوينز والكوزمو بولتن، ويجمع الجرائد التي توزع مجاناً أمام محطات قطارات الأنفاق والشوارع.

بدأ يتخيل نساء الإعلانات اللواتي سيقابلهن وكيفية تصرفه معهن. تصور لو أنه تعرف إلى إحداهن عبر مجلة فوغ للموضة والجمال فحتماً ستكون مهتمة بالجمال أو صارخة الجمال تشبه عارضات الأزياء والممثلات. ولو تعرف إليها من خلال جريدة التايمز فستكون نبيلة خريجة مدارس خاصة، ولو كانت من صحيفة الغارديان فستكون يسارية مهتمة بأمور السياسة العالمية والأمور الإنسانية، ولو كانت من إحدى المجلات المجانية فستكون عاملة بسيطة الشخصية والشكل. وهكذا بدأت فكرة التعرف إلى النساء من الصحف والمجلات تسكن خياله ليلاً ونهاراً. وفي كل صباح يسارع لشراء الجرائد؛ كلما انتهى من قراءة إعلان، فكر في الرد عليه.

كان يرسم دائرة حمراء حول الإعلان المختار. يقرأ الإعلانات ويقارن بينها وبين ما يكتب فيها من صفات صاحباتها ورغباتهن. كان على يقين قوي من أنه سيعثر على صديقة ورفيقة. كلما تعب من البحث، يطلب من سايمون مساعدته على الاختيار وكتابة الرد المناسب لجذب النساء.

ذات يوم اتصل بسايمون ليناقشه في الأمر ويطلعه على بعض اختياراته من مجموعة الإعلانات لكنه لم يجده. فاضطره الأمر لكتابة رسالة طويلة ليبعثها لعدة أشخاص، مع إدخال تعديلات طفيفة ليكون رده منطقياً ومتسقاً. في الرسالة، شرح ميوله ومستوى تعليمه الدراسي وهواياته مثل القراءة والموسيقى.

وقع اختياره للرد على امرأة شقراء عيناها زرقاوان وتتمتع، كما تقول عن نفسها، بحيوية ورقة؛ بجانب الإنكليزية تجيد اللغات الفرنسية والألمانية والبرتغالية. تبلغ من العمر خمسين عاماً لكنها رشيقة وتظهر أصغر من سنها بكثير. سافرت كثيراً وعملت في مجال الترويج العالمي وعاشت في مدن عديدة من مدن العالم؛ الآن تنوي الاستقرار في لندن التي فارقتها منذ سنين طويلة. المرأة تطلب الرد من رجل يتمتع بالمرح وألا يكون مفلساً، يحب المشي والرياضة ويكون جاداً في أمر الارتباط. عثر على الإعلان في إحدى الصحف التي توزع مجاناً ولم تكن من ضمن الإعلانات التي تحملها الصحف اليومية المعروفة.

بعث بالرد ولم يتوقع أن يكون لرسالته حظ مع متسلّمتها لظنه أنها حصلت على ردود كثيرة ولا سبب يجعلها تقبل رسالته من بين الرسائل التي وصلتها. رسالته كتبت بحكمة وقدر معقول من التمعن والوعي؛ هو صحافي ويعرف طريقة اجتذاب القراء. قال في

داخله: إن نجحت في اجتذاب المرأة الشقراء، فسيكون من السهل النجاح مع النساء الأخريات.

بعد أيام قليلة من رسالته، ولدهشته الكبرى وصله الرد من الشقراء، مرفقاً معه رقم تلفون والقليل من التفاصيل عن المرسلة. اتصل بالرقم وبعد محادثة سريعة بينه وبين المعنية، اقترحت عليه أن يلتقيا في اليوم التالي في بار يقع بشارع متفرع من شارع أكسفورد.

في يوم اللقاء، بذل اهتماماً مبالغاً فيه للاعتناء بمظهره وتصفيف شعره واختيار ملابسه. هذه أول تجربة له في طريقة التعارف الجديدة، وهو في حماسة لدخول التجربة الغريبة والمختلفة عن أي تجربة سابقة. لا يعرف شكل من سيقابل لأنها لم ترفق في الرد صورتها. وهو يتأهب للخروج سأل نفسه، لماذا اختار دعايتها من بين الدعايات التي قرأها؟ ربما الأمر عائد لوصفها الدقيق لنفسها ولمواصفات شريك حياتها.

وصل مكان اللقاء ووجد الحانة ممتلئة بالناس وبروائح السجائر والمشروب والعرق. توقف برهة وألقى نظرة عامة على المكان، واقترب من امرأتين جالستين إلى طاولة منفردة. ظن أن الشقراء أتت برفقة صديقة؛ من النصائح للذين يتعارفون من خلال الإعلانات الشخصية عدم مقابلة شخص غريب لأول مرة دون رفيق. قال في داخله: كيف تخاف من مقابلتي بمفردها في هذا المكان المزدحم؟ وهو في وقفته، أحس بيد تربت على كتفه. التفت ووجد أمامه سيدة على مشارف الستين من العمر، طويلة القامة شعرها مصبوغ بصبغة حمراء، وصدرها كبير وشفتاها بارزتان وعليهما لون وردي غامق. شكلها يشبه نادلات الحانات.

سلمت عليه وقالت: أنا ساندرة، ألست ناجي؟

شعر بخيبة الأمل وقال: نعم، أنا ناجي.

أدرك أنه قد وصل إلى شوط لن يستطيع فيه التراجع مهما كانت عدم رغبته في التعرف إليها. مشيا حتى وصلا إلى طاولة قريبة من باب مطبخ البار وهو لا يزال مرتبكاً. سألها عن الشراب الذي تود تناوله.

قالت: بكاردي مع الكوكاكولا.

أتى بما طلبت وأحضر شراباً لنفسه. وأخذا يتحدثان في أمور مختلفة. أخبرته أنها خبيرة تجميل وقد عملت في بلدان عديدة شملت إسبانيا ورومانيا والمملكة العربية السعودية والأردن والإمارات العربية المتحدة وقطر وسلطنة عمان. وبعد غياب طويل عن لندن، مدينتها التي نشأت فيها، قررت العودة لتستقر فيها. اشتاقت لثقافتها التي لا مثيل لها في أي مكان آخر في العالم ولا حتى في نيويورك أو باريس أو روما. تعبت من السفر والتنقل واشتاقت للمسارح وحفلات موسيقى البوب والمعارض الفنية والحانات الإنكليزية الفريدة.

قالت إنها ستبقى في لندن وتعمل لتجمع مزيداً من المال لتضيفه للأموال الكثيرة التي جنتها من عملها في الخارج. أرادته أن يستنتج من حديثها أنها امرأة ليست في حاجة لمعونة مادية من الرجال؛ العكس هو الصحيح، ربما الرجال هم من سيحتاجون لمعونة مادية منها. قالت إنها رأت أن الاستقرار في لندن لن يكتمل بدون الارتباط بعلاقة مع رجل يشاركها اهتماماتها ويمدها بالاستقرار الذي تنشده. سألته عن طموحاته وآماله المستقبلية.

أخبرها أنه أنجز معظم طموحاته الشخصية أو ما يقارب الثمانين بالمائة منها، وبما أنه أعزب، وقع في وحدة لا تطاق. لندن مدينة كبيرة يصعب فيها التعرف إلى الجنس الآخر بسبب ضيق الوقت والغربة. نصحه صديق له أن يتعرف إلى رفيقة والاستقرار معها.

شعرت بالسعادة مما سمعته منه ولم تحسّ بالذي في داخله من تعجل لإنهاء اللقاء بينهما.

خرجا ووعدها بمعاودة الاتصال. هذه التجربة هزت ثقته في مسألة التعرف إلى الجنس الآخر عن طريق الإعلانات الشخصية. بقي في داخله بصيص ضعيف من الأمل في العثور على ما يبحث عنه بهذه الطريقة. في اليوم التالي، اتصلت ساندرة عدة مرات وأرسلت له رسائل على هاتفه المحمول لكنه تجاهلها تماماً.

بعد التجربة الفاشلة، حدثت لقاءات عديدة بينه وبين نساء الإعلانات؛ أصبح لا يستطيع التوقف عن اللعبة الجديدة الغريبة رغم الفشل في تحقيق نتيجة تذكر. كان من عادته أن يستلقي على الأريكة في صالة الجلوس بجانب الهاتف وأكوام المجلات والجرائد، يتصفحها ويقرأ الإعلانات الشخصية للعديد من النساء. ذات يوم، جذبه إعلان وشد انتباهه من بين الإعلانات كلها. كلمات الإعلان تقول: فتاة غريبة عن لندن في العقد الثالث من عمرها طويلة الشعر بعينين سوداوين ترغب في التعرف إلى رجل ينشد الزواج والاستقرار، رجل يحول قلبه وبيته ملاذاً لفتاة أحلامه.

رد على الإعلان فوراً وبحماسة منقطعة النظير، وفي داخله صورة الفتاة الجميلة التي لم يرها بعد. لم يشك لحظة في جدية الفتاة ورغبتها في الزواج والاستقرار؛ كتبت في إعلانها أنها تتوقع الرد

من الجادين فقط ولا تود هدر الوقت والتلاعب. تصور أنها حسب وصفها تتحلى بجمال كجمال الممثلة العالمية المعروفة إليزابيث تايلور صاحبة الشعر الأسود الكثيف والعينين الخضراوين، وتخيل حياته مع فاتنة بعد خريف العمر والوحدة القاتلة. سينعم مع فتاته بجمال الحياة وسيتحدث للناس عن سعادته وسروره. بدأت صورة الفتاة الخيالية تقفز أمام عينيه وكأنها تعيش في واقعه بحق وحقيقة، وأشتدّ إصراره على التعرف إليها ولم يسمح لأي صورة سلبية بأن تتصدى لهذه الصورة الجميلة التي يحملها في خياله عن مستقبله معها. لم تدر بخلده خيبة الأمل المتكررة التي حدثت له مع نساء الإعلانات.

بعد الرد على الإعلان الذي قضى وقتاً طويلاً في كتابته، رمى بالرسالة في صندوق الرسائل وظل ينتظر لأيام طويلة وصول رسالة من صندوق بريد ٦٥٥٤ لكن الرد المرتقب لم يصله. بدأ يشعر بالضيق وخيبة الأمل، وعلّل عدم ردها على رسالته بسبب كثرة الرسائل التي تلقتها صاحبة الإعلان. قلق الانتظار دفعه للاتصال بسايمون وطلب نصيحته لخبرته في هذا المضمار. أراد استشارته في واقعة غرامية حدثت له في الحقيقة، وليس من خيبة أمل مجرد عدم تلقي الرد من إعلان لا يعرف صاحبته. لسوء الحظ، وجد سايمون في صحة متدهورة إثر عضة الكلب التي أصابته عند خروجهما من الحانة؛ أظهرت الفحوص أن الكلب مسعور والعضة سببت السعار لسايمون وهو على وشك الدخول إلى المستشفى لقطع قدمه حتى لا ينتشر السعر لبقية الجسم. لم يعد يستطيع المشي على رجله المصابة ولم يتمكن الأطباء من علاجها. على الرغم من مصيبته مع المرض، ضحك سايمون من هوس صديقه مع نساء الإعلانات والجري خلفهن دون كلل أو ملل.

قال سايمون: ليس باستطاعة الفرد عمل أي شي عند تأخر رد على إعلان سوى الصبر والانتظار. وإن لم يأت الرد بعد أسبوع، فعليه البحث من جديد والرد على إعلانات أخرى. في ذلك المساء زار سايمون ووجد صحته سيئة إلا أنه حاول التخفيف عنه بسرد بعض القصص عن مغامراته مع نساء الإعلانات.

رد ناجي على إعلانات والتقى بنساء كثيرات، لكن اللقاء الأخير كان في غاية الغرابة. كتبت فتاة الإعلان ما يلي: امرأة في العقد الرابع من العمر تقود سيارة رياضية من النوع السريع والفريد، وتملك ملهى كبيراً في منطقة الوست أند في لندن، ترغب في التعرف إلى شخص يستطيع مشاركتها في إدارة الملهى ويتمتع معها بما يجلبه الملهى من دخل عال ومن حياة رغدة تتيح فرصاً نادرة للسفر والسهر في أرقى النوادي الليلية والأكل في أفخم المطاعم العالمية. أدرك أن هذا النوع من النساء لا يناسبه، لكن لعدم نجاحه في العثور على ما يريد، فكر في دخول التجربة؛ فقد ينسجم مع امرأة من هذه الخلفية ويعيش حياة مختلفة عن الحياة التي جربها حتى الآن.

اتفقا على اللقاء في إحدى الحانات في شارع دوفر القريب من شارع بوند. في يوم اللقاء، وصل إلى الحانة ووجدها مليئة بالرواد من العاملين في المكاتب والدكاكين القريبة، وصلوا بعد يوم طويل من العمل وجاءوا لعلاج همومهم بكؤوس الخمر.

على غير العادة في المواعيد السابقة، اتفق هو وفتاته الجديدة على حمل مناديل صفراء لتسهيل التعارف وسط زحمة الرواد. اتجه إلى داخل الحانة وظهرت له السيدة صاحبة المنديل الأصفر بوضوح. كانت شرق آسيوية نحيفة بشرتها ناعمة وشعرها أملس طويل

وعيناها ملوّنتان بعدسات اصطناعية وملابسها غالية تحاكي آخر ابتكارات الموضة في شارع بوند. الفتاة ترتدي سروالاً أسود من الجلد وحذاء أحمر بكعب عال. اقترب منها وهو في لهفة للتعرف إليها. عندما رأته، صاحت: ناجي، أنا لوردس. تبين له حالاً أن في الأمر شيئاً غريباً، لكنه لم يعرف طبيعته. أشار لها بيده واقترب منها ومد يده لمصافحتها؛ أصابع يدها طويلة ورشيقة ومليئة بخواتم من الذهب الأبيض المطعّم بالماس.

بعد التعارف القصير، خطت إلى الأمام ومشى خلفها حتى استقرا في ركن من الحانة قليل الازدحام. أشارت له بالجلوس كأنها تعرف المكان معرفة جيدة، وكأنها معتادة على هذا النوع من اللقاءات. سألته أي مشروب يريد. قال: أريد مياهاً غازية.

قالت: هذا لا يسمى شراباً؛ هذا مجرد لهو. أرجوك أطلب شيئاً آخر.

قال: لا أريد تكليفك.

قالت: أنت اليوم ضيفي وأنا أنحدر من مجتمع يقدر الكرم.

قال: إذن سكوتش مع الصودا.

تركته واتجهت لتأتي بالطلب. بقي في حيرة من اللغز الذي يجري أمامه. الشيء الغريب هو أنها لم توضح في إعلانها الأصل الذي تنحدر منه. لقد سبق له أن تعرف إلى فتاة يابانية من الإعلانات والتقيا عدة مرات إلا أن عملها اضطرها للرحيل إلى طوكيو وكانت نهاية العلاقة بينهما. تلك الفتاة أفصحت في إعلانها عن أصلها، أما لوردس فلم تفعل ذلك. عادت وقدمت له ما طلب وبدأ الحديث.

قالت إنها تايلاندية الأصل، أتت برفقة زوجها وهو تاجر إنكليزي قابلها أثناء زيارته لتايلاند. وبمجرد وصولها معه إلى لندن، اكتشفت أنه متزوج وله أولاد. علمت زوجته بخبر زواجه وهددتها بالقتل إن لم تتركه. وبعد صراع طويل، تركته وذهبت للإقامة مع إحدى صديقاتها. في نهاية الأمر، تمكنت من مقاضاته وطلبت منه تعويضات مالية كبيرة مقابل المتاعب التي سببها كذبه؛ حصلت على ما يقارب نصف ثروته. منذ ذلك الوقت، لا تعرف أي شيء عنه. هذا الحدث شجعها على تغيير مجرى حياتها.

وبينما تحكي له قصتها، تبين له غرابة صوتها فهو مبحوح وكأن حبالها الصوتية ضُغطت بفعل فاعل. تكلمت ولم تدع له فرصة للكلام وفشلت محاولته في طرح بعض الأسئلة عليها. بعد الجلوس معها وتناول المشروب، استنتج أن لوردس في الحقيقة رجل غيّر جنسه ليصبح امرأة. أذهلته الحقيقة إلا أنه لم يقل شيئاً ولم يتطرق للموضوع. دعاها تتحدث وتواصل ثرثرتها حتى عادت في حديثها إلى زوجها ومقابلته لها في تايلاند

قالت: في العاصمة التايلاندية بانكوك، عملت في ناد ليلي بسبب فقر الأسرة المدقع. أسرتها تعيش على قارب عائم في مكان يدعى «السوق العائم» حيث السياح يأتون لشراء التحف المحلية ورؤية الزوارق العائمة في عرض النهر. في يوم، وأثناء ذهابها إلى السوق في قلب العاصمة، هربت لرغبتها في تغيير مجرى حياتها الرتيبة وقررت اللحاق بالحياة التي تراها مرتسمة على وجوه السياح والزوار الأجانب. عملت مضيفة في بار يرتاده السياح الأجانب وهناك تعرفت إلى الرجل البريطاني الذي كان في زيارة تجارية إلى بانكوك؛ بدأت علاقة غرامية بينهما حتى تزوجها وأحضرها إلى

لندن قبل أن تعرف الكثير عن خلفياته. كل ما عرفت عنه أنه رجل ميسور الحال وسيقدم لها حياة رغدة تختلف عن الحياة التي تعيشها في وسط بائس ومزدحم. الآن وبعد معاناتها بصفتها فتاة غريبة عن الوسط اللندني، تمكنت من حل مشاكلها وصار كل ما تطمح إليه يتمثل في الرفاهية واستثمار المال الذي جنته من طلاقها.

بعد الشرح الطويل، اعتذرت للذهاب إلى دورة المياه. في ذلك الأثناء، هرب من المكان قبل عودتها. وعاهد نفسه ألا يقدم مرة أخرى على الرد على الإعلانات الشخصية أو التعرف إلى النساء بهذه الطريقة؛ ما شاهده اليوم كان درساً مفيداً لقّنته له لوردس خصوصاً أنه اكتشف بعد ذلك اختفاء محفظته بكل ما فيها من نقود وبطاقات وغيره وشكّ أن لوردس هي التي سحبتها من جيبه بطريقة خفية. بانت خيبة أمله وأحرج أمام نفسه؛ ضحك ولعن سايمون الذي قدم له النصيحة الضارة. هروبه حدث طريف وسيحكيه لسايمون في أول فرصة يقابله.

نسي أمر الرد الذي ينتظره من صندوق البريد رقم ٦٥٥٤ نهائياً، فقد مرت أسابيع ولم يصله أي خبر. تصور أن صاحبة الإعلان وصلها ما يكفيها من الردود وربما عثرت على من تبحث عنه. هذا شأن الإعلانات، فيها مرارة ولا ضمان من ورائها لأنها ليست سوى لعبة يلعبها الناس ويجب ألا تؤخذ على محمل الجد.

ذات صباح، استيقظ ورأسه مثقل من سموم الكحول التي أفرط في تعاطيه الليلة الماضية. وجد على الأرض أمام الباب رسالة، تناولها ليقرأ ما كتب على الظرف، لعلها رسالة لجاره دفعها ساعي البريد من فتحة بابه بدلاً من باب جاره. هذه الأيام لا تصله رسائل. الاسم والعنوان على الرسالة مكتوبان بخط اليد على رغم

قلة الرسائل المكتوبة باليد في هذه الأيام. في الماضي، كانت تصله رسائل من أبويه وبعض الأصدقاء؛ مثل تلك الرسائل نضبت بسبب الاختراعات الإلكترونية السريعة. بعد فقدانه لعمله، تبخرت صداقات كثيرة كانت تربط بينه وبين أصدقاء ومعارف من السياسيين والصحافيين والأكاديميين. في أعياد الميلاد، كانت تصله بطاقات معايدة فوق المائتين، وبعد فصله من العمل تبخرت الرسائل في لمح البصر وكأن وزنه الاجتماعي والفكري والثقافي قد خف وأصبح إنساناً لا فائدة ترجى منه.

الخط الذي تم اختياره لكتابة العنوان خط غريب. حمل الرسالة واتجه إلى المطبخ. فجأة انتبه لنقطة مهمة: علها تكون الرسالة المنتظرة من صندوق ٦٥٥٤ كي تحرره من قبضة الانتظار القوية التي رافقته الأسابيع المنصرمة. فتح المذياع فانساب صوت جون همفري مقدم برنامج اسمه «هذا الصباح». جلس في استرخاء ويداه تقلبان الرسالة وعيناه تقرآن ما كتب على الظرف، الحرف تلو الحرف. نهض وفتح أحد الأدراج وتناول سكيناً صغيرةً، وبيدين مرتجفتين فتح الرسالة.

وخرجت من الرسالة صورة صغيرة لفتاة في العقد الثالث من عمرها، جميلة الشكل فاتنة العينين، ظللت أجفانها بطبقه خفيفة من ظل العين الأخضر. على وجه الفتاة ابتسامة تختلط بجمال فريد وحزن دفين. نظر إلى الصورة بتمعن ووضعها على الطاولة بحذر وكأنه خائف أن يصيبها أذى من بصمات أصابعه. ترك الصورة بجانبه وشرع في قراءة الرسالة المكتوبة بحبر أخضر على ورق أزرق شفاف من طراز الأوراق القديمة غير المستعمل في هذه الأيام.

الفتاة صاحبة الرسالة تدعى شنيد والرسالة سطورها قليلة ومعها أرفقت كاتبتها رقم هاتفها وطلبت منه الاتصال عليها بدلاً من الرد كتابة. ظل في مكانه وهو لا يصدق أن الرد المنتظر قد وصل أخيراً. الفتاة من دون شك تتمتع بجمال مفرط وأخاذ؛ تمنى أن تكون هذه الفتاة بين لحظة وأخرى في أحضانه ليمارس معها الحب في المطبخ حيث هو الآن. تمنى أن يفعل ذلك من دون خوف أو تردد بل أمام نافذة مفتوحة مقابل المبنى القديم الذي تعمل فيه أعداد غفيرة من العمال. ليشاهدهما الجميع وهما في حالة من النشوة الملتهبة والحب الناري الذي لا ينتهي. وبعد ممارسة الحب، سيتوسل إليها أن تدخل الاستقرار لروحه التي عانت من نزق الحياة ومتاعبها، وسيطلب منها أن تكون اليد التي ستقوده للهدوء بعد الأعاصير التي عصفت بنفسه. أدخل الصورة في الظرف ووضع الرسالة على الطاولة ونهض ليراجع بعض الأوراق التي كان قد كتبها وأعدّها للنشر.

وعند الساعة الواحدة بالضبط طلب الرقم ٠٢٠٧٤٣٩٨٨٠٢ وردّ عليه صوت رقيق عذب انساب من خلال الأسلاك إلى أذنه بسهولة. صوتها مهذب وكأن هرولة الزمان لا تعنيه بشيء.

قال: أنا ناجي، أرد على إعلانك في صحيفة «الغارديان». أتاني ردك اليوم مرفقاً برقم هاتفك.

قالت: صدقني إن قلت إني نسيت أمر الإعلان تماماً؛ تأخرت في الرد على الجميع. وضعت الإعلان من باب التسلية والمراهنة بيني وبين صديقتي كارولاين. لا أتذكر الكثير مما ورد في إعلاني وردّي؛ ذكرني ببعض ما جاء في رسالتي.

سمعها تضحك فضحك هو وقال: لن أخبرك، فرسالتك الآن في ملكيتي ومضمونها يخصني. ماذا تقولين عن عنادي الشديد؟

قالت: أنت محق، ما دامت الرسالة في ملكيتك، معك الحق في التمنع عن البوح بمضمونها. أما ما أتى في ردك على إعلاني، فقد تذكرت الآن؛ كنتَ مقنعاً للغاية في ما قلت، وكتبت ردك بمقدرة كبيرة. هذا يعني أنك رددت على إعلانات كثيرة. ما الذي جذبك لإعلاني وحفزك للرد عليه على الرغم من أني طلبت الزواج شرطاً مسبقاً؟ ربما حقيقة أني أطلب الاستقرار هي التي جذبتك لإعلاني من بين الإعلانات الأخرى. هل تصدق وأنا أكتب الإعلان قلت ربما توضيح الزواج سيبعد كثيراً من الراغبين في التعرف إلي؛ الظاهر أن العكس هو الصحيح. لقد تسلمت أكثر من مائة رد على إعلاني وهذا يعكس حالة الغربة التي عند سكان المدن الكبيرة من أمثالنا.

قال: أنت محقة في ما تقولين، كلمة (استقرار) هي التي جذبت الناس لإعلانك. بالنسبة لي كلمة (استقرار) هي التي أغرتني بالرد لأني أنا الآخر أبحث عن الاستقرار بعد مسيرة طويلة في العمل والعزلة داخل مدينه لندن التي يصعب فيها لقاء الراغبين في التعارف. لكن لا أظن أنه صعب على فتاة في مقتبل العمر وبمواصفاتك، التعرف إلى الجنس الآخر.

قالت: صحيح أني ما زلت في مقتبل العمر كما تفضلت، لكن صدقني أنا تعبت من العودة إلى شقة خاوية في نهاية يوم عمل طويل.

قال: لماذا أنا وأنت نشرح هذه التفاصيل لبعضنا على الهاتف

ونحن نعيش في المدينة ذاتها، إن لم نكن في الحارة ذاتها؟ باستطاعتنا أن نلتقي فوراً؛ هل يصعب عليك مقابلتي الآن؟

قالت بتردد: هل هذه هي نصيحتك؟ دعني أفتح مذكرتي لأرى تاريخاً مناسباً للقائنا. ما رأيك أن نتقابل في الثلاثين من الشهر الجاري؟

قال: في ذلك اليوم لن أكون في لندن، سأذهب لإلقاء محاضرة.

قالت: وما رأيك في الخامس والعشرين منه، هل لديك ارتباط في ذلك اليوم؟

قال: كلا، دعينا نلتقي يوم الخامس والعشرين؛ أين سنلتقي؟

قالت: منطقة سوهو، ميدان سوهو على وجه التحديد.

قال: أليس هناك أماكن أخرى؟ ميدان سوهو يعج بالمارين ولن نستطيع التحدث بهدوء.

ضحكت وقالت: هل تخاف من سوهو؟ تذكّر أن ناسها بشر مثلنا.

قال: لا أخاف من سوهو لكن أريد مكاناً نظيفاً وليس مزدحماً بالناس ليل نهار.

قالت: إذاً اختر المكان الملائم وسأقابلك فيه.

قال: نلتقي في مكان قريب من محطة غرين بارك ومن هناك نقرر أين نذهب.

قال: أنا وأنت نضيّع كثيراً من الوقت في الكلام على الهاتف

وبإمكاننا اللقاء؛ لماذا لا نلتقي الآن؟ أنا وأنت نعيش في المدينة نفسها والمسافة التي تفصل بيننا ليست طويلة فما رأيك في عرضي هذا؟

قالت: ولكن...

قال: لن أقبل منك أي عذر؛ سأعطيك ساعتين لتجهزي نفسك وسأكون في انتظارك أمام محطة غرين بارك، لكن أطلب منك طلباً واحداً فقط.

قالت: ما هو؟

ضحك وقال: ألاّ تهربي إن لم يعجبك شكلي. بجانب مظهري الخارجي، أعدك هناك روحي الجميلة. أرجوك ابحثي عنها بين حطام الأيام وستعثرين عليها وقد تعجبك. لا تيأسي قد أصبح صديقك إن لم أصبح حبيبك.

قالت: أعدك لن أهرب؛ سأظهر مهما كان الأمر وتحت أي ظرف من الظروف.

قال: سنلتقي إذاً.

انتهت المكالمة واتفقا على اللقاء بعد ساعتين، إلا أنها عادت واتصلت به مرة أخرى وقالت: من الأفضل أن نلتقي في المساء عند السابعة والنصف؛ وافق على ذلك. وكان لديه إحساس قوي بأن هذا اللقاء سينجح على عكس اللقاءات السابقة، ربما بسبب التجاوب الذي شعر به وهو يتحدث إليها.

وبدأ يستعدّ للقاء شنيد. أراد أن يظهر بمظهر شبابي لائق. ذهب

إلى الحمام ليحلق ويستحمّ. في وقفته أمام المرآة، أخذ يدقق في وجهه وكأنه يراه للمرة الأولى؛ طلب منه ألاّ يخذله في هذا اليوم بالذات. ظهرت له علامات العمر واضحة مثل بروز الأنف وذبول الشفتين وترهل العينين وتضخّم البطن. شعر بأن فكره لم يذبل وأنه يتمتع بثقافة واسعة وحب للعلم والمعرفة.

وأشاح بوجهه عن المرآة وتقدم إلى حوض الحمام وألقى بجسده فيه. لم يعد جسده ممشوقاً كما كان في السابق. ظل مستلقياً في الماء الفاتر وصور الماضي تتراقص أمام عينيه. قال في داخله: لقد فقدت حيويتي ولياقتي البدنية. وندم على الحال التي وصل إليها من ترهل غير مرغوب فيه. خاف من نفور شنيد منه إن لم يرتق إلى المواصفات التي تريدها في رجل المستقبل، لا سيما أنها صبيّة فائقة الجمال. وسأل نفسه: لماذا فتاة جميلة مثلها تضع إعلاناً في صحيفة يومية رغبة في التعرف إلى رجل؟ وفي نهاية الأمر عجز عن الوصول إلى تحليل مقنع عن الذي دفع شنيد للإعلان عن نفسها.

وقال في داخله: ربما واقعها أبعد بكثير مما يرسمه لها في خياله. شنيد فتاة عصرية تعيش في مدينة كبيرة يصعب فيها التعرف إلى شخص لإقامة علاقة قوية وثابتة. واتجه إلى حجرة النوم وضبط منّبه الساعة ليوقظه عند السادسة. بعد استيقاظه، بدأ في اختيار بدلة مناسبة من بين ملابسه القديمة، وبعضها عائد إلى أيام دراسته في الجامعة. هو رجل لا يحب التخلص من الأشياء القديمة مثل الأوراق القديمة التي تراكمت على أرضية الشقة والملابس التي سيطرت على الخزائن. حاول انتقاء طقم ملابس متكامل يتكون من بدلة وسروال وربطة عنق وحذاء وجوارب، إلا أنه فشل لأن

الخزانة في حالة من الفوضى الضاربة. شعر بالضيق من رائحة الملابس القديمة والتبغ والكحول والعرق.

أخيراً، عثر على سترة خضراء بلون العشب اشتراها من ميامي في الولايات المتحدة في عطلة صيفية منذ أكثر من عشرين عاماً، قليلاً ما يلبسها لأنها تظهره بمظهر الأجانب والسياح. رغم تردده، قرر ارتداء السترة وبقي عليه العثور على بنطال يناسب لونها. أخذت عيناه تدوران بين الملابس المتكدسة وبدأ يبعثرها حتى أصابه الإعياء وجلس على حافة السرير. فكر في البحث عن ربطة عنق من العمود الحديدي الذي علقت عليه أعداد كبيرة من ربطات العنق. انتقى ربطة عنق حريرية اشتراها من أحد الباعة المتجولين في أواخر الثمانينيات؛ سحبها ورماها على السرير. وبدأ يبحث عن قميص، ثم تعب وخاف من عدم القدرة على الوصول إلى الموعد في الوقت المحدد. بدأ العرق يغطي جسده من شده الإرهاق واتجه مرة أخرى ليغتسل.

بعد صراع طويل مع ملابسه، انتهى من الاستعداد للّقاء وخرج مهرولاً من الشقة. في الشارع رأى الليل البهيم والعالم السريع وزحمة الناس. أشار إلى سيارة أجرة ودخل فيها وأعطى العنوان للسائق. ظلّ صامتاً مثلما فعل السائق. انحدرت السيارة إلى شارع برومتون.

وقال السائق: الغريب هو أنك إذا أردت الزبائن فلا تجدهم، وإذا أرادوك فلا يجدونك.

لم يرغب في الحديث لكنه قال: مشكلة سيارات الأجرة أن تقلّ في الأوقات التي تكون حاجة المسافر لها في ذروتها كساعات

الصباح والمساء. أما خارج هذه الأوقات فتكون كثيرة.

لم يزد السائق في كلامه، فطْنته دلته على عدم رغبة زبونه في الدردشة. وصل إلى محطة غرين بارك ووجد شنيد قد سبقته إلى المكان. بدت له كما في الصورة بقامتها الطويلة وخصرها النحيل وشعرها الأسود الطويل. مد لها يده وصافحها بينما ابتسمت له بلطف ورقة. لم تكن مرتبكة كما توقع. إحساس جميل متبادل. مشيا إلى أن توغّلا في شوارع حارة ماي فير حين توقف والتفت إليها وقال: إلى أين نحن متجهان؟ لقد وصلنا إلى أماكن لا نعرفها وسنضيّع الطريق. دعينا نتشاور، أم أنك تريدين الذهاب إلى حانة أو مقهى معين؟

قالت: دعنا نذهب إلى مقهى يقع في الطرف الآخر من هذا الشارع، المقهى يدعى ريشو. هل سبق أن ذهبت إليه؟

قال: مرة واحدة فقط وذلك من زمان طويل. كنت أنوي الذهاب إلى أميركا وذهبت للحصول على تأشيرة سفر من السفارة الأميركية التي لا تبعد كثيراً عن مقهى ريشو؛ دعينا نذهب إليه.

واصلا المشي حتى مقهى ومطعم ريشو الشهير بطرازه المعماري الذي يحاكي هندسة مطاعم ومقاهي باريس القديمة. يقع المقهى في حارة عرفت بمبانيها العريقة التي تدعو الفرد إلى معرفة ما يدور خلف ستائرها المخملية. دخلا الصالة العريقة ذات السجاد السميك والثريات النفيسة والطاولات الرخامية. استقبلتهما مضيفة المقهى بابتسامة رزينة وقادتهما إلى طاولة منزوية وأرسلت النادل لأخذ طلباتهما. بعد فترة وجيزة، شعر بحرارة تضرب وجهه وتصعد إلى رأسه؛ أدرك أنه في حالة توتر رغم الانسجام الذي أحسّ به مع

رفيقته الجديدة. كان خائفاً من الجلوس أمامها حيث تتمكن من رؤيته عن كثب وتتمعن في شكله، وقد ترى شيئاً في وجهه لا يعجبها وتندم على اللقاء. هذا اللقاء مهم خاصة أن الإعلانات السابقة فشلت جميعها وهو لا يريد شيئاً يقف حائلاً بينه وبين النجاح.

حاول التركيز على ما هو فيه فتناول يدها وقال: شنيد، يا رب كم أنت جميلة؛ الظاهر أني لا أستحق التعرف إليك.

ردت عليه بخجل قائلة: هل تتصور أني جميلة؟ لا أظن أني كذلك، لست سوى فتاة عادية وجمالي عادي.

قال: تمنيت لو حجزت المطعم هذا المساء لنا بمفردنا أو أفضل من ذلك: لو حجزت الحارة كلها لنقضي الوقت فيها كما يحلو لنا.

ضحكت وقالت: لكن ما الذي سنفعله بمكان كبير مثل هذه الحارة، وهل أستحق حارة بأكملها؟ إنك تريد تقديم مسرحية رومانسية نقوم بأدوارها نحن الاثنين أمام الليل ورواده. لعلمك، أنا بارعة في التمثيل وقد نشأت عليه منذ صغري. ألم أذكر ذلك في إعلاني؟ بعثتني أمي لدراسة التمثيل والرقص والغناء في مدرسة متخصصة منذ عمر مبكر. كان الأمل هو عندما أكبر وأنتهي من الدراسة الثانوية، أن أنزح إلى لندن للتخصص في دراسة المسرح والتمثيل ومن ثم العمل في هذين النطاقين المفضلين. لكن للأسف لم يكن لي حظ في ذلك، فعملت في حرفة أخرى لا بريق فيها.

ابتسم لها بتعاطف وقال: لو حجزت الحارة فسيكون شيئاً جميلاً، وقد نمثل ونرقص ونمشي في نزهة على الأرصفة ونعمل الكثير.

والتقط يدها وضغط عليها برفق ورفعها إلى شفتيه المتقدتين بلهيب النشوة واللذة. لا يزال غير مصدق رؤية شنيد؛ هي أجمل النساء اللواتي قابلهن في حياته على الإطلاق. خاف ألا تجده مناسباً لها من حيث العمر والشكل، فهو يكبرها بسنوات عديدة والأمور فيما بينهما ما زالت في بدايتها. غالَب الظنون وحاول إخفاءها من على قسمات وجهه.

قال: دعيني أسألك سؤالاً روتينياً وأظن أني سألتك إياه هذا الصباح عندما تحدثنا على الهاتف؛ ما الذي دعاك لكتابة إعلان في الجريدة وأنت بهذا القدر من الجمال وباستطاعتك إيقاف حركة السير بنظرة من عينيك الجميلتين؟ أي رجل منيته أن تكون بجانبه فتاة رائعة مثلك. ومال إليها واحتضنها بقوة فشعرت بحرارة جسده تسري إلى جسدها قال: ما عليك سوى أن تشيري بإصبعك فتجدي رجال الكون كلهم رهن إشارتك.

قالت: أنا الأخرى أستطيع طرح السؤال ذاته عليك، لماذا رددت على إعلاني، ولماذا تردّ على الإعلانات الشخصية؟ أظن أنك رددت على إعلانات أخرى كثيرة بجانب ردك على إعلاني.

في تلك اللحظة، أتت المضيفة بطلبهما ورفع كأسه ورفعت كأسها ليشربا نخب لقائهما. وقالت: ناجي، دعني أرد على سؤالك. قصتي طويلة وليس هناك متسع هذا المساء لأحكي وقائعها بالتفصيل. لقاؤنا بهذه السرعة يشير إلى ارتياحنا المتبادل ورغبتنا في مواصلة التعارف، لذلك يجب علينا تبادل البوح بشأن خصوصيات حياتنا ولو القليل منها. سأحكي مقتطفات من واقع حياتي، فحياتي ليست عادية وهذا ما عليك فهمه منذ البداية.

شعر بالراحة لأنها نطقت اسمه لأول مرة وقال: على الرغم من ضيق الوقت، أرجع أن تحدثيني عن حياتك.

قالت: أنا فتاة أنحدر من مدينة مارجيت لا من لندن كما تظن أو كما يوحي شكلي. أيام طفولتي لم أعشق شيئاً أكثر من عشقي للبحر؛ في الصيف كنت أهرب مع صديقاتي إلى شاطئ البحر للسباحة والاختلاط بالمصطافين القادمين من أماكن بعيدة ومتفرقة في بريطانيا وخارجها. تلك أجمل أيام عمري؛ كنت أنطلق بحرية على الساحل غير مكترثة بهموم الدنيا. اعتقدت أن الأيام لن تدول ولن يتوارى جمالها وستكبر معي وسأظل في حريتي وانطلاقتي حافية القدمين، أتمتع مع صديقاتي لورا ولوسي ولاوري. أقسمنا أن نبقى في أطقم السباحة حتى بعد أن يتقدم بنا العمر، وألا نقص شعورنا الطويلة ونحتفظ بجمالنا ورشاقة أبداننا. نظن أن الأيام ستكبر من حولنا أما نحن فسنظل في أوج الشباب والحيوية والحرية.

وقالت: للأسف الشديد تبدد الحلم واندثر مع غروب الشمس ولم يبق منه أثر. هجرنا المكان ونزحنا إلى لندن كما يفعل الغرباء والمهاجرون الذين يزحفون إلى لندن بكثافة من بقاع العالم المختلفة، منجذبين بإغرائها ورونقها وفرص النجاح فيها. توجهنا إلى لندن والأمل يحدونا في تحقيق أحلامنا الكبيرة. وفي لندن صرنا، كباقي المهاجرين، ندور في الشوارع ونبحث عن وسيلة توصلنا إلى الحلم الذي ننشده.

في مارجيت كانت والدتي تملك دكاناً صغيراً لبيع الصوف المستخدم في الحياكة والستائر وأغطية الطاولات والملايات. أما والدي فكان مهووساً بالمراكب اليدوية المصنوعة من الخشب إلى درجة أنه حوّل حديقة بيتنا ومرأب السيارة إلى ورشة خاصة

بمراكبه؛ يقضي الليل والنهار في صناعة المراكب وتصليحها. فقد الاهتمام بما يدور حوله وتجاهلني أنا وأخي شون، وجرت صدامات مستمرة بينه وبين أمي. بدأت أمي تدبر حياتنا وأخذ أبي في الانزواء حتى أصبح لا وجود له في البيت. ضعف جسمه ونظره من الإرهاق وعدم الانتظام في الأكل والاهتمام بصحته؛ قبع أبي في الورشة بينما تصول أمي وتجول في البيت حتى حذفت أبي من حياتنا.

وأضافت شنيد: ودفاعاً عن أبي يجب أن أخبرك أنه لم يكن هكذا في السابق؛ كان على العكس من ذلك. في أول أيام تعرفه إلى أمي كان فتى مثابراً طموحاً. بعد حب ربط بينه وبين أمي تزوجا؛ أمي كانت تدرس في المعهد الملكي للخياطة في منطقه بترسي في لندن. قاست الكثير عند نزوحها إلى لندن من أيرلندا ثم عثرت على عمل عند سيدة إنكليزية تبلغ من العمر تسعين سنة، تسكن بمفردها في بيت كبير في حارة فيكتوريا. السيدة كان لديها قليل من المعارف والأقارب ممن يترددون عليها؛ انضمت أمي لطاقم خدمتها ومعاونتها في احتياجاتها ومساعدتها في تناول أدويتها المقررة على مدار الساعة. أمي تنحدر من أسرة فقيرة تتكون من عشرة أولاد، وكعادة الأسر الإيرلندية، بعثوها وأخواتها الثلاث ماري وجوزفين وكاثرين إلى لندن لكسب ما يستطعن من رزق.

وأضافت قائلة: السيدة الإنكليزية استلطفت أمي واعتمدت عليها في كل صغيرة وكبيرة. وبعد مدة وجيزة من انخراط أمي في العمل، توفيت السيدة وتركت لأمي مبلغاً من المال لا بأس به، بعثت بجزء منه لأسرتها والبعض الآخر ادخرته ودفعت الرسوم لمعهد الخياطة. أبي عمل في أشهر وأقدم مطعم إيطالي في لندن

يدعى «الشوكة الذهبية» يقع في حارة تشيلسي. كان يطمح في جمع ما يستطيع جمعه من مال ليعود مع أمي إلى بلده الذي لم يفارقه حبها وحنينه إليه ولأهله وظل يرافقه طول السنين. أراد البدء في حياة جديدة بعيدة عن ضوضاء المدينة، في أرضه وبين ناسه وقومه؛ فكر في فتح مطعم في شارع مرموق يقدم أكلات إنكليزية متميزة. وكانت أمي تداعبه بقولها: ما هي الأطعمة التي ستقدمها لزبائنك في هذا المطعم وتدعي أنها أكلات إنكليزية؟ هل هي السمك والبطاطس، الأكلة الإنكليزية الشعبية، أم المعكرونة بالجبنة الإيطالية أم اللحم المشوي وهي أكلة شرقية؟

ومضت شنيد قائلة: أبي كان مصراً على تحقيق طموحاته إلا أنه أخفق بمجرد انتقال المطعم الذي عمل فيه إلى منطقه مارجيت البحرية في مقاطعة كنت. وبعد تفكير طويل، قرر أبي وأمي الانتقال إلى مارجيت لحاجة أبي الملحة للعمل. وتمكنت أمي من شراء دكان بيع الصوف والستائر والملايات. نجح الدكان بسبب شخصية أمي وتدبيرها وفطنتها، وزاد دخل الأسرة وتمكنت أمي من مساعدة والدي في المعيشة. ثم وُلدنا أنا وأخي شون؛ شون يصغرني بعام واحد فقط. استمر أبي في مثابرته على العمل بنشاط وأمل العودة إلى بلده لم يخمد في داخله وكبر حتى استحوذ على تفكيره.

وقد اكتسب أبي هواية جديدة، هي حب مشاهدة المراكب التي تمخر عرض البحر. بدأ ينظر إليها من النافذة الكبيرة في المطعم المطل على البحر حتى صار يومه مرتبطاً بحركة السفن، يرصد تنقلاتها وذهابها وإيابها ويعدّ الأرقام المكتوبة عليها. أدمن مشاهدة المراكب العابرة، ينظر إليها أثناء تنقله بطلبات الزبائن من طعام

وشراب؛ أصابه ذهول في التفكير وتشويش في النظر. ذات يوم، أتى إلى المطعم رجل ضرير برفقة صبي لبيع مراكب خشبية يدوية الصنع متعددة الأحجام. مدير المطعم صد الرجل بخشونة وحاول طرده؛ والدي فرح لرؤية الرجل عندما عرف بالسلعة التي يبيعها وطلب منه الانتظار لرؤية المراكب. أراد أبي شراء أكبر مركب من بين مجموعة المراكب التي عند الرجل.

قال الرجل: أكبر مركب عندي حالياً لا يتعدى السنتيمترات؛ المراكب الكبيرة لا أنقلها معي لكبر أحجامها وهي تبقى في الورشة، التي لا تبعد عن المطعم كثيراً وتقع في الطرف الآخر من الحارة.

الرجل الضرير اقترح على أبي الذهاب معه للورشة وانتظره حتى نهاية دوامه في المطعم. وعندما رأى أبي القوارب الكثيرة التي تزحم المكان، أعجبته وسال لعابه للحصول عليها، وقرر شراء قوارب بكل ما ادخره من مال. وفعلاً اشترى أكبر مركب لدى الرجل ونقله إلى منزلنا، حيث وقعت مشاجرة حامية بين أمي وأبي بسبب المركب. اتهمت أمي أبي بالجنون وسألته: أين ستضع مركبك في بيتنا الصغير؟ رغم صراخ أمي، وضع أبي المركب في الحديقة، وفي اليوم التالي نزل مطر غزير فنقل أبي المركب، بمساعدة جيراننا إلى مرآب البيت.

المركب سبّب تغيراً كبيراً في مجرى حياة أبي وحياة الأسرة بأكملها. بدأ أبي يحل أجزاء المركب من دون كلل أو ملل. تركز عمله بالنهار؛ بعد أن اتضح له أن ساعات النهار ليست كافية لما يريد عمله من تعديلات على المركب، بدأ يسهر الليل في العمل. أمل أبي هو إصلاح المركب القديم وإعادته لسيرته الأولى حتى

يستطيع ركوبه والعودة إلى بلده ووطنه. مع مرور الأيام، استحوذ على تفكير أبي حلم العودة لوطنه ومسقط رأسه على ظهر المركب القديم المتهالك؛ نسي نفسه داخل القارب وتركيبه وخشبه وألوانه ومعداته، كما نسي حياته مع أمي ومعنا ومع محيطه. وتداخل الحلم بالواقع وأصبح كتلة تدور في رأسه من دون توقف إلى أن أهمل عمله في المطعم نهائياً وتركه بسبب القارب، بقي بجواره يغير في قطعه ويصبغه ويغير صبغه في اليوم أكثر من مرة. ووضع على دفة القارب علم بلده وأعلاماً أخرى عديدة مختلفة، عرفت فيما بعد أنها أعلام الأقطار العربية. سيبحر بالقارب ويدخل بلده وإن لم يسمح له بالدخول، يبحر للبلدان العربية المجاورة التي يحمل أعلامها على قاربه.

في هذا الأثناء، أخي وأنا عرفنا أن أبي لم يكن انكليزي الأصل بل أجنبي نازح من المشرق العربي. وهذه حقيقة لم نكن نعرفها لأن أمي أرادت إخفاءها. وكنت أشك في أصل والدي من حيث إنه كان يناديني باسم شمة وأخي باسم شامس وكنا نضحك من الأسماء الغريبة يطلقها علينا ولا نعرف معناها أو من أين أحضرها. كما كان أبي يطهو أطعمة غريبة لا تجيد أمي طهيها وكنا نظن أن هذه الأكلات إيطالية كالتي تقدم في المطعم الذي يعمل فيه. لم نكن نألف تلك الأكلات وأمي كانت تكرهها ولا تستسيغها إطلاقا. لقد عرفنا فيما بعد أنها أكلات من المشرق العربي.

أرادت أمي إخفاء أصل والدي لكي نتمكن من الاختلاط في المدرسة والمجتمع بسهولة ومن دون حاجة لتوضيح أصلنا الأجنبي؛ أعطتنا أسماء إيرلندية ترجع لأسرة والدتي، أنا وأخي ندعى شنيد وشون راين، وليس دولي مثل والدي الذي يدعى الياس دولي.

الاضطراب في البيت بدأ يضايقني لدرجة عدم استطاعتي تحمل المزيد، وشعرت بأني إن لم أخرج من محيطي وأغير حياتي، فسأصاب بمصيبة جسدية ونفسية. عندما أقارن حياتي بحياة صديقاتي، أجدهن يتمتعن بحياة أسرية متماسكة وسليمة. أتى يوم، فتحت الباب عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل ومشيت إلى محطة القطار على الرغم من معرفتي أن المحطة في ذلك الوقت تكون مغلقة. وصلت المحطة فوجدتها مغلقه وانتظرت بالخارج حتى فتحت أبوابها في الصباح. وصل أول قطار متجه إلى لندن وسافرت عليه وأنا شبه نائمة ولا أحس بمغبة عملي. وصل القطار للندن فخرجت منه وأنا لا أدري في أي اتجاه أسير. وبدأت أدرك المشكلة التي أوقعت نفسي فيها.

كنت منهكة القوى مشوشة الأفكار ومنفصلة عما يدور حولي. إني لا أعرف أحداً في لندن، لذلك شعرت بتوتر وتسمرت في مكاني ولم تقو رجلاي على المشي؛ لم استطع الخروج من المحطة وبقيت حيث كنت أدور في أرجاء المكان وكأني في نزهة مدرسية. هذا هو الهروب من مواجهة أيام جديدة في مكان جديد وغريب. ما فعلته هو التهور بعينه. أخذت أنظر إلى وجوه المسافرين وكأني سأرى عليها جواباً لمحنتي وضياعي ومستقبلي في لندن.

ما رأيته أدهشني للغاية لأنه مختلف عن مدينتي الصغيرة مارجيت. في لندن، المحطة ضخمة وأعداد الركاب كثيرة وصوت القطارات مخيف. أخذت أطوف على الدكاكين والمقاصف بالمحطة والجواب لمحنتي ما زال بعيداً عني. أعياني التجول فخرجت أمشي إلى اتجاه لا أعرفه حتى وصلت إلى ساحة متوسطة الحجم أمام إحدى الكنائس التي لم أعرف مكانتها في لندن. إنها كاتدرائية ويست

مينستر الكاثوليكية، ربما أهم كاتدرائية كاثوليكية في المدينة. وجلست على أحد المقاعد المتناثرة في الساحة أمام الكنيسة بديعة التصميم المكسوة بالهدوء. الذعر مرتسم على وجهي لخطورة هروبي إلى لندن؛ ما الذي ستفعله أمي عند معرفتها بحقيقة اختفائي؟ أبي لم يعد يعيش في عالم الأحياء فهو عائش في عالم المراكب والرحيل الذي يدبر له منذ سنين طويلة ولن يعير أمر اختفائي اهتماماً يذكر.

وانتبهت إلى أني لا أملك في جيبي سوى عشرين جنيهاً، حصلت عليها من الاعتناء بجارتنا العجوز. ماذا أفعل عندما انفقها؟ النهار يركض ويحملني للأمام من دون رحمة والليل يتبعه وحتما سيحل إن طال الزمن أو قصر، ولا حل لمشكلة وجودي في المدينة الغريبة الموحشة.

فجأة سمعت صوتاً بعيداً لموسيقى نحاسية تقترب مني تدريجياً، فنهضت لأتبيّن مصدرها. الموسيقى صادرة من فرقة جيش الإنقاذ الخيرية المشهورة، تعزف لجمع المال من المارين والمتسوقين لمشروعات خيرية عديدة. وقفت الفرقة في الساحة أمام الكنيسة حيث كنت أقف. بعد العزف، أسرعت للحديث مع أحد أفراد الفرقة وأخبرته بمحنتي وحاجتي الملحة لمأوى حتى لا أقضي الليل مشردة. قلت له إن ما يهم هو مأوى لليلة واحدة والليالي القادمة أتدبر أمري.

قال الرجل: لدينا سكن للغرباء والمشردين، خذي العنوان واذهبي إلى هناك أو انتظري حتى ننتهي من مهمتنا. فضّلت الانتظار وتبعت الفرقة في تنقلها أثناء النهار من مكان إلى مكان حتى أكملوا مهمتهم مع حلول الليل. وذهبت معهم إلى مقرهم الواقع في حارة أخرى تدعى حارة وترلو حيث قضيت الليلة في حجرة

جماعية مع ما لا يقل عن العشرين امرأة مشردة. وفي الصباح، استدعاني المدير لمكتبه وطلب مني شرح قصتي فأخبرته عن أمر هروبي من عائلتي. قال إن عملهم لا يتدخل في الأمور الشخصية للأفراد الذين يأتون لطلب المأوى؛ هروبي أمر خاص بي وكل ما عليهم هو مساعدتي حتى أجد مقراً مناسباً أستقر فيه. سألني ما الذي أستطيع القدرة على عمله وهل لدي مؤهلات أو حرفة؟

قلت وأنا أتلعثم: أستطيع بيع الصحف.

ظهرت على الرجل الدهشة وقال: سأناقش الأمر مع زملائي؛ انتظري في الصالة حتى تُطلب منك مقابلتي من جديد.

وبعد تشاور فيما بينهم، أرسلوني إلى محطة وترلو وطلبوا مني الذهاب إلى مكتب صغير يقع في الدور الثاني في مكان منزو في المحطة. المكتب متخصص في بيع الصحف تديره سيدة عجوز مع مجموعة صغيرة من الشباب. بعد تعليمات بسيطة عن طريقة بيع الصحف، أعطوني رزمة من الجرائد محشوة في حقيبة كبيرة وذهبت للمحطة وعرضت بضاعتي للمارين. وبدأت أشعر ببعض التوازن لأنه بات لدي مأوى أعود إليه في نهاية اليوم وعمل يجني لي بعض المال.

بعد أسبوع، بدأت أشعر بالحرية تعود لي من جديد وكأنني على ساحل مدينتي مارجيت أجري حافية القدمين مرسلة الشعر. تعرفت إلى وجوه المسافرين وهم يعبرون المحطة في الصباح والمساء وعرفت مواعيد القطارات حتى أن الركاب راحوا يسألوني عن هذه الرحلة وتلك وعن القطارات واتجاهاتها. ثم خطرت على بالي حرفة خياطة الملابس التي تعلمتها من أمي. عند عودتي للمأوى، تحدثت مع

المدير وطلبت منه مساعدتي في العثور على عمل في الخياطة. وعدني بأنه سيقوم بذلك في أقرب فرصة ممكنة. بعد أيام من حديثي مع المدير عن الخياطة، طلب مني الذهاب إلى مغسلة ملابس في مكان قريب من الحارة التي نسكن فيها. ذهبت وقابلت صاحبة المغسلة، سيدة تسمى أيرس وزوجها كرس. وضعاني تحت الاختبار في عمل الخياطة وتعديل الملابس ثم اتفقا معي على أجر معلوم.

وبدأت العمل على ماكينة قديمة وضعت لي أمام شباك المحل مباشرة، وبدأت مشكلتي مع الملابس المتسخة وروائحها النفاذة التي تهجم على الأنف مثل الجيش الجرار. أشم روائح بخار الكي المتصاعدة من خلف الدكان وأفتح الباب لتهوية المكان غير مكترثة بأصوات السيارات الآتية من الشارع والإزعاج الذي يسببه للعاملين بالمغسلة.

واصلت العمل في المغسلة حتى جاء يوم توقفت فيه أمام المحل سيارة فخمة من طراز بنتلي الإنكليزية الصنع، وخرج منها رجل عرفت من هيئته أنه سائق السيارة وليس صاحبها. نظر إليّ الرجل نظرة ثاقبة وكأنه يعرفني على الرغم من أني لا أعرفه. دفع الباب ودخل وتحدث مع أيرس ثم عاد إلى سيارته وأتى بأكياس ورقية تحمل أفخر العلامات التجارية في لندن. وضع الرجل الأكياس أمام أيرس وزوجها كرس؛ بعد تدوين أيرس لبعض المعلومات، طلب الرجل منها أن تأمرني بإحضار الملابس المعدلة للعنوان المدون أعلى البطاقة التي تركها لهم وخرج. الملابس لم تكن متسخة بل جديدة تركها صاحبها للتعديلات فقط. أنا وأيرس تندرنا على طرافة الطلب والأمر الذي جعل الرجل الغريب يطالب بإحضار الملابس وتحديدي لإحضارها له على عنوانه.

بعد الانتهاء من إجراء التعديلات على الملابس، أخذتها إلى بيت أصحابها كما طلب منا الرجل. البيت يقع في شارع ساوث ستريت القريب من شارع كروزن. عند وصولي إلى البيت، وجدت أمامه حارساً بلباسه الرسمي، استوقفني وسألني عن الغرض الذي أتيت من أجله. أخبرته بالهدف من زيارتي، فطلب مني الانتظار بينما اتجه هو إلى الداخل ليطلب لي إذناً بالدخول لتسليم الملابس. عاد وأفسح لي الطريق ودخلت. أول ما شاهدته أمامي هو درج عريض من الرخام الإيطالي الثمين وبيت يعج بالتحف القديمة والأضواء الذهبية والسجاجيد الغالية. بعد برهة قليلة من دخولي، أتت سيدة بملابس عمل رسمية، عرفت أنها مديرة البيت، وقادتني إلى الدرج العريض الذي أدى بنا لباب من الخشب المصقول. طرقت الباب مرتين وعند الثالثة أتى صوت من الداخل قائلاً: ادخلي.

وجدت نفسي في صالة جلوس واسعة أمام شاب فارع الطول وسيم مهذب بملابس تصميمها يجمع بين الحديث والقديم. ارتدى الشاب بدلة غامقة اللون وقميصاً غامقاً أيضاً وحذاء أسود مصنوعاً من جلد النعام. الشاب هادئ ومبتسم ولا تظهر عليه علامات التعالي رغم الرخاء الذي يعيش فيه. لم أتبين من لهجته شيئاً عن أصله لكنني أدركت أن له صفة أجنبية، ربما كان إيطالي الأصل بسبب لون بشرته التي تشبه الحنطة.

قال: مرحباً بك، ماذا تشربين؟ أنت الآن ضيفة عندنا.

لاحظت لطفه ومعاملته الرقيقة لي وأنا مجرد عاملة في محل غسيل وكيّ أتيت بملابسه وهو رجل يسبح وسط بذخ واسع. وقلت بأدب: لا وقت عندي لشرب أي شيء ولا بد أن أعود إلى

البيت؛ صديقتي في انتظاري كما اتفقنا أنا وهي هذا الصباح. مجيئي إلى هنا خارج أوقات العمل لأن مديرتي في العمل طلبت مني ذلك لكي لا نتأخر بإعادة ملابسك لأنك ستسافر غداً.

قال: لماذا هذه العجلة، لماذا لا تبقين لتناول العشاء معي؟ هذا وقت العشاء وتركت مكان عملك للتو ومن المحتمل أنك جائعة. سنذهب إلى مطعم «سكوت» القريب من هنا لتناول السمك، هل سمعتي بمطعم «سكوت» للمأكولات البحرية؟

قلت: كلا، أنا حديثة العهد بلندن كما أن ملابسي لا تليق بمكان راق كالمطعم الذي ذكرته. من الأفضل أن تقيس ملابسك لنرى إن كانت تحتاج لتعديلات إضافية كي أنجزها غداً.

قال: أرجوك، ابقي للعشاء أو تناول كأس شمبانيا.

أربكني إصراره بعض الشيء وفي نهاية الأمر رضخت لطلبه، فضغط على زر بجانب المنضدة الصغيرة فدخلت مدبرة البيت، المرأة التي قابلتني عند وصولي. قال: فيليسيا، كأس شمبانيا للآنسة شنيد من فضلك.

تركتنا فيليسيا بأدب واحترام وقبل خروجها من الباب سألته قائلة: سيدي، ألا تريد تجريب الملابس التي أحضرتها الآنسة شنيد؟

كنت في حيرة مما أرى أمامي ولكني لزمت الصمت. قال: فيليسيا، أرجوك دعي ذلك للغد أنا مرهق، لقد ترأست عدة اجتماعات ومن دون شك الآنسة شنيد متعبة بعد يوم طويل في العمل. أليس كذلك يا آنسة شنيد؟

تعجبت من مناداته لي بالآنسة، لقب لم أعرفه من قبل. قلت: أرجوك لا داعي للألقاب، نادني شنيد. أملي أن ترضى عن التعديلات التي أدخلتها على الملابس عند تجربتها، لقد حاولت قدر استطاعتي وأنا أدخل التعديلات على الملابس التحكم في القماش لأنه متميّز وغال. كنت خائفة أن أخفق في إدخال التعديلات بطريقة سليمة وأفشل في الوصول إلى مستوى تعديل يرضيك.

قال: لن أجرب الملابس الآن كما قلت، دعيني أستمتع بقليل من الراحة. فيليسيا!، أحضري لي كأساً من الجن وتونك.

خرجتْ وبقينا أنا وهو وسط المكان الغريب الذي لم أر مثله قط في حياتي. قال: في أي وقت تريدين العودة إلى البيت، سيأخذك سائقي لاري.

دخلت مدبرة المنزل بصينية مملوءة بالمكسرات ومناديل بيضاء صغيرة من الكتان الخالص. قلت: بيتك جميل، لم أر بيتاً مثله في حياتي.

قال: صحيح؟ هذا البيت جديد، اشتريته منذ سنتين من أحد رجال الأعمال الذين أتعامل معهم. قبل ذلك، كنت أعيش في باريس وآتي إلى لندن بين الحين والآخر، وأثناء بقائي كنت أسكن في الفنادق. التنقل أتعبني ومجيئي إلى لندن في الآونة الأخيرة زاد بعد تسلّمي إدارة أعمال أبي بعد وفاته العام الماضي. أصبحت شبه مقيم في لندن حيث أسست شركة جديدة تدير أعمالي وما خلفه أبي من تجارة وأعمال. سألتقي اليوم بشلة أصدقاء، لا تغيري رأيك في حضور العشاء معي حتى أعرفك بهم.

قلت: المشكلة أني لم أتأهب للخروج للعشاء فما زلت بملابس العمل التي لا تليق للذهاب للعشاء في أماكن متميزة كالمطعم الذي تريد الذهاب إليه. لهذا من المستحب أن نترك العشاء ليوم آخر.

قال: لستِ في حاجة لتغيير أي شيء لأنك كاملة ورائعة. لماذا تهتمين بالقشور الخارجية كالملابس وأنت تتمتعين بهذا الجمال الطاغي؟ لماذا لا تذهبين إلى حجرة الضيوف وتجهّزي نفسك كما تريدين، أدوات التجميل والعطور متوافرة هناك.

أدهشني ما سمعته منه وشكرته ثم قلت: تتكلم وكأن الأمر سهل وبسيط.

قال: طبعاً سهل، ما الصعوبة في أمر تجهيز نفسك في حجرة الضيوف التي خصصت لهذا الغرض؟ بعد ذلك نذهب للعشاء. للأسف أنت مصممة على الرفض، أكره ما في الوجود بالنسبة لي هو الرفض والممانعة. كيف لي حرمان جميلة مثلك يا شنيد من تهيئة نفسها للخروج بالطريقة التي تريدها؟ إن كنت مصرة على تغيير ملابسك بالعودة إلى بيتك، فسأطلب من سائقي لاري أخذك إلى هناك؟

تحت هذا الإصرار وافقت وقلت: بيتي يبعد من هنا كثيراً وأخاف أن أتأخر عليك.

قال: لا تدعي التأخير يقلقك فما زال في الليل متسع وأنا من عشاق الليل. انهضي ودعي لاري يأخذك إلى البيت لتعودي أجمل مما أنت عليه الآن وأروع امرأة رأتها عيناي.

قبل مغادرتي، أخذت عيناي تجولان في المكان الذي صرفت عليه أموال كثيرة ليظهر بمظهر لافت ومميّز. زواياه تفيض بذوق رجولي مثل صالونات الأفلام الكلاسيكية والنوادي الرجالية العريقة في لندن التي سمعت عنها من أيرس صاحبة المغسلة وهي تتحدث مع زوجها كرس. الستائر المخملية الخضراء تغطي النوافذ فتجعل المكان أشبه بالمسارح الشكسبيرية، والزهور وضعت بطريقة منسقة في أرجاء الحجرة. في داخلي، أخذت أخمّس الأموال التي أنفقت على المكان.

قال: أين أنت، وإلى أي شوط وصلت؟ هل نسيت موعد العشاء؟ تحركي لأن لاري في انتظارك. سأسبقك إلى المطعم مع شلة أصدقائي، وهم مهذبون وسيعجبونك. وأملي أن تدوم الصداقة فيما بيننا وتكوني مرافقتي الخاصة في أمسيات العشاء والحفلات بصفة مستمرة. أعرف أماكن كثيرة في لندن ولا أظنك ذهبت لزيارتها من قبل. هل ذهبت إلى تريدا فكس في فندق الهلتون وإلى مطعم لاكبريس بجانب فندق الرتز؟

قلت: كلا، أنا جديدة على لندن وحياتها، وهذه أماكن غريبة ولم أسمع عنها. وصلت لندن منذ فترة وجيزة وأنا أنحدر من منطقة مارجيت؛ أتيت لأعيش وأكسب المال وأبتعد عن جو بيتنا الخانق.

قال: لقد سمعت قصصاً متكررة عن تفكك الروابط الأسرية في بريطانيا فما تقولينه ليس غريباً أو نادراً؛ لقد سمعت الكثير عن حالة الارتباك الأسري في المجتمع البريطاني.

ظننت أنه أميركي فقلت: وفي الولايات المتحدة أيضاً، تجد حالات كثيرة من التفكك الأسري.

قال: أظن الأمر في أميركا أشد من بريطانيا بكثير. شنيد، سنتحدث أنا وأنت في الأيام المقبلة كثيراً، اذهبي لتغيري ملابسك على شرط أن تعودي ولا تهربي بعد خروجك من هنا.

شعرت بنظراته تلاحقني وبدأت أشعر بالانسجام معه والجاذبية إليه. لا أعرف السبب، ربما لأنه على الرغم من البذخ الذي يعيش فيه، إنسان لطيف ودائم الابتسامة وغير متكلف.

أخذني السائق إلى شقتي الصغيرة التي تشاركني فيها فتاة أخرى تدعى كارولاين من اللواتي نزحن من منطقه مانشستر. عند وصولي البيت، أعدّت لنا كارولاين بعض الطعام وسألتني عن سر عودتي المتأخرة.

قلت: دعيني أخبرك عن الذي جرى لي اليوم وعن سبب تأخري ولن تصدقي ما سأرويه.

قالت: أخبريني أرجوك، لا أستطيع الصبر، هيا يا شنيد قولي.

قلت: دعيني أولاً أذهب إلى حجرتي لأغيّر ملابسي لأني سأخرج مرة أخرى.

قالت: ستخرجين مرة أخرى؟ إلى أين؟

قلت: سأخبرك بعد انتهائي من ارتداء ملابسي.

قالت وهي في تلهف لسماع قصتي: لن أدعك تتحركين من أمامي إلا بعد أن تروي لي السر المخفي عني.

قلت: إن كنت مصرة فتعالي معي إلى حجرتي؛ أنا أغير وأنت تستمعين لتفاصيل قصتي الجديدة.

قصصت عليها أحداث اليوم عن الملابس والرجل وبيته وسائقه، وعن العشاء الذي أنا على وشك تناوله معه ومع أصدقائه. نصحتني باليقظة لأن هذه لندن وليست مارجيت. وذكّرتني أنني لا أعرف الرجل.

السائق أرجعني إلى البيت فتذكّرت أن الرجل بانتظاري في المطعم لا في البيت، فطلبت من السائق الاتجاه إلى هناك. وجدته في المطعم وهو يرتدي إحدى البدل التي أدخلت عليها التعديلات، رمادية بخطوط زرقاء. وقبل أن يعرّفني بأصدقائه الذين كانوا معه، أشار إلى البدلة التي عليه وقال: هذا عمل ممتاز يا شنيد. أنت متأكدة من أنك مصلحة ملابس ولست خياطة محنكة، تعديل كهذا يدل على مهارة أكبر من مجرد مهنة التعديل. ضحكت وقلت في داخلي لو كنت أجيد الخياطة بالمهارة التي تقول عنها، لما قبعت في قعر المغسلة الهزيلة، ولكنتُ أدير بوتيكاً مهماً كالبوتيكات التي أراها في الشوارع التجارية المهمة في لندن. مجموعة أصدقائه من الرجال وفتيات على قدر عال من الفتنة والجمال، لا أعرف من هن ومن أين أحضروهن؟ شعرت ببعض الغيرة لكني طردتها من داخلي لأن ثقتي بجمالي وبنفسي عادت لي.

وهكذا انتهت شنيد من الشرح الطويل الذي قدمته لناجي. كان ناجي ينصت لها ولم يتدخل ويقاطعها. ثم التقط يدها وقال: شنيد، لست أنت التي اعترتك الغيرة عندما رأيت الفتيات في المطعم مع الرجل الغريب؛ الغيرة اعترتني أنا من مجرد سماعي لقصتك هذه.

قالت: فعلاً إنها قصة غريبة ولها أحداث أخرى طويلة سأحدثك

عنها في أيامنا المقبلة. الآن أهم من كل شيء هو وجودك بجانبي. لقد حكيت وثرثرت طويلاً ويمكن أن تسأم مني، لقد فعلت ذلك رغبة مني في انتزاع ما يضطرب في داخلي ولأعرفك عن نفسي. وانحدرت دمعة على خدها فسارع إلى مسحها. واستطردت قائلة: أحذرك من أنك ستبكي من بعض أحداث حياتي. لازما الصمت لبرهة قصيرة واقترب منها واحتضنها بحنان وطبع قبلة خفيفة على خدها وسألها إن كانت على استعداد لمغادرة المقهى إدراكاً منه من أنها متوترة بسبب ما قصته عليه عن وقائع حياتها. أومأت له بالموافقة وقادها من يدها وخرجا فيما ظلت يدها في يده؛ قطعا الشارع وهما في صمت. أدار وجهه تجاهها وقال: شنيد، لماذا لا تدعيني أختطفك وسط الليل والظلمة ونذهب إلى المتنزه العام القريب من هنا؟

قالت: وهل هناك متنزه عام؟

أشار بيده إلى اتجاه المتنزه المظلم وقال: نعم، ولو أنه صغير مقارنة بالحدائق الأخرى كالهايد بارك.

قالت وهي تضحك وتضغط على ذراعه: هل تصدق؟ على الرغم من عملي في لندن، لم أعرف بوجود هذا المتنزه. هل من الصواب مرافقة رجل غريب إلى داخل متنزه مظلم، رجل لا أعرفه، أقابله لأول مرة؟ أني خائفة يا ناجي.

قال ضاحكاً: إن حاولت افتراسك، فما عليك سوى الصراخ. في هذا المكان بالذات، أنت في أمان لأن رجال الشرطة موجودون بكثرة بسبب وجود مبنى ومقر السفارة الأميركية، هناك كاميرات موجهة على كل شوارع الحارة وعلى مدار الساعة وسيسارعون

لنجدتك في إذا تعرّضت لأي خطر.

أحاط كتفها بذراعه بعد أن أدرك أنها اطمأنت له ولم يعد يشعر بأي ارتباك يبدر منها. واصلا المشي في هدوء الليل وصمته. فجأة رفعت معصمها ونظرت إلى ساعتها وقالت: يا إلهي، الساعة الحادية عشرة؛ ماذا أفعل خارج البيت في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ يجب أن أعود للبيت فوراً.

قال: الحادية عشرة بالنسبة لليل لندن ليس وقتاً متأخراً. هذه مدينة تسهر حتى الصباح فلا تخافي من ليلها وسهرها. لماذا لا تتلذذين بشاعرية ليلها وسهرها؟ دعك من العودة المبكرة وانسي نفسك ولو في هذه الليلة فقط. أرجوك انسي أن للساعة عقارب ولليل أمداً وتحولي مثلي لشخص يسهر ويمتع نفسه بالساعات القادمة.

قالت: كلامك شاعري ومقنع، وبالفعل يجب أن أنسى نفسي ولو لليلة واحدة فقط لأن لحظات السعادة في الحياة معدودة.

واصلا المشي حتى وصلا باب المتنزه الصغير الذي يعنيه. وقال: لماذا تحبين التعرف إلى الغرباء؟

قالت: لأن في عيون الغرباء غموضاً يتمثل في عالم جديد لا يعرفه الإنسان ويحب اكتشافه. الغموض هو الذي يدفع بعض الناس تجاه الغرباء والوثوق بهم.

تساءل في داخله: هل باستطاعة شنيد طرد شبح الماضي من حياتها والتخلص من قلقها واضطراباتها؟ لو تحررت من قبضة الماضي فستنطلق وتشعر بالأمان؛ هو يدرك أهمية التخلص من رواسب الماضي للعيش في سكون الحاضر والمستقبل. شنيد حتى الآن لا

تعرف أي شي عن خبايا حياته وآلامها، وهذا مناسب في لقاء بين أناس يتعارفون على بعضهم عن طريق الإعلانات. هذا المساء ترك لها الوقت لتحدثه عن اضطراباتها وماضيها واكتفى بقول القليل. سألها قائلاً: هل أنت بخير؟

قالت: نعم أنا في راحة لم أتذوقها منذ زمن طويل وأملي أن تكون أنت مرتاحاً مثلي؟

قال: أنا في راحة معك يا شنيد ولا أكاد لا أصدق نجاح هذا اللقاء. وأنا في طريقي لمقابلتك كنت في خوف من أن تنفري مني ولا تعطيني فرصة لأبرهن كم أنا جاد في التعرف إليك والتقرب إليك، حتى ولو لم يعجبك شكلي.

قالت: أنا الأخرى كنت في الحال ذاتها، خائفة أن تنفر مني ولا أعجبك. الحمد لله أعجب كل منا بالآخر وهذا ما يهم.

قال وهو يبتسم: هناك سؤال آخر أريد طرحه عليك إلا أني محرج ومتردد.

قالت: ما هو؟ لا إحراج بين الأصدقاء؛ نحن أصبحنا صديقين حميمين وسنظل كذلك للأبد.

قال: ما رأيك لو تعود إلى بيتي؟ هناك سنجد هدوءاً أكثر وبيتي لا يبعد من هنا كثيراً إذ نصله مشياً على الأقدام.

قالت: فكرة جيدة، دعنا نذهب إلى بيتك، لم أعد خائفة منك، بل معك أشعر بالطمأنينة.

ضحك وقال: أنا كذلك لم أعد خائفاً منك؛ سأطلب منك حال

وصولنا البيت قبلة، فماذا تقولين؟

قالت: هل تريد تقبيلي؟ هيا قبلني الآن ولا مانع لدي.

قال: يجب أن ننتظر حتى نصل إلى البيت.

الطريق إلى بيته طويل. بدأت تشعر بالتعب واقترحت أخذ سيارة أجرة أو الحافلة لكنه أقنعها بمواصلة السير فالباقي من المسافة حتى يصلا ليس سوى القليل. عند وصولهما باب الشقة، سمعا أصواتاً آتية من الداخل. قالت: هل يسكن أحد معك؟ الظاهر أن أحداً يشاركك هذا المكان.

قال: كلا، إنني أسكن بمفردي.

قالت: لكن هناك أصوات.

فتح الباب واندفع إلى الداخل ليتبين مصدر الأصوات. ولدهشته كانت هناك أصوات آتيه من قاعة الجلوس. تركها واقفة عند الباب واتجه مسرعاً إلى الصالة حيث تبيّن أن الأصوات صادرة من التلفزيون الذي نسي إغلاقه قبل خروجه. عاد إليها وأخبرها بحقيقة مصدر الأصوات. ضمها إلى صدره بقوة وقال: لم أستطع فعل ذلك ونحن نمشي، فدعيني أقترب منك كي لا ننفصل عن بعض مدى العمر، هذه رغبتي وهذا ما أريد يا شنيد. وأخذت يده تتحسس خلف عنقها برقّة بينما هي في هدوء وعدم ممانعة. دعته يتمادى في مداعبته المثيرة وشعرت بشعور جميل وتساءلت عن مستقبل العلاقة التي تربطها بناجي. لا وقت للسؤال والجواب ولا يهم إن تقابلا عن طريق الإعلانات الشخصية أم غيرها؛ فما عليهما إلا العناق والتمتع باللذة التي تحيطهما من كل صوب وحدب.

رفع ذقنها إلى أعلى وقال: شنيد بجانب جمالك، هناك إغراؤك، وكما ترين لا أستطيع المقاومة فدعيني أقبلك كما اتفقنا؛ هل لي بذلك؟ أومأت له برأسها وأغمضت عينيها واستسلمت له، فطوقها بذراعيه بقوه واقترب بشفتيه من شفتيها المرتعشتين، وغابا في قبلة طويلة محمومة. ثم قادها من يدها لصالة الجلوس وانحنى مرة أخرى وقبلها من جديد وبدأت يداه تجول بخفة على كل قطعة من جسدها الشاب، حتى وصل إلى أزرار قميصها الأسود المشدود وبتأنّي بدأ يفك الزر تلو الآخر. ودفعها على الأريكة وهي في استسلام تام؛ أدرك أنه لن يستطيع التوقف عند هذا الحد فمد لها يده لتنهض. عندما نهضت، قادها إلى السرير في حجرة النوم وانغمسا في مداعبة مثيرة أنستهما الوجود ذاته.

وقال: شنيد، لن أستطيع تركك إلى يوم آخر؛ أريد الاستحواذ عليك الآن. أعرف أنني متسرع لكن أجد أني قريب منك للغاية كما لم أكن قريباً من أي امرأة أخرى في حياتي. أريد الدخول معك إلى الجنة التي لم نعد بعيدين عنها.

بعد هذا لم يسمعا أي صوت من حولهما ولم يشعرا بالوجود حتى آخر ساعات الصباح؛ استمتعا بلذة ملتهبة وجنونية. في الصباح، فتحت عينيها بصعوبة ونظرت إلى الساعة المعلقة أعلى الباب فلاحظت أن عقاربها تشير إلى الحادية عشرة. حاولت رفع رأسها لتبحث عن ملابسها المبعثرة على الأرض بجانب السرير لكنها فشلت؛ أحست برأسها ملتصقاً بالمخدة ولا تستطيع فصله عنها لذلك بقيت على السرير في خمول طعمه مثل طعم الشهد. وقالت بانزعاج واضح: لقد تأخرت. ثم فركت عينيها واستسلمت للنوم من جديد.

بدأت علاقتهما تأخذ بُعداً عميقاً وكأنهما أحبة قدامى أبعدت بينهما الأقدار لمدة من الزمن والآن يلتقيان بلهفة وشوق. ووضعا برامجاً تسير حياتهما على هديه ويناسبهما. شنيد تقضي مع ناجي ساعات النهار حيث تأتي عند الواحدة بعد الظهر وتبقى حتى الثامنة مساء وتتركه لتعود إلى عملها الليلي في المغسلة. ومع مرور الزمن، أصبح غيابها عن ناجي في الليل يسبب له الإزعاج والضجر، وسأل نفسه: كيف تكون عندها الرغبة في مواصلة العمل في الليل بدلاً من البقاء معه؟ لقد بدأ يسأم من وحدته وخلو ليله من دون شنيد التي أصبحت محور حياته وهو في هذا العمر المتقدم. لهذا لم يستطع السكوت عن حاله المرتبكة وفاتحها في أمر تغيبها في الليل وطلب منها البحث عن عمل صباحي لكي يعيشا حياة طبيعية كبقية خلق الله.

طلبت منه تفهم وضعها ومساندتها حتى تتمكن من التفرغ في الليل كما يجب وتبدأ في حياة طبيعية كما يطلب. عملها الليلي في المغسلة انخرطت فيه منذ مدة طويلة وقبل ارتباطهما ومن الصعب تركه قبل مشاورات مع المسؤولين عنه حتى يتمكنوا من إيجاد بديل لها. شنيد تقضي معه ليلة واحدة في الأسبوع هي ليلة الأحد. وكانا ينويان بعد فترة قصيرة من الزمن الانتقال من شقته وشراء شقة مطلة على النهر للعيش فيها معاً وتكون عشهما الجديد. على الرغم من انسجامهما، لم تحاول شنيد الانتقال للعيش معه وظلت في الشقة التي تشاركها فيها كارولاين، وهذا جعله يشعر أن هناك عالماً آخر بجانب عالمهما الصغير الآمن تعيش فيه شنيد ولا يعرف عنه الكثير.

لم يفاتحها بما يدور في داخله تجاه الأمر مباشرة، لكنه فاتحها في

أمر الزواج منها. زواجه منها سيكون زواجه الثاني، لذلك لم يكن متخوفاً مثلما كان الوضع مع غابريلا والاضطراب الذي صاحب المناسبة برمتها.

في صباح الثاني من تموز/يوليو، بعد أشهر قليلة من معرفته بشنيد، وهو لا يزال في سريره، سمع ناجي طرقات عنيفة على باب الشقة. سأل نفسه: لماذا القرع على الباب وهناك جرس؟ لماذا لا يستعمل الطارق الجرس الموضوع على باب الشقة؟ نهض بصعوبة لفتح الباب ونظر من ثقب الزجاج الصغير وسط الباب. وفتح الباب للطارق المستعجل، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام عدد من رجال الشرطة. قال أحدهم: أنت مطلوب في إدارة الجنايات وعليك الذهاب لمخفر الشرطة المحلية. صعق مما سمعه وسأل باستغراب: لماذا؟

قال أحد رجال الشرطة: نريد طرح بعض الأسئلة عليك! مجرد أسئلة روتينية تتعلق بحادث.

طلب منهم إعطاءه فرصة حتى يرتدي ملابسه. اصطحبوه معهم وبدنه يرتعش من الخوف؛ لم يرد أن تقع عيون الجيران عليه وهو برفقة رجال الشرطة. ولسوء حظه قبل خروجه من باب العمارة، وقعت عين حارس العمارة جاك جاكسون عليه. هز الحارس رأسه باستنكار وعاد إلى شقته وكأن الأمر لا يعنيه بشيء، رغم شغفه بمعرفة كل ما يدور في العمارة من أحداث وحماقات. عند وصوله إلى المخفر، أخذوه إلى حجرة منعزلة، وقدموا له قهوة الصباح. وأخذت الساعات تجري وهو لا يعلم عن القضية التي أحضروه لاستجوابه من أجلها. كان منزعجاً إذ لن تجده شنيد في البيت. فكّر بالاتصال بها على هاتفها لكنه عزف عن ذلك حتى يعرف القضية التي ألصقت به. عند الساعة الثانية بعد الظهر، دخل عليه

شرطيان، جلس أحدهما أمامه والآخر بجانبه. بيد الجالس بجانبه كراسة صغيرة وقلم. سأله عن اسمه وعنوانه.

قال بهدوء: قبل الرد على السؤال، هل لي معرفة سبب حضوري إلى هنا، ما الذي فعلته، ما الذي حدث لإحضاري إلى هنا؟

رد عليه الشرطي: نحن آسفون أن نبلغك أن صديقتك شنيد قُتلت وعثر على جثتها هذا الصباح.

صعقه الخبر وقال بانزعاج: ماذا؟ شنيد قتلت؟ كيف حدث ذلك وقد كانت معي يوم أمس طوال النهار حتى ذهابها في المساء للعمل. متى وكيف حدث ذلك؟ أخبروني كيف قتلت ومن المعتدي عليها؟

رد عليه الشرطي قائلاً: الأمر كله محاط بالغموض كشأن جميع الجرائم عند اكتشافها، لذلك ليس باستطاعتنا البوح بأي شيء أكثر مما قلناه حتى الآن. نريد الحصول منك على بعض المعلومات وستنتهي مهمة استجوابك ويمكنك العودة إلى البيت؛ إن أردنا معلومات إضافية فسنتصل بك.

ترك مخفر الشرطة وهو لا يرى الطريق أمامه بسهولة، ولا يكاد يسمع ضجيج المارين وأصوات السيارات والحافلات. وعاد إلى البيت وبدأ يستفسر كيف ولماذا قتلت شنيد أرقّ مخلوق في الوجود؟ عند العودة بذاكرته إلى الخلف، تذكر أن شنيد أبقت جانباً من حياتها مغلقاً ولم تطلعه على بعض شؤونها. في الحقيقة، لا يعرف الكثير عن شخصيتها وحياتها سوى ما قصته عليه من تفاصيل عن أسرتها وعملها في المغسلة. تعرّف إليها عبر إعلان في

جريدة «الغارديان»، أما من تكون فهذا شيء لا يعرفه. بقي وسط حيرته وذهوله وسأل نفسه إن كانت هناك فعلاً خبايا في حياة شنيد لا يعرفها والتي ربما تكمن خلف مقتلها، أم أنه يتخيل وقائع لا وجود لها لهول ما جرى لها؟ سأل نفسه مرة أخرى: من تكون شنيد، ومن قتلها؟

اتصل بسايمون وأخبره عن الحادث وعن قصة تعرّفه إلى شنيد وحبّه لها. دُهش سايمون مما سمع وقال: هذه أول قصة أسمعها عن فتاة إعلان تقتل. على الرغم من رده على إعلانات كثيرة ولقاءات مستمرة بنساء من الإعلانات، لم يسمع عن حدث كهذا من قبل. سايمون كان عبر حالة من الإعياء والمرض بسبب عضة الكلب التي سممت قدمه فقُطعت. علّته أجبرته على التوقف عن المغامرات النسائية المحببة إليه. بسبب العرج والصعوبة في المشي واضطراب نفسيته، ترك المغامرات واكتفى بالعيش مع فتاة فيتنامية تدعى سوفلين، تعمل بائعة زهور، تعرف إليها من خلال الإعلانات. وهو يشكر الله على وجودها في حياته، فالنساء لم يعدن بالنسبة له مجرد لذة عابرة، هن من الضروريات واللوازم لتوازن حياته وهدوء روحه. الآن هو في حاجة إليهن كحاجته للماء والهواء.

قال ناجي سائلاً سايمون: من يا ترى المعتدي على شنيد، من الذي قتلها؟ هذا أمر أريد الوصول إلى حقيقته يا سايمون، ولن أهدأ قبل ذلك.

قال سايمون: ما الذي كنت تعرفه عنها؟ اسأل نفسك هذا السؤال!

قال ناجي: عندما أعود بذاكرتي إلى الخلف، أجد أني كنت أعرف القليل عنها، وهو لا يتعدى ما أخبرتني عنه في بداية تعرفي إليها.. تشردها في بداية وصولها إلى لندن وعملها في مغسلة الملابس. لكن لها صداقة سابقة برجل ثري ظلت هويته غير معروفة وهي تظن أنه اميركي من أصل إيطالي. وأسأل نفسي: هل الرجل الثري باستطاعته إلقاء الضوء على الجانب الخفي من حياة شنيد، ليساعد الشرطة في بحثها عن الجاني؟

قال سايمون: هل لديك إحساس بأن له ضلعاً في مقتل شنيد، ولماذا تتصور ذلك؟

قال ناجي: لا أعرف إن كان له ضلع في مقتلها أم لا، لكن من الضروري التحدث معه.

قال سايمون: لماذا يقتلها؟ هل لأنها هجرته بعد معرفتها بك أو قبل معرفتها بك بقليل؟

قال: لا أعرف إن كان له دخل في الأمر، لكن لو افترضنا أنه هو القاتل، فما الذي دفعه لقتلها؟ هل كما قالت شنيد، هو رجل يحب التملك والسيطرة، وبموتها يظن أنه ملكها إلى الأبد؟

قال سايمون: وهل أخبرتك عن جنسية الرجل أو من يكون، ما مصدر ثروته؟

قال: هويته هي لا تعرفها ولا أحد يعرف مصدر ثروته. شنيد تصر على عدم التحدث عنه كثيراً وتقول إن الحديث عنه ينبش جرحاً مؤلماً داخل حياتها معه. ما عرفته أنا شخصياً عن هذا الرجل، هو ما قالته لي شنيد عن أول لقاء تمّ بينهما وبعد ذلك تجنبت الحديث

عنه. في بعض المرات تذكر ثروته، في البداية اندفعت نحوه بسبب هذا الثراء. هو رجل يعشق السهر والنساء، لكنه أعجب بشنيد من اليوم الذي ذهبت لمنزله ووجدت إعجابه بها غريباً جداً.

قال سايمون: أين كانت شنيد تعيش؟

قال: في شقة مع إحدى صديقاتها في أحد الشوارع الفرعية من حي كمدن لوك.

قال سايمون: هل لك معرفة بصديقتها؟

قال: قابلتها مرة أو مرتين ولم أتصل بها. علاقتي بشنيد حديثة رغم تداخلنا السريع في حياتنا الشخصية؛ يحلو لشنيد القول إن وجودي في حياتها كالملاذ الذي عثرت عليه من باب الصدفة وأرادت الاختباء فيه إلى الأبد. لم أعرف سوى مجموعة صغيرة من صديقاتها وكثيراً ما كانت تردد قائلة: أريد الاحتماء بك يا ناجي إلى الأبد. أحبتني كما أحببتها. قالت ضاحكة: سألتصق بك بالصمغ ولن تستطيع الفكاك مني، وكنت أجيبها قائلاً: لا تفكري أني سأحاول الهروب منك والتخلي عنك. شنيد يا سايمون صارت الأمل الذي أعيش من أجله، لقد أتت إلى حياتي وأنا في هذا العمر بعد تجارب عديدة.

قال سايمون: لا تخف، فمن دون شك ستعثر الشرطة على قاتلها. أنصحك بضرورة الاتصال بصديقتها، فقد تساعدك بإلقاء الضوء على حياة شنيد وتبيّن سر مقتلها؛ ربما تعرف صديقتها أشياء لم تعرفها أنت لأن شنيد أخفتها عنك عمداً لسبب أو لآخر.

قال: غداً سأتصل بكارولاين وأحاول مقابلتها.

قال سايمون: لندن عاصمة تسكنها الوحوش، لماذا الغدر بفتاة مسالمة كشنيد؟

قال: الناس يخافون من نيويورك بزحمتها وغربة ناسها؛ لندن أصبحت مماثلة لنيويورك وهذا أمر مؤسف. أعدك، سأصل إلى قاع هذه الجريمة مهما كلفني الأمر.

بعد إنهاء المكالمة مع سايمون، هاتف رقم شقة شنيد وكارولاين ليحادث كارولاين، إلا أن الرقم لم يعد قيد الاستعمال. لماذا وكيف قطع الرقم بهذه السرعة؟ حاول مرة أخرى ولم ينجح، فاتصل بالمقسم ليستفسر عن أمر الخط، فقيل له إن الرقم قطع اليوم ومن دون تفسير. سأل نفسه: هل كارولاين هي التي قتلت شنيد؟ لماذا قطعت الوسيلة الوحيدة للاتصال بها؟ أين كارولاين؟ وكيف سيعثر عليها؟ أين تعمل؟ وبدأ يشعر بالتخاذل والإعياء وأخذت عيناه تدوران في زوايا الحجرة ثم استلقى على الأريكة وتوسد يده. وعاد إلى واقعه الماضي من جديد، إلى الصمت والعزلة والسكون. سأل نفسه: هل من الأفضل البقاء حيث هو أم الاتجاه إلى الحمام ليغتسل ويواجه اليوم؟ تمنى لو كانت حياته سعيدة كحياة سايمون، الأعزب الواثق بنفسه والذي لا يكترث للأمور التافهة. سايمون يفرط في الكحول لكنه لم يدعها تربك حياته كما هي الحال معه؛ سايمون ناجح في عمله ويسافر كثيراً إلى جهات مختلفة من العالم، ورغم عضة الكلب، ما زال يتمتع بروح مرحة ومتفائلة.

نظر نظرة سريعة على ما يحيطه والتقط كتاباً على الطاولة التي أمامه. الكتاب عنوانه «كيفية المغازلة»، داومت شنيد على قراءته والاستمتاع بكل سطر من سطوره. الغلاف عليه صورة رجل

وامرأة، المرأة تداعب بقدمها الرجل الجالس أمامها. أخيراً، استجمع قواه وارتدى ملابسه واتجه إلى الباب لشراء بعض الصحف. عاد بذاكرته إلى أيام اطلاعه على الإعلانات الشخصية التي أتت له بشنيد. عند خروجه من الباب، قابله جاره الذي يسكن في شقة رقم ٢٠ القسيس وليم بيكر وهو يرتدي حلة الكنيسة الرسمية. تبادلا التحية وواصلا المشي في اتجاهين مختلفين. دخل إلى محل بيع الجرائد وهو في حالة من الضياع والتعب. حيّاه صاحب المحل قائلاً: كيف الحال اليوم؟

قال: في صحة جيدة، أنا ذاهب للمقهى لشرب فنجان قهوة وقراءة الجرائد.

تناول من صاحب المحل مجموعة الجرائد وودع البائع وخرج متجهاً إلى المقهى. في اللحظة الأخيرة، عزف عن الذهاب إلى هناك وقرر بدلاً عن ذلك العودة إلى البيت ليواصل البحث عن كارولاين صديقة شنيد. وصل العمارة ومن جديد غير رأيه واتجه إلى المقهى بدلاً من الجلوس في البيت في صمت داخل أفكاره المشوشة. وجد في المقهى زبونة واحدة تتكلم مع نفسها والحائط وبين الحين والآخر تصفق بيديها وكأنها تشاهد مسرحية مشوقة. بجانبها فنجان قهوة وقطعة كعكة شكولاتة كبيرة وكلما انتهت من التصفيق، غرزت الشوكة في الكعكة لتفتتها إلى قطع صغيرة وتلتهمها وتلحس أصابعها. ترفع فنجان القهوة وتسكب بعضه في الصحن وترفع الصحن لتأخذ منه رشفات بصوت مسموع. كانت تقول: أين أجدك ونحن في حالة حرب؟ القصف من كل جهة ومن الخطر ترك قطعة الكعك قبل الانتهاء من تناولها. إن فعلت ذلك فسيلتهمها الجنود المستبدّون، مهلاً وانتظرني بجانب

الطريق المؤدي لمخزن الأسلحة؛ سأنسحب حال انتهائي من مهمة الطعام.

تخيل مستقبله بعد فقدان شنيد، سيكون كمستقبل هذه السيدة مليئاً بالأوهام والتخيلات. هذه السيدة مدمنة على الكحول مثله. حاول عدم النظر إليها لأنها تذكره بوضعه المرتبك الضعيف. أتاه المضيف لأخذ طلبه، طلب كوب شاي وتناول إحدى الجرائد وبدأ يقرأها. تناسى الإعلانات الشخصية التي تملأ الصفحات الأخيرة من الصحف. احتسى القهوة وخرج إلى الشارع الذي بدأت أقدام المارين تعج به. على الرغم من وجوده في الضجيج، شعر بالعزلة عما يدور حوله وبالوحدة الداخلية. في أيام عمله، كان يبحث عن الخلوة لتجنب دافني والمكالمات الكثيرة المتعلقة بالعمل، أما اليوم فينشد أي نوع من التواصل مع ما يحيط به ليبدد الوحدة القاتلة التي يتطلب كسرها المشروب القاتل.

عاد إلى البيت ليواصل من جديد البحث عن كارولاين وليصل إلى الحقيقة التي دعتها تقطع هاتفها وتختفي. لماذا اختفت كارولاين بعد مقتل شنيد؟ بعد عودته إلى البيت، اتصل مرة أخرى برقم كارولاين متمنياً أن يرد أحد على مكالمته؟ لكن الرقم ظل مقطوعاً. فكر في الذهاب حيث تسكن كارولاين، في عمارة تقع في أحد الأحياء الشعبية بحي كمدن. العمارة كبيرة وشرفاتها تطل على الحديقة العامة التي كان يرتادها سابقاً في أيام الآحاد بصحبة شنيد. عند وصوله إلى العمارة، لم يجد أحداً من السكان. قرأ الأسماء المكتوبة بجانب أرقام الشقق وعثر على اسمي شنيد وكارولاين بجانب رقم شقة ثمانية. واصل قراءة الأسماء الأخرى حتى وصل إلى اسم حارس العمارة بجانب شقة رقم واحد في

الدور الأسفل وبجانب الرقم ألصقت ورقة كتب عليها: سأعود بعد ١٥ دقيقة، ديريك.

قرر التجول في الحارة حتى عودة ديريك، على أمل أن يستطيع مساعدته ببعض المعلومات التي تلقي الضوء على الجريمة وأحداثها. ذهب يتجول في الأماكن القريبة ولم يفصح له المكان بشيء؛ هذه دوامة لا طائل من ورائها. الحي يعج بالمطاعم الرخيصة والحركة لا تختلف عن تلك القائمة في أحياء لندن الأخرى. بعد انقضاء خمس عشرة دقيقة، عاد إلى العمارة من جديد وظل يتطلع إلى الشرفات لكن لم يظهر له أحد. وفجأة خرج من الباب رجل يجر بجانبه كلباً ضخماً. أنتهز الفرصة ودخل معه إلى مبنى العمارة. وسارع إلى شقة شنيد وكارولاين ووقف أمام باب أبيض صغير وضغط على الجرس. انتظر ليسمع حركة أو يأتي أحد ليفتح له الباب. السكون ظل هو المسيطر وتسربت إلى بدنه قشعريرة. ضغط مرات عديدة لكن من دون جدوى. نزل وجلس على مقعد هزيل داخل مدخل العمارة ينتظر وصول الحارس ديريك. تأمل الصور الزيتية الرخيصة المعلقة على الحائط، إحداها لامرأة إسبانية حافية القدمين ترقص الفلمنغو، والأخرى لمتشرد واقف في قارعة الطريق بجانب كلبه الهزيل.

فجأة فتح باب العمارة الرئيسي ودخل رجل قصير البنية أصلع الرأس ذو يدين غليظتين وبين أصابعه سيجارة مشتعلة. أدرك بحاسته أنه الحارس ديريك الرجل الذي أتى لمقابلته. سأله الرجل قائلاً: هل لي مساعدتك يا سيدي؟

قال: اسمي ناجي وأبحث عن حارس العمارة؟

رد عليه فوراً قائلاً: أنا حارس العمارة، أنا ديريك.
قال: هل لديك قليل من الوقت لتسمع ما أتيت من أجله؟
قال: نعم، تفضل وتعال معي لشقتي لنحصل على هدوء.

سارا عبر الظلام والغبار إلى الطابق الأسفل من العمارة حيث تقع شقة ديريك. وصلا باباً أسود كتب عليه بحروف بيضاء: حارس العمارة. توقع من ديريك أن يستعمل المفاتيح العديدة التي يحملها لكنه لم يفعل، بل ضغط على جرس الباب. أتاه من الداخل صوت امرأة قائلاً: لماذا لا تستعمل مفتاحك للدخول؟ أنا مشغولة بريّ الزرع في الحديقة. رد قائلاً: حبيبتي، لست بمفردي؛ أنا برفقة فرد يريد التحدث معي. افتحي من فضلك.

بعد برهة قصيرة، فتحت الباب امرأة على مشارف الستينيات من عمرها تظهر أكبر من ديريك. لم تكن مرحبة برؤية وجه جديد مع زوجها، إلا أنها حيّت ناجي وعادت إلى حيث أتت. دخلا إلى حجرة جلوس مستطيلة فيها أرائك قديمة وأمامها منضدة قهوة زجاجية بنية اللون. تناول ديريك من جيبه علبة سجائر وقدمها لناجي فشكره هذا قائلاً: لدي من السجائر ما يكفي لعام أو أكثر؛ مشكلتي عدم معرفة التخلص من الإدمان على السجائر.

قال ديريك: أنا كذلك مدمن على التدخين منذ أكثر من أربعين عاماً وكثيراً ما حاولت الإقلاع عن العادة السيئة وفشلت. في أيام أتوقف عن التدخين نهائياً ثم أعود له بعد يومين أو ثلاثة كما يعود العاشق إلى حبه الأول.

وشد انتباه ناجي وجود خلية نحل في حجرة جلوس ديريك معلقة عند السقف. الخلية تسكن بطمأنينة وهدوء. هل ديريك وزوجته

روزاليند يستخلصان منها عسلاً أم أنها وضعت للزينة؟ لم يبح لديريك بما يدور في داخله عن الخلية. أسفل الخلية، وضع تلفزيون قديم موجّه على القناة الثانية في التلفزيون البريطاني لنقل منافسات التنس. قال موجهاً كلامه لديريك: أليس من الخطر وجود خلية نحل في البيت، ألا تخافون هروب نحلها؟

ابتسم ديريك بتعالى على جهل ناجي وقال: لو كانت خطرة، لما استطعنا تركها بمنزلنا كل هذه المدة. عزيزي هذه خلية أليفة ولا خوف منها. تركها معنا صديق قديم أثناء زيارة له لنا ذات يوم منذ أكثر من ستة أشهر ولم يعد. ولا أظن أن صديقنا سيعود؛ سمعنا أنه توفي في اليوم الذي ترك فيه الخلية معنا. في الواقع صديقنا توفي حال خروجه من بيتنا: أليس كذلك يا عزيزتي؟ ردت الزوجة: فعلاً، توفي وسمعنا عن وفاته في اليوم ذاته الذي زارنا فيه. أصبحت الخلية لنا، ونحن فخورون ونعاملها كأنها أحد أبنائنا؛ فنحن لا أبناء لنا. أسفنا على وفاة صديقنا المسكين براين الذي كان صديقاً مقرباً لنا.

قال ديريك: كفي يا روزاليند وشكراً على الشرح المطول. الأستاذ ناجي لم يأت إلى عندنا ليستمع لشرح عن هذه الخلية وما حدث لصاحبها براين؛ لقد أتى لغرض آخر. عودي إلى عملك ودعينا نتحدث. قال ناجي: هذه قصة غريبة حقاً. عندما شاهدت الخلية، اعتراني خوف شديد.

ابتسم ديريك وقال: لا خوف من الخلية الآمنة ولن يصيبك أذى منها. والآن أطلب منك أن تقبل كأس شراب؛ ماذا تريد؟

قال: أشكرك، لا أريد شيئاً.

قال ديريك: لا تدعني أشرب بمفردي. شاركني في الشراب فأنا محتاج للشراب لتدفئة صدري وأمعائي بعد الجولة القصيرة حول الحارة.

قال: إن كنت مصراً على ذلك فأعطني أي شيء تختاره. وبعد ذلك سأحدثك عن الموضوع الذي أتيت من أجله، لكي لا أضيع وقتك الثمين.

ناجي لا يصدق طيبة الحارس ديريك. لقد عرف عن الحراس عدم صبرهم وإساءة معاملة الغرباء كما الأمر مع بروس، الحارس حاد الطبع متقلب المزاج. تقدم ديريك نحو خزانة قديمة في الطرف الآخر من الحجرة عليها مجموعة من زجاجات الخمر وسكب لناجي كأساً صغيراً من شراب الشري وقدمه له. وفي تلك الأثناء، بدأت رائحة الطبخ تتسرب من المطبخ إلى حيث هما. نادى ديريك بصوت عال على روزاليند: هل أنت بخير يا حبيبتي؟ ردت قائلة: نعم أنا بخير، أعدّ وجبة خفيفة للغداء. التفت ديريك إلى ناجي رافعاً كأسه إلى أعلى وقال: في صحتك. رد عليه ناجي: في صحتك.

وقع نظر ناجي على أصابع ديريك ولاحظ وجود ظفر طويل وقال في نفسه: ظاهرة إطالة الأظافر عند الرجال انتهت فترتها منذ زمن طويل، لماذا يحتفظ ديريك بهذا الظفر الطويل؟ هذه ظاهرة لا تتناسب مع عمره ومظهره. ثم قال محدثاً ديريك: في الحقيقة، أتيت لأسألك عن سكان الشقة رقم ٨.

قال ديريك: عن الفتاتين اللتين قُتلت إحداهما أخيراً.

قال: نعم

قال ديريك: هل أنت تحرٍّ شخصي أم شرطي، أم أنك أحد أقارب شنيد؟ شنيد هي التي قتلت لا كارولاين، أليس كذلك؟

شعر ناجي بغرابة من ديريك الذي لم يكن متأكداً إن كانت شنيد هي التي قتلت أم كارولاين. عدم معرفته هذه، أحزنته إلا أنه لم يقل شيئاً لديريك عن هذا سوى أنه رد عليه قائلاً: لست هذا ولا ذاك، أنا صديق شنيد ومقتلها حيرني ولم أصل إلى إجابة تدلني إلى الذي أدى إلى قتلها؟ لا أعرف شيئاً عن أسرتها وأصدقائها كي أطلب منهم المساعدة؛ أنا أدور في فجيعتي وحيرتي منذ عرفت من الشرطة عن مقتلها. لقد صعقت وأذهلني أمر مقتلها وما زلت في ارتباك ولا أعرف لمن أتجه ليلقي الضوء على مقتلها الغامض. قلت آتي إلى هنا لأتحدث معك علك سمعت أو رأيت شيئاً وتستطيع مساعدتي.

قال ديريك: ما الذي تريد معرفته عنها؟ لأني أنا الآخر لا أعرف الكثير عن خلفيات هاتين الفتاتين شنيد وكارولاين، كانتا فتاتين قليلين الاختلاط بالآخرين خصوصاً بسكان العمارة.

قال: أريد معرفة أي شيء تعرفه عن شنيد وصديقتها كارولاين. الظاهر أن كارولاين اختفت بعد مقتل شنيد مباشرة، وهاتفها قطع.

قال ديريك: لا أعرف عن كارولاين وهاتفها. شنيد وكارولاين فتاتان من فتيات لندن الكثيرات اللواتي أعجبتهن المدينة بعد أن نزحن من القرى الصغيرة إلى مدينة كبيرة للعيش وللبحث عن حياة أفضل وحرية مطلقة. الذي لا تعرفه فتيات مثل شنيد

وكارولاين أن لندن لها جوانب أخرى قبيحة، لذا وقعن في فخ لم يحسبن له حساباً ولا سيما أنهن فتاتان جميلتان ولندن تحب وتعشق الفتيات الجميلات شأن كل المدن ورجالها. أعتقد قبل أن يفزن بما كن يطمحن فيه، ضاقت عليهن الحبال ووقعن في فخ لم يستطعن الخروج منه. هذا الذي أظنه حدث للعزيزة شنيد، أما عن اختفاء كارولاين فربما اختفت خوفاً من أن يصطادها الذي اصطاد شنيد أو خوفاً من محاصرة الشرطة لها. من المؤكد أنها عرفت أنهم عثروا على جثة شنيد ملقاة أمام مدخل هذه العمارة والذي اكتشف أمرها الساكن في شقة رقم ١٢ روبرت هيلي. الرجل خرج الصباح الباكر لتدريب كلبه والكلب شم رائحة الجثة مغطاة ببطانيات ووقف ينبح قربها مما دعا الأستاذ هيلي لرفع الغطاء واكتشاف الجثة؛ سارع للاتصال بالشرطة.

قال ناجي: لم أعرف هذه الحقائق والتفاصيل لأن الشرطة لم تخبرني؛ ظننت أنها قتلت في خارج مدينة لندن.

قال ديريك: وجدت جثتها أمام مدخل العمارة؛ بالطبع قتلت في مكان آخر وأتوا بالجثة ورموها هنا. الغريب في الأمر لم يرهم أحد وهم يضعون الجثة في هذا المكان.

قال: سأسألك سؤالاً سخيفاً ولكن على الرغم من سخافته سأسألك إياه مرة أخرى؛ ماذا تعرف عن هاتين الفتاتين؟

قال ديريك: لا أعرف هاتين الفتاتين معرفة جيدة لكن بصفتي رجلاً، كنت أنا الآخر مفتوناً بجمالهما. وعرفت الكثير عنهما من خلال تنقلاتهما ودخولهما وخروجهما. عرفت مثلاً أن شنيد لها معرفة برجل ثري أجنبي وذلك غيّر مجرى حياتها. عرفت ذلك

من سائق الرجل، كنا أنا وهو نتحدث كثيراً عندما يأتي لأخذ شنيد، كنا نلتقي أمام الباب وندردش. أخبرني أن شنيد قبل معرفتها بهذا الرجل كانت تعمل خياطة في مغسلة ملابس ولقلة ما لديهن هي وكارولاين من مال، سكنتا في هذه الشقة الصغيرة. وبعد تعرفها إلى الرجل الغريب، تغيرت حياتها تغيراً جذرياً. لقد سمعت من السائق لاري عن ثراء الرجل الذي أقنع شنيد بالعمل في ناديه الليلي الخاص.

قال ناجي مقاطعاً والدهشة تنتابه: ناد ليلي خاص؟ لديه نادي خاص؟ أخبرني كيف؟

قال ديريك: نعم، يمتلك نادياً خاصاً لمتعته هو وأصدقائه فقط، يقع في الشوارع الغالية المتفرعة من شارع سنت جيمز، يلقب بملهى ليل، خصصه ليقامر فيه ويتسلى ببرامجه الترفيهية مع أصدقائه من رجال الأعمال. برامج السهرة فيه مخصصة لهم. يعني أنا وأنت من العامة لا نستطيع الانتساب إلى هذا الملهى؛ هذه تفاهة وتكبّر وغطرسة. هذا الرجل وثروته كانا السبب في تغير مجرى حياة شنيد وأعتقد أنه أغراها بماله وجعلها ترقص في ناديه. عدة فتيات وقعن في فخ الرقص في نادي هذا الرجل وأتصور أن محاولة شنيد الخروج من ذلك الوسط أدّت إلى مقتلها. وبالطبع لا أعرف كيف دخلت أنت في حياة شنيد؟ وهذا سؤال عليك الرد عليه، وإلا فانْسَ أنك سمعته مني.

قال: سأرد عليك؛ معرفتي بشنيد بدأت عند ردي على إعلان شخصي في جريدة «الغارديان». أتذكر الإعلان الذي يقول: فتاة تحت الثلاثين تتمتع بجمال وحيوية، تهوى لعب التنس وموسيقى الروك والسفر والمشي، ترغب في التعرف إلى رجل متزن يرغب في

الزواج والحياة الهادئة. الرجاء إرفاق صوركم. رددت على الإعلان ولم أرفق صورتي. في يوم، وصلتني رسالة من شنيد واتصلت بها هاتفياً والتقينا في المساء. شعرنا بتقارب بيننا وفي هذا اللقاء شرحت لي تفاصيل عن حياتها والديها وعملها وصديقها الثري. ذكرت أن صخب الحياة معه جعلها تنفصل عنه؛ ملت من صخب الحياة معه وأرادت البدء في حياة هادئة. هكذا بدأت علاقتنا.

قال ديريك: إنه حادث فظيع الذي حل بشنيد المسكينة. لكن هذه حقيقة الحياة في لندن الحديثة؛ تختلف عن لندن في الستينيات حيث الهدوء والأمان والجمال.

قال ناجي: ما حدثتني عن شنيد لا أكاد أصدقه. هذه حقائق لم أكن أعرفها عنها، وربما سر مقتلها يكمن في علاقتها بهذا الرجل وعملها في ناديه.

قال ديريك: لا أستطيع تأكيد هذا الأمر أو نفيه؛ الأدلة توحي أن هناك عاملاً خفياً خلف مقتلها وربما يتعلق بعلاقتها بهذا الرجل أو بعملها في ناديه الليلي. طبعاً لا أنا ولا أنت نستطيع إثبات هذه الحقيقة لذا يجب إبلاغ الشرطة، فمن المحتمل أن الشرطة ليست على معرفة بهذا الجانب من حياة شنيد.

في هذه اللحظة دخلت روزاليند وطلبت منهما الذهاب لطاولة الطعام. حاول الاعتذار عن مشاركتهما لكن ديريك أصر على ذلك قائلاً: روزاليند ستغضب إن اعتذرت عن تذوق الطعام الذي أعدّته خصيصاً لنا لأنها امرأة تفتخر بطبخها. طاولة الطعام التي جلسوا إليها خشبية أمامها كراس ضعيفة التصميم صنعت من

البلاستيك الشفاف. أعلى الطاولة يتدلى مصباح هزيل الضوء سبغ الحجرة بلون أصفر غريب. في زاوية من زوايا الحجرة، صندوق زجاجي كبير مُلىء بماء، تسبح في داخله أسماك مختلفة الألوان والأحجام. يطفح على سطح الصندوق فتات الطعام وذلك أصابه بالغثيان والقشعريرة.

أتت روزاليند بأوان ومناديل وملاعق وشوك وكؤوس للنبيذ والماء وجلس الجميع. استهلّت روزاليند الجلسة بصلاة شكر الرب على نعمه وأفضاله الكثيرة عليهم وأنهت الصلاة بكلمة آمين. استهلوا الطعام بشوربة باردة اسمتها روزاليند شوربة الخيا., بعد ذلك، أتت بقطعة لحم مشوية لا تكاد تكفي لإطعام فرد واحد، يسيل منها دم أحمر لعدم نضجها. أخذت تقطعها واضعة القطع على الأواني وبجانبها بعض الخضرة المطبوخة. وبينما روزاليند تقدم الطعام، كان هو وديريك يشاهدانها في صمت. وقال ديريك: حبيبتي، الأستاذ ناجي صديق شنيد الفتاة التي قتلت.

قالت روزاليند: شنيد فتاة جميلة ولقد حزنت لمقتلها. كانت تعطيني من الطعام الذي تحضره من عملها، طعام لذيذ كنا نأكله بمتعة. أمها المسكينة سيذبحها خبر مقتل ابنتها. كم هو صعب فقدان فلذة الكبد؛ نحن لم ننجب أطفالاً.

قال ناجي: وأنا كذلك.

قالت روزاليند: أنت تستطيع أن تصبح أباً في أي وقت تشاء.

قال ناجي: عدم الإنجاب بالنسبة لي شيء اختياري؛ الإنجاب لم يكن من الرغبات الملحة لدي وكلما تقدمت في العمر، زاد اقتناعي بعدم أهمية فكرة الإنجاب. ليس من العدل مجيء الأطفال

إلى عالم مرتبك كالذي نعيش فيه، عالم مزدحم ومتعب وصعب. عالم اليوم يعيش على الصراع من أجل كسب الرزق بينما الحكومات تقف مكتوفة الأيدي في وجه المصاعب وتعجز عن تقديم المعونة للأفراد والجماعات. هدف الحكومة هو خلق الأفراد الاستهلاكيين وهمّها الربح لا سواه. أمراض الأطفال مثلاً تستطيع حكوماتنا الغربية مهما ارتفع ثمنها تغطية تكاليفها لكن تجد آباء الأطفال يتجولون في الشوارع يطلبون مساعدة المارين لتغطية تكاليف بعض العمليات الجراحية المكلفة. الأمر محير ومخز للغاية مع وجود أموال طائلة تهدر على أسلحه الدمار والتدخل العسكري لفرض النفوذ السياسي والعسكري.

قالت روزاليند بصوت ممتزج بالحنق: أحب قول شيء واحد يا أستاذ ناجي، أنا شخصياً أنحدر من أسرة مكونة من ثمانية أطفال ولم تجد أسرتي صعوبة في تربيتنا، كانت طاولة بيتنا مليئة بالطعام ولم نكن في حاجة إلى أي شيء، لدينا من الملابس والأحذية والأدوات المدرسية ما يكفينا. والدي لم يقف في طابور الإعانة الاجتماعية للحصول على المساعدة من الحكومة. الحال مختلفة مع آباء اليوم والأمهات، الذين ينجبون من دون مسؤولية وأظن أنهم هم من تعني أن يقدم لهم العون الحكومي. لماذا الإنجاب إن لم تكن لديهم القدرة المادية على تحمل مسؤولية من ينجبون. خذ مثلاً حال أسرتي، والدي عامل بسيط وذراعه قطعت في حادث في شبابه لكنه كان رجلاً نشيطاً ومجتهداً في عمله، وأمي ستّ بيت ولا تعمل. حياتنا لم تكن مرتبكة من أي ناحية من النواحي على الرغم من عددنا الكبير. العدد ليس هو السبب في المشاكل الأسرية التي نراها اليوم أمامنا؛ السبب هو عدم مسؤولية الآباء واستهتارهم بقيم الأبوة.

استمع ناجي لشرحها الطويل وأراد الرد عليها بأرقام اقتصادية دفاعاً عن الآباء والأمهات وحاجتهم للمعونة. أمور معقدة تقف خلف الاضطرابات الاجتماعية في النظام الرأسمالي وتدفع الفرد للجوء إلى المعونة الحكومية. لو زادت الضغوط التي تواجه الفرد، فإن من المحتمل أن يتحول للتسول والجريمة والثورة، وهذا ما تخشاه الحكومات الرأسمالية. الفلسفة الرأسمالية تسبب التصدع الاجتماعي وليس الفرد هو الذي يخلق هذا التصدع؛ الفرد هو ضحية النظام الرأسمالي الذي يقوم على الاستهلاك والربح.

ثم أدرك أن نقاشاً اقتصادياً معقداً، لا جدوى منه مع الأفراد العاديين من أمثال روزاليندا يصعب عليهم فهمه وتقبله. الأرقام لن تعني شيئاً لروزاليند بسبب غسيل المخ الذي يجري كل يوم لعقول الناس البسطاء في هذه المجتمعات. ديريك وزوجته لا يتعمقان في ما يقع خلف الشعارات الهوجاء الواردة في الإعلام والإعلانات. الوضع القائم على الاستهلاك والقروض تحول إلى أمر مقدس غير قابل للمناقشة والرفض؛ لو فعلوا ذلك، يغضبون الرب أو يدخلون السجون. ولولا النقص لدى روزاليند، لقدم مرافعات تبين دور الرأسمالية في التفكك الأسري والتشرد والجريمة. وواصلت روزاليند الثرثرة حتى نهاية الوجبة، بعدها عاد الجميع إلى الصالة لتعاطي المشروبات. قدم ديريك لناجي سيجاراً أميركياً رديئاً. في نهاية الجلسة، شكر ناجي مضيفيه وأثنى على طبخ روزاليند اللذيذ وتبادل معهما أرقام الهواتف وخرج في طريقه إلى البيت.

المعلومات التي قدمها له ديريك حركت أفكاره وجعلته يقرر الاستفادة منها. أهم هذه المعلومات هي اسم النادي الذي تحدث عنه ديريك وموقعه؛ هذا مكان يجب أن يصل إليه ويعرف المزيد

عنه. في اليوم التالي، ذهب إلى منطقه سنت جيمز العريقة حيث مقرّ النادي. وجد صعوبة في الوصول لمكان النادي وسأل بعض الناس عنه لكنهم لم يساعدوه. طفق يقرأ اللافتات على المحال حتى وجد محلاً كُتب عليه: ناد خاص.

ابتعد قليلاً عن الباب عندما رأى آلة تصوير مصوبة نحوه، إلا أنه شعر بالراحة عندما عرف أنه المكان المقصود واقترب من الباب؛ رأى ورقه صغيرة علقت بجانب الجرس كتب عليها: مطلوب حارس للعمل في هذا النادي الخاص بمعاش جيد. شجعه هذا على ضغط الجرس والاستفسار عن العمل المعلن عنه. من الداخل، أتى عامل هزيل البنية له شعر كثيف ونظارات طبية سميكة. قال له ناجي: قرأت الورقة التي طُلب فيها حارس وأنا في حاجة ملحة للعمل، فهل لي التقدم بمستنداتي؟

قال العامل: لست أنا الذي يساعدك في القبول في هذه العمل؛ أنصحك بالذهاب إلى شارع نكلوس بارك رقم ٤٦ والسؤال عن الآنسة فلورا مديرة المحل. سعد بمساعدة العامل واتجه فوراً إلى المكان المقصود. أمام الباب وقف حارس بملابس رسمية استوقفه وسأله عن هدف الزيارة. قال ناجي: أُرسلت من النادي لمقابلة الآنسة لورا.

طلب منه الحارس الانتظار حتى يبلغ الآنسة لورا. عاد الرجل بعد برهة قصيرة وطلب منه الدخول. دخل وأشار له الحارس بالجلوس على أريكة إلى أن يُطلب لمقابلة الآنسة لورا. نظر إلى الأرضية وكانت مغطاة بقطع من الرخام الأبيض والأسود. وضع يده في جيبه وانتشل منديلاً ورقياً وجفف قطرات العرق التي بدأت تنتشر على جبينه. وأخذ عقله يجري خلف أحداث مقتل شنيد والخطوة

الجديدة التي يقوم بها لاكتشاف سر مقتلها. كان خائفاً ألا توافق لورا على قبوله للعمل في النادي. بعد مرور وقت ليس بالقصير، اقتربت منه فتاة وقادته إلى مكتب واسع تغطي جدرانه رفوف كبيرة عليها كتب قديمة؛ وبالمكتب كرسي صنع من الخشب المطلي بالذهب جلست عليه سيدة عمرها لا يتعدى الثامنة والثلاثين. مدت له يدها قائلة: فلورا دوكان، وطلبت منه الجلوس على الكرسي المواجه لها. عرّفها باسمه قائلاً: ناجي لورنس، أتيت لتقديم طلب للعمل في النادي حارساً.

قالت: نحن في حاجة ملحة لحارس لأن أحد الحراس تركنا إثر مرض مفاجئ.

قال: كنت أمشي في هذه الحارة وقرأت طلبكم لحارس للعمل في النادي وحضرت لأني في حاجة ماسة للعمل.

ابتسمت وقالت: أنت رجل قوي الملاحظة لأنك انتبهت لتلك الورقة الصغيرة التي كتب عليها الإعلان. لم نعمل إعلاناً موسعاً في الصحف ومراكز العمل كما يجب. العمل في هذا المكان يتطلب قبل كل شيء سرية وكتماناً لأن الأعضاء يطلبون منا ذلك بسبب خصوصية النادي. وسيطلب منك لو وفقت في هذا العمل، التوقيع على ذلك الشرط. النادي صغير لكن له جميع مواصفات الأندية الكبيرة في لندن، مثلاً لا يسمح فيه بالتقاط صور للأعضاء الذين هم أصدقاء صاحب النادي. يبدأ العمل عند الساعة السادسة مساء وينتهي عند الساعة السادسة صباحاً. هل ما زالت عندك رغبتك في العمل معنا؟

قال: في هذا الوقت أنا في أمسّ الحاجة للعمل لأنه سيساعدني

كثيراً؛ أنوي التسجيل بالجامعة المفتوحة لدراسة القانون. أعجبها ما سمعته منه وقالت: هل صحيح تنوي ذلك؟ قال: نعم. بحثت طويلاً عن عمل ليلي مناسب يتلاءم مع أوقات الدراسة التي تتطلب التفرغ في أوقات الصباح.

قالت: طوال حياتي وأنا أمنّي نفسي دخول الجامعة المفتوحة لأني حرمت من التعليم الجامعي. والدي وأمي انفصلا منذ كنت في الخامسة من عمري. والدتي تزوجت من رجل آخر وهذا الرجل سكير فظ القلب مما جعلني أترك المدرسة وأنا في السادسة عشرة من عمري لأنجو من قسوته. دخلت كلية السكرتارية بدلاً من دراسة الأدب الذي هويتُه منذ الصغر. ثم ثابرت وتقدمت في العمل والآن أنا مديرة لمكان كبير ومحترم؛ وقد ألتحق بالجامعة المفتوحة.

بعد أيام قليلة من المقابلة، أتاه رد بقبوله حارساً في النادي. وفي اليوم الأول للعمل، وصل قبل الموعد بـ ١٥ دقيقة وضغط على جرس الباب فأحسّ بعيون الكاميرات تراقبه من الداخل. استقبله رجل طويل بشعر أسود مصفف بالزيت وعلى كل إصبع من أصابع يديه خاتم ذهب كبير على هيئة العملات النقدية. ارتدى الرجل بدلة وقميصاً وحذاء اسود اللون. قال الرجل: أنا مايكل رئيس أمن النادي. سأطوف بك المكان لأعرفك على الأقسام المختلفة، بعد ذلك تذهب إلى غرفه الأمن الرئيسية وأعطيك ورقة التعليمات وأشرح لك مضمونها. العمل سهل لكن لا تقل هذا لرئيسنا؛ يجب إيهامه أن عملنا صعب مثل عمل فتيات النادي. قال هذا وضحك ضحكة خفيفة. كل ما يتطلبه العمل يا سيدي هو الفطنة وحسن معاملة الزبائن؛ النادي خاص وسرّيّ.

سأله ناجي: هل أنت متأكد من أن النادي يغلق عند الساعة السادسة صباحاً؟ قال مايكل: نعم لأني أنا الذي أغلق الأبواب في نهاية الليل. صاحب النادي يأتي للنادي يومياً عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

أدهشه المكان وكل ما شاهده. بعد أسبوع من انخراطه في العمل، بدأ يتأقلم مع المكان ويتعرف إلى وجوه رواده الذين هم مجموعة من أصدقاء الأستاذ رافائيل مؤسس النادي وصاحبه. رافائيل يتقاضى أجوراً عالية مقابل ما يقدم من برامج ساهرة. في الملهى، مطعم صغير يعدّ أصنافاً متعددة من الأطعمة، وبار يقدم أجود أنواع الكحول مثل الشمبانيا الفرنسية، وتوجد طاولة لأجود السيجار الهافاني وأغلاه. بجانب هذا، هناك برنامج رقص تؤديه مجموعة منتخبة من الفتيات المحترفات. يأتي الأستاذ رافائيل إلى الملهى ويتجه إلى قسم منفرد في الصالة ويجلس على أريكة جلدية خصصت له، عليها مخدات من الحرير وأمامه طاولة زجاجية عليها مجموعة من المكسرات وزجاجات ماء وأوان مليئة بالثلج وزجاجات شمبانيا وباقة زهور. وعلى الحائط علقت لوحة زيتية كبيرة لامرأة جميلة غطت وجهها بقناع وترتدي فستان سهرة يغطي جسدها عدا ثديها الأيمن، يطل بإغراء ومجون.

أجواء النادي مثيرة وفيها برامج رقص وأغان وموسيقى جاز للمغنية نينا سيمون ولوي آرم سترونغ. بعد وصول الأستاذ رافائيل، تدب الحياة في الملهى وتبدأ المضيفات بجلب الشراب للأعضاء الذين هم رجال من مختلف الأعمار والجنسيات من بينهم عدد من الإنكليز. في طريقهم للجلوس يحيّون الأستاذ رافائيل وبعضهم يحادثه لفترة قصيرة ومن ثم يذهب إلى طاولته، ويتلبس المكان مظهر أنس

وألفة، ثم تتأهب القاعة لظهور الراقصات.

في ليلة الجمعة، يأتي إلى النادي رجل أفريقي قصير هزيل البنية أصلع الرأس يدعى جيورجي ومعه صندوق خشبي كبير يصعب عليه حمله؛ أول يوم رآه ناجي بحمله الثقيل ظن أنه يحمل صندوق شمبانيا أو خمور أخرى للملهى فأشفق عليه. بعد برهة من وصول جيورجي، تقدم له كأسان من الفودكا الروسية الخالصة، يتعاطى جيورجي الفودكا بسرعة ويضع الكأس بجانبة على الأرض، ثم يبدأ بفتح الصندوق وتدريجياً يخرج من الصندوق رأس ثعبان ضخم، ويأخذ الرأس في التمدد ويتمطى أمام دهشة الساهرين وتصفيقهم القوي. جيورجي يأتي بالثعبان المدعو «هاها» إلى النادي من أجل تسلية زوار الملهى؛ يقوم الثعبان بحركات بهلوانية أمام المشاهدين بمساعدة جيورجي الذي يعرضه على المسرح. يلف جيورجي ذراعه على جلد الحيوان الأملس من دون خوف بينما يخرج الثعبان لسانه الطويل من فمه ويلعق وجه جيورجي وسط أنغام الموسيقى. وبعد تمثيل الدور الأول مع جيورجي يأتي الدور الثاني ويرقص الثعبان مع راقصات النادي فيتلوّى ويتمطى على أبدانهن أمام المشاهدين وعلى تصفيقهم المتواصل، بعد ذلك يسارع جيورجي إلى لمّ جسد «هاها» كالحبل ويعيده إلى داخل الصندوق بخفة وحذر، وينسحب في هدوء إلى خارج الملهى.

صورة جيورجي والثعبان رسخت في خيال ناجي وتولدت في داخله رغبة للتحدث معه خارج النادي. وفي ليلة، تمكن من التحدث معه وطرح عليه بعض الأسئلة عن رقصة الثعبان، وأظهر رغبته في معرفة نوعية الطعام الذي يطعمه للحيوان وكيف يحمله

وينقله من مكان إلى آخر ومن أين أحضره؟ طلب من جيورجي أخذه لرؤية مقر «هاها»، فاقترح جيورجي أن يتقابلا في ظهر الأحد؛ سر ناجي بالاقتراح والتقيا كما اتفقا وذهبا لتناول الطعام في أحد المطاعم الصينية المنتشرة في حي سوهو.

أثناء الغداء، اتضح لناجي لطف جيورجي ومرحه وتهذيبه، واتضح له أن لديه معلومات كثيرة عن النادي والأستاذ رافائيل. فكر في الاستفسار منه عن بعض أمور النادي، فربما المعلومات التي يقولها ستفيده في بحثه عن قاتل شنيد. سأله عن المدة التي عمل فيها في النادي.

قال جيورجي: بدأت العمل في النادي عندما تعرفت إلى شابة استرالية تدعى جيني. لم أكن محترفاً في ترويض الثعابين على الرغم من أني قبل حضوري إلى لندن، عملت في السيرك في مسقط رأسي وفي حقل الموسيقى. أنا يا سيدي موسيقي محترف في موسيقى الجاز. في لندن كنت أبحث عن وسيلة أكسب قوت يومي، فاستشرت جيني في أمر شراء ثعبان وتدريبها على الرقص مع الثعبان في النوادي الليلية. جيني ذاتها كانت نازحة لتوها من أستراليا وحاجتها للعمل ماسة للعيش ولتسديد قرض من البنك، لذلك وافقت على الفكرة الجديدة؛ اشتريت الثعبان من محل للحيوانات في مدينة برايتون الصيفية وأطلقت عليه اسم «هاها». وبدأت في تدريب جيني على الرقص مع «هاها» حتى نجحتْ وتمكنا من تقديم عرضنا الأول لناد يدعى «الرقصة السوداء» قرب شارع كارنبي يملكه رجل يهودي الأصل يدعى لايونل كوهين، ثم انتقلنا إلى نوادٍ أخرى مثل «نادي ليل».

قال ناجي: وأين جيني الآن، هل ما زالت ترقص؟

قال جيورجي: كلا. قصتي مع جيني معقدة وحياتي معقدة. أنا قمت بأعمال كثيرة، نجحت في بعضها وفشلت في بعضها الآخر. لكن حبي الكبير ظل للموسيقى والغناء؛ في بلدي سنت لوشيا كنت عضواً في فرقة تدعى فرقعة الطبل، مكونة من مغني الجاز والعازفين على القيثارة الكهربائية والطبلة. قصتي مع جيني قصة حب غريبة سأرويها؛ جيني وأنا يا سيدي عشنا قصة غرام ملتهبة وعميقة. تعرفت إلى جيني في القطار العائد إلى لندن من إحدى القرى البريطانية؛ وأنا نازل من القطار جذبني منظر فتاة شقراء يبدو عليها الارتباك وتجر خلفها أغراضاً كثيرة. سارعت لمساعدتها فابتسمت لي بعذوبة وشكرتني واتجهنا بأمتعتها إلى محطة قطار الأنفاق.

سأله ناجي: ثم ماذا حصل؟

قال جيورجي: بعد وصولنا إلى أسفل المحطة، لم أجد من اللائق ترك جيني تسافر بمفردها في أول يوم وصلت لندن. بعد نهاية الرحلة القصيرة، خرجنا من النفق بالمتاع فقالت جيني إنها جائعة وتريد تناول شيء من الطعام، فاتجهنا لمطعم للوجبات السريعة وهناك حدثتني عن طموحاتها وأملها في النجاح في لندن ورؤية معالمها الشهيرة وأهمها فرق الروك أند رول والمراقص والمسارح. ثم ذهبنا إلى الفندق وساعدتها في حمل متاعها إلى الحجرة في الدور الرابع. وهناك وقعت جيني في حضني حتى الصباح وبدأت علاقتنا الملتهبة؛ لم يعجبها الفندق فانتقلت لتعيش معي في شقتي.

قال ناجي: كيف استمرت قصة الحب بينك وبين جيني؟

قال جيورجي: عشنا أجمل وأروع قصة حب صادفتني في حياتي. وبعد مدة من علاقتنا، أصرت جيني على الإنجاب لتلبية نداء

الأمومة وخلق رابط أبدي بيني وبينها. وتحولت حياتنا السعيدة إلى حياة مرتبكة بسبب إصرارها على الزواج؛ أنا رجل هائم على وجه الأرض ولا أؤمن بالارتباطات الدنيوية مثل الزواج والإنجاب. ثم إن هذا الحمل سيمنعها من الاستمرار في الرقص في الملاهي مع «هاها» وهي في حاجه ماسة لكل جنيه تستطيع جنيه من الرقص لكسر الدين الثقيل الذي يغل عنقها. وفي يوم، أخبرتني أنها حامل وتريد الاحتفاظ بالجنين، وولدت جيني طفلاً سمته جيورجي على اسمي. وفي يوم، عدت إلى البيت لأجد جيني على وشك السفر حيث قالت إنها عائدة إلى بلدها مع أهم شيء جنته أثناء إقامتها في لندن وهو جيورجي الصغير؛ وهكذا اختفت وباختفائها شعرت بالسعادة تختفي من حياتي.

قال ناجي: هل جيني أول علاقة غرامية دخلت فيها؟

قال جيورجي: كنت متزوجاً من ابنة أختي التي وقعت في غرامها واختطفتها من زوجها وتزوجنا عندما كنت في بحر الكاريبي في سنت لوشيا.

قال ناجي وهو في دهشة مما سمع: ما رد فعل أسرتك ومجتمعك عندما تزوجت من ابنة أختك؟ أليس محرماً زواج الأقارب في بلدكم؟ في هذا البلد تحرم الكنيسة مثل هذا الزواج تحريماً قاطعاً؟

قال: أولاً زواجنا لم يكن في الكاريبي لأننا هربنا إلى الولايات المتحدة وعشنا في نيويورك وتزوجنا في هارلم؛ الناس لم يعرفوا صلة القرابة التي تربط بيننا. وقعت في غرام كلودت ابنه أختي؛ كانت تعمل في بيت للعجزة وأنا أتنقل في عمل السيرك والموسيقى. زواجنا أثمر عن ابنتين وولد؛ الولد يدعى روكي وبنت

تدعى لوسندا والأخرى مارميد. الحياة لم تكن سهلة وكلودت حنّت للعودة إلى سنت لوشيا؛ عدت إلى البيت ولم أجد كلودت.

قال ناجي: كيف وقعت في غرام كلودت؟

قال جيورجي: عشقت كلودت منذ ليلة زفافها. إن بيت أختي مارثا أم كلودت الذي أقام كلودت وعريسها فيه ليلة الزفاف يقع بجانب بيت أسرتي. بعد انتهاء الاحتفال، طلعت إلى سطح بيتنا بغرض التلصص على الزوجين وهما يمارسان الحب. من النافذة، رأيت العريس يخلع طرحة العروس من على رأسها ومن ثم الفستان الأبيض، وانتابتني غيرة ملتهبة عصفت بروحي وكياني. وظهر جسد كلودت الأسمر الفاتن وهي تتمايل وكأنها عود زهرة يانعة يهزه الهواء في فضاء واسع، فتطلعت إليها بعينين متلهفتين ورغبة محرمة وفي داخلي لعنت المجتمعات التي تحرم زواج الأقارب وسألت نفسي لماذا يحلل زواج الغرباء ويحرم زواج الأقارب؟ كيف يحق لرجل غريب مثل زوج كلودت التمتع معها وأنا لا؟ اقترب منها عريسها وينستون أكثر، وبشبق يلمع في عينيه مد يده إلى جسدها وهي تبتسم والسعادة مرتسمة على وجهها، فقدمت له نفسها بحب وطمأنينة. وفجأة انطفأ النور فنزلت أجرّ قدمي الثقيلتين وقلبي يشتعل بنار الغيرة، وتمنيت لو كنت أنا ذلك الفتى وبدأت كلمه شيطانية تتردد في داخلي: أريدها. كلودت هي ابنة أختي وتربت على يدي، فلماذا لا يكون لي حق فيها؟ أفكار شيطانية ملعونة ظهرت في داخلي بمجرد قيامي بعمل مجرد من الأخلاق بالتجسس على ابنة أختي وزوجها. وأدركت أني لن أفلت من قبضة الشيطان.

وقال جيورجي: بعد الزواج بوقت قصير، فصل زوج كلودت من

عمله ودخل في عالم الكسل والخمول وتعاطي الكحول والمخدرات، وأصبح يقضي ساعات النهار هائماً يسترزق مما يتفضل به عليه السياح، وبدأت كلودت تشكو من صعوبة الحياة. وأخذت أغدق عليها وعلى بيتها وأصبحت أعمل من أجل راحة كلودت. حملت كلودت وأنجبت مولوداً سمته ليروي. رغبتي الجنونية تجاه كلودت لم تخمد قط، لكنني لم أبحْ لها بأي من هذه الأحاسيس التي تتضارب في داخلي، فبدأت ألوذ بالصلاة والذهاب للكنيسة، وتعبدي وملاذي للكنيسة لم يتوقفا على صلاتي في كنيسة الحارة والكنائس القريبة من بيتي؛ بدأت الذهاب لكنائس تبعد عن بيتنا بكثير. أمشي أميالاً حتى أصل إليها وفي داخلي بصيص من الأمل أن كل كنيسة جديدة أدخلها ستكون الكنيسة التي تحررني من الشغف الذي داخلي والجنون الذي اعتراني تجاه ابنة أختي كلودت. لهذا، بدأت أدخل الكنائس لأشارك الغرباء في أفراحهم وأتراحهم، أتضرع للعذراء وابنها المسيح أن ينقذاني من البلاء الذي ألمّ بي، وأطلب الرحمة والغفران والشفاء من بلاء حبي المحرم.

وذات مساء كنا في مرقص ليلي أنا وكلودت ومجموعة من الأقارب والأصدقاء، فطلبت منها الرقص معي ووافقت. أخذتها إلى الحلبة ورقصنا على نغم أغاني المطرب الأميركي جيمز براون وتمايلنا وحملتنا الشجون والأحلام. انتظرت أغنية بطيئة للأينل ريتشي واقتربت منها حتى شعرت بحرارة جسدها تتداخل بسلاسة مع حرارة جسدي وبشفتي تقترب وتلتصق بشفتيها وقبلتها أول قبلة محرمة. انسحبنا بخفية من القاعة إلى موقف السيارات المظلم الصغير الواقع خلف مبنى المرقص مباشرة؛ وجدت نفسي واقفاً أمامها في الخلوة وجهاً لوجه فعبّرت لها عن حبي ولهفتي. قلت

لها وأنا ألهث كالمجنون: كلودت، أسبغي على قريبك الحب والحنان، كما فعلت مع الوغد ليلة زفافك، إني في أمس الحاجة لحنانك.

صدقني إن قلت إني كنت أتوق إلى حنان كلودت أكثر من رغبتي للإثارة والمتعة الجسدية، أتوق إلى حنانها مثل الذي أسبغته على زوجها ليلة الزفاف. اعترفت لها بقصة تلصصي عليها ليلة زفافها وأخبرتها أني عائش في تلهف وجنون وعشق. صعب عليها فهم كلامي بسبب الخوف من محاصرة الحاضرين، إلا أنها اقتربت مني وضغطت على يدي ووضعت رأسها على صدري وأجهشت باكيه وذرفت الدموع.

وبدأنا ندبر أمر هروبنا من مدينتنا سنت لوشيا لمكان خارج الكاريبي، مكان لا يعرفنا فيه أحد مثل الولايات المتحدة. وبمجرد وصولنا بأيام قليلة، تزوجنا وعشنا تحت سقف واحد إلى أن هربت. كلودت هربت إلى اتجاه لا أعرفه ولسبب أجهله كذلك، إلا أني عرفت من جيراننا أنها دخلت في حلقة أناس يتاجرون بالمخدرات وهربت مع فرد من أفراد العصابة؛ حسب ظني عادت إلى جزيرتنا سنت لوشيا.

بعد فترة قصيرة من هذا الحدث، أتاحت لي الظروف فرصة المجيء إلى لندن لإحياء حفلات مع مجموعة من مغنّي الجاز في ملهى روني سكوت لموسيقى الجاز. عادت الفرقة إلى الولايات المتحدة وبقيت في لندن وقررت العيش فيها، ثم تعرفت إلى حبيبة قلبي جيني.

ووضع جيورجي يده في جيبه وسحب صورة لجيني الفتاة الجميلة الطويلة. سأل ناجي نفسه: ماذا فعل جيورجي بهذا الطول وهو

قصير القامة هزيل البنية؟ واصل جيورجي يحكي قصة حياته قائلاً: خضت مغامرات وعشت قصصاً كثيرة، منها ما يضحك ومنها ما يحزن؛ أنا أخيراً في هذا النادي أسلّي رواده مع ثعباني «هاها». أخذ ناجي يدور بعينيه في أرجاء المكان وتمنى في داخله لو واصل جيورجي الحديث وتطرق لملهى ليل وخلفيات رافائيل، لكن جيورجي لم يواصل.

قال ناجي: أرجوك لا تغفل عن أخذي معك إلى البيت لأرى «هاها» في مقره كما وعدتني.

قال: تفضل معي إلى مكاني، لكن أحذرك أن حالة بيتي بائسة فلا تتوقع أن تجد النظام المتبع في نادي ليل؛ أنا إنسان أعيش حياة تشبه حياة المتسكعين.

بيت جيورجي لم يكن بعيداً عن المكان الذي تناولا فيه الغداء، يقع في شارع برور في حي سوهو الشهير بالملاهي الليلية الحمراء وسينما البالغين. شقته عبارة عن غرفة لها شباك واحد كبير تغطيه ستارة قديمة أضفت على المكان ظلمة شديدة، وبها سرير صغير وحيّز صغير للمطبخ، وفي الحجرة طاولة عريضة بثلاث أرجل أسندت إلى الحائط ووضعت عليها معدات موسيقية ومكبر صوت وأسطوانات وزجاجات لمشروب البيرة وزجاجة شمبانيا من النوع الغالي الذي يقدم لزبائن ملهى ليل. أرضية المكان مغطاة بأعداد هائلة من الجرائد القديمة ومجلات البالغين وأحذية وملابس متناثرة؛ في إحدى الزوايا تجد طبلاً أفريقياً كبيراً صنع من جلد النمر ومنحوتات أفريقية من الخشب.

ركّز ناجي نظره على زجاجة الشمبانيا. قال جيورجي: نعم، هذه الزجاجة سرقت من الملهى ولكن لست أنا سارقها؛ كارلوس مدير

البار هو الذي هرّبها لنحتسيها حينما يزورني. الوغد لم يأت حتى الآن ولم أودّ تعاطيها بمفردي فماذا تقول لو أخذنا منها كأسين؟ أثناء حديث جيورجي، لاحظ ناجي على الحائط صورة لفتاة إعلان جميلة تطل مبتسمة؛ الفتاة تقف عارية بزاوية مثيرة، بشرتها بلون الكرمل وشعرها كستنائي اللون مبعثر في كل اتجاه وتضع بين فخذيها كرة حمراء كبيرة.

قال ناجي: فتاتك مثيرة للغاية يا جيورجي ومن دون شك تتمتع بالنظر إليها وتعبدها كل صباح ومساء. قال جيورجي: نعم، ولكن يظهر أن ما بقي لي في الحياة من النساء صور وتخيلات لا غير؛ أعيش مع النساء في خيالي لا في سريري لأن سريري لا رفيق فيه سوى الليل وظلامه. ونظر ناجي إلى السرير الحديدي فوجده مغطى بغطاء قطني كبير عليه شعار الطائفة التي تقدس الإمبراطور الإثيوبي السابق هيلاسي لاسي. قال ناجي: غطاء سريرك ذكرني بالفقيد بوب مارلي من دون شك؛ هل أنت من عشاقه؟

قال: بالطبع، لأن بوب غنّي عن ألم الفرد الأسود ومعاناة الشعوب المقهورة، كما غنى للفقر والظلم والعنصرية والاستعمار والمشاكل التي تعصف بملايين البشر. صوت شجي ولكن للأسف فقدناه في أوج عطائه وفي شرخ شبابه. لا ينبغي أن أتكلم عن استبداد الاستعمار الأوروبي فأنت بريطاني وبلدك من أكبر البلدان التي مارست الاستبداد الاستعماري البشع على شعوب العالم.

قال ناجي: لا عليك، تكلم والعن إن أردت، أنا رجل متحرر الأفكار مثلك ولست من أصل إنكليزي بل من أصل شرقي. بسبب حادث سير أودى بحياة أبي وأمي، أعطيت للتبني لأسرة إنكليزية وحقيقة أبي وأمي ضاعت في زحمة الحياة ولم أبدأ في

البحث عن هويتي الأصلية بعد. عندما تبين لناجي أن جيورجي لم ولن يقترب من الموضوع الذي أتى من أجله، رأى من الأفضل طرح الموضوع عليه بنفسه.

قال: جيورجي أتيت لزيارتك لأحدثك في موضوع شديد الحساسية وأتمنى أن تستطيع مساعدتي فيه وتدع مضمون حديثنا هذا محفوظاً بيننا. بالطبع هذا بجانب رغبتي في رؤية حيوانك الوديع هاها.

قال جيورجي: دعنا نتناول كأس شراب شمبانيا أو نبيذ.

قال: في مكانك يا جيورجي ولا تتعب حالك.

على الرغم من ممانعة ناجي، تقدم جيورجي نحو الطاولة ذات الثلاث أرجل وفض غطاء زجاجة الشمبانيا وقدم كأساً لناجي. قال ناجي ضاحكاً: إني مأخوذ بشقتك لأنها تقع فوق السينما ويسكنها رجل مثلك مع ثعبانه «هاها». ألا تزعجك الضوضاء وما يقال ويُفعل في السينما أسفلك؟

قال: أحياناً، ولكن أوقات وجودي هنا قليلة؛ أعود للنوم فقط.

قال: وهل حصل أن ذهبت لمشاهدة الأفلام التي تعرض تحتك ليلاً ونهاراً؟

قال: على الرغم من إغراء الإعلانات لهذه الأفلام، لم أفعل ذلك لقلة الوقت. فكما ترى آخذ «هاها» كل ليلة إلى عدة ملاه وأعود إلى البيت في أول ساعات الصباح مرهقاً للغاية وأذهب خلال ساعات العصر إلى أستوديو قريب من هنا للتدرب على العزف والغناء مع فرقة موسيقية. وسأل ناجي نفسه: أين يضع جيورجي

«هاها»؟ فهو لا يرى له وجوداً معه في المكان الصغير. جيورجي يضع «هاها» في حمام شقته الواقع خارج الشقة الصغيرة.

قال جيورجي: تعال معي لأريك مقر «هاها».

وأخذه واتجها إلى الحمام، وما أن فتح جيورجي باب الحمام إلا وهاجمته رائحة نتنة؛ في الحمام، حوض حديدي أبيض طويل للاستحمام و«هاها» ترقد فيه بجسمها الضخم. أمام هاها، وضعت أقداح عديدة من الماء وأصناف من اللحوم الحمراء والفئران الميتة.

قال ناجي بتأفف: أعتقد أن طعام «هاها» مكلف؟

قال جيورجي: بالطبع، لكن في استطاعتي تغطية تكاليفه والحمد لله.

أخذ ناجي يفكر كيف لرجل بهذا الحجم الضئيل تدريب ثعبان بهذا الحجم الضخم؟ بعد ذلك، عادا إلى الصالة وشكر ناجي ربه على الابتعاد عن «هاها» ورائحته المزرية. جلسا على الأريكة المترهلة. قال ناجي: أتعرف يا جيورجي أن الجلوس أمام النافذة يوحي لي بكتابة قصة عن لندن وحي سوهو وبكدلي و«هاها» وجيني وابنة أختك كلودت وجميع صديقاتك؟ يمكنني أن أكتب عن مكانك وما يدور فيه وما أراه من النافذة.

قال جيورجي: وما الذي يردّك عن ذلك؟ افعل ولا تتردد ومن دون شك ستنجح في كتابة هذا الكتاب.

قال: ومن أين آتي بالمعلومات عن الأشخاص الذين سأكتب عنهم والأماكن الموجودة في الرواية؟

قال جيورجي: ألم تعرف أني راو جيد؟ في بلدي قلة الكتابة أدّت إلى ثروة أدبية شفهية، فكل ما يعرف عن محيطنا يسجل بالألسن وليس على الورق كما في المجتمعات المتقدمة. لا عليك من قلة المعلومات، دعني أحدثك عن أي موضوع تريده واستمع لقصصي ودوّنها. سأبدأ بقصة نادي ليل.

فرح ناجي وقال: صراحة، لا أعرف الكثير عن هذا النادي الذي من دون شك سيكون من أهم جوانب روايتنا.

قال جيورجي: سأزودك بمعلومات كثيرة عنه، ولو كنت أنا ملمّاً بفن الكتابة، لكنت من يكتب الرواية ولست أنت ولكانت رواية جيدة ومبيعاتها عالية؛ دعنا نبدأ في هذا المشروع قبل نسيانه. أرجوك لا تغير رأيك ولا تدع نقص المعلومات يعيقك؛ سأزوّدك بمعلومات تكفي لكتابة مجلدات لا رواية واحدة.

دُهش ناجي وقال: يجب أن تكون موجوداً كلما أردت الالتقاء بك لمناقشة فقرات الرواية.

بدأ عقل ناجي يسافر إلى رافائيل وكيف له الوصول إلى معلومات أكثر عن حياته هذا الرجل الغامض. سأل جيورجي بحذر: هل سمعت عن مقتل فتاة تدعى شنيد كانت تعمل في النادي؟

قال جيورجي بحذر شديد: نعم، سمعت عن ذلك، وسمعت الكثير عن الكوارث التي حدثت للفتيات العاملات في النادي إثر تركهن العمل وأثناء عملهن. كنت أعرف شنيد معرفة شخصية فهي فتاة رقيقة مهذبة فائقة الجمال ومحبوبة من الجميع، بالطبع، صعقت لخبر مقتلها.

قال ناجي: فعلاً أمر الملهى غريب، ألا تخاف على نفسك؟ تريد الصدق، بدأ ينتابني في الآونة الأخيرة خوف من هذا النادي. قال جيورجي: الرجال الذين يعملون ويتعاملون مع النادي، لا يمسهم أذى. النادي لديه مشكلة مع الفتيات فقط. بالمناسبة، كيف حصلت على الوظيفة في النادي؟

قال ناجي وهو يتحاشى التفاصيل: سمعت عن الوظيفة من أحد الأصدقاء فذهبت لمقابلة مديرة مكتب رافائيل الآنسة فلورا وحصلت على العمل. كيف لنا يا جيورجي الدخول في وقائع النادي وما يدور خلفه من خبايا؟ ألا ترى أنه جو غريب وبسبب غرابته يتطلب منا متابعة دقيقة؟

قال جيورجي: أعرف الكثير عن هذا المكان، فقد عملت فيه منذ زمن طويل.

قال ناجي: ماذا تعرف عنه؟ أخبرني ماذا تعرف عنه حتى نبدأ في البحث والكتابة؟

هز جيورجي رأسه وقال: هل أنت صادق في رغبتك في الكتابة عن هذا النادي؟

ردّ ناجي قائلاً: نعم.

قال جيورجي: ما أعرفه هو أن المادة والقدرة الاقتصادية والمرتبة الاجتماعية تعطي الفرد المكانة الأولى في عصرنا هذا، بدونها الإنسان لا يكاد يستطيع تدبير أمره. لو لا هذه الأشياء التي تغطيه ويحتمي خلفها لضاع في عصرنا المادي هذا، هذه الاشياء الإضافية تتيح للفرد الارتقاء إلى المكانة العالية، فيؤمن أنه أعلى من كائنات الكون كلها، على الرغم من أن ربه خلقه ضعيفاً متوتراً.

ألا ترى ما فعلته قوة الرجل الأبيض بأفريقيا والكاريبي والشرق الأوسط وأميركا اللاتينية وجنوب آسيا وشمالها؟ القوة الاقتصادية جعلتهم طغاة يتلذذون بإذلال شعوب العالم وقهرها. المادة يا صديقي في هذا العصر أصبحت تعني كل شيء وهي التي تحكم حياتنا منذ يوم مولدنا وحتى يوم توارينا في الثرى. لا شيء يهم حتى لو قتل الأب ابنه والابن أباه في سبيل المادة. من الأفضل أن أكفّ عن هذا الكلام حتى لا أجد نفسي واقفاً في المحاكم من دون مال يساعدني على الدفاع عن نفسي.

قال ناجي: لماذا تقول هذا؟

قال : أقول ما أقوله عن معرفة وتجربة.

قال ناجي: إن كانت هناك معلومات أستطيع الاستناد إليها في بحثي، أخبرني ولا تبخل بالمعلوماتَ.

ابتسم جيورجي وقال: هناك معلومات كثيرة وأسرار أعرفها عن هذا الملهى، ولو عرفوا عن ذلك فلربما قتلوني ليتخلصوا من رأسي الذي يحمل أسرار هذا المكان.

قال ناجي: لن يعلم أحد غيري، أخبرني فكلانا نعمل في النادي وما يدور فيه يعنينا، خاصة بعد اختفاء الفتيات الراقصات أو مقتلهن.

قال جيورجي: ألم تسأل نفسك من أين أتى الأستاذ رافائيل بالثروة الكبيرة التي يملكها؟

قال ناجي: قلت لي سابقاً إنه ورث ما يملكه من والده.

قال جيورجي: نعم قلت هذا سابقاً لأني لم أكن أعرفك معرفة جيدة. وبما أني قد تأكدت من أنك ستكتم السر، فسأتحدث بما أعرف. الأستاذ رافائيل لا يعرف التسامح أبداً.

قال ناجي: لكن مظهره الخارجي يدل على غير ذلك؟

قال جيورجي: مظهره الخارجي لا يدل على طبيعته الحقيقية وهذه صفة المجرمين؛ رجال المافيا في إيطاليا مظهرهم الخارجي يدل على الالتزام والمحافظة. الأستاذ من هذا الصنف من الرجال. لقد درس في أفضل المدارس الداخلية البريطانية ثم أكمل دراسته الجامعية في جامعة بريطانية مرموقة؛ عرفت من بعض الناس أنه غش في الامتحان ووالده قدم مبلغاً كبيراً لبناء جناح جديد في الجامعة وساعد في شراء ربع مليون كتاب لمكتبة الجامعة. وكان رد الجميل هو نجاح ابنه.

قال ناجي: وضع كهذا لم يحدث في أيام دراستي لأن المثابرة والاطلاع هي معايير النجاح الحقيقي.

قال جيورجي: في هذا الأيام المادة هي التي تجلب النجاح وقلتها تجلب الفشل. لم أستطع الذهاب إلى المدرسة لأن التعليم في بلدي غال وأسرتي ليس في استطاعتها تسديد المصروفات المقررة، أما رافائيل فيأتيه النجاح عن طريق المادة.

قال ناجي: إذاً رافائيل لم ينجح في امتحاناته بل شراء الكتب للمكتبة هو الذي ساعده؟

قال جيورجي: وهذه حقيقة واحدة أعرفها عنه من بين من حقائق أخرى كثيرة.

قال ناجي: لماذا لا تخبرني عن كل ما تعرفه عن هذا الرجل؟ أرجوك يا جيورجي تكلم وما ستقوله سيكون كالسر المحفوظ، أعدك بذلك.

قال جيورجي: يا سيدي كل الذي في الأمر أن رافائيل تسبب في قتل والده لكي يرثه.

قال ناجي: ماذا قلت؟

قال جيورجي: لقد سمعت ما قلته؛ هو خلف موت أبيه لكي يرثه ولا شيء سواه.

قال ناجي: هل هذا صحيح؟

قال جيورجي: هذه الحقيقة من دون شك.

قال ناجي والدهشة مرتسمة على وجهه: لكن كيف ذلك؟ هل حب المال هو الذي دفعه للجريمة؟

قال جيورجي: ألم أقل إن المادة في عصرنا تدفع لعمل كل شيء حتى القتل كما في هذه القصة.

قال ناجي: لو لم أسمع هذا الكلام منك يا جيورجي لما صدقته، لكن بما أني أثق بكل ما تقوله، صدقته. حقاً إنه وغد وحقير، أين العدالة؟

قال: قتل أباه بسبب رفض الأب التخلي عن أعماله وأمواله كما أراد منه رافائيل. الأب أراد إدارة أعماله كما فعل طوال حياته بمعاونه ابنه، إلا أن الابن رفض ذلك. والد رافائيل كان يملك

فنادق راقية في عواصم العالم ومصانع للحقائب والأحذية وقد رفض التخلي عما بناه خلال سنين طويلة. ابنه رافائيل أراد الاستحواذ على كل الممتلكات حتى قبل موت أبيه، وظن أن وجود الأب على قيد الحياة سيعطله، فتخلص منه.

قال ناجي: وهل كان الأب على علم بما خطط ابنه له؟

قال جيورجي: الله يعلم.

قال ناجي: كيف قتله؟

قال جيورجي: الطريقة التي قتله بواسطتها هي منع الأدوية الضرورية عنه.

قال ناجي: كيف عرفت كل هذا عن الأب وابنه؟ آسف إن كان سؤالي محرجاً.

قال جيورجي: معرفتي بهذه التفاصيل مسألة غريبة ولا يكاد يصدقها الفرد إلا أنها حقيقة. كل ما في الأمر يا أخي هو أنه ذات يوم كنت في مستشفى سنت تومس في قاعة الانتظار أجلس بجانب مجموعة من المرضى وبجانبي جلست سيدة طويلة ضخمة شقراء عرفت من لهجتها أنها ليست إنكليزية الأصل. أخذنا نتداول الحديث في مواضيع عديدة ومن بينها أمراضنا حتى تطرق الحديث لسبب حضورها إلى لندن وعن الأماكن التي عملت فيها. ووصلنا للحديث عن الرجل الذي أتت معه من ألمانيا بصفة ممرضة خاصة، من الوصف والأسماء التي ذكرتها عرفت أن الرجل الذي تتحدث عنه ليس سوى والد رافائيل والابن ليس سوى رافائيل ذاته. أخفيت عنها أمر عملي في النادي ومعرفتي برافائيل خوفاً من أن تتوقف عن الحديث معي عن هذه الحادثة الخطيرة. كانت هي

خائفة من أن ادخلها في مشاكل إن أخبرتني المزيد من التفاصيل عن هذا الحادث المريب. ذكرت أن والد رافائيل كان رجل خير وإحسان ويعاني من مرض السكر المزمن، وفي يوم نقل إلى المستشفى بسبب ارتفاع السكر لكن رافائيل اتفق مع أحد الأطباء على عدم خفض نسبه السكر في دمه بحجة أنه رجل متقدم في العمر، والمستحسن ترك الأقدار تلعب دورها دون محاولة مد حياته عن طريق العلاج والأدوية الكثيرة، وهكذا توفي الرجل مباشرة ونقل جثمانه إلى بلده.

واستولى رافائيل على كل ما خلفه أبوه بسرعة، وهذه الممرضة رأت الوقائع بأم عينها ولم تستطع التدخل خوفاً على حياتها.

قال ناجي: لا أكاد لا أصدق ما أسمعه منك يا جيورجي.

قال جيورجي: هذه هي وقائع قصة رافائيل الخفية الغريبة.

قال ناجي: إنها قصة خطيرة ومثيرة ويجب اتخاذ الحذر من رافائيل وأمثاله. ومن دون شك هناك الكثير مما لا نعرفه عن هذا الرجل وقد لا نعرفه، لكن أؤكد أني سوف أصل إلى لب هذه المسألة وسأصل إلى حقيقة رافائيل بأكملها مهما تطلب مني ذلك.

قال جيورجي: أعرف عن هذه الأحداث منذ زمن طويل ولم أبح بتفاصيلها لأحد.

ناجي وجيورجي واصلا العمل في النادي واختلطا برواده وبالفتيات الراقصات في دوامة الليل المجنونة فيما تعصف بناجي ذكريات أيامه القصيرة مع شنيد، إلا أنه عقد العزم على الإيقاع بقاتلها والثأر منه. الحقد الذي في داخله تجاه رافائيل لن يزول حتى ينتقم منه

بإدخال القانون في لعبته الخفية. في يوم نهض مبكراً وذهب إلى مركز الشرطة القريب من بيته للإدلاء بما يعرفه عن رافائيل وعن مقتل شنيد. أخبرهم عن شكوكه حول رافائيل ودوره في مقتل شنيد.

وبعد تحقيق دام أسبوع، دهمت الشرطة النادي منتصف الليل وأخذت رافائيل وحفنة من الرواد المعروفين لدى الشرطة لسبب أو لآخر. وبدأ التحقيق معهم وأغلق النادي وانتهى عمل ناجي المؤقت فيه، لكن صداقته بجيورجي ظلت كما هي. وجيورجي تمكن من تكوين فرقه موسيقية تعزف في الملاهي واشتهرت شهرة كبيرة وهكذا استغنى عن خدمات الثعبان «هاها» وسلمه للإدارات المختصة بالرفق بالحيوان.

ذات يوم كان ناجي جالساً في مكتبه وبين كتبه وأوراقه التي أصبحت ملاذه وكل ما تبقى له في الدنيا ومن ماض مخلوط بالنجاح والنكسات. تعافى قليلاً من الإدمان على الكحول. رن جرس الهاتف العتيق وتناوله بكسل فسمع صوت فتاة تسأل عنه بلهفة، سألها عن الغرض الذي اتصلت من أجله.

وكانت الدهشة الكبرى حين قالت: أنا كارولاين صديقة شنيد وأود مقابلتك فوراً.

مكالمتها غير متوقعة لكنه ذهب لملاقاتها حسب طلبها في أحد المقاهي في حارة وست بورن غروف. أدهشه مظهرها المتعب ونحافتها الزائدة. جلست أمامه شاردة الذهن وكأنها تحاول إخفاء ما يدور في ذهنها عن شيء يحيرها. وأخيراً نطقت سائلة: هل توصلت الشرطة لمعرفه قاتل شنيد والسبب الذي أدى إلى قتلها؟

فور سماعي بمقتل شنيد، تركت لندن خوفاً على حياتي ولا سيما أننا صديقتان وشريكتان في السكن. رحلت إلى مالطا لمعرفتي ببعض الناس والأصدقاء هناك حتى تهدأ الأمور ويأتي البحث بنتيجة. واليوم وصلت إلى لندن وأسكن في فندق صغير حتى أعثر على مكان آخر أسكن فيه بسعر مناسب لقلة ما لدي من مال. لقد اتصلت بك لتخبرني بآخر التطورات عن قضية شنيد.

قال: منذ يوم الحادث وأنا أبحث عنك يا كارولاين ولكن من دون جدوى، حتى إني ذهبت إلى العمارة والتقيت بالحارس.

قاطعته قائلة: ديريك ذاك الطفيلي وزوجته المتعنتة؟

وواصل ناجي قائلاً: وجدته لا يعرف من أمر اختفائك السريع شيئاً ولم يستطع مساعدتي. ذكر أنه استنتج أن خروجك من المكان ربما عائد لرغبتك في تفادي المشاكل بسبب هذه الجريمة. بالمناسبة، لماذا لا تأتين للإقامة في شقتي بدلاً من هدر المال على سكن الفنادق؟ لدي حجرة منفردة للضيوف.

في بادىء الأمر ترددت إلا أن عرضه كان مغرياً بسبب ما تعانيه من شعور بالغربة وحاجة للمال. قبلت دعوته شاكرة وانتقلت في اليوم ذاته إلى شقته. وظلت لأشهر طويلة من دون عمل وفي تردد وتعاني من كآبه شديدة. كانت في حاجة ماسة لأي عمل لكسب بعض المال وللانخراط في الحياة العامة ونسيان أحداث الماضي الرهيبة. ونجحت في العثور على عمل منسقةً للاجتماعات في إحدى المنظمات السياسية في لندن؛ العمل حفزها على مواصلة دراستها عن طريق الانتساب لكلية ليلية ـ كلية بيرباك المعروفة ـ وانخرطت في دراسة القانون.

بدأت حياتهما تأخذ مجراها الطبيعي وكانا منفصلين لا يربط بينهما شيء خاص سوى أنهما شريكان في السكن. وعدته بالبدء في البحث عن شقة حال جمعها ما يكفي من المال. حياتها تدور حول العمل والدراسة الليلية، أما حياته فسلسلة من الملل والقراءة والشرب. كارولاين لم تناقش ناجي في أموره الشخصية لكنها كانت تتساءل عن سبب عيشه في وحدة وعزلة.

وفي ليلة رأس السنة للعام ألفين، عادت كارولاين من العمل واقترحت عليه الذهاب إلى ميدان الطرف الأغر لمشاهدة الاحتفال والاختلاط بالمحتفلين للفرح والخروج من الملل. رحّب بالفكرة التي تدل على حب كارولاين للحياة وما فيها من إثارة وصخب. في المساء، سارا في اتجاه ميدان الاحتفال وضاعا بين ألوف الأجساد المكتظة التي تبدأ في التجمع منذ أول ساعات المساء وتنتظر السنة الجديدة والترحيب بقدومها. وبدأ الجميع ينتظر قرعات الساعة الحاسمة من ساعة بغ بن الشهيرة. وعند الساعة الثانية عشرة تماماً لم تخذل بغ بن مطلب المنتظرين فبدأت تقرع معلنة رحيل سنة ووصول سنة. واقتربت ألوف الوجوه والأعناق والأجساد بعضها مقبّلة ومهنئة.

وشعرا بحاجة للمشاركة في ما تفعله المجموعة من الذين يدورون من حولهما في سعادة وسلام. اقتربا هو وهي والتصقا وشعرا بحرارة جسديهما ترتفع وبأيديهما تتشابك وبوجهيهما يتلامسان وبأنفاسهما تختلط. ومن قبلة بسيطة زحفت الشفاه حتى التصقت وغابا في قبلة عميقة.

وبهذه القبلة ودّعا العزلة الجسدية التي سيطرت طوال مدة تعارفهما. وسارا شاقين الصفوف المحتشدة وذهبا إلى مطعم في

كوفن غاردن كان يرتاده مع شنيد وتناولا عشاء رأس السنة، ثم عادا إلى البيت ساعات الصباح وهما متلهفان لدخول الطور الجديد من علاقتهما. استعدّا لحياة مشتركة على المدى الطويل إلا أن الأيام قذفتهما في متاهات خطيرة. كارولاين أتاح لها عملها فرصة السفر والاختلاط مع جنسيات عديدة في الأوساط السياسية والثقافية، وصارت نجمة لامعة، ومنحتها الظروف طعماً لم تتذوقه في السابق وعرّفتها بأشخاص يختلفون عن عامة المجتمع من أمثال حارس العمارة بروس وزوجته.

والأهم من هذا، بدأت تقترب عاطفياً من شاب عضو في البرلمان الإنكليزي يدعى هيو بيرنارد وتطورت العلاقة بينهما. وبدأت تتغيب عن البيت لتنعم وتتلذذ معه بالحياة الجديدة التي فتحت لها أبوابها. وأتى يوم لم تستطع فيه كتمان سر العلاقة عن ناجي وخيانتها له. ناجي ظل قابعاً في مكتبه، يقرأ ويسكر، وذلك قلل لهفتها خاصة أنها تطمح في الانطلاق والإثارة. وفاتحته بالحقيقة المرة وقالت إن هناك حباً جديداً في حياتها. بعد كشف الغطاء عن غرامها الجديد لم يعد هناك داع لبقائها معه، فانتقلت إلى مسكن حبيبها الجديد؛ تركته كما فعلت غابريلا سابقاً للقراءة وتعاطي الكحول.

في المساء الذي تركت فيه كارولاين الشقة، وجد نفسه في حالة عصبية وارتباك نفسي خطير. ذهب لشراء الصحف اليومية وعاد إلى البيت وتربع على الأريكة أمام التلفزيون الذي نادراً ما يتطلع على برامجه لقلة الوقت وبسبب انشغاله ومعاناته النفسية والفكرية. وبعد مشاهدة نشرة الأخبار، تصفح مجموعة الصحف التي اشتراها وشعر بالعزلة تحاصره مثل الأخطبوط.

أرعبه الوضع وأخذ قلبه يخفق بسرعة وشعر بقشعريرة تسري في بدنه. وقع نظره على زجاجة النبيذ وكأنه يستنجد لتنقذه من قبضة الخوف والتوتر. تخيل أنه غريق يستنجد بزورق يطفو على سطح بحر. الزجاجة صارت ملاذه الوحيد للهروب من مطاردة الوحدة الشرسة وشبحها القاتم. لم يصل إلى حل لمشكلة الوحدة التي يعاني من قبضتها المستعصية؛ كل الحلول التي جربها سرعان ما انتهت ليجد نفسه يبحث عن علاج جديد. أضمن رفيق في الخلوة هو المحلول المسكر رغم شروره.

وهذا المساء بالذات لا يختلف. قام من دون ممانعة وتناول الزجاجة وفتح غطاءها المعدني الرقيق ليرحل معها إلى مشارف بعيدة ويفقد ذاكرته وإحساسه. سكب كأس وبدأ يتعاطاه من دون تأنٍّ أو انقطاع وأعقبه بكؤوس عديدة. ووصل إلى حد لم يعد يعي صوابه فنقل جسده المرتخي من على الكنبة إلى حجرة النوم ورقد على سريره. خرج عن الوعي وسبح في دوامة لا ضوء داخلها.

استيقظ بعد منتصف الليل بقليل بسبب خفقان شديد في قلبه وتشنج في ذراعه اليسرى. انتابته حالة هلوسة وتخيل أنه أصيب بنوبة قلبية وتداخلت الظنون في خياله حتى صدقها. لم يع ماذا يفعل وهو وحيد في الشقة. وبدأت مخاوفه من النوبة تتزايد مع ازدياد الألم والمعاناة النفسية غير المحتملة التي تضرب في أعماقه. توصل إلى ضرورة التأكد من عدم إصابته بالنوبة قبل أن يفقد صوابه، وتطلب ذلك الذهاب إلى قسم الطوارئ بالمستشفى وعرض حالته على الطبيب المناوب.

وسحب جسده استعداداً لمغادرة الشقة إلى المستشفى. توقف لأنه لا ينوي البوح بمشكلة إدمانه على الكحول حتى لا يقل مقداره

أمام الناس. الأطباء لا يعرفونه شخصياً لكنه سيجد نفسه محرجاً أمامهم. مرض الإدمان يعاني منه العديد من الناس، لذلك من دون شك سيتوصل الأطباء لعلته فور كشفهم عليه. ولم يُردْ تقديم حجة للأطباء لتأنيبه على الإفراط في الشرب وتحذيره من مخاطر الكحول.

وتوصل إلى حل آخر بدلاً من فكرة الذهاب إلى قسم الطوارئ، يمكنه أن يكوي ذراعه بالنار في المكان الذي يشعر فيه بالعناء. وقبل أن يناقش الخطة الخطيرة في ذهنه، سارع إلى تنفيذها. تناول الولاعة بسرعة وأشعلها فاندلع لهبها وانتصب كالرمح المسنون. وجّه النار إلى أعلى ذراعه وشعر بلهب الشعلة يخترق جلده كالصاعقة الحارقة، وفاحت رائحة الجلد المحترق وملأت أنفه. كاد ألم الحرق يقتله وشعر بغثيان وبغمامة سوداء تغطي عينيه؛ شعر بضغط على صدره يكاد يخنقه وامتلأت أمعاؤه بحموضة وصلت إلى حلقه وحرقت بلعومه.

الكي محاولة يائسة منه للتخلص من الألم الحارق واليأس المر داخل جسده وروحه. أراد قوة خارقة تضربه وتقتلع العناء من قاع روحه المتوترة؛ النار هي الملاذ الأخير للمشاكل العويصة.

وقد قال أدونيس:

تحتاج إلى صاعقه تضرب أحشاؤك،

لكي تهبط عميقاً في كينونتك

لكي تعانق وحدتك

فيما يحاصرك صخب العالم،

لكي تبدد الغيوم التي تغطي عقلك وجسدك ـ

الغيوم الآتية مما قبل الآن وتلك التي تفصل بينك وبين المجهول.
«المحيط الأسود أدونيس ـ الساقي ٢٠٠٥».

هذا الألم الشرير يهاجم ناجي كالنمر المفترس ويتسلط عليه مثل زبانية جهنم الحمراء؛ إنه يعربد في أعماقه منذ زمن طويل من دون رادع. ولوَلَ من ألم مبرح أزلي ورمى بالولاعة بعيداً عنه، وبدأت البرودة تتسلل إلى جسده وكأنها صاعقه من جليد ستجمده في مكانه.أخذ يرتعش بقوة مثل قط صغير في مهب الريح والمطر. ثم قام محاولاً النهوض بصعوبة بالغة للذهاب إلى الحمام، فشعر بإعياء مستبد كاد يعجزه عن الحركة ونقل رجليه من مكان لآخر. واصل المشي في الظلام الحالك حتى وصل إلى دورة المياه وأخرج ما في جوفه وتذوق طعماً مثل العلقم. ارتمى على الأرض لفترة وجيزة وجسده يرشح عرقاً ثم حاول الوقوف لكي يعود إلى سريره. حمل جسده المرتعش وعاد إلى غرفة النوم ودخل إلى السرير واندسّ داخل الملايات. غطس في شبه غيبوبة حتى صباح اليوم التالي، عندها اكتشف الذراع المحروقة والرأس المثقل والعينين المرهقتين. كان معلقاً بين الصحو والنوم ومأسوراً داخل سجن من الهموم والمعاناة بعد ليلة متخمة بالسهاد والوحدة.

ورفع رأسه المتعب من على المخدة فشعر بصعوبة بالغة وتكاسل شديد وعقل مشوش. تناول بيد مرتعشة إحدى الجرائد وبدأ يتصفحها، ووجد مقالاً مطولاً عن حياة دافني ودورها كامرأة رائدة في عالم الصحافة البريطانية. من هذا المقال فقط عرف عن وفاتها. وجد اسمه مدرجاً بجانب أسماء عديدة لها علاقة بدافني؛ وجد اسم الموسيقي الأفريقي الشاب سيوم علوان أحمدو. ناجي لم يعرف سابقاً عن علاقة دافني بسيوم. المقال عاد به لذكريات

الماضي وعمله في الصحيفة مع دافني؛ تذكر بمرارة أيام النجاح التي ولّت من دون رجعة.

انتفض محاولاً الهروب من همس الذكريات وأحداثها. وتصفح الجريدة من جديد وتناول علبة السجائر، وبأصابع ترتجف سحب منها سيجارة وأشعلها وأخذ يتذوق في فمه طعم الدخان. لاحظ أن الدخان يتسرب بسلاسة من بين شفتيه ويصعد حراً طليقاً إلى الأعلى وكأن أجنحة خفية ترفعه إلى علو شاهق وعالم خفيّ؛ الدخان من دون وجود وهو ليس مادة ولا كينونة. وتمنى لو كانت حاله كحال الدخان المتطاير مبعثر الأجزاء ويزول من الوجود ويصبح من دون هوية في لمح البصر.

حاول عدم الاستجابة لرغبة ملحة انتابته تمثلت في قراءة الإعلانات الشخصية المنشورة في الصفحات الأخيرة من الجريدة. أخذ يتنقل بين الصفحات السياسية والاقتصادية في محاولة لإقناع نفسه بأن العجلة ليست من سماته. ووصل إلى حيث تراكمت الإعلانات الشخصية، سطورها تعج بالأوصاف المغرية مثل سلع صُفّت على رفوف المتاجر والمحال.

وأخذت عيناه تنظران إليها بطمع وإغراء. إنها سلع منمقة الشكل في علب زاهية الألوان جميلة الرسوم بمعلومات وفيرة. غطس داخل السلع المختلفة التي تتبارى على الصفحة أمامه، وبدأ يسرع في قراءة المعلومات المكتوبة عليها. هذه سلعة تحاول اجتذابه وشد انتباهه في محاولة لمنافسة غيرها. شعر أن الإعلانات ستمكنه من النظر لواقع جديد والهروب من الوحدة المرة. قال في داخله وبصيص من الأمل يتسرب إلى روحه: سأفعل كما يفعل غيري من أصحاب الإعلانات الذين يرّوجون لأنفسهم ويخبئون الحقائق

المرة عن حياتهم مثل عجزهم وفشلهم وخيبتهم؛ يقفون خلف كلمات مختارة بعناية شديدة ودقه فائقة. إنهم يختارون كلمات شاعرية بغرض الوصول للهدف المتمثل في جذب الطرف الآخر وإقناعه بالدخول في اللعبة.

قال محدثاً نفسه: لماذا لا أقوم بكتابة إعلان عن نفسي وأنشره أو أردّ على واحد من الإعلانات المنشورة في الجرائد كما كنت افعل سابقاً؟ لن أتحدث عن معاناتي مع إدمان الكحول الذي دمرني وأوصلني للوضع المزري الحالي، ما المانع في ذلك؟ سأحاول بطريقتي الخاصة ألا أدع صاحبة الإعلان تكشف سري الدفين المتمثل في الإدمان على الكحول. قد تعرف بعد فوات الأوان وتوطيد العلاقة؛ المسلك الملتوي سيمكنني من الدخول إلى غرام جديد وتجنّب العزلة والوحدة.

أحس ببعض النشوة والتفاؤل بسبب توقع الفوز في مخططاته. خططه واضحة وتشير للوصول لحلول سريعة ومجدية. وفجأة انتابه غضب عارم بسبب إعلان معين رآه في الجريدة. تطلع إلى مضمونه باستغراب لأن كلماته تشبه الإعلان الذي تعرّف من خلاله على شنيد.

ارتعش بدنه وقال في داخله: ربما هذا الإعلان من شنيد ذاتها التي ما زالت على قيد الحياة ومختبئة في مكان ما في لندن لسبب أو لآخر. واليوم تخرج من مخبئها تنشد رفيقاً جديداً. رأى الأمر غريباً للغاية وهز رأسه ورمى بالجريدة. سحب سيجارة أخرى وأخذت عيناه تتبعان الدخان يصعد من بين شفتيه ويتبدد دون أثر.

واصل التدخين وشعر بملل. تناول السيجارة ورماها على الأرض

وكأنه بذلك يتخلص من الملل والألم. نهض وهو غير مدرك إلى أين يتجه. توقف لبرهة قصيرة وشعر بحدة الغضب تتزايد. رفع قدمه ودهس الجرائد وما تبقى من أعقاب السيجارة وكأنه يحاول مسخ الاثنين وتحطيمهما. وأخذ يدق بقبضة يده على الحائط ويصرخ بصوت عال ويقول كلاماً غير مفهوم ولا معنى له. تمالك نفسه مدركاً أنه في هلوسة وضياع وأنه خارج دائرة الصواب.

قال في داخله: كيف وصلت إلى هذا الحضيض؟ من دون شك، أصبت بمس من الجنون.

انحنى والتقط زجاجة نبيذ شبه فارغة وأفرغ ما تبقى في قعرها في فمه وجلس على حافة السرير. التقط الصحيفة مرة أخرى وبدأ يبحث عن إعلان كلماته تنسجم مع أحاسيسه المضطربة. على الرغم من الاضطرابات التي يعاني منها، شعر ببعض التفاؤل وواصل البحث. قال في داخله: أخيراً عثرت على الإعلان الذي أبحث عنه في خيالي، هذا إعلان واضحة كلماته وكأنها تدعوه وتشير إليه بالاقتراب منها.

تناول القلم من على المنضدة التي بجانب سريره وبيد مرتعشة بدأ يخطّ سطوراً على أطراف الصحيفة رداً على إعلان معيّن. يريد اصطياد صاحبته المجهولة ويرجو ردها لتنتشله من واقع الصمت المطبق والوحدة المزمنة. بعد خروج كارولاين من حياته، يقبل على قدر لا يد له فيه. واصل كتابة الرسالة ونقل ما كتبه على ورق رسائل نظيف. سجل رقم بريد الإعلان على الظرف وختمه. أحس بارتياح وكأن خيطاً خفياً قد بدأ يربطه بالوجود الذي يعيش فيه؛ الآن يعرف كيفية التعايش مع الكون.

وانتبه إلى وضع كان قد غفلة لزمن طويل؛ إنه ما يدور أسفل نافذة حجرة نومه من حياة وصخب. وشعر أنه ما زال حياً على الرغم من العزلة والوحدة.

قام ببطء واتجه إلى الشباك وفتحه على مصراعيه ليرى علامات الحياة والنشاط. وضع معصمه على حافة الشباك وظهرت له ذراعه المحروقة وجلده المتقيح. تجاهل ذراعه ونظر إلى حركة المارين وقاعة الألبرت المستديرة التي غفل عن وجودها لزمن طويل. تذكر الأعداد الغفيرة التي تأتي مساء إلى القاعة لحضور المناسبات الغنائية والموسيقية والمسرحية.

تذكر الناس ينشدون المرح فاقتنع بارتباطه بالدنيا والتعايش مع الوجود في توازن وسلام. ابتسم كمن يحدث نفسه وشعر بطمأنينة وتفاؤل. أغلق الشباك وارتدى ملابسه وكأنه على موعد لمقابلة مهمة.

تناول الرسالة ونزل يعدو إلى الشارع ليلحق البريد الصباحي. وصل الشارع ومشى وهو يتمتع بالحرية ونسائم الصباح تداعبه وتنعشه. ابتسم ابتسامة تقترب من الضحك وأحس بالتفاعل مع الناس المارين في الشارع؛ إنه جزء لا يتجزأ من دورة الحياة السرمدية.

اقترب من صندوق البريد الحديدي الأحمر ذي الفتحة التي تشبه فم حيوان وديع يطلب الطعام. شعر بأمل وتفاؤل لم يجربه طول حياته. وقف أمام الصندوق ونظر إليه في هدوء وسكينة وكأنه ينتظر من الصندوق الجامد كلمة عن المستقبل الذي يقدم عليه. عندما لم يتكلم الصندوق، دفع بالرسالة داخله من خلال الفتحة ومضى بخطوات سريعة وواثقة إلى اتجاة جديد.

المؤلفة

ولدت في سلطنة عمان.

درست في مدارس المملكة المتحدة وجامعاتها وتوجت دراستها بالحصول على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة ورويك.

كرست وقتها للكتابة الأكاديمية والأدبية والفنون، وشاركت في العديد من المؤتمرات التي عقدت في مدرسة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية وجامعة ليدز، مع اهتمام بالمؤتمرات التي تنظمها الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط. وساهمت بفصل في كتاب حول **العرب في الشتات**، تحرير زاهية اسماعيل صالحي وإيان ريتشارد نيتون، تم نشره في العام ٢٠٠٦. وتمت دعوتها إلى المشاركة في مؤتمر الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط ليدز تموز/يوليو ٢٠٠٨، وموضوعه حول وضع خارطة للشتات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

عضو في المعهد الملكي للدراسات الدولية في جتام هاوس بلندن.

تقوم حالياً بتأسيس متحف للفنون الحديثة في سلطنة عمان.

مؤلفاتها:

أيام في الجنة (رواية)، رياض الريّس للنشر ٢٠٠٥.

صابرة وأصيلة، (رواية)، رياض الريّس للنشر، ٢٠٠٧.

نشرت لها المجلات الأدبية العربية العديد من القصص القصيرة مثل **من المطار** والتي نشرت لاحقاً، ضمن خمسين قصة قصيرة لكتّاب عرب، في **كتاب العربي** العام ٢٠٠٧ ــ ٢٠٠٨.

سنين مبعثرة

غالية ف.ت. آل سعيد

«ورفع رأسه المتعب من على المخدة فشعر بصعوبة بالغة وتكاسل شديد وعقل مشوش. تناول بيد مرتعشة إحدى الجرائد وبدأ يتصفحها، ووجد مقالاً مطولاً عن حياة دافني ودورها كامرأة رائدة في عالم الصحافة البريطانية. من هذا المقال فقط عرف عن وفاتها. وجد اسمه مدرجاً بجانب أسماء عديدة لها علاقة بدافني؛ وجد اسم الموسيقي الأفريقي الشاب سيوم علوان أحمدو. ناجي لم يعرف سابقاً عن علاقة دافني بسيوم. المقال عاد به لذكريات الماضي وعمله في الصحيفة مع دافني، تذكر بمرارة أيام النجاح التي ولّت من دون رجعة.»

(من الرواية)

